

فتح القلم

ديان كأنه تنزيل من التنزيل
أو قبس من نور الذكر الحكيم
حد دطولا

مكتبة

مصطفى صادق الرافعي

مخطوطه وصححه وعلق حواشيه

محمد سعيد العربيان



[حقوق الطبع محفوظة]

مكتبة

[الطبعة الثالثة]

مطبعة آليات إقامة بالإسكندرية

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاشراق الالهى

وفلسفة الإسلام

كما تطلع الشمس بأوارها فتُفجّر ينبوعَ الضوء المسمّى النهار ، يولّد النبيّ فيوجدُ في الإنسانية ينبوعَ النور المسمّى بالدين ؛ وليس الهار إلا يقظة الحياة تحقّق أعمالها ، وليس الدينُ إلا يقظة النفس تحقّق فضائلها .
والشمس خلقها الله حاملةً طابته الإلهي في عملها للمادة تحوّل به وتغيّر ؛ والنبي يرسله الله حاملاً مثل ذلك الطابع في عمله للروح ترقّي فيه وتسمو .
ورعشات الضوء من الشمس هي قصّة الهداية للكون في كلام من السور ، وأشعة الوحي في النبي هي قصّة الهداية لإنسان الكون في نور من الكلام .
والعاملُ الإلهي العظيم يعملُ في نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين : أجرام النور من الشمس والكواكب ، وأجرام العقل من الرسل والأنبياء .
فليس النبيّ إنساناً من العظام يُقرأ تاريخه بالفكر معه التطق ، ومع المنطق الشك ، ثم يُدرّس بكل ذلك على أصول الطبيعة البتريّة العامة ؛ ولكنه إنسانٌ نجّميّ يُقرأ بمثل « التلسكوب » في الدقة ، معه العلم ، ومع العلم الإيمان ثم يُدرّس بكل ذلك على أصول طابته النورانية وحدها .
والحياة تُنشئ علم التاريخ ، ولكن هذه الطريقة في درس الأنبياء صلوات الله عليهم ، تحلّل التاريخ هو يُنشئ علم الحياة ؛ فإما النبيّ إشراق إلهي على الإنسانية ، يُقوّمها في فلكها الأخلاقي ، ويجذبها إلى الكمال في نظام هو بعينه صورة لقانون المجاذيه في الكواكب .

ويجيء النبي فتجىء الحقيقة الإلهية معه في مثل بلاغة الفن البياني، لتكون أقوى أثرًا، وأيسر فهمًا، وأبدع تمثيلًا، وليس عليها خلأف من الحس؛ وهذا هو الأسلوب الذي يجعل إنسانًا واحدًا فنّ الدارس جميعًا، كما تكون البلاغة فنّ لغة بأكملها؛ هو الشخص المفسر إذا تعسف الناس الحياة لا يدرون أين يؤمنون منها، ولا كيف يهدّون فيها، فتضطرب الملايين من البشرية اضطرابها فيما تنقبض عنه وتهالك فيه من أطماع الدنيا؛ ثم يُخلقُ رجلٌ واحد ليكون هو التفسير لما مضى وما يأتي، فتظهر به حقائق الآداب العالية في قالب من الإنسان العامل المرتق، أبلغ مما تظهر في قصة متكلمة مروية.

وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون نفس النبي أبلغ نفوس قومه، حتى لهو في طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها، كأنها الوضع النفساني الدقيق الذي يُنصبُ لتصحيح الوضع المخلوط للبشرية في عالم المادة وتنازع البقاء، وكأن الحقيقة السامية في هذا النبي تُنادى الناس: أن قايلوا على هذا الأصل وصحّوا ما اعتري أنفسكم من غلط الحياة وتحريف الإنسانية.

ومن ثم فبني البشرية كلها من نُبعث بالدين أعمالًا مفضلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها، فهو يُعطى الحياة في كل عصر عفاها العمل الثابت المستقر تُنظّم به أحوال النفس على مَيّزة وبَصيرة، ويدعُ للحياة عقاها العلى المتجدّد المتغير تُنظّم به أحوال الطبيعة على قصْد وهُدًى؛ وهذه هي حقيقة الإسلام في أخص معانيه، لا يُغنى عنه في ذلك دين آخر، ولا يؤدّي تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة، كأنما هو نبع في الأرض لمعان النور، بإزاء الشمس نبع النور في السماء.

وكل ذلك تراه في نفس محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهي في مجموعها أبلغ

الأنفس قاطبة ، لا يمكن أن تعرف الأرض أكل منها ؛ ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة والمتألهين وجعلت في نصيب واحد - ما بلغت أن يحىء منها مثل نفسه صلى الله عليه وسلم ؛ ولكأنما خرجت هذه النفس من صيغة كصيغة الذرة في تحارثها ، أو تركيب كتركيب الماس في منجمه ، أو صفة كصفة الذهب في عرقه ؛ وهى النفس الاجتماعية الكبرى ، من أين تدبرتها رأيها على الإنسانية كالشمس فى الأفق الأعلى تنبسط وتضئ .

وتلك هى الشهادة له صلى الله عليه وسلم بأنه غاتم الأنبياء ، وأن دينه هو دين الإنسانية الأخير ؛ فهذا الدين فى مجموعه إن هو إلا صورة تلك النفس العظيمة فى مجموعها ؛ صلابته بمقدار الحق الإنسانى الثابت ، لا بمقدار الإنسان المتغير الذى يكون عند سبب جبالاً صلباً يشمخ ، وعند سبب آخر ماء عذباً يجرى .

وهو دين يعلو بالقوة ويدعو إليها ، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم ، ويستفرغ همه فى ذلك ، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف ، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى ؛ وفرد ما بين شريعته وشرائع القوة ، أن هذه إنما هى قوة سيادة الطبيعة وتحكمها ، أما هو فتوة سيادة الفضيلة وتعلها ؛ وتلك تعمل للفرق ، وهو يعمل للساواة ؛ وسبادة الطبيعة وعملها للفرق هما أساس الديانة ، وعلبة الفضيلة وعملها للساواة هما أعظم وسائل الحرية .

ومن هنا تار ، طبعها فى الإسلام ما حاده من أنه لافضيلة إلا وهو يطبع عليها صورة الجنة سعيها الحلال ، ولا رذيلة إلا وهو يصع عليها صورة الدار الأبدية وفوردها الناس والحجارة ؛ فلا تنظر العين المدللة إلى أسباب الحياة نظرة الفكر المازع ؛ يحرض على ما يكون له ، ويثرة إلى ما ليس له ، ويمكر الحياة ؛ ويدع وسائل الخداع ، ويزيد بكل ذلك في تعذيب الدنيا ؛ بل نظرة

القلب المسلم : يخلع الدنيا ويسخر بكل مضمون فيها ، فيعفو عن كثير ؛ ويعرف الإنسانية ويطمع في غاياتها العليا ، فيعفو عن كثير ؛ ويذكر أن الحلال وإن حل فوراه حسابه ، وأن الحرام وإن غرّ ليس إلا تعلق ساعة ذاهية ثم من ورائه عقاب الأبد .

ويخرج من ذلك أن يكون أكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل من خشية الله تعالى قانون وجود الإنسان على الأرض ، فمن أي عطفية التفت هذا الإنسان وجد على يمينته ويسرته ملكين من ملائكة الله يكتبان أعماله بخيرها وشرها ، فهو كالمتهم المستراب في سياسة النفس : لا يمشي خطوة إلا بين جاسوسين يحصيان عليه حتى أسباب النية ، ويجمعان منه حتى نزوات الكبد ، ويترجمان عنه حتى معاني النظر .

وإذا قامت هذه المحكمة الملائكية وتقررت في اعتبار النفس ، قام منها على النفس شرع نافذ هو قانون الإرادة المميزة ، تُريد الحسنات وتعمل لها ، وتختفي السيئات وتنفّر منها ؛ فإذا معاني الجسد يحكم بعضها بعضاً ، لا لتحقيق الحكومة والسلطة ، ولكن لنهضة الخير والمصلحة ؛ وإذا نواميس الطبيعة المجبوبة في هذا الحيوان قد نهضت إلى جانبها نواميس الإدارة الحكيمة في الإنسان ، وإذا كل صغيرة وكبيرة في النفس هي من صاحبها مادة نهمة عند قاضها في محكمتها ، وإذا كل مافي الإنسان وما حول الإنسان ، لا يراد منه إلا سلام النفس في عاقبتها ؛ وإذا معنى السلام هو المعنى الغالب المتصرف الإنسانية في دنياها .

وكل أعمال الإسلام ، وأحلاقه وآدابه فذلك هي غايتها . وهذه هي فلسفتها ؛ لا يقرها للإنسانية حسب ، بل يقرها في الوراثة غرساً بالاعتقاد والمران الدائم ، لتكون علماً وعملاً ؛ فتمكن لسلام النفس بين الأسلحة المسددة إليها من

صَرورات الحياة ، في أيدى الاعداء المتألبية عليها من شَهوات الغريزة .
فليس يعمُ السلامُ إلا إذا عمَّ هذا الدينُ بأخلاقه فشَمَلَ الأرضَ أو أكثرها ؛
فإن قانونَ العالم حينئذٍ يُصبحُ منزعاً من طبيعة الترائح ، فإِذَا انفسخَ به قانونُ
التنازعِ الطبيعي ، ولما كَسَرَ من شِرَّتِه ؛ ويُولد المولودُ يومئذٍ وتولَد معه
الأخلاقُ الإنسانية .

• • •

تقريرُ معنى الدوام لكل أعمال النفس حتى مثقالِ الذرة من الخير والشر ،
وضبطُ ذلك رياضةً عمليةً دائمةً مفروضةً على الناس جميعاً - هذا هو أساسُ
العقيدة الإسلامية ؛ ولإصلاحِ الإنسانية بغيره يرُدُّها إلى سبيلِ قَصْدِها ، فإن
من ذلك تكونُ الصفةُ العقلية التي تَغْلِبُ على المجتمع وتُجَانِسُ بين أفرادِه ،
فتوجهُ الإنسانية كلها نحو الممكن من كمالها ، ولا تزال توجَّهها نحو ما هو أعلى ،
وتحمك فاسدَها بصالحها ، وتأخذ عاصيها بمطيعيها ، وتجعل الشرقَ الإنساني
غرضَها الأول ، لأن الله الحقَّ غرضُها الأخير ، فيصبح المرء - وهذا دينُه -
كلما تقدم به العمرُ كَمَلَ فيه اثنان : الإنسانُ ، والشرعية ؛ ولا يعود طالبُ
السعادة النفسية في الدنيا كالمجنون يجرى وراء ظله لِيَمْسِكَه ، فلا يدرك في
الآخر شيئاً غيرَ معرفته أنه كان في عملٍ باطل وسعى ضائع .

والإسلامُ محرص أشدَّ الحرص وأبلغه على تقرير ذلك المعنى الإلهي العظيم ،
لابلتهطى ، ولكن بالعمل ؛ نعم في النفس وعواطفها ، لا في العقلِ وآرائه ؛ ثم
على وجه التعميم ، دون الاستثناء والخصوص ؛ وذلك هو سرُّ مشقَّته على
النفس بما يفرِّضه عليها ؛ فإن فلسفته أن هذه النفس هي أساسُ العالم ، وأن
النظامَ الحقيقى هو أساسُ النفس ، وأن العملَ الدائم هو أساسُ النظام ، وأن
روح العمل الدائم تكون فيما يشقُّ بعصر المشقة ولا يبلغ العُسْر والحرَج ،
كما تكون فيما يسهلُ بعض السهولة ، ولا يبلغ الكَسَل والإهمال .

والنفس وجهان : ما تُعْلِنُ ، وما تُسِرُّ ؛ ولا صدق لإعلانها حتى يصدق ضميرُها ، ولا صلاحَ لِجَهرِها حتى يصلحَ السرُّ فيها ، ولا يكون الإنسان الاجتماعى فاضلاً بمشاهدته حتى يكونَ كذلك بغيه .

وللعالم كذلك وجهان : حاضرُه الذى يمر فيه ، وآتية الذى يمتدُّ له ؛ ولا يُفْلِحُ حاضرٌ منقطعٌ لا يُورَثُ ما بعده كما ورث ما قبله ، وما حاضرُ الإنسانية إلا جزء من عمل الناس فى استمرار فضائلهم ناقيةً نامية .

وللنظام أيضا وجهان : نظامُ الرغبة على الطاعة والاطمئنان لها ، ونظامُ الرغبة على الخشية والنفرة منها ؛ ولا يستقيم شأنُ أساسه الطاعة فى النفس ، ولا يستمر نظامٌ عليه خلافٌ من فكر العامل به .

وللعمل الدائم طريقتان : إحداهما طريقةُ الجادِّ يعمل للعاقبة يستيقنُها ، فلا يحْدُ ما يشقُّ عليه إلا لذةَ المغالبة للنصر : كلُّ مرارة من قبله هى حلاوة فيه من بعد ، ولا يعرف لليحة يُبتلى بها إلا معناها الحقيقى وهو إيقاظُ نفسه ، فيصبحُ الصبرُ عنده كصبرِ المحب على أشياء من يحبه ؛ صبرٌ فيه من السحر ما يكسو الحرمانَ فى بعض الأحيان خيالَ الاستمتاع ، ويُذيقُ النفس فى العجز عن بعض أغراضها لذةً كلذة إدراكه .

تلك هى فلسفةُ الإسلام ؛ لا قِوامَ للأمر فيها ولا مِسَاكَ له إلا بتقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس ، ووصح طابعِ الجنة على أعمالِ الجنة ، وطابعِ النار على أعمالِ النار - وحياطة كل فرد من الناس حياطة رياضية عملية بين الساعة والساعة ، بل بين الدقيقة والدقيقة ، بما يكلف من أعمال جسمه وحواسه ، ثم أعمالِ قلبه ونَبِيَّتِهِ - وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية ، فلا يحاول كل إنسان أن يحملَ بطنه فى حجم مملكة أو مدينة أو قرية ، بما يلتقيصُ من

حقوق غيره ، بل تسع ذاتية كل فرد بما يجب له على المجتمع من الواجبات الإنسانية ؛ وبهذا لا يغيره تعين مقاييس الأخلاق في الأرض : بالمصلحة لا باللذة ، فلا يقع الخطأ ولا التزوير ، وتتحل المشكلة الاجتماعية ما دامت الحياة لا تجد من أهلها كل ساعة عقداً فيها .

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحده الطريقة لإنشاء طبيعة الخير في الناس على نَسَبِها الطبيعي ، كما أنه هو وحده الطريقة لتطهير التاريخ الإنسانى من أوبائه الاقتصادية التى جعلته كأما هو تاريخ الأسنان والأضرار وتركزت الناس يهدم بعضهم بعضاً ، كما يهدم الجار حائط جاره ليوسّع بيته ! وأساس العمل فى الإسلام وإخضاع الحياة للعقيدة ، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة ؛ فيكون الفقير مُعْذِماً ويتعفف ، ويكون الغنى مُوسِراً ويتصدق ، ويكون الشرير طامعاً ويُنْصَح ، ويكون القوى قادراً ويُصَحِّم ؛ وكما قال العربُ فى تحقيق ناموس الأنفة والحية وعلية على الناموس الاقتصادى « تجوعُ الحُرّةُ ولا تأكل بشديها » .

* * *

تريد الإنسانية أمتداداً غير أمدادها التجارىّ فى الأرض ، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانها غير الحيوان الذى فيه ؛ وإذا قاد الغرابُ قوماً فإنما هو - كما قال شاعرا - يثرهم على جيف الكلاب ... والإنسانية اليوم فى مثل لبل حوشى مظلم اختلط بعضه فى بعض ، وليست معانى الإسلام إلا الإشراق الإلهى على هذه الكثافة المادية المتركة ، وإذا رُفِع المصباحُ لم يجد الظلام إلا وراء الحدود التى تنتهى إليها أشعته .

وقد علّنا من طبيعة النفس أن إنسانية الفرد لا تعظم وتسمو وتخيّل وتفرحُ فرحها الصادق وتحزنُ حزنها السامى - إلا أن تديش فى محبوب ؛

فإنسانية العالم لا تكونُ مثلَ ذلك إلا إذا عاشت في نبيها الطبيعي ، نبي أخلاقها الصحيحة وآدابها العالية ونظامها الدقيق ؛ وأين تجد هذا المحبوب الأعظم إلا في محمد ودين محمد ؟

وعجيبٌ أن يجهلَ المسلمون حكمةَ ذكر النبي العظيم خمسَ مرات في الأذان كل يوم يُنادى باسمه الشريف ملءَ الجو ؛ ثم حكمةَ ذكره في كل صلاة من الفريضة والسنة والناظلة ، يُهمس باسمه الكريم ملءَ النفس ؛ وهل الحكمة من ذلك إلا الفرصُ عليهم ألا ينقطعوا من نبيهم ولا يوماً واحداً من التاريخ ، ولا جزءاً واحداً من اليوم ؛ فيمتدُّ الزمنُ مهما أمتدَّ والإسلامُ كأنه على أوله ؛ وكأنه في يومه لا في دهرٍ بعيد ؛ والمسلمُ كأنه مع نبيه بين يديه ، تبعته روحُ الرسالة ، ويسطع في نفسه إشراقُ النبوة ، فيكون دائماً في أمره كالسلم الأول الذي غيرَ وجهَ الأرض ؛ ويظهر هذا المسلم الأولُ بأخلاقه وفضائله وحميته في كل بقعة من الدنيا مكانَ إنسانٍ هذه البقعة ، لا كما نرى اليوم ؛ فإن كلَّ أرضٍ إسلامية يكادُ لا يظهر فيها إلا إنسانها التاريخيُّ مجهله وخرافاته وما ورت من القَدَم ؛ فيها المسلم الفرعوني ، وفي ناحية المسلم الوابي ، وفي بلد المسلم المجوسي ، وفي جهة المسلم المعطل .. وما يُريدُ الإسلامُ إلا نفسَ المسلم الإنسان .

أيها المسلم !

لا تنقطع من نبيك العظيم ، وعش فيه أبداً ، وأحله مثلَكَ الأعلى ؛ وحين تذكره في كل وقت فكأنك بين يديه ؛ كن دائماً كالسلم الأول ؛ كن دائماً ابنَ المعجزة !

(*) حقيقة المسلم

لا يعرف التاريخ غيرَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم رجلاً أفرغَ الله وجوده في الوجود الإنسانيَّ كله ؛ كما تنصبُّ المادةُ في المادة ، لتتجزَّ بها ، فتحوَّلها ، فتحدثَ منها الجديد ؛ فإذا الإنسانيةُ تتحوَّل به وتنمو ، وإذا هو صلى الله عليه وسلم وجودٌ سارٍ فيها فما ترح هذه الإنسانيةُ تنمو به وتتحوَّل .

كان المعنى الأدنى في هذه الإنسانية كأنما وهَنَ من طول البهر عليه ، يتحيَّفه ويمحوه ويتعاوَرُهُ بالشرِّ والمنكر ؛ فابتعثَ الله تاريخَ العقلِ بآدمَ جديدٍ بدأت به الدنيا في تطوُّرها الأعلى من حيث يُرفع الإنسانُ على ذاته ، كما بدأت من حيث يُوجد الإنسانُ في ذاته ؛ فكانت الإنسانيةُ دهرَها بين اثنين : أحدهما قَنَحَ لها طريقَ المحي من الجنة ، والثاني قَنَحَ لها طريقَ العودة إليها : كان في آدمَ سرُّ وحوِّد الإنسانية ، وكان في محمدٍ سرُّ كالها .

* * *

ولهذا سُمِّيَ الدينُ بالإسلام ؛ لأنه إسلامُ النفسِ إلى واجبها ، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية ؛ كأن المسلم ينكرُ ذاته فيُسَلِّها إلى الإنسانية تُصَرِّفها وتُعَمِّلها في كالها ومعالها ؛ فلا حظُّ هو له من نفسه يمسكها على شهواته ومنافعها ، ولكنَّ للإنسانية بها الحظ .

وما الإسلامُ في جلته إلا هذا المبدأ : مبدأ إنكار الذات و (إسلامُها) طائعةً على المنشِطِ والمنكَّرِ لغروصها وواجباتها ، وكلما نكصت إلى منزِعها الحيواني ، أسلبها صاحبها إلى وازِعها الإلهي ؛ وهو أبدأ يروِّضها على هذه الحركة

(٥) كتبها جماعة الكشاف المسلم في بيروت ، في ذكرى المولد النبوي . وانظر دَقرة جام ، وعود على بدء ، من كتابنا « حياة الرافعي » .

مادام حيا ؛ فينتزعها كل يوم من أوهاام دنياها ، ليضعها ما بين يدي حقيقتها الإلهية ؛ يروضها على ذلك كل يوم وليلة خمس مرات مُسبِّة في اللغة خمس صلوات ، لا يكون الإسلام إسلاما بغيرها ؛ فلا غرو كانت الصلاة بهذا المعنى كما وصفها النبي صلى الله عليه وسلم : هي عماد الدين .



بين ساعات وساعات في كل مطلع شمس من حياة المسلم صلاة ، أي إسلام النفس إلى الإرادة الاجتماعية الشاملة^(١) القائمة على الطاعة للفرع الألهي ، وإنكارُ لمعانها الذاتية الفانية التي هي مادة الشر في الأرض ، وإقرارها لحظات في حيز الخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكراتها ؛ ومعنى ذلك كله تحقيق المسلم لوجود روحه ؛ إذ كانت أعمال الدنيا في جبلتها طُرُقًا تنشئت فيها الأرواح وتبعثر ، حتى تضل روح الأخ عن روح أخيه فتسكرها ولا تعرفها !

وهذا الوجود الروحي هو مبعث الحالة العقلية التي جاء الإسلام ليندئ الإنسانية إليها ؛ حالة السلام الروحاني الذي يحمل حرب الدنيا المهلكة حربا في خارج النفس لافي داخلها ، ويحمل روعة الإنسان مُقدَّرة بما يعامل الله والانسانية عليه ؛ فلا يكون ذهنه وفَضَّته ما كبت عليه الدول : « طُرب في مملكة كذا » ، ولكس ما يراه هو قد كُتب عليه : « صُنِعَ في مملكة نفسي » ؛ ومن ثم لا يكون وجوده الاجتماعي للأخذ حسب ، بل للعطاء أينما ؛ وإن قانون المال هو الجمع ، أما قانون العمل فهو البذل .

بالانصراف إلى الصلاة وجمع النية عليها ، يستشعر المسلم أنه قد حطم

(١) هذه هي حكمة صلاة الجماعة والحث عليها وكونها أفضل من غيرها وأن الثواب الأكبر فيها وحدها .

الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان، وخَرَجَ منها إلى روحانية لا يتحدُّ فيها إلا بالله وحده .

وبالقيام في الصلاة ، يَحَقِّقُ المسلمُ لذاته معنى إفراغِ الفكرِ السامى على الجسم كله ، ليمتزجَ بجلال الكونِ ووقاره ، كأنه كائنٌ مُتَّصِبٌ مع الكائنات يسبحُ بحمده .

وبالتوَلَّى شَطْرَ الْقِبْلَةِ في سُبُحَتِهَا الذي لا يتغيَّرُ على اختلاف أوضاع الأرض ، يَعْرِفُ المسلمُ حقيقة الرمزِ للبركزِ الثابت في روحانية الحياة ؛ فيحملُ قلبه معنى الاطمئنانِ والاستقرار على جاذبيَّة الدنيا وقَلْبِهَا .

وبالركوع والسجود بين يَدَيِ الله ، يُشْعِرُ المسلمُ نفسه معنى السُّمُوِّ والرفعةِ على كل ما عدا الخالق من وجود الكون .

وبالجلسة في الصلاة وقراءة التحيَّات الطيبات ، يكونُ المسلمُ جالساً فوق الدنيا يحمَدُ اللهَ ويُسَلِّمُ على نبيِّه وملائكته ويشهَدُ ويدعو .

وبالتسليم الذي يخرجُ به من الصلاة ، يُقْبِلُ المسلمُ على الدنيا وأهلها إقبالاً جديداً من جهتي السلام والرحمة .

هي لحظاتٌ من الحياة كلَّ يوم في غير أشياء هذه الدنيا ؛ لجمع الشهوات وتقييدها بين وقتٍ وآخرَ بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة ، ولتمزيقِ الفناء خمسَ مرَّاتٍ كلَّ يوم عن النفس ؛ فيرى المسلمُ من ورائه حقيقة الخلود ، فتشعرُ الروحُ أنها تنمو وتتسع .

هي خمسُ صلوات ، وهي كذلك خمسُ مرَّاتٍ يَفْرُغُ فيها القلبُ بما امتلأ به من الدنيا ، فما أدقُّ وأبدعُ وأصدقُ قوله صلى الله عليه وسلم : « جِئْتُ قَرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ ، ^(١) .

• • •

(١) كان محمد صلى الله عليه وسلم يستبطن الصلاة وقد جاء وقتها ، من شدة =

لم يكن الإسلامُ في حقيقته إلا إبداعاً للصِّغَةِ العمليَّةِ التي تتنظمُ الإنسانيةُ فيها ؛ ولهذا كانت آدابه كلها حراً أساساً على القلبِ المؤمنِ ، كأنها ملائكةٌ من المعاني ؛ وكان الإسلامُ بها عملاً إصلاحياً وقَعَ به التطوُّرُ في عالمِ الغربةِ ، فنَقَلَ إلى عالمِ الخلقِ ، ثم ارتقى بالخلقِ إلى الحقِّ ، ثم سَما بالحقِّ إلى الخيرِ العامِ ؛ فهو سموٌّ فوق الحياةِ بثلاثِ طبقاتٍ ، وتدرُّجٌ إلى الكمالِ في ثلاثِ منازلٍ ، وابتعادٌ عن الأوهامِ بمسافةٍ ثلاثٍ حقائق .

وبذلك الأعمالُ والآدابُ كانت الدنيا المُسَلَّةُ التي أسَّسها النبي صلى الله عليه وسلم ، دنيا أَسَلَتْ طبيعتها ، فأصبحت على ما أراد المسلمون لا ما أرادت هي ؛ وكأنها قائمة بنو أميس من أهلها ، لا على أهلها ؛ وكان الظاهرُ أن الإسلامَ يغزو الأممَ بالعربِ ويفتَحُها ، ولكنَّ الحقيقةَ العجيبةَ أن إقليماً من الدنيا كان يحاربُ سائرَ أقاليمِ الأرضِ بالطبيعةِ الأخلاقيةِ الجديدةِ لهذا الدين . وكأنَّ الله تعالى ألقى في رمالِ الجزيرةِ روحَ البحرِ ، وبعثها بعثته الإلهيَّ لأمره فكان النبي صلى الله عليه وسلم هو نقطةَ المدِّ التي يفورُ البحرُ منها ، وكان المسلمون أمواجه التي غُسلَتْ بها الدنيا ...

لهذا سمع المسلمون الأولون كلامَ الله تعالى في كتابه ، وكلامَ رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا كما يسمعون القولَ ، ولكن كما يتلقون الحكمَ النافذَ المقضيَّ ولم يحدوا فيه البلاغةَ وحدها ، بل رَوْعَةً أمر السَّلماءِ في بلاغةٍ ؛ واتصلوا بنبيهم ، ثم بعضهم ببعض ، لا كما يتصل إنسانٌ بإنسانٍ ، بل كما تتصل الأمواجُ بقوةِ المدِّ ، ثم كما يُمدُّ بعضها بعضاً في قوةٍ واحدةٍ .

وحَقَّقُوا في كماله صلى الله عليه وسلم وجودَهم النفسيَّ ؛ فكانوا من زخارفِ

== شوقه إليها ، يقول : « أرحتُها يا بلال ! » ، ولا أنصح ولا أدق في تصويرِ نفسيته صلى الله عليه وسلم وأشواقِ روحه العاليةِ من قوله : « أرحتُها » ؛ فهذا كمالُ الاتصالِ بينه وبين عالقه .

الحياة وباطليها في موضع الحقيقة الذي يرى فيه الشيء لاشئ .
ورأوا في إرادته صلى الله عليه وسلم النقطة الثابتة فيما يتصارب من
خيالات النفس ؛ فكانوا أكبر علماء الأخلاق على الأرض ، لا من كتب
ولا علم ولا فلسفة ، بل من قلب نبيهم وحده .

وعرفوا به (صلى الله عليه وسلم) تمام الرجولة ؛ ومتى تمت هذه الرجولة
تمامها في إنسان ، رجعت له الطفولة في رُوحه ، وأمتلك تلك الطبيعة التي
لا يملكها إلا أعظم الفلاسفة والحكماء ، فأصبح كأنما يمشي في الحياة إلى الجنة
بخطوات مُسَدَّدةٍ لَا تَزِيغُ ولا تنحرف ، فلا شر ولا رذيلة ، ودينه هي الدنيا
كلها بشميسها وقمرها ، يملكها وإن لم يملك منها شيئاً ما دامت في قلبه طبيعة
السرور ، فلا فقر ولا غنى مما يشعر الناس بمعانيه ، بل كل ما أمكن فهو غنى
كامل ، إذا لم تعد القوة في المادة ، زيد زيادتها وتقص نقصها ، بل القوة في
الروح التي تنصرف بطبيعة الوجود ، وتدفع قوى الجسم بمثل دوافع الطفولة
السامية المنغلبة ، حتى لجعل من النور والهواء ما يؤتدّم به مع الخبز القفار ،
كما يؤتدّم باللحم وأطياب الأطعمة ^(١) .

وبذلك لاتسلط ضرورة على الجسم - كالجوع والفقر والالم ونحوها -
إلا كان تسلطها كأنه أمر من قوة في الوجود إلى قوة في هذا الجسم : أن
تظهر لتعمل عملها المستجّر في أبطال هذه الضرورة ؛ وهذا الجنس من الناس
كالأزهار على أغصانها الخضراء : لو قالت شيئاً لقالت : إن ثروتي في الحياة هي

(١) عن ابن عباس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على
(أم هانئ) وكان جاثماً ، فقال لها : أعتدك طعام آكله ؟ ، فقالت : إن هندی
لكسراً يا بسة ، وإنى لأستحي أن أقدمها إليك ، قال : هلبها ، فكسر ما في ماء
وجلة بلع ، قال : دمان إدام ؟ ، قالت : ما عندی إلا شيء من خل ، قال :
هلبها ، فلما جلست به صبه على طماحه فأكل منه ، ثم حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
د نعم الإدام الخلل يا أم هانئ ، لا يقضيت فيه خل ، أم .

الحياة نفسها ، فليس لي فقرٌ ولا غنى ، بل طبيعةٌ أو لا طبيعة .

ولقد كان المسلم يُضرب بالسيف في سبيل الله ، فتقع ضرباتُ السيوف على جسمه فتمزقه ؛ فما يحسها إلا كأنها قبلُ أصدقاء من الملائكة يلقونه ويمانقونه !

وكان يُبتلى في نفسه وماله ، فلا يشعر في ذلك أنه المرزأُ المُبتلى يُعرف فيه الحزنُ والانتكسار ، بل تظهر فيه الإنسانية المنتصرة كما يظهر التاريخ الظافر في بطله العظيم أُصيب في كل موضع من جسمه بجراح ، فهي جراح وتشويهٌ وألم ، وهي شهادة النصر !

ولم تكن أفعالُ المسلم من دنياه أفعالاً على نفسه ، بل كانت له أسباب قوة وسمو ؛ كالنسر الخلق لطبقات الجوق العليا ، يحمل دائماً من أجل هذه الطبقات ثقلَ جناحيه العظيمين .

وكانت الحقيقة التي جعلها النبي صلى الله عليه وسلم مثلهم الأعلى ، وأقرها في أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله - أن الفضائل كلها واجبةٌ على كل مسلم لنفسه ، إذ أنها واجبةٌ بكل مسلم على غيره ؛ فلا تكون في الأمة إلا إرادةٌ واحدة متعاونة تجعلُ المسلم وما هو إلا روحُ أُمته تعمل به أعمالها هي لأعماله وحدها .

المسلم إنسانٌ ممتدٌ بمنافعه في معناه الاجتماعيِّ حولَ أُمته كلها ، لا إنسان ضيقٌ يجتمعُ حول نفسه بهذه المنافع ؛ وهو من غيره في صدقِ المعاملة الاجتماعية كالتاجر من التاجر : تقول الأمانة لكلهما : لا قيمةَ لميزانك إلا أن يُصدَّقه ميزان أخيك .

ولن يكونَ الإسلامُ صحيحاً تماماً حتى يجعل حامله مثلاً من نبيه في أخلاق

الله ؛ فسا هو بشخص يضبط طبيعته : يقهرها مرة وتقهره مرارا ؛ ولكن طبيعة تضبط شخصها فهي قانون وجوده .

لا يضطرب من شيء ، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار ؟

لا يخاف من شيء ، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة ؟

لا يخشى مخلوقا ، وكيف يخشى ومعه الله ؟

أيها الأسد ، هل أنت محمלתك إلا في طبيعة تخالك وأنيابك ... ؟

وحي الهجرة (*)

إن التاريخ ليتكلم بلغة أوسع من ألفاظه إذا قرأه من يقرؤه على أنه بعض نواميس الوجود صوّرت فيها النفس الإنسانية كيف اعتوّرت أغراضها ، وكيف مدت في نسيها ، وكيف تعلّلت في مسالكها ، وما تأتى لها فجّرت به مجراها ، وما دفعها فالتحدرت منه إلى مقارها ؛ فهو ليس بكلام تستقبله تقرأ فيه ، ولكنه أجوال من الوجود تعترضها فتعير عليك حسك بالهامها وأحلامها ، وتتناولها من ناحية فتتناولك من الأخرى ؛ فإذا الكلمة من ورائها معنى ، من ورائها طبيعة ، من ورائها سبب وحكمة ؛ وإذا كل حادثة فيها إنسانيتها وإلهيتها معاً ، وإذا الوجود في ذهنك كالساعة ترسم لك حدّ الثانية بخطرتين ، وحدّ الدقيقة من عدد محدود من الثواني ؛ ثم حدّ الساعة إلى حدّ اليوم ، وإذا البيان في نفسك من كل هذه الحواشي ، وإذا التاريخ فيما يقرؤه مقنن في ظاهره وباطنه ، يبنى عليك من ألفاظه ومعانيه بظلال هي صلتك أنت أيها الخي

(٥) أولى مقالاته في الرسالة : أنسأها للعدد السنوي الخاص بالحجرة وانظر ص ٢١٦ و ٢٣٢ « حياة الرافعي »

الموجود بأسرار ما كان موجوداً من قبل .

كذلك قرأت بالأمس تاريخ الهجرة النبوية في كتاب أبي جعفر الطبري لا كتب عنه هذه الكلمة ، فلم أكن - علم الله - في كتاب ولا في حكاية : بل في عالم انبثق في نفس مخلوقاً تاماً بأهله ، وحوادث أهله ، وأسرار أهله جميعاً ؛ كما يرى المحب حبيبه : لا يكون الخيل في محل إلا امتلاء مكانه بما شقه ، فهو مكان من النفس والدنيا ، لأم الدنيا وحدها ؛ وفي الحياة كما هي في الوجود بمظهر المادة ، وكما هي في الحب بمظهر الروح .

وتلك حالة من القراءة بالروح والكتابة بالروح ، متى أنت سموت إليها رأيت فيها غير المعنى يُخرج معنى ، ومن لا شيء تُخلق أشياء ، لأنك منها اتصلت بأسرار نفسك ، ومن نفسك اتصلت بأسرار فوقها : فيصبح التاريخ معك فن الوجود الإنساني على الوجه الذي أفنت به الحكمة إلى الحياة لتستمر بالنفس الإنسانية ، لأن علم الناس على الوجه الذي أفنت به الحوادث بما بين الحياة والموت .

* * *

نشأ النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ، واستأنى على رأس الأربعين من سنه ، وغبر ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فلم يكن في الإسلام أول بذاته إلا رجل وامرأة و غلام ، أما الرجل : فهو هو صلى الله عليه وسلم ، وأما المرأة : فزوجه خديجة ، وأما الغلام : فعلى ابن عمه أبي طالب . ثم كان أول المؤمنين في الإسلام نحر وعبد ، أما الحر : فأبو بكر ، وأما العبد : فيلال ، ثم اتسق المؤمنون فيللاً بطء المهوم في سبها ، وصبر الحر في تجلده ، وكان التاريخ واقعاً لا يزحزح ، ضيق لا يتسع ، جامد لا ينمو ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أخو الشمس : يطلع كلاهما وحده كل يوم . حتى إذا كانت

الهجرة من بعد فانتقل الرسول إلى المدينة ، بدأت الدنيا تتقلقل ، كأنما مرّ
بقدمه على مركزها فحركها ؛ وكانت خطواته في هجرته تخط في الأرض ،
ومعانيها تخط في التاريخ ؛ وكانت المسافة بين مكة والمدينة ، ومعناها بين
المشرق والمغرب .

لقد كان في مكة يُعرض الإسلام على العرب كما يُعرض الذهب على
المتوحشين : يرونه بريقاً وشُعاعاً ثم لا قيمة له ، وما بهم حاجة إليه ، وهو
حاجة بني آدم إلا الموحشين ؛ وكانوا في المحادة والمخالفة الحقاء ، والبلوغ
بدعونه مبلغ الآواهم والأساطير — كما يكون المريض بذات صدره مع
الذي يدعوه في ليلته قارة إلى مداواة جسمه بأشعة الكواكب ؛ وكانت مكة
هذه صخرًا جغرافيًا يتحطم ولا يلين ، وكأن الشيطان نفسه وضع هذا
الصخر في مجرى الزمن ليصد به التاريخ الإسلامي عن الدنيا وأهلها .

وأودى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذب وأهين ، ورجف به
الوادى يخطو فيه على رلازل تنقلب ، ونابذه قومه ونداموا فيه ، وحض
بعضهم بعضا عليه ، وانصق عنه عامة الناس وتركوه إلا من حفظ الله منهم ؛
فأصيب كبيراً باليأس من قومه ، كما أصيب صغيراً باليأس من أمومه .

وكان لا يسمع بقادم بقدم من العرب له اسمٌ وشرف ، إلا تصدى له ندعاه
إلى الله وعرض نفسه عليه ؛ ومع ذلك بقيت الدعوة تلوح وتختفي ، كما يشق
البرق من سحابة على السماء : ليس إلا أن يرى ثم لا شيء بعد أن يرى !

* * *

فهذا تاريخ ما قبل الهجرة في جملة معناه ، غير أنى لم أقرأه تاريخاً ، بل
قرأت فيه فصلاً رائعاً من حكمة إلهية ، وضعه الله كالمقدمة لتاريخ الإسلام
في الأرض ، مقدمة من الحوادث والأيام تحيا وتمر في نسق الرواية الإلهية

المنطوية على رموزها وأسرارها ، وتظهر فيها رحمة الله تعمل بقسوة ،
وحكمة الله تتجلى في غموض ؛ فلو أنت حققتَ النظرَ رأيتَ تاريخَ الإسلام
يتأله في هذه الحفبة ، بحيث لا تقرأه النفس المؤمنة إلا خاشعة كأنها تصلى ،
ولا تدبره إلا خاضعة كأنها تتعبد .

بدأ الإسلام في رجلٍ وامرأة و غلام ، ثم زاد حراً وعبدًا ؛ أليست
هذه المحس هي كل أطوار البشرية في وجودها ، مخلوقة في الإنسانية والطبيعة ،
ومصنوعة في السياسة والاجتماع ؟ فهأنا مطلع القصيدة ، وأول الرمز
في شعر التاريخ .

ولست النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة لا يغيه قومه إلا شرا ،
على أنه دائم يطلب ثم لا يجد ، ويُعرض ثم لا يقبل منه ، ويُخفق ثم لا يعتربه
اليأس ، ويُفهد ثم لا يتحوته الملل ، ويستمر ماضياً لا يتحرف ، ومعتزماً
لا يتحول ؛ أليست هذه هي أسى معاني الترية الإنسانية أظهرها الله كلها
في نبيه ، فعمل بها ونبت عليها ، وكانت ثلاث عشرة سنة في هذا المعنى
كممر طفلي ولدت ونشأ وأحكم تربيته بالحوادث ، حتى تسلمته الرجولة الكاملة
بمعانها من الطفولة الكاملة بوسائلها ؟

أفليس هذا فضلاً فلسفياً دقيقاً يعلم المسلمين كيف يجب أن يلبس المسلم :
غناؤه في قلبه ، وقوته في إيمانه ، وموضعه في الحياة موضع النافع قبل المنفع ،
والصالح قبل المقلد ؛ وفي نفسه من قوة الحياة ما يموت به في هذه النفس
أكثر ما في الأرض والانس من شهوات ومطامع ؟

ثم أليست تلك العوامل الأخلاقية هي هي إلى ألفت في منبع التاريخ
الإسلامي ليحب منها تياره فتدفقه في محراء بين الأمم ، وتعمل من أخص
الخصائص الإسلامية في هذه الدنيا - الثبات على الخطوة المتقدمة وإن لم تتقدم ،

وعلى الحق وإن لم يتحقق ؛ والتبرؤ من الأثرة وإن شجعت عليها النفس ، واحتقار الضعف وإن حَكَمَ وتسلط ، ومقاومة الباطل وإن ساد وغلب ، وحمل الناس على تحيُّز الخير وإن ردُّوا بالشر ، والعمل للعمل وإن لم يأت بشيء ، والواجب للواجب وإن لم يكن فيه كبير فائدة ، وبقاء الرجل رجلاً وإن حطَّه كلُّ ماحوله ؟

ثم هي هي البرهانات القائمة للدهر قيام المنارات في الساحل — على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم : ثبت برهان الفلسفة وعلوم النفس أنه روحٌ وغاياتها المحتومة بالقدر ، لاجسَمٌ ووسائله المتغلبة بالطبيعة ؛ ولو كان رجلاً ابتغته نفسه لتمحلَّ الحيل سياسته ، ولأحدث طمعاً من كل مَطْمَع ، ولركَّذ مع الحوادث وهب ، ولما استمر طوال هذه المدة لابتجه وهو فردٌ إلا اتجاه الإنسانية كلها كما هو هي .

ولو هو كان رجلَ الملك أو رجلَ السياسة ، لاستقام والتوى ، ولأدرك ما يبتغي في سنوات قليلة ، ولأوجد الحوادث يتعلق عليها ، ولما أفلت ما كان موجوداً منه يتعلق به ، ولما انتزع نفسه من محله في قومه وكان واسطةً فيهم ، ولا ترك عوامل الزمن تُعجِّده وهي كانت تُدنيه .

قالوا : إن عمه أما طالب بحث إليه حين كلبته قُريس فقال له : يا ابن أخي ، إن هومَكَ قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، فأبقي على وعلى نفسك ولا تُحملي من الأمر ما لا أطيق . فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداءة ^(١) وأنه خاذله ومُسْلِيه ، وأنه قد ضَمَفَ عن نصرة والقيام معه ، فقال : يا عمَّاه ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ماتركته . ثم استعبر صلى الله عليه وسلم فيكي !

(١) أى لسا له رأى جديد فيه ، وهذا كما يقولون رجع عن رأيه .

يادموع النبوة ! لقد أثبت أن النفس العظيمة لن تتعزى عن شئ منها بشئ من غيرها ، كائناً ما كان ، لامن ذهب الأرض وفضيها ، ولا من ذهب السماء وفضيها إذا وضعت الشمس في يد والقمر في الأخرى .

وكل حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليل ذلك الزمن على أنه زمن نبي ، لازم من ملك أو سياسى أو زعيم ، ودليل الحقيقة على أن هذا اليقين الثابت ليس يقين الإنسان الاجتماعى من جهة قوته ، بل يقين الإنسان الإلهى من جهة قلبه ؛ ودليل الحكمة على أن هذا الدين ليس من العقائد الموضوعة التى تنشرها عدوى النفس للنفس ؛ فهاهو ذا لا يبلغ أهله فى ثلاث عشرة سنة أكثر مما تبلغ أسرة تنوالد فى هذه الحقة ؛ ودليل الإنسانية على أنه وحى الله بإيجاد الإخاء العالمى والوحدو الإنسانية . أفلم يكر خروجه عن موطنه هو تحققة فى العالم ؟

ثلاث عشرة سنة ، كانت ثلاثة عشر دليلاً تثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس رجل ملك ، ولا سياسة ، ولا زعامة ؛ ولو كان واحداً من هؤلاء لأدرك فى قليل ؛ وليس بتدع شريعة من نفسه ، وإلا لما غبر فى قومه وكأنه لم يجدهم وهم حوله ؛ وليس صاحب فكرة تعمل أساليب النفس فى انتشارها ، ولو كانت لهم على تحضها ومزجها ؛ وليس رجلاً منعلماً بالمصادفات الاجتماعية ، ولو كان لحلحل إيمان يوم كفر يوم ؛ وليس مصلح عشيرة يهذب بها على قدر ما تقبل منه سياسة ومخادعة ، ولا رجل وطنه تكون عاينه أن يشمخ فى أرضه شموخ جل فيها دون أن يحاول ما بلغ إليه من إطلاله على الدنيا لإطلاع السماء على الأرض ؛ ولا رجل حاضره ؛ إذ كان واثقاً دائماً أن معه العد وآتبه وإن أدر عنه اليوم وذاهبه ؛ ولا رجل طبيعته البشرية يلتبس لها ما يلتبس الجائع لبطنه ، ولا رجل شخصيته يسبون بها ويسحر ، ولا رجل بطوه

يغلبُ به ويتسلط ، ولا رجل الأرض في الأرض ، ولكن رجل السماء في الأرض .

هذه هي حكمة الله في تديره لنبيه قبل الهجرة : قبض عنه أطراف الزمن ، وحصره من ثلاث عشرة سنة في مثل سنة واحدة ، لا تصدره الأمور مصادرها كي تُثبت أنها لا تصدر به ؛ ولا تستحق به الحقيقة لتدل على أنها ليست من قوته وعمله .

وكان صلى الله عليه وسلم على ذلك - وهو في حدود نفسه وضيق مكانه - يتسع في الزمن من حيث لا يرى ذلك أحدٌ ولا يعلمه ، وكأنما كانت شمسُ اليوم الذي سينصر فيه - قبل أن تُشرق على الدنيا بثلاث عشرة سنة - مشرقة في قلبه صلى الله عليه وسلم .

والفصلُ من السنة لا يقدمه الناس ولا يؤخرونه ، لأنه من سِر الكون كله ؛ والسحابة لا يُشعلون رقعها بالمصاييح ، ومع النبي من مثل ذلك رهانُ الله على رسالته ، إلى أن نزل قوله تعالى : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ » ، فحلَّ الفصل ، وانطلقت الصاعقة وكانت الهجرة .

تلك هي المقدمة الإلهية للتاريخ ، وكان طبعياً أن يطارد التاريخ بعدها ، حتى قال الرشيدُ للسحابة وقد مرت به : أمطري حيث شئتِ فسيأتيني خراجك !

(*) فلسفة قصة

ماتت خديجة زوج النبی صلی الله علیه وسلم ومات عمه أبو طالب في عام واحد ، في السنة العاشرة من النبوة ، فعظمت المصيبة فيهما عليه ، إذ كان عمه هذا يمنعه من أذى قريش ويقومُ دونه فلا يخلّصون إليه بمكرهه ، وكان أبو طالب من قريش كالعقيدة السياسية : هي بطبيعتها قوة نافذة على قوة القبيلة ؛ فمن ثم كان هو وحده المشكلة النفسية المعقدة التي تعمل قريش جاهدة في حلها وقامت الحركة الإسلامية الأولى بين إرادتهم وإرادته ، وهم أمة تحكمهم الكلمة الاجتماعية التي تسيّرُ عنهم في القبائل ؛ وتاريخهم ما يقال في الألسنة من معاني المدح والذم ، فيخشون المقلّة أكثر مما يخشون الغارة ، وقد لا يُبالون بالقتل والجرحى منهم ، ولكنهم يبالون بالكلمات المجرّحة .

فكان من لطيف صنْع الله للإسلام ، وعجيب تدبيره في حماية نبيه صلی الله علیه وسلم - وضع هذه القوة النفسية في أول تاريخ النبوة ، تشتغلُ بها سخافات قريش ، وتكونُ عملاً لمرآتهم الرُّوحى ، وتُثيرُ فيهم الإشكال السياسي الذي يعطلُ قانونهم الوحشي إلى أن يتمَّ عملُ الأسباب الخفية التي تكسّرُ هذا القانون وإن المصنّع الإلهي لا يخرجُ أعماله النائمة العظيمة إلا من أجراء دقيقة .

أما خديجة زوج النبی صلی الله علیه وسلم ، فكانت في هذه المحنة قلباً مع قلبه العظيم ، وكانت لنفسه كقول « نعم » للكلمة الصادقة التي يقول لها كلُّ الناس « لا » ، وما زالت المرأة الكاملة المحبوبة المحبّة هي التي تُعطى الرجل ما نقص من معاني الحياة ، وتلدُّ له المرات من عواطفها كما تلدُّ من أحشائها ،

فالوجود يعملُ بها عملين عظيمين : أحدهما زيادةُ الحياةِ في الأجسام ،
والآخر إتمامُ نقصِها في المعاني .

وبموت أبي طالبٍ وخديجة ، أُفِرِدَ النبي صلى الله عليه وسلم بحسبه
وقلبه : ليتجردَ من الحالة التي يَغْلِبُ فيها الحس ، إلى الحالة التي تَغْلِبُ فيها
الإرادة ؛ ثم ليخرجَ من أيام الاستقرار في أرضه ، إلى الأيام المتحركة به
في هجرته ؛ ثم لينتهي بذلك إلى غايةِ قوميته الصغيرة المحدودة ، فيتصل من
ذلك بأول عالميته الكبرى .

وأراد الله تعالى أن يبدأ هذا الخليلُ العظيمُ من أسمى خلال الجلالِ
والعظمة ، ليكونَ أولُ أمره شهادةً بكالهِ ؛ فكانت الحسنَةُ فيه بشهادة
السيئةِ من قومه ؛ فحُلِمَ به شهادة رُغوتهم ، وأمانُهُ بدليل طينتهم ، وحكته
برهان سماهم ؛ وبذلك ظهر الروحاني روحانيًّا في المادة .

قالوا : فمالك مه قريش ، ووَصَلوا من أذاهُ إلى مالم يكونوا يصلُون
إليه في حياة عمه ، حتى نثرَ بعضهم الترابَ على رأسه . كما يُعلِّبونه أنه أهونُ
عليهم من أن يكونَ حُرًّا ، فضلًا عن أن يكونَ عزيزًا ، فضلًا عن أن
يكونَ نبيًّا ، قالوا : فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتهُ والترابُ على
رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه الترابَ وهي تبكي ا

كانت تبكي إذ لا تعلم أن هذا الترابَ على رأس النبي العظيم هو سُذُودُ
الحياة الأرضيةِ الدنيئة ، في مقابلةِ إسانها الشاذَّ المنفرد . هذه القَبْضة من
التراب الأرضي قبضةٌ سفيةٌ ، تحاولُ ردَّ الممالك الإسلامية العظيمة أن تنشأ
نشأتها وتعمل عملها في التاريخ ؛ فهي في مقدارها وسخافتها ومحاولتها ، كعقل
قريش حينئذ في مقدارهِ وسخافِهِ وعطولِهِ .

أما النبي صلى الله عليه وسلم فقال لبلته : « يابلية لا تبكى ، فإن الله مانعُ أمالك . » حسبت ذلك هواناً وضيعةً ، فأعلمها أن قبضةً من التراب لا تظلمُ النجم ، وأن هذه الخنوة الترابية لا تُسقى معركةً أنارتها الخيلُ لجأت بنتيجة ، وأن ساعةً من الحزن في يوم ، لا يُحكّمُ بها على الزمن كله ؛ وأن هذه السزوة التي تحركت الآن ، هي حقُّ الغباوة : قوتها نهايتها .

« يابلية لا تبكى فإن الله مانعُ أمالك . » أى ليس للنبي كبرياء ينالها الناس أو يُضضون عنها فيأتى الدمعُ مترجماً عن المعنى الإنسانى الناقص مُثبتاً أنه ناقص ، إنما هي النبوة : قانونها غيرُ ما اعتادت النفس من أفراح وأحزان ، وهي النبوة : تجعل المختارَ لها غيرَ محدود محسده الضعيف ، بل حدوده الحقائق التي فيها قوتها ؛ فهو في منعة الواقع الذي لا بد أن يقع ، فلو أمكن أن يُحذف يومٌ من الزمن أو يؤخرَ عن وقته ، أمكن أن يؤخرَ النبي أو يُحذف .

« يابلية لا تبكى فإن الله مانعُ أمالك . » لا والله ما يقول هذه الكلمة إلا نبيٌ وسِعَ التاريخ في نفسه الكبيرة قبل أن يوحدَ هذا التاريخ في الدنيا ؛ فكلمته هي الإيمانُ والثقةُ إذ ينكلم عن موجود .

ترابٌ ينثره سفيهٌ على رأس النبي ! ويحك يا حقارة المادة ، إن ارتفاعك لعنة ، إن ارتفاعك لعنة .

قالوا : وخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وحده إلى الطائف ، يلتبس من تقييف النصر والمعة له من قومه ؛ فلما انتهى إلى الطائف عمدَ إلى نفرٍ من تقييف ، هم يومئذ سادتهم وأشرافهم ، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته والقيام معه في الإسلام على من حاله من قومه ؛ فلم يفعلوا وأغروا به سُفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى

حائط^(١) لُعْبَةَ بْنِ رَيْمَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَيْمَةَ وَهَما فِيهِ ؛ وَرَجَعَ عَنْهُ مِنْ سَفَهَاءِ نَقِيبٍ مَنْ كَانَ يَتَّبِعُهُ فَعَمِدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى ظِلِّ حُبْلَةٍ مِنْ عِنَبٍ فِجْلَسَ فِيهِ ، وَابْنَا رَيْمَةَ يَنْظُرَانِ إِلَيْهِ وَيُرِيَانِ مَا لَقِيَ مِنَ السَّفَهَاءِ .

فَلَمَّا اطْمَأَنَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسِهِ قَالَ : اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقَلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَايَ عَلَى النَّاسِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَيَّ مِنْ تَكَلُّبِي ؛ إِلَيَّ بِعَيْدٍ يَتَجَهَّمُنِي ، أَوْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أُمْرِي ؛ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي ، وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي . أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِي عَذَابُكَ ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ ا .

• • •

أَلَا مَا أَكَلَ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةَ الَّتِي تُتَبَّتْ أَنْ قُوَّةَ الْخُلُقِ هِيَ دَرَجَةُ أَرْفَعُ مِنَ الْخُلُقِ نَفْسِهِ ؛ هَذَا فَنُّ الصِّرَاحِ لَا الصِّرُفِ فَقَطْ ، وَفَنُّ الْحِلْمِ لَا الْحِلْمُ وَحْدَهُ . قُوَّةُ الْخُلُقِ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ الرَّحْلَ الْعَظِيمَ ثَابِتًا فِي مَرْكَزِ تَارِيخِهِ لَا مُتَقَلِّبًا فِي تَوَارِيخِ النَّاسِ ، مُحَدودًا بِعِظَائِمِ شَخْصِيَّتِهِ الْخَالِدَةِ لَا بِمَصَالِحِ شَخْصِهِ الْعَانِي ، مُظَاهِرًا فِي الْحَيَاةِ إِلَى الْوُضْعِ الثَّابِتِ لِلْحَقِيقَةِ لَا إِلَى الْوُضْعِ الْمُتَغَيِّرِ لِلنَّفْعَةِ . وَمَا كَانَ أَوْلَى الْأَشْرَافِ وَسَفَهَاؤُهُمْ وَعَبِيدُهُمْ إِلَّا مَعَانِي الظُّلْمِ ، وَالشَّرِّ ، وَالضَّعْفِ ، تَقُولُ لَنِي الْعَظِيمِ الَّذِي جَاءَ يَمْحُوها وَيُدْرِيْلُ مِنْهَا : إِنَّا أَشَاءُ ثَابِتَةٌ فِي الْبَشَرِيَّةِ .

لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ الْأَشْرَافُ وَالسَّفَهَاءُ وَالْعَبِيدُ ، بَلْ كَانَتْ مِنْهُمْ الْعُسُفُ ،

(١) الْحَائِطُ . الْبَيْتَانِ . وَجَمْعُهُ حَوَائِطُ .

والرِّق ، والطَّيش ؛ تَسَخَّرَ ثَلَاثُهَا مِنْ نَبِيِّ الْعَدْلِ ، وَالْحَرِيَّةِ ، وَالْعَقْلِ ؛ فَمَا تَسَخَّرَ إِلَّا مِنْ نَفْسِهَا .

صَغَائِرُ الْحَيَاةِ قَدْ أَحَاطَتْ بِمَجْدِ الْحَيَاةِ ، لَتُثَبِّتَ الصَّغَائِرُ أَنَّهَا الصَّغَائِرُ ، وَلَيُثَبِّتَ الْمَجْدُ أَنَّهُ الْمَجْدُ .

كَانَ الْفَرِيقَانِ هُمَا الْفِكْرَتَيْنِ الْمُتَعَادِيَتَيْنِ أَبَدًا عَلَى الْأَرْضِ : إِحْدَاهُمَا : عِشْ لِنَاكُلْ وَتَسْتَمْتِعْ وَإِنْ أَهْلَكْتَ ؛ وَالْآخَرَى : عِشْ لَتَعْمَلَ وَتَنْفَعِ النَّاسَ وَإِنْ هَلَكْتَ .

كَانَتْ الْأَقْدَارُ تُبَادِي هَذَا الرُّوحَ الْوَاسِعَ بِذَلِكَ الرُّوحِ الضَّيِّقِ ، لِيَنْطَلِقَ الْوَاسِعُ مِنْ مَكَانِهِ وَيَسْتَقْبِلَ الدُّنْيَا الَّتِي عَلَيْهِ أَنْ يُنْشِئَهَا . فَأُولَئِكَ الْأَشْرَافُ وَالسُّفَهَاءُ وَالْعَبِيدُ إِنْ هُمْ إِلَّا الضَّيِّقُ ، وَالرَّكُودُ ، وَذَلِ الْعِيشُ ؛ حَوْلَ السَّعَةِ الرُّوحِيَّةِ ، وَالسُّمُوقِ ، وَطَهَارَةِ الْحَيَاةِ .

وَقَفَ الْمَعْنَى السَّهَوِيُّ بَيْنَ مَعَانِي الْأَرْضِ ، وَلَكِنَّ نُورَ الشَّمْسِ يَنْبَسِطُ عَلَى التُّرَابِ فَلَا يَغْفِرُهُ التُّرَابُ ، وَمَا هُوَ بِنُورٍ يَضِيءُ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ قُوَّةٌ تَعْمَلُ بِالْعُنَاصِرِ الَّتِي مِنْ طَبِيعَتِهَا أَنْ تَحْوِلَ ، وَفِي الْعُنَاصِرِ الَّتِي مِنْ تَأْنِيهَا أَنْ تَحْوِلَ . وَكَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ أُولَئِكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ قُوَّةٌ أُخْرَى ، هِيَ الْقُدْرَةُ الَّتِي تَعْمَلُ بِهَذَا النَّبِيِّ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ ؛ وَهَذِهِ الْقُدْرَةُ لَمْ يَنْظُرِ النَّبِيُّ إِلَى قَرِيصٍ وَصَوَّلَتْهُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا يَنْظُرُ إِلَى شَيْءٍ انْقَضَى ؛ فَكَانَ الْوُجُودُ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ عَبْرَ مَوْجُودٍ ، وَكَانَتْ حَقِيقَةُ الزَّمَنِ الْآتِي بِحَقْلِ الزَّمَنِ الْحَاضِرِ بِحَقِيقَةٍ .

وَالِى هَذِهِ الْقُدْرَةُ تَوَجَّهَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ الدَّعَاءِ الْبَلِيبِ الْحَالِدِ ، يَشْكُو أَنَّهُ إِنْسَانٌ فِيهِ الضَّعْفُ وَقَلَّةُ الْحِيلَةِ ، فَيَنْطَلِقُ الْإِنْسَانِيُّ فِيهِ بِالشَّطْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الدَّعَاءِ بِذِكْرِ انْفِرَادِهِ وَأَنَارِ انْفِرَادِهِ ، وَيَتَوَجَّعُ لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِسَابِيهِ قَوْمِهِ ؛ ثُمَّ يَنْطَلِقُ الرُّوحَانِيُّ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الدَّعَاءِ مُتَوَجِّهًا إِلَى مَصْدَرِهِ الْإِلَهِيِّ قَاتِلًا

أول ما يقول : إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي .

ولعمري لو نطقت الشمس تدعو الله لما خرجت عن هذا المعنى ولا زادت على قوله : « أعوذ بنور وجهك » ؛ تلتبس من مصدر النور الأزلَى حياة وجودها الكامل .

ولعد هؤلاء من قبل بالمسيح عليه السلام فقال للساخرين منه : ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وفى بيته ؛ وبهذا رد عليهم رد من أسلخ منهم ، وقال لهم قول من ليس له حكم فيهم ، وأخذهم بالشرعة الأدبية لا العملية ؛ إذ كان عليه السلام كالحكمة الطائفة ليست لكل قلب ولا لكل عقل ، ولكنها لمن أعدها ؛ وشريعته أكثرها فى التعبير وأقلها فى العمل ، ولم تجز بالقوة العاملة فلم يكن بد من أن تصح الموعظة فى مكان السيف ، وأن تكون قائمة على الهى أكثر مما هى قائمة على الأمر ، وأن تكون كشمس الشتاء الجميلة : لا تغل بها الأرض ، وإنما عملها أن تمهد هذه الأرض لفصل آخر .

أما نبينا صلى الله عليه وسلم فلم يجب المستهزئين ، إذ كانت القوة الكامنة فى بلاد العرب كلها كامنة فيه ، وكان صدره العظيم يحمل للدنيا كلمة جديدة لا تقبل الدنيا أن تعاملها عليها إلا بطريقها الحرية ؛ فلم يرد رد الشاعر الذى يريد من الكلمة معناها البليغ ، ولكنه سكت سكوت المشتري الذى لا يريد من الكلمة إلا عملها حين يتكلم ؛ وكان فى سكوتة كلام كثير فى فلسفة الإرادة والحرية والتطور ، وأن لا بد أن يتحول القوم ، وأن لا بد أن يتفطر هذا الشجر الأجرد عى ورق جديد أخضر ينمو بالحياة .

لم يتسخط ولم يقل شيئا ، وكان كالصانع الذى لا يرد على خطأ الآلة بسخط ولا يأس ، بل بإرسال يده فى إصلاحها .

قالوا : ورأى ابنا ربيعة ، عُبَيْةُ وَشَيْبَةُ ، مالتى النبي صلى الله عليه وسلم من السفهاء ، فتحركت له رَحْمَتُهُمَا ، فدَعَوَا غلاما لهما نصرانيا يقال له عَدَّاسُ ، فقالا له : خذ قِطْعًا من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكلُ منه . ففعل عَدَّاسُ ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما وَضَعَ يَدَهُ قال : « بسم الله » ثم أكل ؛ فنظر عَدَّاسُ إلى وجهه ثم قال : واللهِ إن هذا لكلامُ ما يقوله أهل هذه البلدة . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن أهلِ أَى البلادِ أنت يا عَدَّاسُ وما دينُكَ ؟

قال : أنا نصراني وأنا رجلٌ من أهلِ نَيْنَوَى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى ؟ قال : وما يدريك ما يونس بن مَتَّى ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى : كان نبيًّا وأنا نبي . فأكبَّ عَدَّاسُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه ورجليه .

• • •

يا عجباً لرموز القَدَرِ في هذه القصة !
لقد أسرع الخير والكرامة والإجلالُ فأقبلتُ تعذُّرُ عن الشر والسفاهة والطيش ، وجاءت التَّجَلُّلاتُ بعد كلمات العداوة .

وكان ابنا ربيعة من ألد أعداء الإسلام ، ومن مشؤا إلى أذى طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم من أشرف قريش يسألونه أن يكفَّ عنهم أو يُخَلِّيَ بينهم وبينه ، أو يُنازِلوه وإياه حتى يهلكَ أحدُ الفريقين ، فاقفلت الغريزة الوحشية إلى معناها الإنسانى الذى حابه الدين ، لأن المستقبل الدينى للفكر لا للغريزة . وجاءت النصرانية تعاقب الإسلام وتُعزِّزه ، إذ الدينُ الصحيحُ من الدين

الصحيح كالآخ من أخيه ، غير أن نَسَبَ الإِخْوَةِ الدَّمُ ، ونَسَبَ الأَدْيَانِ العقل
ثم أتمَّ القَدْرُ رمزَه في هذه القصة ، يَقْطِفُ العنب سائِغاً عَذْباً مَلُوبِياً
حلاوة ؛ فَيَاسِمُ اللهَ كَانَ قِطْفُ العنب رمزاً لهذا العنقود الإسلامى العَظِيمَ الذى
امتلاً حَاسِلاً حبة فيه مملكة .

فوق الآدمية (*)

الإسراء والمعراج

من أعجب ما أَتَقَقُّ لى أفى فرغتُ من تسويد هذا المقال ثم أردتُ نقلَه ،
فَنَسَرَّ عَلَى وَصُرِفَتْ عَنْهُ بِألم شديدٍ اعترانى ، وبألى منه نَقْلُهُ فى الدماغ ؛ ثم
كشَفَه اللهُ بعد يوم فراجعتُ الكُتَابَةَ ، فإذا قلى يلبعثُ هذه الكلمات :
كيف يَسْتَوِطُّ المسلمون العِجَرَ ، وفى أولِ دينهم تسخيرُ الطبيعة ؟
كيف يَسْتَمْهِدُونَ الراحةَ ، وفى صَدْرِ تاريخهم عملُ المعجزة الكبرى ؟
كيف يَرَكُونُ إلى الجهل ، وأولُ أمرهم آخر غايات العلم ؟
كيف لا يحملون النورَ للعالم ، ونيثهم هو الكائنُ النورانى الأعظم ؟

• • •

قصةُ الإسراء والمعراج هى من حِصَانِ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا
النجم الإنسانى العَظِيمُ ؛ وهو النورُ المتجسِّدُ لهداية العالم فى حيرة ظُلُمَاتِهِ النفسيةِ
فإن سماء الإنسان تُظْلَمُ وتُغْشى من داخله بأغراضه ومعانيه . وافته تعالى قد خلق
للعالم الأرضى شمساً واحدةً تُنِيرُهُ وتُحييه وتَقْلِبُ عليه بلبله وهاره ، بيد أنه ترك

(*) أنسأها برأى صديقه الأستاذ محمود أبو رية

لكل إنسان أن يصنع لنفسه شمس قلبه وشماتها وصحاتها وما تسفر به وما تُظلم فيه ؛ ولهذا سُمِّيَ القرآنُ نوراً لعمل آدابه في النفس ، ووصف المؤمنون بأنهم « يَسْعَى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم » ، وكان أثرُ الإيمان والتقوى في تعبير القرآن الكريم أن يجعلَ اللهَ للؤمنين نوراً يمشون به .

وقد حار المفسرون في حكمة ذكر « الليل » في آية « الإسراء » من قوله تعالى : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا » ، فإن الشَّرَى في لغة العرب لا يكونُ إلا ليلاً .

والحكمة هي الإشارة إلى أن القصةَ قصّة (النجم) الإنسان العظيم الذي تحوّل من إنسانيته إلى نوره السماوي في هذه المعجزة ؛ ويتم هذه العجيبة أن آيات « المعراج » لم تنجِ إلا في سورة : « والنجم » .

وعلى تأويل أن ذكر (الليل) إشارة إلى قصة النجم ، تكونُ الآيةُ رهاناً نفسها ، وتكون في نسقها قد جات معجزة من المعجزات البانية ؛ فإذا قيل إن نجماً دار في السماء ، أو انقطع ما تقطعه النجوم من المسافات التي تُعجز الحساب ، فهل في ذلك من عجيب ؟ وهل فيه شك أو نظر أو تردد ؟ وهل هو إلا من بعض ما يُسبح الله مذكروه ؟ وهل يكونُ إلا آيةً اتصلت بالآيات التي نراها اتصال الوجود بعينه ببعض ؟

وأنا ما يكادُ ينقضني عَجْبي من قوله تعالى : « لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا .. » مع أن الألفاظ كما ترى مكشوفة واضحة ، يُخَيَّلُ إليك أن لبس وراءها شيء ، ووراءها السرُّ الأكبر ؛ فإنها هذه العبارة نصٌّ على إشراف النبي صلى الله عليه وسلم فوق الزمان والمكان يرى غير حجاب الحواس بما مَرَّحَهُ إلى قُدرة الله لاقدرة نفسه ؛ بخلاف ما لو كانت العبارة : (ليرى من آياتنا) فإن هذا يجعله لنفسه

في حدود قوتها وحواسها وزمانها ومكانها ، فيضطربُ الكلام ، وينتظرُقُ إليه الاعتراض . ولا تكونُ كمَّ معجزة .

وتحويلُ فعل (الرؤية) من صبغةٍ إلى صبغةٍ كما رأيتَ ، هو له إشارة إلى تحويل الرائي من شكل إلى شكل كما استعرُفه ، وهذه معجزة أخرى يسجدُ لها العقل ؛ فتبارك الله مُزِيلُ هذا الكلام !

وإذا كان صلى الله عليه وسلم نَحْمًا إنسانيًا في نوره ، فلن يأتي هذا إلا من غلبة روحانيته على ماده ؛ وإذا غلبت روحانيته كانت قواه النفسية مهتأة في الدنيا لمثل عالها ، الأخرى ؛ وفي هذه المعجزة أمة بالهواء المتحرك . فقل الآن : أيعجزنُ على الهواء ، إذا ارتفع بأنه لم يرتفع في طيَّاره ... ؟ ومن كمَّ كان الإنسان إذا سما درجة واحدة في ببات قواه الروحية . سما بها درسات فوق الدنيا وما فيها ، وتحررت له الماحى التي تُستخر غيرَه من الناس ، وسأب له راييس أخلاقية غير النواميس التي تسلط بها الأهواء ، وهى وُجد الشيء من الاسماء كانت طبايع رجوده هى نواميسه ، فالنار مثلا إذا هى تضربت اوحدت الإحراق فيما يحترق ، فإن وُضع فيها ما لا يحترق أبطال نواميسها وغلب عليها .

وكل معجزة تحدث فهذا هو سبيلها في إيجاد النواميس الخاصة بها وإبطال النواميس المألوفة ، وهذا يقال : إنها حَرَفَت العادة . ومن الورد رر يشف له غير الهواء ، ومنه أشعة (روتجن) التي تشف لها الجدران والحُجب . فهذه معجزة فى ذاك .

• • •

والى لا يكونُ نبيًا حتى يكون فى إسمائه إنسان آخر نواميس تحمله أقرب إلى الملائكة فى روحانيته ، وما يزلُ إنسانه الظاهر من الإنسان المائلي (روحه العلم ٢٤)

أن عقولهم لم تكن نحتمل الإدراك العليّ الذي أسأسه ما عرّف اليوم من أمر الكهرباء والأثير ..

والخلاصة التي تتأدى من القصة : أنه صلى الله عليه وسلم كان مضطجعا ، فأتاه جبريل ، فأخرجه من المسجد ، فأركبه الرّاق ، فأتى بيت المقدس ، ثم دخل المسجد فصلى فيه ، ثم عُرِّجَ به إلى السموات ، فاستفتحها جبريل واحدة واحدة ، فرأى فيها من آيات ربه ، واجتمع بالأنبياء صلوات الله عليهم ، وصعد في سماء بعد سماء إلى سِدْرَةِ الْمُنْهَى ، فَمَشَى مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَها ، فرأى صلى الله عليه وسلم مظهرَ الجمال الأزلي ، ثم زُجَّ به في النور فأوحى الله إليه ما أوحى .

أما وشئ القصة وطرازها فبابٌ عجيبٌ من الرموز الفلسفية الإنسانية التي يرمزُ بها إلى تجسيد الأعمال في هذه الحياة : تكونُ تعباً وتنعق فائده ، أو تُلتَمَسُ منفعةٌ وشهوةٌ وتقع مَضَرَّةٌ وحماةٌ ، ثم تنقُى من هذه وتلك الصُّورُ الزمنية التي توهمها أصحابها ، وتملأُ الصورُ الأبدية التي جاءت بها حقائقها . ومن هذه الرموز البديعة قوله : فجاء في جبريل ياباه من نحرٍ وإمام من لَن ، فأخذتُ الابن ، فقال جبريل : أحدثَ الفِطْرَةَ وأنه مرُّ على قوم يزرعون ويحصدون في كل يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فسأل ما هذا ؟ قال جبريل : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تُضَاعَفَ لهم الحسنة سبعمئة ضعف . ثم أتى على قوم تُرَضِّخُهم بالصخر ، كلما رَضِخَتْ عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء ؛ فقال ما هذا ؟ قال جبريل : هؤلاء الذين تتناقل رؤوسهم عن الصلاة . ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ يُضَيِّجُ في قَدْرِ ، ولحمٌ آخرُ في قَدْرِ حَبِيتُ ، فجعلوا يأكلون من الشيء الحبِيتِ ويدعون النصيح ، فقال : ما هؤلاء ؟ قال جبريل : هذا الرجل تكون عنه المرأة الحلال الطيبُ فيأى امرأه خبيثة ،

والمرأة تقوم من عند زوجها حللاً طيباً فتأتى رجلاً خبيثاً . ثم أتى على رجل قد جمع حُرمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل تكون عليه أماتُ الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحملَ عليها . ثم رأى نساءً معلقاتٍ بُنْدِيَّهن ؛ فسأل ، فقال جبريل : هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم . .

* * *

ونحن على الرأي الذي عليه جمهور العلماء : من أن الإسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معاً على التأويل الذي سنبينه ؛ ويثبت ذلك قوله تعالى في سورة (التجم) «إدغى السدرة ما يغنى ، ما زاغ البصر وما طغى .» فلا يكون البصرُ يزغُ ويدغى إلا في الجسم ، ولا يبتغي عنه ذلك إلا وهو في الجسم . ولم يتلبه أحد . من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب في قوله : (وما طغى) ؛ فذلك نصٌّ على أنه كان يرى محسوساً قد تحول عن الطبيعة الآدمية المحدودة فليس فيه منها شيء . إذ لا يكون طغيان البصر إلا من تسلط الخيال عليه بأهواء الجسم التي لا يستقيم بها حكم على حقيقته ، فما زاع البصر بكونه مقيّد الحاسة ، ولا طغى بكونه مُطلق الخيال ، بل كان كما يريد الله من آياته ، أي كان حقيقة كونية في غير حالتها الأرضية الناقصة .

والذين قالوا إن الإسراء والمعراج كما رؤيا رآها الذي صلى الله عليه وسلم ؛ احتجوا لذلك بقوله تعالى : «وما جعلنا الرؤيا التي أرياك إلا فتنةً للناس .» وقد حلط المفسرون في هذا أيضاً ، وإما كان التعبير بلفظ «الرؤيا» - وهي التي تكونُ ماثلاً - لنفي ما يبر الحواس على الرائي ، وإبـاب أن الطبيعة الآدمية بحملتها كانت فيه كالآلـمة عن حياتها الأرضية محققاتها وأخيلتها معا ، فليس ثامناً كالأنـم ، ولا مستبـقاً كالاستبـق .

وفي أساس القصة جبريل والبراق؛ وهما القوة الملائكية والقوة الطبيعية، أو الروح الملائكي والروح الطبيعي؛ ولم يوصف البراق بأنه دابة إلا رمزاً، إذ لا يأتي للعرب أن يفهموا ما يراد منه؛ وعندما أنه سُئِيَ البراق من البرق، وما البرق إلا الكهربائية، وهذا هو المراد منه؛ فذلك قوة كهربائية متى تَبَصَّتْ جمعت أول العالم بآخره؛ وهذه هي الحكمة في أن آية الإسراء لم تذكر أنه كان محمولا على شيء، إذ لم يكن محمولا إلا على روح الأثير.

وما دامت القوة الملائكية والقوة الطبيعية قد تَحَرَّتا له صلى الله عليه وسلم، فلا معنى لأن يكون ذلك للروح وحدها دون الجسم، بل اجتماعهما معاً في القصة دليل على أن سرَّ المعجزة إنما كان في تيسير ملامة جسمه الشريف لهما في الحالين؛ فيتحوَّل في صورة كونية ملائكية بن سرَّ الملك وسرَّ الطبيعة، وحلت لا تنجرى عليه أحكام الحواس ولا أحكام المادة.

ومن الممكن أن تتحوَّل الأجسام إلى حالتها الأثيرية في بعض الأحوال الخارقة، وهذا يعلِّل طيُّ الأرض لبعض الروحانيين وتعلل خوارق كثيرة بما يحدث في استحضار الأرواح لهذا العهد. وما يأت به ففراء الهند، وما كان يصنعه «هوديني» الأمريكي؛ إذ كانوا يعلِّونه بالسلاسل والقيود ثم يروه طليقاً؛ ويحسونه في السجون المحصنة يقوم عليها الحراس وتُمسكه فيها الأبواب والجدران، ثم يحدونه في بعض الفنادق.

وليس العقل أن ينكر شيئاً من هذا ونحوه، فإن تركيب الطبيعة ردُّ عليه، ونقصه هو ردُّ على نفسه، والمستحيل على الأعمى هو أيسر الممكيات على المبصر. فأنت ترى أن ذكر البراق والملك في أساس قصة الإسراء والمراجع هو صلة القصة بالمعجزة، وهو عبثه صلتها بالبرهان العلوي؛ ولو لم يكن ما فيها لما كان لها تفسير.

والقصة بعد ذلك تثبت أن هذا الوجود برق وينكشف ويستضيء كلما
سما الإنسان روحه ، ويفأظ وبه كائن ويتحجج كلما نزل بها ، وهي من
ناحية النبي صلى الله عليه وسلم قصة تصفه بمظهره الكوني في عظمته الخالدة ،
كما رأى ذاته الكاملة في ملكوت الله . ومن ناحية كل مسلم من أتباعه هي
كالدرس في أن يكون لقلب المؤمن معراج سماوى فوق هذه الدنيا ، لينشده
ببصيرته أنوار الحق ، وجمال الخير ، وتجسد الأعمال الإنسانية في صورها
الخالدة : فيكون بتدثره القصة كأما يصعد إلى السماء وينزل ؛ فيستريح إلى
الحقائق الأساسية لهذه الحياة ، ويدفع عن نفسه بذلك تعقد الأخيلة الذى
هو أساس البلاء على الروح .

ومتى استدار القلب كان حيا في صاحبه ، وكان حيا في الوجود كله ؛
ومتى سلبت الحياة من تعقيد الخيال الفاسد لم يكن بين الإنسان وبين الله
إلا حياة هي الحق والخير ، ولم يكن بينه وبين الناس إلا حياة هي
الرحمة والحب .

هي صفاتُ إسانها العظيم ، وقد اجتمعت له لناخذَ عنه الحياةَ إنسانيتها
العالية : فهي بذلك من برهانات نبوته ورسالته .

ولو جمعت كلَّ أوصافه صلى الله عليه وسلم ، ونظمتها بعضها إلى بعض ،
واشترتها بأسرارها العلية - لرأيتَ منها كَوْنًا معويًا دقيقًا قائمًا بهذا الإنسانِ
الاعظم ، كما يقومُ هذا الكونُ الكبيرُ بسُنَّتهِ وأصولِ الحكمةِ فيه ؛ ولا يفتنُ
أن هذا النبيَّ الكريمَ إن هو إلا مُعْجَمٌ نفسى حتى ألفتَه الحكمةُ الإلهيةُ
لعلمَ مر عليها ، وقوةَ مر قوتها ، لتتحرَّجَ به الأُمّةُ التي تُبدعُ العالمَ إبداعًا
جديدًا وتُنشئه النشأةَ المحفوظةَ له في أطوار كماله .

ولن ترى في الإنسانية أسمى من احتياج هذه الصفاتِ بعضها إلى بعض ؛
. إن لا كاذبًا كلما تأملها أحسبُ هذا السوءَ فضاءً وقدرًا يأنسان على الإنسانية
كلها . وهي دليل على أنه الإنسانُ الذي خُلِقَ للدنيا لالنفسه ، فهو لا ينمو
بما بكر له على الناس من البلى ، ولكن بما يكونُ للباس عليه من
الواجبات ، كأنما هو حقة مه كونيّة تعيش عيشها ، فما تكونُ في الوجود إلا
لتقرّر وجودها هي ، ولا تنتهى حين تنتهى مذاتها إلا لتبدأ معانيها في غيرها ،
فهو صلى الله عليه وسلم إنسانٌ عُرِسَ في التاريخ عرساً ليكونَ حدّاً لزمي
وأولاً لزن دمه ، وما كانت حياته تلك إلا طريقة غريبة ، وهو أبدأ
قائمٌ في مكانه الاجتماعي . إذ كان الزمُّ كلما تقدم زاد في إثباته ، وقد
أسح في الدنيا كأنه جهةٌ من الجهات لا إنسانٌ من الناس ، فلن يتعبّرَ
أو يُمخى إلا إذا تعبّر أو يُمخى المشرق والمغرب .

ومحزن حزين مرأ تلك الصفاتِ وما فاضت به كُتب التماثل من أمثالها ،
لا تقرأها أوصافاً ولا حياه . بل راها صفحة إلهية مصنفة أدع تصليف وأدقّه ،
ومن وراءها تفسير مطوّب لا يتهدي الفكرُ البشري لأحسن منه ولا أصحّ

ولا أكمل ، فقد اجتمعت تلك الصفات في إنسانها اجتماع الأجزاء في المسئلة الرياضية : لا ينبغي أن يزيد أو تنقص ، إذ كان في مجموعها ما وجد له مجموعها . ويكاد الارتباط بين أجزاء هذه المسئلة يكون هو بعينه صورة للارتباط بين أجزاء تلك الصفات الشريفة ، فإن كل جزء منها موضوع وضعا لا يتم الكل إلا به ، حتى لا موضع فيها لقلة أو كثرة ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « أدبني ربى فأحسن تأديبي » ، وأنت إذا دقت في هذا الحديث أدركت من معناه أن هناك طبيعة أخلاقية مفردة نحري على قانونها الذي وضعه الله لها وأحكمها به .

وأعجب ما يدعينا من مجموع صفاته صلى الله عليه وسلم أن فيها دليلا بينا على أنه مخلوق خلقه متميزة بنفسها ، كخلق القلب الإنساني : نظامه حياته وحياته نظامه ، وكأما اعترته حالة نفسية كالتى تعترى القلب في استشعار الخطر فتخرجه من طبيعته إلى أقوى منها ، فلا يزال يمد أعضاء الجسم بمدد لا ينفد من القوة والصر ، يحمل الحياة فيها على أضعاها كأنها حاة كانت مخومة وظهرت بفتة ؛ وفي هذه الحالة توجه غرائز النفس كلها إلى جهة واحدة كأنها مقدرة بميزان ، مضبوطة بقياس ؛ فترجع على تأقيضها واختلافها متعاوية يوازى بعضها بعضا ، وكان قانونها الطبيعى أن تنجاذب وتتساقط وتفسر الواحدة منها عمل الأخرى ، فيجى بها الشيء وضده معا : كالصدق والكذب ، والطمع والقناعة ، والشهوات النائرة والخمود الساكن ، إلى آخر ما تعد من هذه العرائز ؛ ولكها في استشعار الخطر تكون كالإشاه لا كالأضداد ، فيشد بعضها بعضا ، ويتم التذبذب منها نقصه ، ونحري كلها في قانون واحد : هو الدماغ بأجزائها عر مجموعها : نرى النازع منها وإبه لمستقر فى أشد من القيد ، وكان فيه غير طبيعته .

وهل يُنبئك مجموع صفاته صلى الله عليه وسلم إلا أنه يعيشُ معيشة القلب إذا اختلف ما حوله ولجأته فَنفَتُ الوجود فتجاوزَ أن يكون منبعاً للحياة إلى أن يكونَ حافظاً للحياة في منبعها ؟

وتلك الحالة - كما مرَّ بك - تحملُ وجودَ الإنسان هو وجودَ إرادته وعقله ، لا وجودَ شهوته وعراته ، وكذلك عاش نبيُّنا صلى الله عليه وسلم ؛ فهو مدةَ حياته في وجودِ إرادته لا غيرها ، حتى ليس عليه سبيلٌ لغميمةٍ أو لائمةٍ ، كأنه خلقٌ تشدُّه بهُ مستيقظة قد نهها ما يلبه النفس من الغرر والخطر ، ولعل هذا الشعور في نفسه صلى الله عليه وسلم هو المسيرُ لقوله : « نية المؤمن خيرٌ من عمله » إلى أحاديث كثيرة مما يحرى في معنى هذه الكلمة الجامعة ، يريد بها : ان نية المؤمن لا تنطوي إلا على الخير الكامل ، فهو - ما دامت نيته على صلاحها وسرّه على إحلاصه - لا يمدُّ اليسيرَ من الشر يسيراً ، ولا يرى الكثير من الخير كثيراً ، فالأصلُ القائمُ في تلك الية المؤمّة ألا يبدأ الشرُّ كي لا يوحّد ، وألا يلهيَ الخيرُ كي لا يفني ، فالمؤمن من ذلك على الخير والكمال أدكاً ، في حين أن عمله بطبيعته الإنسانية يتناولُ الخيرَ والشرَّ جميعاً ، ثم لا يكونُ إلا عملاً إنسانياً على نقص واضطرابٍ والنواء .

وقد لا يستطيعُ المؤمنُ أن يأنّ الخيرَ في بعض أحواله ، ولكنه يستطيع دائماً أن ينويه ويرغبَ فيه ويعزمَ عليه لبحق ضميره الطيب في كل ما همُّ به . ويحصرُ أفكاره في قانون بيته المؤمّة . وهذا هو الأساس في علم الأخلاق ، لا أساس من دونه .

والنية من بعدُ هي حارسُ العمل : فكل إنسان يستطيع أن يُذعن وأن يأبى ، ومن ثم تكونُ هذه الية رداً ومدافعةً من ناحية ، واستجابةً ومطابوعة من الناحية الأخرى ، فهي على الحقيقة متى صاغت كانت استقلالاً تاماً

للإرادة ، وكانت مع ذلك ضابطا لهذه الإرادة على حالٍ واحدة هي التي ينظم بها قانونُ المبدأ السامى .

ثم إنه لا ضابط لصحة العمل واستقامته إلا النيةُ الصحيحةُ المستقيمة ، فالتزويرُ والتلبيسُ كلاهما سهلٌ ميسورٌ فى الأعمال ، ولكنهما مستحيلان فى النية إذا خَلَصَتْ .

وهى كذلك ضابط للفضائل تُوجِّه القلوب على اختلافها وتفاوتها أنجاها واحداً لا يختلف ، فيكونُ طريقُ ما بين الإنسان والإنسان من ناحية الطريق ما بين الإنسان وبين الله .

وأشواقُ الروح لطبيعتها لا تلتهى ، فبعارضها الجسمُ يجعل حاجاته غيرَ منتهية ، يحاول أن يطمسَ هذه على تلك ، وأن يثلبَ الحيوانات على الروحانية ، فإذا كانت النيةُ مستقيمةً كَفَّتْهُ وأماتت أكثر نزعاته ، ووضعت لكل حاجةٍ حداً وهايةً ، وبذلك ترجع النيةُ إلى أن تكونَ قوَّةً فى النفس يخرُجُ بها الإنسانُ عن كثيرٍ مما يحدُّه من جسمه ، ليجرح بذلك عن كثيرٍ مما يحدُّه من معانى الأرض ...

وهى بعدَ هذا كله تحملُ الإنسانَ أن ينظرَ إلى واقعِهِ كأنه رقيبٌ حىٌّ فى قلبه ، لا يُرائيه ولا يُحامله ، ولا يُخدعُ من تأويل . ولا يُغرِّبُ فلسفة ولا تزين ، ولا يُسكِّنه ما تُسَوِّلُ النفس ، ولا يزالُ دائماً مهولاً للإساقى قائم : إن الخطأ أكثرُ الخطايا أن تنظُمَ الحياةَ من حولك وتتركُ الفوضى فى قلبك

وجملةُ القول فى معانى النية أنها فوهٌ تحملُ ماطرَ الجسم مُتساوياً مع ظاهره ، فتعاونُ الفرائزُ المحلقةُ فى النفس تعاوناً سهلاً طبعياً مألوفاً ، كما تتعاونُ أعضاء الجسم على اختلافها فى أطرافٍ ومهولة وطبيعة .

وكل صفات النى صلى الله عليه وسلم - بما ذكرناه وما لم نذكره - متى
أعترت بذلك الأصل الذى بيناه أنظمتها جميعاً ، فجاء بعضها تماماً على بعض
فى نسق رياضى عجيب ، وظهرت حكمة كل منها واضحة مكشوفة ، ورأيتها
فى مجموعها تصف لك عمرأ هندسياً دقيقاً قد بلغ الغاية من الكمال والروعة
والدقة ، لا يُعَدُّ حزمه منه جزءاً ، بل كله أجزاؤه ، وأجزاؤه كله ، كالوضع
الهندسى : إما أن يكون بـكله ، وإما ألا تكون فيه الهندسة كلها .

وليس بمجوع تلك الصفات فى معناها إلا صنعة الإنسان صنعة جديدة
تُخرجُه موجوداً من ذاتِ نفسه ، وتكثيرُ الغالبَ الأرضى الذى صُبَّ فيه ،
وتُفْرِغُه فى مثل قالبِ الكون ، فإذا هو غيرُ هذا الإنسان الضيق المنحصر فى
جسمه ودواعى جسمه ، فلا تُخصمه المادة ، ولا يُؤثِّرُ من سوء نظره لنفسه ،
ولا تُعْرِثُه الدنيا ، ولا يُمسكه الزمان ؛ إذ كانت هذه هى صفات المستعبد بأهوائه
لا الحرِّ فيها ، والخاضع بنفسه للمستغلِّ بها ، والمقبور فى إنسانيته لا الحىُّ
فوق إنسانيته ؛ ومثلُ هذا المستعبد الخاضع المقبور لا وجودَ له إلا فى حكم
حوائسِه ، فعملُه ما يعيش به لا ما يعيش من أجله ؛ ويتصل بكل شيء اتصالاً
مستوراً يلتهى فى هوى من أهواء الحيوان الذى فيه .

ومن المقابلة العجيبة أن يكون فى الإنسان الاجتماعى حيوان ، تقابله
الحكمة فى الحيوان الأليف بإنسان ، وحكهما واحدٌ ومنطقهما لا يختلف .
فلو أنك سألتَ حيوانَ الأعصابِ عن صاحبه الإنسان لقال لك : هو غلى
ومزرىعى ولو سألتَ كلباً عن حبه صاحبه ومبلغِ هذا الحب فى نفسه لما زاد
فى جوابه على أنه يحبه حبَّ اللقمة والعظمة ...

ومتى كان الإنسان فى حكم حوائسِه لم تُعد الأشياء عنده كما هى فى نفسها
بمعانيها الطبيعية المحدودة ، وأنعلبت كما هى فى فهمه بمعانٍ معاوية مضطربة ،

فلا يشعر المرء بائتلاف الوجود وتعاونيه، ولكن باختلافه وتناقضه ؛ فمن ثم لا تكون أسباب اللذة إلا من أسباب الألم ويدخل في كل حب بغض، وفي كل رغبة طمع، وفي كل خير شر، وفي كل صريح خبي، وهلم جرا؛ إذ لا بد من هذا كله متى غلب العاقب على الباقي، ولا بد من كل هذا في تمثيل رواية الخواص الخادعة التي أساسها التغير والتقلب، حتى لكان النفس إنما تعيش بها في ظاهر من الحياة لا في الحياة نفسها.

وهذا الخداع حائل كل شيء من أشياء النفس لا يبدأ إلا لينتهي، ثم لا ينتهي إلا ليبدا؛ فما تزال هذه النفس طامعة فيما لا تقاله، ولا يزال من ذلك مصدر لآلامها الحسية : ثم إذا هي نالت ما انتها سئمت، فلا يزال من ذلك مصدر آخر لآلامها المعنوية ؛ ولن يحى الصحيح من غير الصحيح؛ فالكون كله ليس إلا كذباً في النفس الكاذبة بحواسها.

ولذا كان أحسن أوصافه صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى خروجه من سلطان نفسه، فلا يعضب لها، ولا يبطلقها من الدنيا فيما تدته أو تمدحه، ولا يحب فيها. ولا يغيض من أجلها، ولا يهاوئها، ولا يستلبن لها في مآكل ولا مابس، ولا يأخذها إلا من محبة الإيمان بالله والإيمان بالإنسانية؛ فأوراحها أحزانها، وآمالها أشواقها، وأملا كلها أعمالها، وحسابها في طبعها، وحوادثها من العقل لا من الخواص، وعظمتها إنسان ذاتها في غيرها، لا إثبات غيرها في ذاتها؛ وغايتها في الباقي لا الزائل، وفي الخالد لا الفاني؛ وما دام الحاضر متحركاً فهو طارئ عار أو شك أمور الدنيا زوالاً، والعماء له على مقداره في قلة كئيبه وهوان أمره، والاهتمام أبداً بما وراءه لانه.

فأول النفس النية العاملة لآخرتها وأحر النفس ما تودى إليه أعمال هذه النية؛ فليس في إنسان الدنيا إلا إنسان العالم الآخر؛ وهذا يقدر صمنه وكلامه،

وحركته وسكوته ، وما يأتي وما يذبح ، وما يحب وما يكره ؛ إذ كل شيء منه على ذلك الاعتبار إنما هو صورة الحقيقة العاملة فيه .
وجماع الأمر ألا يكون مستقبل الإنسان علامة استهزاء بجانب ماضيه ، ولا علامة استفهام ، ولا علامة إنكار .

وتدل صفات النبي صلى الله عليه وسلم واجتماعها وتساؤها على حقيقة عظمى لم يتلها إليها أحد ، وهي أن جمع خصائصه النفسية مرقمة متباعدة ؛ وهذا مما يتندر وقوعه وإمكانه ؛ فإن الرجل مر الناس أيكون حياً بالحياة ، ولكن جوانب كثيرة من نفسه قد طاح بها الموت ، أو هي مريضة وذلك أول الموت ، أو غافلة وذلك يشبه الموت ، أما الحى العظيم فهو الذى يحيا بأكثر خصائص نفسه ، وأما الحى الأعظم فهو الذى يحيا بجمع خصائصها ، تملؤه الحياة فيملأ الحياة ، ويتددد السر فيه لبريه حقائق الأشياء ويهدية ويدله ، فيكون بنفسه رؤية للناس وهداية ودلالة ؛ ومثل هذا يعظم ثم يعظم حتى يرى الفرق بينه وبين غيره كالفرق بين نور ليس اللحم والدم ، وبين تراب ليس الدم واللحم وذلك لا يكاد يتفق إلا فى مراتب أعلاها الامتياز فى النبوة ، ثم تدنو إلى النبوة ، ثم تنزل إلى الامتياز فى الحكمة ، ثم تهبط إلى عبقرية الشعر ؛ فأكبر الشعراء قاطبة كالنبي فى معناه إلا أنه نبي صغير ، وإلا أنه فى حدود قلبه .

وهذه القوى الثلاث هى التى أبدعها الحكمة الإلهية لتحويل الحياة والسمو بها ؛ فالشاعر يستوحى الجمال إذا تأله الجمال فى قلبه ، والحكيم يستوحى الحقيقة إذا تأملت فى نفسه ، والنبي يستوحى الألوهية نفسها .

« كان صلى الله عليه وسلم متواصلاً بالأحزان ، ولكنها أحزانُ النبوة تكسو الحياة فرح النفس الكبيرة ؛ وهو فرح كله حزن وتأمل ، وفكرة وخشوع ، وظهور وفضيلة ، وما فرح أعظم الشعراء بطرب الوجود وجمال الموجودات إلا شيء قليل من حزن النبي ،

« وكان دائم العكرة ليست له راحة ، إذ هو مكلف أن يصنع الإنسان الجديد وينقح الأدمية فيه ؛ وفكره النبي هي مبعثه بنفسه مع الحقائق العليا ، إذ لا يرى أكثرها تعيش في الناس ، وهي الفردية واستقلالها وسوها . لأنها إطاعة النفس الكبيرة لوحدها بخلاف النفس الصغيرة التي لا تطيعها ، فدأبها أبداً أن تبحث عما تستعيد له ، أو تلتصق ذاتها فيه ، أو تستريح إليه من ذاتها . ومن كانت النفس فارغة كان تفكيرها مضاعفة لفرعها ، فهي تفر من نفسها ما يلهمها عنه ، ولكن العظيم يعيش في امتلاء نفسه ، وعالمه الداحلي تسميه اللغة أحياناً : الفكره ؛ وتسميه أحياناً : الصمت .

« وكان صلى الله عليه وسلم طويل الكنت لا يتكلم في غير حاجه ، ومن الصمت أنواع : فتوح يكرر طريقة من طرق الهمم من المرو وبين أسرار ما يحيط به ، وروح يعنى الإنسان النظيم ليكون . لأنه على ربه السر الذي في نفسه العظيمة ، وروح نالك يكون في صاحبه طريقة من طرق الحكم على صمت الناس وكلامهم ، وروح (ان) هو كالمصل من أعمال الجسد وبين الروح في ساعة أعمالها ، وروح خامس يكون صمتا على دوي تحت شمس نوما ساكنة على أحلام جميلة تحرك .

» » »

على هذا النمط يجب أن نُفَسِّر كل أوصافه صلى الله عليه وسلم ، فهي بمجموعها طائعٌ إلهي على حياته الشريفة ، يُبَيِّنُ للدنيا بكل برهانات العلم والفلسفة : أنه الإنسان الأفضل ، وأنه الأفضل ، وأن الأهمي .

سمو الفقر^(*)

في المصلح الاجتماعي الأعظم

كان النبي صلى الله عليه وسلم على ما يصفُ التاريخُ من الفقر والِقلة ، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء ، فهو فقيرٌ لا يجوزُ أن يوصفَ بالفقر ، ولا تناله المعاني النفسية التي تلو بعرَض من الدنيا وتنزلُ بعرَض ، فإكانت به خلةٌ تحدثُ هداماً في الحياة فيُرثيها المال ، ولا كان يتحركُ في سعى يُنفق فيه من نفسه الكبيرة لجمع من الدنيا ، ولا كان يتقلب بين البعيد والقريب من طمعٍ أدرك أو طمعٍ أخفق ، ولا نظر لنفسه في الحسبة والتدبير لتدبر معيشته فيحتلبها ذهباً أو فضة ، ولا استقر في قلبه العظيم ما يحملُ للدينار معنى الدينار ولا للدرهم معنى الدرهم ؛ فإن المعنى الحقي لهذا المال هو إظهار النفس رايةً متجسمةً في صورة تكبر على قدر من السعة والمعنى ؛ والمعنى الحقي للفقر من المال إراز النفس ضئيلةً مزويةً في صورة تصغر على قدر من الضيق والعسرة .

إن فقره صلى الله عليه وسلم كان من أنه يتسع في الكون لا في المال ؛ فهو فقرٌ يعدُّ من معجزاته الكبرى التي لم يتبَّه إليها أحدٌ إلى الآن ، وهو خاصٌّ به ، ومن أين تدركه رأيتُه في حقيقته معجزةً تواضعتُ وغيرت اسمها ، معجزةً فيها الحقائق النفسية والاجتماعية الكبرى ، وقد سقتُ زمناً بأربعة عشر قرناً ، وهي اليوم تُثبت بالدرهان معنى قوله صلى الله عليه وسلم في صفة نفسه : « إيماناً رَحمةً مُهداةً »

نحن في عصر تكادُ الفضيلة الإنسانية فيه تَلَحُّقُ بالألفاظ التاريخية التي

(*) انظر صفحة ٢٣٥ ، ٢٤١ « حياة الراضي » .

تدل على ما كان قديماً ... بل عادت كلمة من كلمات الشعر تراذ لتحريك
النسيم اللامع الراكد في الخيال ، كما نقول . السحاب الأزرق ، والفجر
الأيض ، والشفق الأحمر ، والتطير الوردي على ذيل الشمس . وأصبح
الناس ينظرون أكثرهم إلى أكثرهم بأعين فيها معنى وحشيت لو لمس لضرب
أو طعن أو دبح .

وعملت المدينة أعمالها فلم تزد على أن أخرجت الشكل الشعري لإنسانها
القبي منها فثراً ونعمة واقناً بين ذلك ، من أيسر الحلال إلى القطيع
المستفاد في الإباحة ؛ وكأنما وضعت المدينة سفلاً وحشيت ، فجاء وقد زادت
فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ ثم قابلته بالشكل الوحشي لإنسانها الفقير ، فكأنما
زعت عقلاً من إنسان ، فجاء وقد ضلّت فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ وكان مع
الأول سرف الهوى بالطبيعة ، وكان مع الثاني بالطبيعة سرف الحاجة .

وقد أصبح من نهكم الحياة أهلها أن يكون الفقير فقيراً وهو يعلم أن
صناعته في المدينة عمل العبيد .. وأن يكون العني غنياً وهو يعلم أن
عمله في المدينة هو صنعة الفقر لصيره !

وخرجت من هذا وذاك مسائل جديدة في فلسفة المعاشة الإنسانية التي
يسمونها « الاجتماع » ، فسؤال اسمه « الأثر الآتي » . « بسال القوة أن تجعل
صاحب المال من ماله كالمراة المطلقة من رُحائها . وسؤال اسمه « الشيوعية » ،
يطلب من القوة أن تسلط على كل حي ما يجعله في قواه كصاحب الدار ساط
عليه الطغيان فانهلبت داره بجمه ، فهو يألم من معنى دمه بمعنى شوائمه ،
ويكون أغبط له أن روح الحقن ليست شيئاً غير روح البيت ؛ وسؤال آخر
« العدمية » ،^(١) يأمر القوة أن تجعل الإنسان كالحوان المستولغ فيها بحد من

(١) العوضيّة وما هو في معاهها من طيش الترعّة الإذائيّة

طَبَّبَ وخَبِثَ : لا يبالى ذمًّا ولا عارًا ، وليس إلا أنه يعيش يموت أكلًا ونومًا .
هذا إلى أَسْئَلَةٍ كثيرة لو ذهبنا نَعُدُّها ونَصِفُها لَطال بنا القول ، وكلها عاملة
على نزع الشعور العقلي من الحياة لتظهر أَسْفَه ما هي ، وأقبح مما كانت ؛
حتى أصبحت الشمس تَطْلُعُ تمحو ليلًا عن المسألة وتُلْقِي ليلًا على النفس ،
في حين أن الدينَ والإنسانية لا يعملان غيرَ بثِّ هذا النور العقلي في الأشياء
والمعانى لتظهر الحياة مضيئةً مُلْتَمِعةً ، فصَحُّ أَوْضَحَ مما هي في نفسها .
وأجملَ ما هي في الطبيعة .

في مثل هذه النزعات المتقارِنة التي صَعِدَتْ بالفلسفة ، وزَلَتْ ، وجعلت من
العلم في صدر الإنسانية ملء سماء من الغيوم بسوادها ورغدها وصواعقها ،
وتركت العالم يسبحُ ضجيجَه المزعج في قلب كلِّ حيٍّ حتى لِنُدَاعِ الهومو إلى
قلوب الناس إذاعة الأصوات إلى أسماعهم في « الراديو » . . في مثل هذا البلاء
الماسح تَلَفَّتْ الإنسانية إلى التاريخ تسأله درسًا من الكمال الإنساني القديم تَطِبُّ
منه لهذه الحماقات الجديدة ، ولو علتْ لعلتْ أن درسَ هذا العصر في علاج
مشاكله الإنسانية هو « محمد » صلى الله عليه وسلم ، الذي لن يبلغَ أحدٌ في
وصفه الاجتماعي ما يبلغُ هو في قوله : « إنما أنا رحمةٌ مُهذَّاة » .

* * *

هذا المصلحُ الاجتماعيُّ الأعظم يُلقِي فقرُهُ اليومَ درسًا على الدنيا العلبية
الفلسفية ، لا من كتابٍ ولا فكرٍ ، ولكن ماحلَّاه وعملَه وسيرَه ؛ إذ ليس
المصلحُ من فكرٍ وكبٍ ، ووعظٍ وخطبٍ ، ولكنه الحى العظم الذى تلتئمسه
الفكرة العظيمة لحيا فيه . ونحملَ له عُمرًا ذَهَبِيًّا يكونُ صِرَافًا على حكما
فيكونُ تاريخُه ووصفُه هو وصفُ هذه الفكرة وتاريخها .
وما كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم إلا عمرًا ذَهَبِيًّا مُخَصًّا ، تمرُّ فيه المعانى

الإلهية لتظهر للناس إلهية مفسرة : وكل حياته صلى الله عليه وسلم دروس
مفصلة مختلفة المعاني ، ولكها في جملتها تخاطب الإنسان على الدهر بهذه الجملة :
أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك : أى إذا كانت الحياة
في الحقيقة فلا تكن أنت في الكذب ، وإذا كانت الحياة في الرجولة البصيرة
فلا تكن أنت في الطمولة الزفة : فإن الرجل يعرف ويذكر ، فهو بذلك
وراء الحقيقى : ولكن الطفل يجهل ولا يعرف الدنيا إلا بعيه ، فهو وراء
الوهم ، ومن ثم طيشه وزفه ، وإيثاره كل عاجل وإن قل ، وعمله أن تكون
حياته النفسية الضئيلة في مثل توثب أعضاء جسمه ، حتى كأنه أبداً يلعب
بظاهره وباطنه معاً ...

أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك : أى الحياة في ذاتك
الداخلية وقانون كالمها ، فإذا استطعت أن تخرج للأرض معى سماوياً من
ذاتك فهذا هو الجديد دائماً في الإنسانية ، وأنت بذلك عائش في القريب
القريب من الروح ، وأنت به شئ إلهى : وإذا لم تستطع وعشت في ديمك
وأعصابك فهذا هو القديم دائماً في الحيوانية ، وأنت بذلك عائش في البعيد
البعيد من النفس وأنت به شئ أرضى كالخجر والتراب .

هنا : أى في الإرادة التى فيك وحدك . ولا هناك : أى في الخيال الذى
هو فى كل شئ . وهنا : فى أخلاقك وفنائك التى لا تدفعك إلى طريق من
طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقاً من طرق الهداية والحكمة ، وليس
هناك ، فى أمورك ومعاشيك التى تجعلك كالص مندفعاً إلى كل طريق متى
كان هو بعينه طريقاً إلى نية أو سرقة . هنا ، فى الروح ، إذ تضمر الروح أنها
موجودة ، ثم تعمل لتثبت أنها شاعرة بوجودها ، ماضية إلى مصيرها . منبهة
بحسدها إلى الموت الإنسانى على سنة النفس الخالدة . وليس هناك ، فى الحس : إذ

يتعلق الحس بما يتقلب على الجسم ، فهو مهتاج لشعوره ، وشك فناءه فلا يُحدث إلا الألم إن نال أولم ينل ، وهو منه مجسمه إلى الموت الحيواني بين أكل وماكول على سنة الطبيعة الفانية .
أبها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تنكر أنت هناك .

إن الحكيم الذى ينظر إلى ما وراء الأشياء فيتعرّف أسرارها ، لا تكون له حياة الذى يتعلق بظاهرها ولا أخلاقه ولا نظرته ؛ هذا الأخير هو فى نفسه شيء من الأشياء له مظهر المادة وخذاعها عن الحقيقة ؛ وذلك الأول هو نفسه سر من الأسرار له روعة السر وكشفه عن الحقيقة . ولهذا كان فى حياة الأنبياء والحكماء ما لا يطيقه الناس ولا يضبطونه إذا تكلفوه بل ينحرق عليهم فيكون من العجز الغلط ، ويحدث من الغلط الزلل .

ونظرة نينا صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوجود نظرة شاملة مدركة لحقيقة الالهاية ، يرى بداية كل شيء مادى هى نهايته فى التو واللحظة ، فلا وجود له إلا عارضاً ماراً ، فهو فى اعتباره موجود غير موجود ، مستدى منه معاً ؛ وبذلك تبطل عنده الأشياء المادية وتأثيرها . فلا تتصل بنفسه العالية لإامن أضعف جهاتها ، ويحد لها الناس فى حياتهم الشجرة والفرع والتمر ، وما لها عنده هو جذر ولا فرع ؛ وهذا لم يفتنه شيء ولم يتعلق به شيء .

وكانت الدنيا تطول الناس وتقصر عنه ، وكانت منقطعة الماء وهو ذاهب فى عمه الروحى ، وكأنما هو صورة أخرى من آدم عليه السلام ؛ فكلاهما لمس بنفسه الحياة جديدة خالية مما جمع فيها الزم وأهل من طمع وشره ، وجاء آدم ليعطى الأرض نامها من صلبه . وجاء محمد ليعطى الناس قوايئهم من فضائله ؛ فأدم بشخصه هو دنيا بعثت اتسع ، ومحمد بشخصه هو دنيا بعثت لتلتظم .

وماذا يُفهم من الفلسفة الأخلاقية النبوية العظيمة ؟ يُفهم منها أن الشهوات خلقت مع الإنسان تتحكم فيه ، لينقلب بها إنساناً يتحكم فيها ؛ وأن الإنسان الصحيح الذي لم تزوره الدنيا يجب أن يكون ذا روح يمتد فيفيض عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى ، حتى يُصيح في حكم النور وانطلاقه وحرية ، ولا ينكش فيحصره جسمه في غايته وضروراته فيرتد إلى ما هو أسفل أسفل حتى يعود في حكم التراب وأسرِهِ وعبوديته : فالفقر وما إليه ، والزهد وما هو بسبيل منه ، والانصراف عن الشهوات والذائل - كل ذلك إن هو إلا تراجع النفس العالية إلى ذاتها النورانية ، حالاً بعد حال وشيئاً بعد شيء ، لتتضئ على المادة فتكشف حقائقها الصريحة فلا تُتاليها ولا تقيم لها ورماً ؛ فبينما الناس يرون الأموال والشهوات مادة حياة وعملٍ وشعور ، تراها هي مادة بحثٍ ومعرفةٍ واعتبارٍ ليس غير ، وهذا تكون النفس العظيمة في الدنيا كأستاذ المعلم : تدخل المادة إلى معمله ، وهي مادة وفكرة ، وتخرج منه وهي حقيقة ومعرفة ، وعلى أي أحوالها فهي إنما تُحس في ذلك العمل بأصابعٍ عليه دقيقة ليس فيها الجمع ولا الحرص ، ولكن فيها الذهب والسكر ؛ وليس لها طبيعة الرغبة والعملة ، ولكن طبيعة الانتباه والنحرز ، وليست في أمر المادة ، ولكن المادة في أسرها ما شامت .

ولا يسمى فقره صلى الله عليه وسلم زهداً كما يظن الضعفاء من يتعلقون على ظاهر التاريخ ولا يحققون أصوله النفسية ؛ وأكرمهم يقرأ التاريخ النبوي بأرواحٍ مظللة تربهم ما ترى العين إذا ما اختلط الظلام وليس الأشياء قراءات مجملة لا تفصيل لها ، مفرعة لا تبيين فيها ؛ وما بها من ذلك شيء ، غير أنها تراهي في بقية من الصبر لا تغمرها .

وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو ملك ، وتتركه وهو بك

متعلق ؟ فذلك بخيرية ومُثَلَّة ، وهي في رأي تشويه للجسم بروحه ، وقد تنعكس فتكون من تشويه الروح بحسبها ؛ فليس يعلم إلا الله وحده أذاك تفسيرٌ إنسانية الزاهد بالنور ، أم هو تفسيرٌ بالتراب ...

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يملك المال ويحده ، وكان أجودَ به من الریح المرسلَة ، ولكنه لا يدعُه يقاسلُ عنده ، ولا يتركه ينبت في عمله ، وإما كان عمله ترجمةً لإحساسه الروحي ؛ فهو رسولٌ تعليمي ، قلبه العظيم في القوانين الكثيرة من واجباته ، وهو يريد إثبات وحدة الإنسانية ، وأن هذا الإنسان مع المادة الصائنة الممياء مادةٌ مفكَّرةٌ مميزة ، وأن الدين قوةٌ روحية يلقى بها المؤمنُ أحوالَ الحياة فلا يثبت بإرائها شيء على شئنيته ، إذ الروحُ خلودٌ وبقاء ، والمادةُ فناء وبخول ، وس تم تخضع الحوادث للروح المؤمنة وتذمر معها ، فإن لم تخضع لم تُخضعها ، وإن لم تتغير لا تتغير الروحُ بها ؛ وأساسُ الإيمان أن ما ينتهي لا يبدى أن يتصرفَ مما لا ينتهي .

وما قيمة العقيدة إلا بصدةً في الحياة ؟ وأكثر ما يصنع هذا المال : إما الكذب الضَّراح في الحياة ، وإما نُبْهة الكذب - ولهذا تزهة النبي صلى الله عليه وسلم عن العلق به ، وراده بعداً منه أنه نبي الإنسانية ومثلها الأعلى ، لحياته السريفة ليست كما ترى في الناس : إجماداً لحلِّ مسائل الهمد وتعقيداً لمسائل غيره ، ولا توسعاً من ناحية وتنسيقاً من الناحية الأخرى ، ولا جمعاً من هنا ومنعاً من هناك ؛ بل كانت حياته بعد الرسالة منصرفة إلى إقرار التوارث في الإنسانية ، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلاف مراتبهم ، كيف يكون لهم عملٌ واحد من الكون ؟ وهذا العقل الكوفي السام يرى المؤمن إذا عَرَضَ له الشيء من الدنيا يفتنه أو يضره عن واجب الإنسان - أبت نفسه العظيمة ولا أن ترتفع بطبيعتها ، فإذا هو في قانون السمو ، وإذا المادة في قانون التقل ؛ فيرتفع وتهاوى ويصبح الذهب - وإنه ذهبٌ - وليس فيه عند المؤمن إلا روحُ التراب !

سمو الفقر

في المصلح الاجتماعي الأعظم

٢

قالت عائشة رضى الله عنها : لم يمتلئ جوفُ النبی صلی الله علیه وسلم شَبَعًا قطً ، وإنه كان فی أهله لا یسألهم طعاما ولا یتشبهاء ، إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قَبِل ، وما سَقَوْه شَرِب .

وقالت : ما شَبَحَ آلُ محمدٍ من خبز الشعیر یومین متابعین حتی قبض رسولُ الله صلی الله علیه وسلم .

وعنها : کما آلُ محمدٍ ممکث شهرًا ما تَسْتَوِقُدُ بنار ، إنَّه هو إلّا التمرُ والماء .
وقالت : ما رَفَعَ رسولُ الله صلی الله علیه وسلم قط غَداءَ لعشاء ، ولا عشاءَ لغداء ، ولا آتخذ من شئ زَوْجین ؛ لا قیصین ، ولا ردائین ، ولا إزارین ، ولا روجین من النعال .

وبروی عنها ، قالت : تُوْفِی رسولُ الله صلی الله علیه وسلم وليس عندی شئ یأکله ذو کَید ، إلا شَطْرُ شعیرٍ فی رَفٍّ لی .

وقالت : تُوْفِی رسولُ الله صلی الله علیه وسلم وِدْرَعُهُ مرهوتةٌ عند یهودی فی ثلاثین صاعا من شعیر .

وعن ابن عباس : کان رسولُ الله صلی الله علیه وسلم یَیْتُ الیالی المتابعةَ وأهله طاولیا لا یحدون عشاء ، وإنما کان خبزهم الشعیر .

وعن الحسن ، قال : حطَب رسولُ الله صلی الله علیه وسلم فقال :

« والله ما أمسى في آل محمد صاعٌ من طعام ، وإنما لتسعةُ آياتٍ ، والله ما قالها استقلالاً ، ولكن أراد أن تتأسى به أمته .

وعن ابنِ جُبَيْر ، قال : أصاب النبيَّ صلى الله عليه وسلم جوعٌ يومًا ، فعمدَ إلى حجرٍ فوضَعَه على بطنه ، ثم قال : أَلَا رَبُّ نَفْسٍ طَاعِمَةٍ نَاعِمَةٍ في الدنيا ، جائعةٌ عَارِيَةٌ يومَ القيامةِ : أَلَا رَبُّ مُكْرِمٍ نَفْسَهُ وهو مُهِنٌ لها ؛ أَلَا رَبُّ مُهِنٍ نَفْسَهُ وهو مُكْرِمٌ لها .

وَحَيَّرَ صلى الله عليه وسلم أَن يكونَ له مثلُ «أَحَدٍ» ذهابًا فقال : « لا يارب : أَجوعُ يومًا فأدعوك ، وأشبعُ يومًا فأحمدك ! »
وكان يقول في دعائه وَيُكثِّرُ منه : « اللهم أَجِبْنِي مِسْكِينًا ، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا واحشُرْنِي في زُمرةِ المساكين . »

هذا هو سيدُ الأُمّةِ ، يُمِسِّكُهُ في الحياة نبيًّا عظيمًا ما يُنْخِرُحُ غيره منها ذليلاً محتقرًا ، وكأما أشرقُ صماءٍ نفسه على ترابِ الأرضِ وردةُ أشعةِ نورٍ ، على حين يُبَاقِي الناسُ على هذا الترابِ من ظلامٍ أنقَسَمَ فلا يَبْقَى ترابًا من يرجعُ ظلامًا ، فكأنهم إذ يمشون عليه يَطْمَئِنُّونَ المجهولَ بخوفه ودرَوْنِهِ ، ثم لا يستقرُّ ظلامًا بل يرجعُ آلامًا ، فكأنهم يَنْبِتُونَ على المرضِ لا على الحياة ؛ ثم لا يَنْبِتُ آلامًا بل يتحوَّلُ قُوْرَةً وتوثبًا تكونُ منه نَزَوَاتُ الحقِّ والحنونِ في النفسِ .

هؤلاء الذين تعيش أنفُسُهُم في الترابِ ، ويتنَزَّعون بأخلاقهم فيه ، يَنْغَلِبُونَ على الحياة من صُنْعِ الترابِ ماسًا دودًا كقطعِ الدُّودِ : لا يَقَعُ في شيءٍ إلا أفسده أو قذَّره ؛ أو قوماً سوسًا كقطعِ السُّوسِ : لا يبالُ شيئًا إلا تحرَّه أو عابه ، فهم يورِقُونَ الخللَ في نظامِ أنفُسِهِم ، فإذا هي طائشةٌ تُنْجِلُّ لهم كأنما اختلَّتْ نوااميسُ الدنيا ، وكأنَّ الله قبَضَهُم ووسطَ عِيَرِهِمْ ، وشعلهم وفرَّعَ من عدامٍ ، وابتلام

على مُسْكَةِ الرِّزْقِ ^(١) بالشهوة المسعورة التي لا تتحقق ، فضرَبَهم بالمجاهدة التي لا تقطع ، وأنعم على غيرهم في بَسْطَةِ الرِّزْقِ بالشجرة المسعورة التي لا تقطع منها ثمرة إلا نبت غيرها في مكانها .

إن ما وصفناه من فقر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم يكن له عَتِيدٌ حَاضِرٌ ، وأنه لم يجعل نفسه في مَمِّ المال ، ولا جعلته نفسه في مَمِّ الفقر ، وأنه لقي الحياة حاملاً لا محمولاً ، واستقرَّ فيها هادئاً لا مضطرباً - كل ذلك إنما ثبت للدنيا أنه خَلِيقٌ وُبِعَتْ وعاش ليكون درساً عملياً في حل المشكلات الاجتماعية ، يعلمُ الناسَ أنها لا تتعقَّد بطبيعتها ، ولكن بطائِئهم فيها ؛ ولا تستمرُّ بقوَّتها ، ولكن بإمدادِ قواهم لها ، ولا تُغْلِبُ بصوَّلتها ، ولكن بحِزَمِهم منها ؛ ولا تُفْضِلُ من ذاتِ نفسها ، ولكن من سوءِ أثرِهم عليها وسوءِ نظرهم لأنفسهم ولها .

فإذا قرأتَ الأحاديثَ التي أسلفناها فلا تقرأها زهداً وتَقَلُّلاً ، ولا فقراً وحُجوعاً ، ولا احتلالاً وحاجةً ، كما تُترجمها نفسك أو تُحِسُّها ضرورتك ؛ بل انظر فيها واعتبرها بنفسه هو صلى الله عليه وسلم ثم امراها شرعاً اجتماعيةً مُفَصَّلةً على طبيعة النفس ، قائمةً على أن تأخذَ نفسُ الإنسان من قوى الدنيا عناصرها الحيوية ، لتعطى الحياة من ذلك قوة عناصرها .

والحياة العامةُ غيرُ الحياة الوادعة ، هما ذكرٌ وأناى : أما الأولى فهي ما وصفنا وحكىنا ، وأما الثانيةُ فهي تَغْلُلُ الدمة ، وإطلاق قانونِ الِاسْلِ في المال ينمى بعضه بعضاً وَيَنْتُكُ دمه على بعض ، ثم إقامة الجباه على الزدة ومَقْومَاتِها ، وقيامُ الزينة على الخداع والبلابغ ، فُقْبِلُ المرءُ من رنناد على ماهو جدير أن يصرِّفه عنها ، ويحبُّ منها ما كان ينبغي أن ياعدته فيها . وكلُّ

(١) مسكة الرزق . صد بسطة الرزق ، أى الضيق والسعة

مارأيت وعلمت في رجل قُوَّةُ القرَّةُ فهو هناك ؛ وكل ما علمت ورأيت في
أنتى قُوَّتها الضعْفُ فهو هنا

فالسوادُ الذي تراه في فقره صلى الله عليه وسلم هو السوادُ الحى ، سوادُ
اللبل حولَ الروحِ النَّجْمِيَّةِ الساطعة ؛ وذلك الترابُ هو الترابُ الحى ، ترابُ
الزروع تحت التَّضَرَّةِ والحُضْرَةِ ؛ وتلك الحاجةُ الجسميةُ هي الحاجةُ الحيةُ الدافعةُ
إلى حرية النفس ؛ وذلك الإقلالُ من فهم اللذة هو الإقلالُ الحى الذى يزيد
قوةَ فهم الحمالِ فى السماء والأرض وما بينهما ؛ وذلك الضيقُ فى حَيِّزِ المَتَاعِ
للحاسة ، هو الضيقُ الحى الذى يُوَسِّعُ حَيِّزَ المَتَاعِ للروح ؛ وبالجملة فذلك النقصُ
من المادة لم يكن إلّا لنى النقص عن المفضيلة ، وذلك الاحتقارُ للعَرَضِ
الفانى الزائل هو المعنى الآخرُ لتقديس الحالِ الباقي .

فليس هناك خُبْرُ الصغير ، ولا الجوع ، ولا رهْنُ الدرع عند اليهودى ؛
كلا ، كلا ، بل هناك حقيقة نهميه عقلية ، ثابتة مُثَبِّتة ، قائمة بعناصرها
السامية : من اليقين والمقل والحكمة ، إلى الرقى والحلم والتواضع ، تخبرُ هذه
الدنيا العليةُ الفلسفيةُ المفكرةُ أن ذلك النبى العظيم هو الرجلُ الاجتماعىُّ
البامُ بأخلاقه ومصائله ، وهو الذى بُعثَ لتنقيح غريرةِ بازُعِ القاء ، وكسْرِ
هذه الحيوانيةِ وَقْعِ زَوَاتِها ، وإماتَةِ دَواعِها ، والسموِّ بحواطرها فهو بنفسه
صورةُ الكمالِ الذى بُعثَ لتحقيقه وإثباتِ أنه الممكنُ لا الممتنع ، والحقيقىُّ
لا الخيالى .

ليس هناك دِرْعٌ مرهوبةٌ فى ثلاثين صاعا ، ولا الففرُ ، ولا خُبْرُ الصغير ؛
كلا ، كلا ، بل هناك تقريرُ أن الصبرَ فى معركة الحياة لا يأتى من المال والثراء
والمَتَاعِ ، ولكن من المعاناة والشدة والصبر ؛ وأن التَّوَدُّمَ الإنسانى لا يباع بعباءة
ولا يؤخَّذُ قَومًا ، بل هو استراخٌ من الحرادِبِ بالأحلاق التى تغلب على الآرامات

ولا تغلب الآزِمَات عليها ، وأن هذا المال وهذه الشهوات - في حقائق الحياة ومَصَارِهَا - كَكُنُوزِ الأحلام : لا تكونُ كنوزاً إلا في مواضعها من أرض الغفلة والنوم ، فلأذلة منها إلا بمقدارٍ خفيفٍ من هذه الغفلة ؛ وليس إلا الأحقُّ أو المخبولُ أو الضائع هو الذى يقطع العمرَ نائماً أبداً ليظلَّ مالكا أبداً لهذه الكنوز... وهو يعلم أنه لا بد مستيقظ ، وأنه متى انتبه في آخرته لم يجد منها شيئاً « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » .

كلا ، كلا ، ليس هناك فقرٌ ولا جوعٌ وما إليهما ؛ بل هناك وضعُ هذه الحقيقة : ينبغى أن تجده نفسك ، وموضع نفسك ، وإيمان نفسك ، وعزّة نفسك ؛ فإذا أدركت ذلك ورفعت نفسك إلى موضعها الحق ، وأقررتها فيه وحسبها عليه ، وحددتها بالإنسانية من ناحية وواقع من الناحية المقابلة - رأيت إذن أن قيمتك الصحيحة في أن تكون وسيلة تُعطى وتعملُ لتعطى ، لا غاية تأخذ وتعملُ لتأخذ ، ومهما ضيق عليك فإنما أنت كالشجرة الطيبة : تأخذُ زماماً وتصنعُ حلالة .

وما قطّ نبتت شجرةٌ في مكانها لأكلَ وتشربَ وتخزنَ السّماذ والزراب وتحصنها وتمنعها عن غيرها ، ولو قد فعلت ذلك شجرةٌ لكان هلاكها فيما تفعل ؛ إذ تحاولُ أن تصاعفَ قائمتها من قانون العالم ، فيكون طمعها سريعاً في إفساد الصلة بينهما ، فلا يجد القانونُ فيها نظامه ، ومن ثم لا يجد في القانون نظامها ، فيهلكها الذى كان يُحييها ، وتستعبد لحظّ نفسها ؛ فيفقدُها ذلك حرية الحياة التى كانت لها فى نفسها .

يقول نبينا صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن بكل حيرٍ على كل حال ، إن نفسه تُزعجُ من بين جنبيه وهو يحمدُ الله عزَّ وجلَّ ، فهذا هو أسمى قانون

اجتماعي يمكن أن تظفر به الإنسانية ، وما يأتي لما ذلك إلا إذا أصبحت تلك المعاني التي أومأنا إليها شعوراً اجتماعياً عاماً ، مقرّراً في النفس ، قائماً فيها على إيمان راسخ بأن الفرد هو صورة المجتمع لا صورة نفسه وحدها ، وأن الناس كحبّ القمح في السبلة : ليس بجميعه إلا قانونٌ واحد ، فوضع كل حبة من السبلة هو ثروتها . عَكَتْ أو سَفَكَتْ ، وَكُتِرَ ما تأخذه أو قَلَّ ، وإذا كان أساس الحياة في الحبة منها أن نجد قوامها وكفايتها من مادة الأرض ، قيام الحياة فيها أن يغمُرها النورُ مِنْ حَوْلِها ، وأن يستمرّ النور من حولها يغمُرُها .

الحبة من السبلة بكل خير على كل حال ، ولأنها تُسَنِّعُ وما بها أنها بُرِعتْ ، ولكنها أدّت ما تؤدي ، وأقطعت من قانون لتصل بقانون غيره ، وما أَعْتَلَتْ ولا أَعْتَرَتْ ، ولا أَكْثَرَتْ ولا أَخَفَّتْ ؛ بل حَقَّقَتْ موضعها ، فإنها مانتتْ لَتَبَقْ ، وما نمتْ إلا لينقطع نماؤها . وكذلك المؤمنُ الصحيحُ الإيمانِ الصادقُ النظرِ في الحياة : هو أبداً في قانونِ آخِرَةٍ ، فهو أبداً في عملٍ خَيْرِهِ والناسُ في هذه الحياة كحَشْدٍ عَظِيمٍ يَتَدَقَّقُ من مِصْزِيقٍ بين جبلين يَنْغَدُ إلى الفضاء ؛ فإذا هم أدركوا جميعاً أنهم مُقْضُونَ إلى هذه النهاية ، مرُّوا آمِنِينَ ، وكان في يقينهم السلامة ، وفي صبرهم الوقاية ، وفي نظامهم التوفيق ، وفي تعاونهم الحياة ؛ فهم بكل خير على كل حال ، مادام هذا قانونُ جميعهم ؛ قائماً رَجُلٍ شَذَّ مِمَّ فاضطربَ قطاشٌ ، هَلَكَ وأهلكَ مَنْ حوله ، ومن عكسَ منهم موضعهُ ونكَّصَ على عَقِيهِ ، أهلكَ مَنْ حوله وهَلَكَ . والموتُ أشقُّ الموتِ هنا في هذا المِصْزِيقِ بين الجبلين - أَعْتَبَارُ الحاضرِ حاضراً فقط ، والصبرُ منه ، وجعلُ كلِّ إنسانٍ نفسه غايةً والحياةُ أهناً الحياة - أَعْتَبَارُ الحاضرِ بما وراءه ، والصبرُ على شتته ، وجعلُ الإنسانِ نفسه وسيلة .

فذلك معنى خبز الشعير ، والقلة والضيق . ورهن الدرع عند يهودى من سيد الخلق وأكلهم ، ومن لو شاء لمشى على أرض من الذهب ؛ فهو صلى الله عليه وسلم يعلم الإنسانية أن الرجل العظيم النفيس لا يكون في الحياة إلا ضيقاً مازلاً على نفسه

ومن معاني ذلك الفقر العظيم أن خبز الشعير هو رمز من رموز الحياة على التحلل من خلق الآخرة ، والبرائة من هوى الترف : ورهن الدرع رمز آخر على التخلص من الكبرياء والطمع ؛ « العسرة رمز ثالث على مجاهدة الملل الحى الذى يفسد الحياة كما يفسد بعض البساتين النبات . وبمجموع هذه الرموز رمز محال على وجوب الإيقاظ النفسى للأمة العزيرة التى تفقد أنفسها بمقاساة الشدائد ومجاهدة الطباع . لتكون فى كل فرد مادة الجيش ، وليصلح هذا الجيش قائداً للإنسانية .

على أنه صلى الله عليه وسلم حب على طلب اليسار ، والتغلب من الأعمال الشريفة بالقلة والمال ، فقال : إنك إن تدع عيالك أغنياء ، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس . ورأى عامداً قد أقطع للعبادة حتى أكلت نفسه جسمه ، ووصفوا له من زهده وعبادته ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من يعوله ، قالوا : كلنا نعوله . فقال : « كلكم خير منه .. » إلى أحاديث كثيرة مروية ، هى تمام العاون الأذى الاجتماعى فى الدنيا ، تثبت أن الحى إن هو إلا عمل الحى .

ولكى حين يكون سيد الأمة وصاحب شريعتها رجلاً فقيراً ، عاملاً محامداً ، يكندح لعيشه . ويحوج يوماً ويشبع يوماً ، فلم يقلب يديه فى تلال من المال يرثه ، ولم يجمعهما على طريق منه يؤرثه . ذلك هو ما بيناه وشرحناه وذلك كالامر ما قد أارخصه فيه ، على ألا نأخذ الغنى من الفقير عدداً اجتماعياً

لفقر هذا ولحال ذلك ؛ بل هي المساواة النفسية لا غيرها وإن اختلفت طبقات الاجتماع ، والاكرم هو الاتقي لله بمعنى التقوى ، والاقوم بالواجب على معنى الواجب ، والاكفا للإنسانية في معاني الإنسانية .

فقر ذلك السيد الأعظم ليس فقرا ، بل هو كما رأيت : ضبط السلطة الكاتبة في طبيعة الملك ، لقيام التعاون الإنساني على أساسه العملي ؛ هو المحاجة العادلة بين المصالح الاقتصادية الطاغية : يمنع أن تأكل مصلحة مصلحة فتهلك بها ، ويوجب أن تلد المصلحة مصلحة لتحيها بها .

والى الفقير العظيم هو في التاريخ من وراء كل هذه المعاني كالفاضل الجالس وراء مواد القانون ، صلى الله عليه وسلم .

درس من النبوة

قالوا : إنه لما نصر الله (تعالى) رسوله ورد عنه الأحزاب وفتح عليه قرينة والتصير^(١) ، ظن أزواجه صلى الله عليه وسلم أنه اختص بنفائس البرد وذخائرم ، وكى تسع يسوة : عائشة ، وخفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وصفية ، وميمونة وزيلب ، وجويرة ؛ فبعدن حوله وفس : يا رسول الله ، بات كسرى وقيصر في الخلى والحلل ، والإماء والحول ، ونحن على ما تراه من العاقبة والضيق .. ! وآلن قلته بمطالنتهن له بتوسعة الحال ، وأن يعاملهن مما تُعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم ؛ فأمره الله تعالى أن ينلو عليهن

(١) هماحيان من أحياء اليهود ، وكان ذلك في أواخر سنة خمس للهجرة .

ما نزل في أمرهن من تخييرهن في فراقه ، وذلك قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كننَّ تُرِذَنَ الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنَّ وأسرحنَّ سراحاً جيلاً ^(١) ؛ وإن كننَّ تُرِذَنَ الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدُّ للبحينات منكن أحراراً عظيمًا . »

قالوا : وبدأ صلى الله عليه وسلم بعائشة - وهي أحبهن إليه - فقال لها : « إني ذاكركُ لك أمراً ما أحب أن تعجلِي فيه حتى تستأمرِي أبويك ، قالت : ما هو ؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيك أستأمرُ أبوي ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله ! »

ثم تتابعن كلهن على ذلك ، فسماهن الله « أمهات المؤمنين » ، تعظيماً لحقهن ، وتأكيذاً لحرمتهن ، وتفصيلاً لهن على سائر النساء .

هذه هي القصة كما تُقرأ في التاريخ وكما ظهرت في الزمان والمكان ، فلنقرأها نحن كما هي في معاني الحكمة ، وكما ظهرت في الإنسانية العالِية : فسجدُ لها غوراً بعيداً ، ونعرفُ فيها دلالة سامية ، وتدينُ تحقيقاً فلسفياً دقيقاً للأوهام والحقائق .

وهي قبل كل هذا ومع كل هذا تنطوي على حكمة رائعة لم يتلبه لها أحد ، ومن أحلها ذُكرت في القرآن الكريم : لتكون نصاً تاريخياً قاطعاً يَدْفَعُ به التاريخ عن هذا النبي العظيم في أمرٍ من أمر العقل والعريضة ، فإن جهالة المبشرين في زماننا هذا ، وكثيراً من أهل الزيغ والإلحاد ، وطائفة من قصار النظر في التحقيق - يزعمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما استكثر من النساء

(١) السراح : الطلاق ، ومتعه الطلاق ما تعطاه المطلقة ، وهو يختلف حسب السعة والإقتار .

لأهواء نفسية محضة وشهوات كالشهوات؛ ويتطرقون من هذا الزعم إلى الشبهة؛ ومن أشبه إلى سوء الظن، ومن سوء الظن إلى قبح الرأي؛ وكلهم غبي جاهل؛ فلو كان الأمر على ذلك أو على قريب منه أو نحو من قريبه، لما كانت هذه القصة التي أساسها نقي الزيتة وتجريد نسائه جميعاً منها، وتصحيح التية بينه وبينها على حياة لا تحبها فيها معاني المرأة، ونحت حوى لا يكون أبداً جوهر الزهر.. وأمره من قبل ربه أن يحيرهن جميعاً بين سراجهن فيكن كالنساء ويجدن ما شئن من دواء المرأة، وبين إمساكنهن فلا يكن معه إلا في طبيعة أخرى تبدأ من حيث تلتقي الدنيا وزيلتها.

والقصة نفسها رد على زعم الشهوات، إذ ليست هذه لغة الشهوة، ولا ساسة معانيها، ولا أسلوب غضبها أو رضاها؛ وهاتها علق، ولا إطراء، ولا نعمة، ولا حرص على لده، ولا تعبير بلغة الحاسة؛ والقصة بعد مكشوفة صريحة ليس فيها معنى ولا ساسة معنى من حرارة القلب، ولا أنز ولا بقيه أثر من ميل النفس، ولا حرف أو صوت أو حرف من لغة الدم، وهي على منطق آخر غير المنطق الذي تستمال به المرأة، فلم تقصر على نبي الدهاء أو روية الدنيا عنهن، بل نقت الاما في ذلك أيضاً إلى آخر الدهر، وأمانت معناه في نفوسهن بقصر الإرادة من على هذه الثلاثة: الله في أمره وبهيه، والرسول في شدائده ومكائنه، والدار الآخرة في تكاليفها ومكارهها فليس هنا طرف، ولا رقة، ولا عاطفة، ولا سياسة لطبيعة المرأة، ولا أتمار لمراجها. ولا زلني لأنونتها، ثم هو تحبير صريح بن صدين لا تلون بين أحواله تكون مهمماً معاً، ثم هو عام لجميع زوجاته لا يستثنى منهن واحدة ولا أكثر.

والحرص على المرأة والاستمتاع بها لا يأتي شيء من هذا، بل يحاطب في المرأة حيالها أول ما يحاطب، ويشبعه مالة وتأكداً، ويوسخه رحاء وأملا، (٥٥ وحس القلم ٢٢)

ويقربُ له الزمنَ البعيدَ ، حتى لو كان في أول الليل وكان الخلاف على الوقت لحقَّ له أن الظهور بعد ساعة ...

* * *

دبرهان آخر : وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتزوج نساءه لمتاع بما يمتنع الخيالُ به فلو كان وَضَعَ الأمر على ذلك لما أستمam ذلك إلا بالزينة وبالعنِّ الناعم في الثوب والحليَّة والتشكُّل كما نرى في الطبيعة الفتيَّة ، فإن الممثلة لا تمثل الرواية إلا في المسرح المهيأ بمناظره وحَوِّه ... وقد كان نساؤه صلى الله عليه وسلم أعرف به ، وهما ذا ينفي الزينةَ عنهن ويخيرهن الطلاق إذ أصررن عليها ؛ فهل ترى في هذا صورةَ فكرٍ من أفكار الشهوة ؟ وهل ترى إلا الكمالَ المحصن ؟ وهل كانت متابعه الزوجات التسع إلا تسعة بُرْهاناتٍ على هذا الكمال ؟

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُلقى هذه القصة درساً مستفيضاً في فلسفة الخيال وسوء أثره ، على المرأة في أنوثتها ، وعلى الرجل في رجولته ؛ وأن ذلك تعقيدٌ في الشهوات بمقابلته تعقيدٌ في الطمع ، وكذبٌ في الحقيقة ينشأ عنه كذبٌ في الخلق ، وأنه صَرَفُ للرأفة إلى جباة الأحلام والآمان والعليش والبطر والفراغ ، وتعويذها عادات تُفسد عاطفتها ، وتُضيِّف إليها النصنع فتضعف قوتها النفسية القائمة على إدماج الحمال من حفيمتها لامن مظهرها ، وتحقيق الفائدة من عملها لامن شكها .

وكل محاسن المرأة هي خيال متخيل ، ولا حقيقةَ لشيء منها في الطبيعة ، وإما حفيَّةُها في الدين الباطرة إليها ، فلا تكونُ امرأة طاهرة إلا لافنون بها ليس غير ؛ ولوردت الطبيعة على من يُشَبِّبُ بأمراء جميله فيقول لها : هذه محاسنك

وهذه فتنتك وهذا سحرك وهذا وهذا : لغالت له الطبيعة : بل هذه كلها شهواتك أنت ^(١) ..

وبهذا يختلف الجال عند فقد النظر : فلا يفتن إلا على جمال الصورة ، ولا يحرم الشكل ، ولا فراهة المنظر : وإنما يفتنه صوت المرأة وبجستها ورائحتها .

فلا حقيقة في المرأة إلا المرأة نفسها : ولو أخذت كل أنثى على حقيقتها هذه لما فسد رجل ولا شغيت امرأة ، ولا تنظمت حياة كل زوجين بأسبابها التي فيها ، وذلك هو المثل المضروب في القصة .

يريد النبي صلى الله عليه وسلم ليعلم أمته أن حيف الغريزة على العقل إفساد لهذا العقل ، وأنه متى أخذت المرأة لحظ الغريزة واحتيارها ، كانت حياتها استجابة لجذون الرجل ، وملأتها معاني التزويد والتصنع : فيؤنسك أن ينفلها هذا عن طبيعتها السامية التي أكثرها في الجرماني والإيثاري والصبر والاحتفال ، ويردّها إلى أصداد هذه الصفات ، فيقوم أمرها بعد على الآثمة والمصلحة والنعادي والضجر والتزوم والإلحاح والإزعاج ، ويضعف معنى السلب الراسخ في نفسها من أصل الفطرة : فيتبدل حيائها ، وفي الحياة ردها عن أشياء : ويفل إحلاسها ، وفي الإحلاس ردها عن أشياء أخرى : ويكثر طمعها . وفي قناعتها محاذرة بينها وبين الشر .

وبهذا وبحوه يفسد ما بين الرجل والمرأة المتصنعة : فإذا كثر المتصنعات لا يكون من النساء مشاكل فقط ، بل تكون من حلول المشاكل معهن مشاكل أخرى ..

• • •

ولباب هذه النصّة أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل نفسه في الزواج المثل الشّعبي الأكمل كما هو دأبه في كل صفاء الدريمة فهو يريد أن تكون

(١) بسطاً هذا المعنى في كثير مما كتبه ، وحاشا في كتاب : (السحاب الأحمر)

زوجاته جميعاً كدساء فقراء المسلمين ، ليكونَ منهم المثلُ الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التي تترعُ البراعةَ كلها والصبر والمجاهدة والإخلاص والعفة والصراحة والقناعة ، فلا نكونُ المرأةَ ذينة تطلبُ ذينةً لثَمَّها في الخيال ، ولكن إنسانية تطلبُ كمالها الإنساني لثَمَّ به في الواقع .

وهذه الزينة التي تصنعها المرأة تكاد تكون صورة المكر والخداع والتعقُّد ، وكلما أسرفت في هذه أسرفت في تلك ، بل الزينة لوجه المرأة وجسمها سلاحٌ من أسلحة المعاني كالآلظافر ، المخالب ، الأناب ، غير أن هذه لوحشية الطبيعة الحية المفترسة . وتلك لوحشية الغريزة الحية التي تريد أن تفرس ولا تسكر المرأة نفسها أن الزينة على جسمها زُرَّة طويلة تقول وتقول ونقول .

* * *

ولما يكونُ أساسُ الجمال الإنساني ، و الإنسان العامل المجاهد : لا يحصرُ نفسه في شيء يسمى متاعاً أو زينة . ولا يقدرُ نفسه بما يجمع لها أو بما يجمع حولها ، ولا يعتدُّ بما يكونُ من ذلك إلا كالتعبير من عمل الشهوات عن الشهوات . وثبُّنا صلى الله عليه وسلم هو البانة في هذا : دخل عليه مرة عمر بن الخطاب ، فإذا هو على حصيرٍ وعليه إزارُهُ وليس عليه غيره . وإذا الحصيرُ قد أثر في حنجره قال عمر : وإذا أبا بقبته من شعبه نحو الصاع ، وإذا إهابٌ معاق^(١) ، فانتدرت عساي ، فقال : ما ييكك يا ابن الخطاب ؟ قال عمر : ياني الله ، ومالي لا أبكي وهذا الحصيرُ قد أثر في حنجره ، وهذه خزانك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك كسرى وقصرٌ في البُمار والآهار ، وأنت بئى الله وصفوته وهذه خزانك ؟^(٢)

(١) كس من حلق كان يتده العرب وعلمه .

(٢) الروايات من مثل هذا كثره صلى الله عليه وسلم ، وقد بدأنا باسمه هذه المعاني في مقال (سحر العفر)

وجاء مرة من سفرٍ فدخل على آبلته فاطمة رضى الله عنها فرأى على بابها سِتْرًا وفي يديها قُلْتَيْنِ مر. فضة ^(١) ، فرحح : فدخل عليها أبوراغ وهي تبكى ، فأخبرته برحوع أبيها ، فسأله فى ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : من أجل السر والسوارين .

فلما أخرها أبوراغ هتكت السر ^(٢) ونزعت السوارين فأرسلت هما بلالاً إلى النى صلى الله عليه وسلم وقالت : قد تصدقتُ به ، فضعه حيث ترى . فقال بلال : أذهب فبجعه وأدفعه إلى أهل الصُّفَّة ^(٣) باع الثقلين بدرهمين ونصف (نحو ثلاثة عشر قرشاً) وتصدق بها عليهم يا بنتَ النبي العظيم ! وأنت أيضاً لا رضى لك أبوك حلية بدرهمين ونصف ، وإن فى المسلمين فقراء لا يملكون مثلها ؟

أى رجلٍ شجبي على الأرض كحميدٍ صلى الله عليه وسلم ، فيه للأمة كلها غريزة الأب ، فبأعلى كل أحواله اليقين الذى لا يتحول ، وفيه الطبيعة التامة التى يكون بها الحقيقى هو الحقيقى ؟

يا بنتَ النى العظيم ! إن زينة بدرهمين ونصف ، لا تكون زينةً فى رأى الحق إذا أمكن أن تكون صدقة بدرهمين ونصف : إذ فيها حيلته معنى غير معناها : فيها حق الضر عالماً على حق الجماعة ؛ وفيها الإيمان بالمسعة حاكماً على الإيمان بالخير ؛ وفيها ما ليس بضرورى قد حار على ما هو الضرورى ، وفيها

(١) القالب بالصم . سوار من المعصير ملوى . هو الذى يقال له اليوم العويشة ، وهو حبيب .

(٢) أى مرقة ، وكذلك رأى مرة ستر على باب عائشة رضى الله عنها فتهتك وقال كلما رأيه ذكرت الدنيا أرسلني به إلى آل فلان .

(٣) الصفه . الله فـه ، وأهل الصدق ثم فقراء المؤمنين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ؛ فكانوا يأوون إلى موسى . مثال فى مسجد المدينة يسكنونه .

خطأ من الكمال إن صحَّ في حساب الحلال والحرام لم يصحَّ في حساب الثواب والرحمة .

تعالوا أيها الأشرار كيون فاعرفوا نبيكم الأعظم : إن مذهبكم ما لم تُحبِّه فضائلُ الإسلام وشرائعه - إن مذهبكم لكالشجرة الذائبة تلعفن عليها الأثمار تشدُّونها بالحيط ... كلَّ يومٍ تحلوت ، وكلَّ يومٍ ترطبان ، ولا ثمرة في الطبيعة !

ليست قصةُ التخيير هذه مسألةً من مسائل الغنى والفقر في معاني المادة ، ولكنها مسئلة من مسائل الكمال والنقص في معاني الروح : فهي صريحةٌ في أن النبي صلى الله عليه وسلم أستاذُ الإنسانية كلها واجبه أن يكون فضيلة حية في كل حبة ، وأن يكون عراة في كل فقر ، وأن يكون تهدياً في كل عنى ، ومن ثم فهو في شخصه وسيرته القانونُ الأدنى للجميع .

وكانه صلى الله عليه وسلم يُريد لعلم الأمة هذه القصة أن الجماعات لا تصلحُ بالعوازل رائعٍ والأمير والهي ، ولكن بعمل نظائرها في الأمر والهي ، وأن الحاكم على الناس لا ينبغي أن يحكم إلا إذا كان - في نفسه وطبيعته يُجسِّسُ فسة الدنيا لحاسن المتأطِّل لأناصع : ليكون أول استغلاله استقلال داخله .

فليس ذلك فقراً ولا زهداً كما يرى في ظاهر القصة ، ولكنها جرأة النفس العُظمى في تقرير حفاظتها العملية .

ونفهي القصة في بابه القرآن الكريم بتسميه زوجهاته صلى الله عليه وسلم : «أمهات المؤمنين» ، بما أن أحسن الله ورسلاً وإلهاً الآخرة ؛ وعلماء

التفسير يقولون : إن الله تعالى كأمّهم بهذه التسمية ؛ وليس ذلك بشئ .
ولافيه كبير معنى ، وإنما تُشعرُ هذه التسمية معنى دقيق هو آية من آيات الإعجاز ؛
فإن الزوجة الكاملة لا تكملُ في الحياة ولا تكملُ الحياةَ بها ؛ إلا إذا كان وصفُها
مع رجلها كوصفِ الأم : ترى أنّها بالقلب وممانيه ، لا بالغريرة وحظوظها ؛
فكلُّ حياةٍ حينئذٍ ممكنةُ السعادة لهذه الزوجة ، وكلُّ شقاءٍ محتملٌ بصبر ،
وكلُّ جهادٍ فيه لذّةٌ طبيعية ؛ إذ يقومُ البيتُ على الحب الذي هو الحبُّ
الحالصُ لا المنفعة ، وتكونُ زينةُ الحياة وجودَ المحبِّ نفسه لا وجودَ المادّة
وتبنى النفسُ على الوفاء الطبيعي كوفاء الأم ؛ وذلك خُلُقٌ لا يفسرُ عليه في
سبيلِ حقيقته أن يتغلّبَ على الدنيا وزيلتها .

وآخرُ ما نستخرجُ من القصة في درس النبوة هذه الحكمة :

يَحْسِبُ الْمُؤْمِنُ إِذَا دَخَلَ دَارَهُ أَنْ يَحْدَ حَقِيقَةَ نَفْسِهِ الطَّيِّبَةِ ، وَإِنْ لَمْ يَحْدَ
حَقِيقَةَ كِبَرِيٍّ وَلَا قِصَرٍ !

في دَوْرَتِهَا : تبدأ من حيثُ تبدأ ثم لا تنتهى إلا إلى حيثُ تبدأ ...

* * *

يضطربُ الاشتراكيون في أوروبا وقد عجزوا عجزَ مَنْ يحاول تغيير الإنسانِ زيادةً ونقصَ في أعصاه ؛ ولا يزال منهُبهم في الدنيا مذهبَ كُتُب ورسائل ؛ ولو أنهم تَدَبَّرُوا حكمةَ الصوم في الإسلام ، لرأوا هذا الشهرَ نظاماً علمياً من أقوى وأمدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة ؛ فهذا الصومُ فقرٌ إجباريٌّ تَعَرُّضُهُ الشريعةُ على الناسِ قرصاً ليتساوى الجميعُ في بواطنهم ، سواءَ منهم مَنْ مَلَكَ المليونَ من الدنانير ، وَمَنْ مَلَكَ القِرْشَ الواحدَ ، وَمَنْ لم يملك شيئاً ، كما يتساوى الناسُ جميعاً في ذهابِ كبرياتهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها الإسلامُ على كل مسلم ؛ وفي ذهابِ تفاوتهم الاجتماعي بالحج الذي يفرضه على من استطاع .

فقرٌ إجباريٌّ يراد به إشعارُ النفس الإنسانية بطريقةٍ عمليةٍ واضحةٍ كلِّ الوضوح ، أن الحياةَ الصحيحةَ وراءَ الحياةَ لافها ، وأنها إنما تكونُ على أتمها حين يتساوى الناسُ في الشعور لا حين يختلفون ، وحين يتعاطفون بإحساس الأمل الواحد لا حين يتنازعون بإحساس الأهوال المتعددة .

ولو حَقَّقْتَ رَأْيَ النَّاسِ لا يختلفون في الإنسانية بمقولم ، ولا بأنسابهم ، ولا بمراتبهم ؛ ولا بما ملَكُوا ؛ وإنما يختلفون ببطونهم وأحكامِ هذه البطون على العقلِ والعاطفة ، فمن البطن نكبةُ الإنسانية ، وهو العقلُ المعلَّى على الأرض ؛ وإذا أخلف البطنُ والدماغُ في ضرورةٍ ، مدَّ البطنُ مَدَّهُ من قُوَى المهضم فلم يُبق ولم يَدَّر .

ومن ههنا يتنازلُ الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب ، ويجعل الناسَ فيه سواءً ؛ ليس لمخيمهم إلا شعورٌ واحد ؛ حسنٌ واحدٌ وطبيعةٌ واحدةٌ ، ويُحكِّم

الأمر فيحول بين هذا البطن وبين المادة ، ويبالغ في إحكامه فيممسك حواشيه العvisية في الجسم كله يمنعها تغذيتها ولذتها حتى تفتت من دخينة ^(١) .

وهذا يضع الإنسانية كلها في حالة نفسية واحدة تنلبس بها النفس في مشارق الأرض ومغاربها ؛ ويُطلق في هذه الإنسانية كلها صيرت الروح يُعلم الرحمة ويدعو إليها ، فيشبع فيها هذا الجوع فكرة معينة هي كل ما في مذهب الاشتراكية من الحق ، وهي تلك الفكرة التي يكون عنها مساواة الغنى للفقير من طبيعته ؛ وأطمئنان الفقير إلى الغنى بطبيعته ؛ ومن هذين : (الأطمئنان والمساواة) ، يكون هدوء الحياة هدوء النفسين اللتين هما السلب والإيجاب في هذا الاجتماع الإنساني ؛ وإذا أنت نزعْتَ هذه الفكرة من الاشتراكية بقي هذا المذهب كله عبثاً من العث في محاوله جعل التاريخ الإنساني تاريخاً لخدمة له .

من قواعد النفس أن الرحمة تآماً عن الألم ؛ وهذا بعض السر الاجتماعي العظيم في الصوم ، إذ يبالغ أشد المبالغة ، ويدقق كل التدقيق ، في مع الغذاء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدة آخرها آخر الطاقة ؛ فهذه طريقته عملية لتربية الرحمة في النفس ، ولا طريقة غيرها إلا الذكبات والكوارث ؛ فهما طريقتان كما ترى ؛ بصره وعمياء ، وخاصة وعامة ، وعلى نظام وعلى فجأة ، ومتى تحققت رحمته للجائع الفقير ، أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانها النافذ ، وحكم الوازع النفسي على المماراة ؛ مدسوع الحش في ضميره صوت الفقير يقول : « أعطني » ، ثم لا يسمع منه طلداً من الرجاء ، بل طلباً من الأمر لا مفر من تلبيةه والاستجابة لمعاذيه ، كما يؤاسى المبلى من كان في مثل بلاته .

(١) الدخية . كلمة وصفاها للسيحارة ، وحتمها دحار

أية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضى أن يُحذف من الإنسانية كلها تاريخُ البطل ثلاثين يوماً في كل سنة ، ليحلَّ في محله تاريخُ النفس ^(١) ، وأما مُستيقنُ أن هناك نسبةً رياضيةً هي الحكمة في حمل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثنى عشر شهراً ، وأن هذه النسبة مُحَقَّقة في أعمال النفس للجسم ، وأعمال الجسم للنفس ؛ كانه الشهرُ الصَّحِي الذي يفرضه الطبُّ في كل سنة للراحة والاستجمام وتغيير المعيشة ، لإحداث الترميم العصبي في الجسم ؛ ولعل ذلك آتٍ من العلاقة بين دورة الدم في الجسم الإنساني وبين القمر منذ يكرن هلالاً إلى أن يدخل في المحاق ؛ إذ تلتفخ العروق وتربو في النصف الأول من الشهر ، كأنها في (مَدَّة) من نور الصمر مادام هذا النور إلى زياده ، ثم يراجِعُها (الحَزَرُ) في النصف الثاني حتى كأن للدم إضاءة وظلاماً ، وإذا ثبت أن للقمر أثراً في الأمراض العصبية ، وفي مدَّ الدم وجزره ^(٢) فهذا من أعجب الحكمة ، في أن يكون الصيام شهراً قريئاً دون غيره وفي ترائي الهلالِ وجوبِ الصوم لرؤيته معى دقيق آخر ، وهو - مع إنبات رؤية الهلال وإعلانها - إنبات الإرادة وإعلانها ، كأنما انبعت أولُ الشماع السماوي في التلبه الإنسان العائم لعرض الرخه الإنسانية والبر .

وهي حكمة كبيرة من حكم الصوم ، وهي عمله في تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العملي الذي يُدَرَّبُ الأصام على أد ، يتمتع باختياره من شهواته ولذته حيوانيته ، ويُصيرُ على الامناع ، مهياً له تعزيمته ، صاراعليه

(١) أنشد صنف المرسد المسمى ، فايحق الناس (تاريخ الطن) كما يحقونه في شهر رمضان ، وهم يوعون الدن في الليل بالهوى في النهار ، حتى حملوا الصوم لعبيراً لمواعد الأكل . ولكن الصوم على ذلك لم يحرمهم هوائه

(٢) قال الحاحل في الحيوان ولزياده الصر حتى يصبر بدرأه اترين في زيادة الدماء والادسه وحج الرطوبات

بأخلاق الصبر ، مُزاوِلا في كل ذلك أفضل طريقةٍ نفسيةٍ لا كتاب الفكرة الثابتة ترسخُ لا تتغير ولا تتحول ، ولا تعدو عليها عواصي الغريزة .
وإدراكُ هذه القوة من الإرادة العملية منزلةٌ اجتماعية سامية ، هي في الإنسانية فوق منزلة الذكاء والعلم ، ففي هذين تعرض الفكرةُ مازةً مُرورها ، ولكها في الإرادة تعرض لتستقر وتتحقق ، فانظر في أى قانون من القوانين ، وفي أية أمة من الأمم ، تجد ثلاثين يوما من كل سنة قد فُرِضت فرضا لذرية إرادة الشعب ومزاويله فكرةً نفسيةً واحدةً بخصائصها وملاساتها حتى تستقر وترسخ وتعود جزءا من عمل الإنسان ، لا خيالاً يثر برأسه مرأا .

أليست هذه هي إتاحة الفرصة العملية التي جعلوها أساسا في تكوين الإرادة ؟ وهل تبلغ الإرادة فيما تبلغ أعلى من منزلتها حين تجعل شهوات المرء مُدعِنةً لفكره ، منقادةً للوازع النفسى فيه ، مُصَرِّفةً بالحس الدينى المسيطر على النفس ، ومشاعرها ؟

أما والله لو عمَّ هذا الصوم الإسلامى أهل الأرض جميعا ، لآل معناه أن يكون إجماعا من الإنسانية كلها على إعلان البورة شهر أكملًا في السنة (١٠) أشهر العالم من ذنائبه وفساده ، وتحقق الأثرة والخل فيه ، وطرح المسئلة النفسية ليتدارسها أهل الأرض دراسه ملياً مدد هذا الشهر دارله ، فتهبط كلُّ رجل وكلُّ امرأة إلى أعمال نفسية ، مكاتبتها ، اختراقها ، تصحيح فكره معي الحاجة ومضى الفقر ولينهم ، طبعه جمعه - لاؤ الذكوب ، ابنى البر والنيات والإرادة ، ولسلغ من ذلك وذلك درجاب الإنسانية والموااسه والإحسان : فيحقق هذه وتلك محابى الإحسان والحرية والاراة .

نهرٌ هو أيام قلبه في الزمن متى أسرفت على الدنيا حال الرمن لاهله : هذه أيام من أنفسكم لا من أيامى ، ومن طبيعتكم لا من ليين : فقل العالم

كله على حالة نفسية بالغة السوء، يتعمد فيها النفس برياضتها على معالي الأمور ومكارم الاخلاق ، ويفهم الحياة على وجه آخر غير وجهها الكالح، ويراها كأنما أجيبت من طعامها اليومي كاحاع هو ، وكأنما أفرغت من خسايسها وشهواتها كما فرغ هو ، وكأنما ألزمت معاني التقوى كما ألزمتها هو. وما أجل وأدع أن تظهر الحياة في العالم كله - ولو يوما واحداً - حاملة في يدها الشبهة ... ! فكيف بها على ذلك شهراً من كل سنة ؟

إنها والله طريقة عملية لرسوخ فكرة الخير والحق في النفس ، وتطهير الاجتماع من خسائس العقل المادى ، ورد هذه الطبيعة الحيوانية المحكومة في ظاهرها بالقوانين ، والمحيرة من القوانين في باطنها - إلى قانون من باطنها نفسه يظهر مشاعرها ، ويسمو بإحساسها ، ويصير فيها إلى معاني إنسانيتها ، ويهذب من زياداتها ، ويحدف كثرة من فضولها ؛ حتى يرجع بها إلى محو من براه الطفولة ، فيجعلها صافية مسرقة بما يجتذب إليها من معاني الخير والصفاء والإشراق ؛ إذ كان من عمل الفكرة الثابتة في النفس أن تدعو إليها ما يلائمها ويتصل بطبيعتها من الفكر الأخرى ؛ والنفس في هذا الشهر تختبئ في فكره الخير وحدها ، فهي تبني بناءها من ذلك ما استطاعت .

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر . بل هو فصل نفساني كفصول الطبيعة في دوراتها ؛ ولمؤ والله أشبه بفصل الشتاء في حلوله على الدنيا بالجو الذي من طبيعته السحب والغيث ، ومن عمله إمداد الحياة بوسائل لها ما بعدها إلى آخر السنة ، ومن رياضته أن يكسيها الصلابة والأنكاش والحفة ، ومن عايته إمداد الطبيعة للفتح عن جمال باطنها في الربيع الذي يتلوه .

وعجيبٌ جداً أن هذا الشهر الذي يذكر فيه الجسم من قواه المعنوية فيودعها تصرف روحانيته ، ليجد منها عدد الشدائد مدد الصبر والثبات والعزم

والخالد والخشونة - عجيبٌ جداً أن هذا النهر الاقتصادي هو من أيام السنة كفاءة ٨ في المائة ... فكله يسجل في أعصاب المؤمنين حساب قوته وربحه فله في كل سنة زيادة ٨ من قوته الممنونة الروحانية .

وسخر العظماء في هذه الدنيا إما يكون في الامنة التي تعرف كيف تدخر هذه القوة وتوفرها لتستمتعها عند الحاجة ، وذلك هو سر أسلافنا الأولين الذين كانوا يحدون على الفقر في دماهم وأعصابهم ما تحب الجيوش العظمى اليوم في مخازن العتاد والأسلحة والذخيرة .

كل ما ذكرته في هذا المقال من فلسفة الصيام فإنما أستخرجته من هذه الآية الكريمة : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » . وقد فهمها العلماء جميعاً على أنها من معنى « التقوى » ، أما أنا فأولتها من « الاتقاء » ، بالصوم يتقّى المرء على نفسه أن يكون كالحب أن الذي شربته معدته ، ولا يُعامل الدنيا إلا بما رواه هذه الشريعة ، ويتقّى المجتمع على إنسانيته وطبيعته مثل ذلك ، فلا يكون إنسان مع إنسان كحمار مع إنسان : يبيعه القوة كلها بالقليل من العلف .

والصوم يتقّى هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه ، فإن ما بين يديه هو الحاضر من طباعه وأخلاقه ، وما خلفه هو الجبل الذي سيرت من هذه الطباع والأخلاق ، فعمل نفسه في الحاضر ، ويعمل بالحاضر في الآتي ^(١) .

(١) يهسر القرآن كما دلت ، ومن معانيها في هذا الأوّل الذي استخرجناه أنه يؤيده بالآية الكريمة في سورة (يس) « رِئَا فِيلْ لَمْ أَقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مَا حَاصِرٌ لَكُمْ تَرْجَحُونَ » .

ويسير إلى هذا الأوّل قول النبي صلى الله عليه وسلم « إنما الصوم جهـ »

وكلُّ ما شرعناه فهو اتِّقاءٌ ضررٍ لجلبِ منفعة . واتِّقاءٌ رذيلةٍ لجلبِ فضيلة ؛
وهذا التأويلُ تتوجَّه الآيةُ الكريمةُ جهةً فلسفيةً عاليةً ، لا يأتي اليانُ ولا العلمُ
ولا الفلسفةُ بأوحز ولا أكلٍ من لفظها ؛ ويتوجَّه الصيامُ على أنه شريعة
اجتماعيةٌ إنسانيةٌ عاقلة ، يتَّقى بها الاجتماعُ ضرورَ نفسه ؛ ولن يَهْدَبَ العالمُ
إلا إذا كان له مع القوانينِ النافذةِ هذا القانونُ العامُّ الذي اسمه الصومُ ، ومعناه
« قانون البطن » ...

ألا ما أعطيتك يا شهرَ رمضان ! لو عَرَفَكَ العالمُ حقَّ معرفتك لَسَمَّاكَ :
« مدرسة الثلاثين يوما » .

= (نصح الحليم) فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو
شتمه فليقل : إني صائم ، إني صائم ،
والحنّة الوفاية يتّقى بها الإنسان ، والمراد أن يعتقد الصائم أنه قد صام ليتقشّر
حيوانيته وحواسه ، بقوله « إني صائم ، إني صائم » ؛ أي إني عائب عن الفحش
والجهل والشر ، إني في نهي ولسن في حيوانيتي .

ثبات الأخلاق

لو أننى سُئِلْتُ أن أُحِلَّ فلسفة الدين الإسلاميَّ كُلِّها فى لفظين ، لقلتُ :
إنها ثَمَاتُ الأخلاق . ولو سُئِلَ أَكْثَرُ فلاسفة الدنيا أن يُوجَزَ علاجُ الإنسانية
كُلُّه فى حرفين ، لما زاد على القول : إنه ثَبَاتُ الأخلاق . ولو اجتمع كل علماء
أوربا ليدرسوا المدنية الأوربيةَ وَيَحْصُرُوا ما يُعْمَزُها فى كلمتين ، لقالوا :
ثَبَاتُ الأخلاق .

فليس يلتظرُ العالمُ أنبياء ولا فلاسفة ولا مصلحين ولا علماء يُبدعون له
مدعىً جديداً ؛ وإنما هو يترقب من يستطيع أن يفسرَ له الإسلامَ هذا التفسيرَ ،
ويُثَبِّتَ للدنيا أن كُلَّ العبادات الإسلامية هى وسائلٌ عمليةٌ تمنعُ الأخلاقَ
الإنسانية أن تتبدَّلَ فى الحى فيخلعَ منها ويلبَسَ ، إذا تبدلتُ أحوالُ الحياة
فصعدتْ يأساها أو زلتْ ؛ وإن الإسلامَ يأتى على كل مسلم أن يكونَ إنساناً
حالته التى هو فيها من التروة أو العدم ، ومن الارتعاج أو السعة ، ومن خولِ
المزلة أو ناهيتها ؛ ويوجبُ على كل مسلم أن يكونَ إنسانَ الدرجة التى انتهى
إليها الكونُ فى سموه وكاله ؛ وفى ثقَلِهِ على منازله بعد أن نُصِّقَ فى سريتهِ
بعد شريعته ، وبجربة بعد بحربة ، وعِلِم بعد علم

انتهت المدنيةُ إلى تبدُّلِ الاخلاق بتبدُّلِ أحوال الحياة ، فمن كان تقياً على
الفقر والإملاق وحرَّمَه الإحصارُ فنونَ اللذة ثم أيسرَ من بعد ، جاز له أن
يكونَ فاجراً على العنى ، وأن يتسمَّحَ لمُجوره على مَدِّ ما يبطُحُ به المال ،
وإن أصبحَ فى كل ديار من ماله شقاء نفس إنسانيةٍ أوفسأدها .

ومن وُلِدَ في بطن كُوخ ، أو على ظَهر الطريق ، وجب أن يبقَى أرضاً إنسانية ؛ كأنَّ الله (سبحانه) لم يَبْنِ من عظامه ولحمه وأعضائه إِلَّا خَرِيَةً آدميةً من غيرِ هندسةٍ ولا نظامٍ ولا فنٍ .. ثم يقابله من وُلِدَ في القصر أو شِبهِ القصر فله حكم آخر ، كأنَّ الله (سبحانه) قد رَكَّبَ من عظمه ودمه وتكوينه آيةً هندسيةً وأعجوبةً فنِّ ، وطُرْفَةً تدير ، وشيئاً مع شئ ، وطقئةً على طبة . ولكنَّ الإسلام يقرِّر ثَبَاتَ الخُلُقِ ويُوْجِبُه ويلتئِنُّ النفسَ عليه ، ويعمله في حياطة المجتمع وحراسته ، لأنَّ هناك حدوداً في الإنسانية تميز بحدود في الحياة ، ولا بد من الضبط في هذه وهذه ، حتى لا يكونَ وضعٌ إلا وراءه تقدير ، ولا تقدِيرٌ إلا معه حكمة ، ولا حكمةٌ إلا فيها مصلحة ؛ وحتى لا تعلو الحياة ولا تزل إلا بمثل ما ترى من كِفَتَي مِيزَانٍ شَدْنَا في عَلاقةٍ تجمعهما وتحركهما معاً ، ههنا بذاتها هي التي تنزلُ بالنار لتدُلَّ عليه ، وتَسِيلُ بالعالى لتبَيِّنَ عنه ؛ فالإسلامُ من المدنية هو مدنيةٌ هذه المدنية .

إنها لن تتغيرَ مادةُ العظم واللحم والدم في الإنسان ، ههنا تامةٌ مقدرةٌ عليه ؛ ولن تتبدَّلَ السَّنُّ الإلهيةُ التي تُوْجدها وتُفنيها ، ههنا مُصرَّفةٌ لها قاضيةٌ عليها ؛ وبين عمل هذه المادةِ وعمل قانونها فيها تكونُ أسرارُ التكوين ؛ وفي هذه الأسرارِ تجد تاريخَ الإنسانية كُلَّه ساجداً في الدم .

هي الغرائز تعمل في الإنسانية عملها الإلهي ، وهي محدَّدةٌ بحكمةٍ على ما يكونُ من تعاديلها واختلافِ بينها ، وكلُّها خلقت بمجدوعها لمجموعها ، ومن ثمَّ يكونُ الخُلُقُ الصحيحُ في معناه قانواً إلهياً على قوَّةِ كقوَّةِ الكونِ وصبط كصبطه . وبهذه القوَّةِ وهذا الضبطِ يستطيع الخُلُقُ أن يحوِّلَ المادةَ التي تعارضه إذا هو اشتدَّ وصلَّب ، ولكنه يتحوَّلُ معها إذا هو لَانَ أو ضعُف ؛ فهو قدَرٌ إِلَّا أنه (٦١ وحى العلم ٢٤)

في طاعتك ، إذ هو قوة الفصل بين إنسانيتك وحيوانيتك ، كما أنه قوة المزج بينهما ، كما أنه قوة التعديل فيهما ، وقد سُوِّغَ القدرة على هذه الأحوال جميعاً ، ولولا أنه هذه المثانة لعاش الإنسان طول التاريخ قبل التاريخ ، إذ لن يكون له حينئذ كونٌ تَوَرَّخُ فضائله أو ذائله بمدح أو ذم .

فلا عبرة بمظهر الحياة في الفرد ، إذ الفرد مُقَيَّدٌ في ذات نفسه بمجموع هو للمجموع وليس له وحده ؛ فإنك ترى الغرائز دائبة في إيجاد هذا الفرد لنوعه سُنَنٍ من أعمالها ، ودائبة كذلك في إهلاكه في النوع نفسه بسُنَنٍ أخرى ؛ فليس قانون الفرد إلا أمراً عارضاً كما ترى ؛ وهذا يمكن أن يتحول الفرد على أسباب مختلفة ، ثم تبقى الأخلاق التي يده وبين المجموع ثابتة على صورتها . فالأخلاق على أنها في الأفراد ، هي في حقيقتها حكم المجتمع على أفراده ؛ وقوامها بالأعتبار الاجتماعي لا غير .

• • •

وحيث يقع الفساد في المجتمع عليه من آداب الناس ، ويلتوى ما كان مستقيماً ، وتشتبهُ العالية والسافلة ، وتطرح المبالاة بالضمير الاجتماعي ، ويقوم وزن الحكم في اجتماعهم على القيس والمسكر ، وتحرى المنه فيما يعتبرونه بالذائل والمحزومات ، ولا يُعِجِبُ الناس إلا ما يفسد ، ويقع ذلك مهم بموقع القانون ويحل في محل العادة ؛ فهناك لا مساك للخلق السليم على فرد ، ولا بد من تحول الفرد في حقيقته ؛ إذ كان لا يحى . أبدأ إلا مُتَصَدِّعاً في كل مظاهره الاجتماعية ، فأبداً وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو منلوما ، وكله منتقل من عالم إلى عالم تان بغير زوايا الأول .

وما شذ من القاعدة إلا الانبياء وأمرؤ من الحكماء . فأما أولئك فهم قوة التحول في تاريخ الإنسانية : لا يبعث أحدهم إلا ليصح به التهج في التاريخ ،

وَيَتَرَكُ بِهِ النَّاسُ إِلَى سُبُلٍ جَدِيدَةٍ كَأَنَّمَا تَطْرُدُهُمْ إِلَيْهَا الْعَوَاصِفُ وَالزَّلَازِلُ
وَالْبَرَائِكُنُ ، لِأَشْرِعَتِهِ وَمُبَادَرَتِهِ وَآدَابِهِ ؛ وَأَمَّا الْحِكْمَاءُ النَّاضِجُونَ فَهُمْ دَائِمًا
فِي هَذِهِ الْإِنْسَانِيَةِ أَمَكَةٌ بَشَرِيَّةٌ مُحَصَّنَةٌ لِحِفْظِ كُنُوزِهَا وَإِحْرَازِهَا فِي أَنْفُسِهِمْ ،
فَلَهُمْ فِي ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ عِصْمَةٌ وَمَنْعَةٌ كَالْجِبَالِ فِي ذَاتِ الْأَرْضِ .

الْأَخْلَاقُ فِي رَأْيِي هِيَ الطَّرِيقَةُ لِنَتْظِيمِ الشَّخْصِيَّةِ الْفَرْدَةِ عَلَى مَقْتَضَى الْوَاجِبَاتِ
الْعَامَّةِ ، وَالْإِصْلَاحُ فِيهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ عَمَلِ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ ، أَيْ مِنْ نَاحِيَةِ
الْمَجْتَمَعِ وَالْقَائِمِينَ عَلَى حُكْمِهِ . وَعَدَى أَنْ لِلشَّعْبِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ؛ فَبَاطِنُهُ هُوَ
الَّذِي يَحْكُمُ الْفَرْدَ ، وَظَاهِرُهُ هُوَ الْعَارُونَ الَّذِي يَحْكُمُ الْجَمِيعَ ، وَلَنْ يَصْلَحَ
لِلنَّاسِ الْمُنْتَصِلِ بِالْعَيْبِ إِلَّا ذَلِكَ الْحُكْمُ الدِّينِيُّ الْمُنْتَصِلُ بِالْعَيْبِ مِثْلُهُ ؛ وَمِنْ هُنَا تَقْبِيْنُ
مَوَاصِعُ الْإِخْلَاقِ فِي الْمَدْنِيَّةِ الْإُورُوبِيَّةِ الْجَدِيدَةِ ، فَهِيَ فِي ظَاهِرِ الشَّعْبِ دُونَ
بَاطِنِهِ ، وَالْفَرْدُ قَاسِدٌ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ إِذَا هُوَ مَحْلَلٌ مِنَ الدِّينِ ، وَلَكِنَّهُ مَعَ
ذَلِكَ يَبْدُو صَالِحًا مُنْتَظِمًا فِي ظَاهِرِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْقَوَائِمِ ، وَبِالْإِذْنِ الْعَامَّةِ الَّتِي
تَقْرُضُهَا الْقَوَائِمُ ، فَلَا يَبْرَحُ هَازِمًا مِنَ الْأَخْلَاقِ سَاحِرًا بِهَا ؛ لِأَنَّهَا غَيْرُ ثَابِتَةٍ
فِيهِ ، ثُمَّ لَا تَكُونُ عِنْدَهُ أَخْلَاقًا يَعْنِدُهَا إِلَّا إِذَا دَرَّتْ بِهَا مَافَعُهُ ، وَإِلَّا فَهِيَ
ضَارَةٌ إِذَا كَانَتْ مِنْهَا مَضَرَّةٌ ، وَهِيَ مُؤَلَّةٌ إِذَا حَالَتْ دُونَ الْمَذَاتِ ؛ وَلَا يَنْفَكُ
هَذَا الْفَرْدُ يَتَحَوَّلُ لِأَنَّهُ مُطْلَقٌ فِي بَاطِنِهِ غَيْرُ مُقَيَّدٍ إِلَّا بِأَهْوَاؤِهِ وَنَزَعَاتِهِ ، وَكُلُّنَا
الْمُضْطَّيَّبُ وَالزُّبُلَةُ مَعْدُومَتَانِ فِي لَمَةِ الْأَهْوَاءِ وَالنَّزَعَاتِ ؛ إِذِ الْغَايَةُ الْمُنْتَاعُ وَاللَّدَّةُ
وَالنَّحَاحُ . وَلَكِنَّ السَّبَبَ مَا هُوَ كَأَنَّ ...

وَبِهَذَا فَلَنْ تَقُومَ الْقَوَائِمُ فِي أَوْرُوبَا إِذَا قَامَ الْمُؤْمِنُونَ الْإِدْيَانُ فِيهَا أَوْ كَانَتْهُمْ
الْمُلْحَدُونَ ، وَهَمُ الْيَوْمِ يُنْصَرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ مَا فَعَلَتْ عَقْلِيَّةُ الْحَرْبِ الْعَظِيمَةِ فِي طَوَائِفِ
مِنْهُمْ فَدَحْرَبَتْ أَنْفُسَهُمْ مِنْ إِيمَانِهَا فَتَحَوَّلُوا ذَلِكَ التَّحَوُّلَ الَّذِي أَوْ مَأْمَا إِلَيْهِ ،
فَإِذَا أَحْصَاهُمْ بَعْدَ الْحَرْبِ مَا تَرَالِ مُحَارَبَةٍ مُقَاتَلَةٍ تَرَى فِي كُلِّ شَيْءٍ بَرُوحَ الدَّمِ

الاشلاء والقبور والنقن واللى ... وآنهت الحربُ بين أمم وأمم ،
لكها بدأت بين أخلاق وأخلاق .

وقديماً حارب المسلمون ، وفتحوا العالم ، ودوخوا الأمم : فأثبتوا فى كل
أرض هذى ديمهم وقوة أخلاقهم الثابتة ، وكان من وراء أنفسهم فى الحرب
ما هو من ورائها فى السلم ؛ وذلك بثبات باطنهم الذى لا يتحول ، ولا تستخفه
الحياة بزرقها ، ولا تنسفهُ المديئات فتحمله على الطيش .

ولو كانوا هم أهل هذه الحرب الاحرة بكل ماقدفت به الدنيا ، لبقيت
لهم العقلية المؤمنة القوية ، لأن كل مسلم فاعما هو وعفليته فى سلطان باطنه الثابت
الفار على حدود بيته محصلة مقسومة ، تحوطها وتمسكها أعمال الإيمان التى
أحكها الإسلام أشد إحكام بقرعها على الغرس منوعة مكثرة : كالصلاة
والصوم والزكاة ، ليمنع بها تعيراً ومحدث بها تعيراً آخر . ويجعلها كالخارسة
للإرادة ما تزال تمر بها وتمهد بها بين الساعة والساعة ^(١) .

إنما الظاهر والباطن : للموج والساحل : فإذا نحن الموج فلى يضره ما بقى
الساحل ركيناً هادئاً بشدوداً بأعضاده فى طبقات الارض : أما إذا ماج
الساحل ... فذلك أسلوب آخر غير أسلوب الحار والاعاصير : ولا جرم
ألا يكون خسفاً بالارض والماء وما يتصل بهما .

فى الكون أصل لا يغير ولا يتبدل ، هو قانون صسط القوة وتصرفها
وتوجيهها على مقتضى الحكمة ، ويفادى فى الإنسان قانون مثله لادمنه لضبط
معانى الإنسان وتصرفها وتوجيهها على مقتضى الكمال : وكل هروض الدين
الإسلامى وواجباته وآدابه ، إن هى إلا حركة هذا القانون فى عمله : فما تلك

(١) فصلنا هذا المعنى فى كير من مقالنا كماله (حقيقه المسلم) ، و(فاسمه
الصوم) وغيرهما .

الإطرُقُ ثابتة لخلق الحسّ الأدبي ، وتثبيته بال تكرار ، وإدخاله في ناموس طبيعيّ بإجرائه في الأنفس مجرى العادة ، وجعله بكل ذلك قوّة في باطنها ، فتُسمّى الواجبات والآداب فروضاً دليّةً : وما هي في الواقع إلا عناصرُ تكون النفس العالية ، وتكون أوامر وهي حقائق ^(١) .

ومن ذلك أراما نحن الشرقيين ممتاز على الاوربيين بأننا أقربُ مهم إلى قوانين الكون ؛ ففي أنفسنا ضوابطُ قوّة متينة إذا نحن أقررنا مدنيّتهم فيها . وهي طبيعتها لا تصلُ إلا بحسن هذه المدنية . سقناهم وتركنا غبار أقدامنا في وجوههم ، وكنا الطبقة المصنّعة التي يَشُدُّونها في إنسانيتهم الراحنة ولا يحدونها ، ويمتاز عنهم من جهة أخرى بأننا لم نُنشئ هذه المدنية ولم نُلشّنا ، فليس حقاً علينا أن نأخذ سيئاتها في حسناتها وحقاقتها في حكنها ، وتزويرها في حقيقتها ؛ وأرب نُسخ منها الحلوة والمرّة ، والباسضة والمجّة ؛ ولما نحن مُحصّلها ونقتبسها ونرتجّعُ منها الرّجعة الحسنة : فلا نأخذ إلا الشيء الصالح مكان الشيء قد كان دونه عدما ، ونُدعُ ما سوى ذلك ؛ ثم لا نأخذ ولا ندعُ إلا على الأصول البنائعية المحكّمة في أدابنا وآدابنا ؛ ولما متلهم متصلين من حاضر مدنيّتهم يمثل ما ضيهم ، يبدأ العجب الذي ما يهرغُ عجبي به ، أن الموسومين سنا بالتجديد لا يحاولون أول وهلةٍ وآخرها إلا هدم تلك الصوابط التي هي كلّ ما ممتاز به ، والتي هي كذلك كل ما تحتاج إليه أوربا لضبط مدنيّتها ، ويسمون ذلك تجديداً ، ولهو بأن يسمى حماقةً وجهاً أولى وأحق .

أقول ولا أمالي : إننا ابتليتنا في مصنّتنا هذه بقوم من المترجمين قد احترقوا النقل من لغات أوربا ، ولا عمل لهم إلا عقل ما يمهله فمصنّعتهم الترجمة من حيث

(١) هذا هو الذي صل عنه مصطفي كمال ومن سايهوه ، ومن قادوه ، ومن احدثوا فيه ، ولو فهمه حقّ العظم لحدّد تركيا وحدّد العالم الإسلاميّ كنه ، ولكن الرجل عريب عن هذه المادى قصير النظر ، فما راد على أن حدّد موباً وميعة .

يدرون أو لا يدرون: صفة تقلب تخضع ومُتابعة مُستعبدَة وأصبح عقلمهم -
بحكم العادة والسليقة - إذا مكرأعذب إلى ذلك الأصل ، لا يخرجُ عنه ولا يتحول
عنه ، وإذا صح أن أعمالنا هي التي نعملُنا - كما يقول بعض الحكماء - فهم
بذلك حَظَرُ أيْ خطر على الشعب وقه ميته وذاتيته وخصائصه ، وبُوشِكْ إذا
هو أطاعهم إلى كل ما يدعون إليه أن ... أن يترجموه إلى شعب آخر ...

• • •

إن أوروبا ومدنيتها لا تساوي عندنا شيئا إلا بمقدار ما تحقق فينا من الأسس
الذاتية بعلمها وقوتها ، فإما الذاتية وحدها هي أساس قوتنا في الزرع العالمي
بكل مظاهرها أيها الكاتب ؛ ولها وحدها ، واعتبار منها دون سواها ، نأخذ
ما نأخذه من مدنية أوروبا ونهمل ما نهمل ؛ ولا يجوز أن نترك الثبوت في هذا
ولا أن نتساعج في دقة المحاسبة عليه .

فالحفاظة على الضوابط الإنسانية القوية التي هي مظاهر الأديان فينا ، ثم ادخال الواجبات الاجتماعية الحديثة في هذه الضوابط لربطها بالصر وحضارته ، ثم تسليق مظهر الامة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط ، ثم العمل على اتحاد المشاعر وممازجها لتقويم هذا المظهر الاجتماعي ، ثم تقويم أجزائه - هذه هي الأركان الأربعة التي لا يقوم على غيرها بناء الشرو . والإلحاد والزعات السافلة ومخائيل الدينه الاوربيه التي لا تمل لها إلا أن - تُظهر الخطر في أجمل أشكاله ... ثم الحل بعلم القوة الحديثة وبأصول التدبير وحماطة الاصماع وما جرى هذا المجرى ، ثم التدليس على الامة بآراء المقلدن والزائدين والمستعمرين لمحق الأخلاق الشعبية القوية وما اتصل بذلك ، ثم التخاذل والشقاق وتدابر الطوائف . وما كان سبيلها - بل هي ، أمامنا ، الأربعة التي لا يهاجم بها بناء الشر .

$\rho_{ij} = \langle \psi_i | \hat{\rho} | \psi_j \rangle$ 是密度算符在基态下的矩阵元， ρ_{ii} 是概率。

قامت لنفسي ...

وقالت لي ...^(١)

قلتُ لنفسِي : ويحكِ يا نفسُ ! مالي اتَّحَمَلُ عَلَيْكِ ؛ فإذا وَقَّيتِ بما في
وُسْعِكَ أَرَدْتُ مِنْكِ ما هَوَيْتِ وكَلَمْتِكِ أَنْ تَسْمِيَ ؛ فلا أزالُ أَعْنَتُكِ من بعدِ
كُلِّ ما رَاجَعْتُكِ الشَّياطِنَ ، وبعدَ الحَسَنِ فيها هو الأَحْسَنُ ؛ وما أُنْعَمُ ، أَحْذَرُكِ
كُلَّما رَاجَعْتُكِ الشَّياطِنَ ، وأُضِلُّكِ كُلَّما ثابَتَ القُوَّةُ ؛ فإنْ تَكُنْ لَكَ هُمومٌ
ما أأكْبَرُها ، وإذا ساورَتْكِ الأَحْزانُ فأَكْرَها ما أَجْلِبُ عَلَيْكِ ؛

أَنْتِ يا نفسُ سائِرَةٌ على النَّهْجِ ، وأما أَعْتَسَفُ بِكَ أريدُ الطَّيْرانَ لا السَّيْرَ ،
وأَبْنَى عَمَلِ الأَعْمَارِ في غَمْرٍ ، وَأَسْتَحْتَكِ من كُلِّ هَجْجَةٍ راحَةٍ بَهِجَةٍ تَعْبٍ حديدٍ ،
وكأني لَكَ زَمَنٌ يُبَادُ بَعْضُهُ بَعْصاً ، فما يَرُحُ يَنْبَتِقُ عَلَيْكِ من ظِلِّ نَوْرِ
ومن مَوْرِ بَظْلَامٍ ؛ لَهَيْتِ لَكَ "قُوَّةً" الَّتِي تَمْتَدُّ بِكَ في التَّارِيخِ من بَعْدٍ . فتنْهينِ

حينَ مَذْهَبينِ وَيَعِيشُ قَلْبُكِ في العالَمِ سارِياً بِكَلِمَاتِ أَفْراحِهِ وأَحْزانِهِ
وقالت لي النفسُ : أما أأنا فإني معكِ دأباً كالْحَبِيبَةِ الرُّومِيَّةِ لِمَنْ تَحَبُّهُ ؛ ترى
حَضُوعَها أَحْيائاً هو أَحْسَنُ المَعاوِمَةِ ؛ وأما أَنْتِ فإذا لَمْ تَكُنْ تَعْبُ ولا تَزَالُ
نَدْبُ فَكَيْفَ تُرَبِّي أَلْمَ تَتَزَلَّمُ ولا تَزَالُ تَتَفَقَّدُ ؟

ليستِ دُنْيَاكِ يا صاحِبِي ما تَحُدُّهُ من عَمَلٍ ، بل ما تُرْجِدُهُ نَفْسُكِ ؛ فإنْ لَمْ
تَزِدْ شَيْئاً على الدُّنْيَا كُنْتَ أَنْتِ زائِداً على الدُّنْيَا ؛ وإنْ لَمْ تَدْعُها أَحْسَنَ

(١) كُتِبَتْ في ساعَةِ صَحرٍ : من هَذِهِ السَّاعَاتِ الطَّارِئَةِ على الرُّوحِ ، يَحْمِلُ للرَّءِ
فِيها أَنَّهُ هو وَحدَهُ ، والعالَمُ كَأَنَّهُ وَحدَهُ ؛ ذاك في وَحْدِهِ وَحدَهُ خاصَّةً والأَحرارُ في وَحْدِهِ
الطَّيِّعَةِ كُلِّها

مما وجدتها فقد وجدتها وما وجدتك ؛ وفي نفسك أول حدود دُنياك
وأخير حدودها ، وقد تكون دنيا بعض الناس حانوتا صغيرا ، ودُنيا الآخر
كالقرية المُكَلَّبة ^(١) ودنيا بعضهم كالمدينة الكبيرة ؛ أما دنيا العظيم فقارة
بأكملها ، وإذا انفردت أمتدَّت في الدنيا فكان هو الدنيا .

والقوة يا صاحي تقتضى بالتعب والمعاونة ؛ فما عانيتَ اليومَ حركةً من
جسمك ، ألفتَ غدا في جسمك قوة من قُوى اللحم والدم ؛ وساعة الراحة
بعد أيام من التعب ، هي في لذتها كأيام من الراحة بعد تعب ساعة . وما أشبه
الحَيِّ في هذه الدنيا ووشك انقطاعه منها ، بمن خُلِقَ ليعيش ثلاثة أيام معدودة
عليه ساعاتها ودقائقها وثوابها ؛ أقرأه يُقَلُّ فيقدرها ثلاثة أعوام ، ويذهب
يُسْرِفُ فيها ضروما من لَهْوِهِ ولعِبِهِ ومُجْهِهِ ، إلا إذا كان أحقَّ أحقَّ
إلى نهاية الحَقِّ ؟

أتعبَ تعبَكَ يا صاحي ، في الناس تعبُ مخلوقٍ من عمله ، فهو لَيْنٌ هَبْنِ
مُسَوًى تسوية ؛ وفيهم تعبُ خالقٍ عمله ، فهو جَبَّارٌ متمردٌ له القَهْرُ والغَاةُ ؛
وأنتَ إما تَكْذُرُ لتسمو وروجك إلى هموم الحقيقة العالية وتسمو بجسمك
إلى مشقات الروح العظيمة ؛ فذلك يا صاحي ليس تعباً في حُزْرِ الأرض ،
ولكنه تعبٌ في حَرِّ الكد .

أتعبَ يا صاحي تعبَكَ ؛ فإن عناء الروح هو عُمرُها ، فأعمالك عُمرُك
الروحاني ، كعمر الجسم للجسم ؛ وأحد هذين عُمرٌ ما يعيش ، والآخر
عُمرٌ ما سيعيش .

• • •

فانتَ لنفسى : فقد مالَتْ أشياء وتبرَّنتْ بأشياء ، وإن عملَ المعمر في

(١) أى الصغيرة تقوم بالدور العاليه المنحه ٤٠

الدنيا لَمْ هُوَ هَذِمَ لَهَا كُلَّ بُنْيَتٍ ، ثُمَّ نَادَوْهَا كُلُّهُ هُيَمَتْ ؛ فَمِنْ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ قَاتِمٌ
فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ صُورَتَيْنِ مَرًّا ؛ وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ خَلَطَتْهُ بِالنَّفْسِ يَذْهَبُ فِيهَا
ذَهَابَ الْمَاءِ فِي الْمَاءِ ، حَتَّى إِذَا مَرَّ يَوْمٌ أَوْ عَهْدٌ كَالْيَوْمِ ، رَأَيْتُ فِي مَكَانِهِ
إِنْسَانًا خَيَالِيَا كَسْتَلَّةً مِنْ مَسَائِلِ النَّحَاةِ فِيهَا قَوْلَانِ ١٠٠ فَيُحْتَمَلُ فِي وَقْتٍ
وَاحِدٍ تَأْوِيلَ مَا أَظُنُّ بِهِ مِنْ خَيْرٍ ، وَمَا تُوقَّعُ بِهِ مِنْ شَرٍّ وَكَمْ مِنْ اسْمٍ جَمِيلٍ
إِذَا هَجَسَ فِي غَاظِرِي قُلْتُ : آه ، هَذَا الَّذِي كَانَ .. ١

أَمَّا وَاقِعُهُ إِنَّ ثِيَابَ النَّاسِ لِتَجْمَلَهُمْ أَكْثَرَ تَشَابُهًا فِي رَأْيِ النَّفْسِ بِمَا تَجْمَلُهُمْ
وَجَوْهُهُمْ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ ؛ وَإِنِّي لَأَرَى الْعَالَمَ أحيانًا كَالْقِطَارِ
السَّريْعِ مُنْطَلِقًا بِرُكْبِهِ وَلَيْسَ فِيهِ مَنْ يَقُودُهُ ، وَأَرَى الْعَفْلَةَ الْمُفْرِطَةَ قَدْ بَلَغَتْ
مِنْ هَذَا النَّاسِ مَبْلَغًا مِنْ يَظُنُّ أَنَّهُ حَيٌّ فِي الْحَيَاةِ كَالْمَوْطَلَفِ تَحْتَ التَّجَرِبَةِ ، فَإِذَا
قَضَى الْمُدَّةَ قِيلَ لَهُ : آدَأُ مِنْ الْآنَ ؛ كَأَنَّهُ إِذَا عَاشَ يَتَعَلَّمُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ،
وَيَدْرِكُ مَا يَصْلُحُ وَمَا لَا يَصْلُحُ ، وَأَنْتَهَى مِنْ عَمَرِهِ إِلَى الْهَابَةِ الْمُحْدَوْدَةِ - رَجَعَ مِنْ
بَعْدِهَا يَعِيشُ مُنْتَطِلًا عَلَى أَسْتَوَاءٍ وَأَسْتَعَامَةٍ ، وَفِي إِدْرَاكِهِ وَتَمْيِيزِهِ ؛ مَعَ أَنَّ الْخَرَفَةَ
مَسَّهَا لَمْ تَقْبَلْ قَطُّ أَنْ يُعْتَدَّ مِنْهَا وَ أَوْهَامُ الْحَيَاةِ أَوْ رَحْلًا بَلَغَ الثَّمَانِينَ أَوْ الثَّلَاثِينَ
وَحَانَ أَحْلُهُ فَأَصْبَحُوا لَمْ يَجِدُوهُ مَتَا فِي فِرَاشِهِ ؛ بَلْ وَجَدُوهُ مَوْلُودًا فِي فِرَاشِهِ أ
وَقَالَتْ لِي الْمُسْ : وَأَنْتِ مَا شَأْنُكَ بِالنَّاسِ وَالْعَالَمِ ؟ مَا هَذَا ، لَيْسَ لِمَصْبَاحِ
الطَّرِيقِ أَرْبَ يَقُولُ : « إِنْ الطَّرِيقَ مَظْلَمٌ . » إِمَّا قَوْلُهُ إِذَا أَرَادَ كَلَامًا أَنْ
يَقُولَ : « هَذَا مُضَى » .

وَالْحَكِيمُ لَا يَضْجَرُ وَلَا يَضْبِقُ وَلَا يَتَمَلَّلُ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَسْتَحْفُ وَلَا يَطْيِشُ
وَلَا يَسْتَرْسِلُ فِي كَذِبِ الْوَمَمِ ؛ فَإِنْ هَذَا كَأَنَّهُ أَرُ الْحَيَاةِ الْبَيْمِيَّةِ فِي هَذِهِ الْبَيْمَةِ
الْإِنْسَانِيَّةِ ، لَا أَرُ الرُّوحَ الْقَوِيَّةَ فِي إِنْسَانٍ ؛ وَالْحَيَوَانُ هُوَ الَّذِي يَحْوِجُ
وَيَسْجَعُ لَالْفَسْ ؛ وَبَيْنَ كُلِّ شَيْئَيْنِ مِمَّا يَعْتَبَرُ الْحَيَوَانِيَّةَ - كَالْحُلُوِّ وَالْأَمْتَلَاءِ ،

واللذة والالام - تعمل قُوى الحيوان أشياءها الكثيرة التي تتسلط بها على النفس ، لتَحْطُمها من مرتبةٍ مرتبةٍ إلى أن تجعلها كنفوس الحيوان ؛ ولهذا كان أولُ الحكمة ضبطَ الأدوات الحيوانية في الجسم ، كما توضع اليدُ العالمةُ على مفاتيح القطار المنطلق يَتَسَعَّرُ مِرْجَلُهُ وَيَغْلِي .

أعملُ يا صاحبي عمَلَك ؛ فإذا رأيت في العالمين من يَضْجَرُ فلا تَضْجِرْ مثله ، بل خذ أطمئنائه إلى أطمئنانك ، ودعه يخلو وتَضَاعَفُ أنت .

إنه ليُؤشِكُ أن يكونَ في الناس ناسٌ (كالبُنوك) : هذه مُستودعات للبال تحفظه وتُخْرِجُ منه وتُسَرُّه ، وتلك مستودعاتُ للفضائل تحفظها وتُخْرِجُ منها وتُرِيدُها ؛ وإفلاسُ رجلٍ من أهل المال ، هو إطلاقُ النكبةِ مُسَدِّسَهَا على رجلٍ تقتله ؛ ولكن إفلاس (بنك) هو إطلاقُ النكبةِ مِدْفَعَهَا الكبير على مدينةٍ تُذَمِّرُها .

قلت لنفسي : فما أشدُّ الالَمَ في تحويل هذا الجسد إلى شَيْبِهِ رُوحٍ مع الروح ! تلك هي المعززة التي لا توجد في غير الأنياء ، ولكن العملَ لها يجعلها كأها موجودة . والاسدُّ المحموسُ محبوبٌ فيه قُوته وطباعه ؛ فإن زال الوجودُ الحديديُّ من حوله أَوْهَنْتَ نَاحِيَةً منه ، أنطلقَ الوحش ؛ والرجلُ الفاضلُ فاضلٌ مادام في قَفْصِهِ العكريِّ ، وهو مادام في هذا الفصص فعليه أن يكونَ دائماً مُؤَدَّجاً معروضاً للتنقيحِ الممكنِ في العسِ الإنسانية : نُصِيْهُ السِيْئَةَ من الناس لتَحْتَبَرَ فيه الحسنه ، وتبلوه الحياتُ لتجد الوفاء ، وَيَكْرَهُهُ النُّعْضُ ليقابله الخب ، وتأتبه اللعةُ لتجد المعفرة ؛ وله قلب لا يَتَعَبُ فيلْعُ مرةً إلا أبتدأ التعبَ ليلْعُ مرةً أعلى منها ، وله فكر كلما جَهِدَ فأدرك حقيقةً كانت الحقيقةُ أن يَجْهَدَ فيدرك غيرها .

وقالت لى النفس : إرب من فاق الناس بنفسه الكبيرة كانت عَظَمَتُهُ فى أن يفوق نفسه الكبيرة : إن الشيء الهائى لا يُوحِد إلا فى الصفات والشر ، أما الخير والكمال وعظام النفس والجمال الأسمى . فهذه حقائق أزلية وُجِدَتْ لنفسها : كالمها . يتنفه كل الأحياء على الأرض ولا يتهى ، ولا يُعرف أن يتهى : وكما يلبت الورد من الشمس ، الكواكب إلى هذه الأرض ، يُشب أن يكون تلك الصفات مُنْعَتة إلى النفوس من أنوار الملائكة . وبهذا كان أكبر الناس حظاً منها هم الأنبياء المُصَلِّين بتلك الأنوار

ومن رحمة الله أن جعل فى كل النفوس الإنسانية أصلاً صغيراً يجمع فكرة الخير والكمال وعظام النفس والجمال الأسمى . وقد تعظم فيه هذه الصفات كلها أو بعضها . وقد تصغر فيه بعضها أو كلها : ألا وهو الحب .

لا بد أن تمر كل حياة إنسانية فى نوع من أنواع الحب : من رقة النفس ورحمتها ، إلى هوى النفس وعشيقها .

وإذا بلغ الحب أن يكون عشقاً ، وضع يده على المفاتيح العصبية للنفس (*) وفتح للطاقم والمعجزات أبوابها : حتى لا يجعل الخرافة أثماراً معجزة دقيقة ويملا الحياة بعمان لم تكن فيها من قبل . ونصح سر هذا الحب لا يتهى : إدهو سر لا يدرك ولا يُعرف .

أجهذ جهنك ما راحى ، فما هو فضلك العكرى ذلك الشباح الذى يحبك ، ولكنه صمتان السنين لتلقى الأنوار . ولا بد للمرأة من ظاهراً غير ظاهر الحجر لتكون به مرآة

قلتُ لنفسي : فما أشده مصحاً أعامه ! إن أمرى لنذهب مُرُطاً (١)

(١) اختر ص ٥٢ . كتابا . حاة الراوى ،

(١١) ١٠١ ، مجل ٤٠١ ، ج ١

أكلنا ابتعيتُ من الحياة مَرَحاً أَطْرَبُ لَهُ وَأَهْتَرُ، جاءني الحياةُ بفكرة أُستَكِدُّ فيها وأدأب ؟ أهذا السرورُ الذي لا يزال يقَعُ بين الناس هو الذي لا يكاد يقَعُ لي ؟ وهل أنا شجرة في مَعرَسها : تنمو صاعدة بفروعها، ونازلةً بحذورِها، غير أنها لا تَمرَحُ مكانها ؟ أو أنا تمثالٌ على قاعدته : لا يتحركُ عنها إلا ساعة لا يكون تمثالاً ، ولا يدعُها حتى تُدَعَّه معاني العظمة التي نُصِبَ لها ؟

وقالت لي النفس : وبحك ! لا تطلب في كونك الصغيرِ ما ليس فيه : إن الناس لو ارتفعوا إلى السماء وتقلبوا فيها كما يصيحُ أهلُ قازةٍ من الأرض في قازةٍ غيرها، وابتغوا أن يحملوا معهم مما هناك تذكراً صغيراً إلى الأرض - لوجدوا أصغرَ ما هناك أكرَمَ من الأرض كلها : فأنت سائحٌ في سموات .

أنت كالنائم : له أن يرى وليس له أن يأخذ شيئاً مما يرى إلا وصفه ، وحكته ، والسرورَ بما التذُّ منه ، والآنمَ بما توجع له :

لن تكونَ في الأرض شجرةً برجلين تذهبُ هنا وأُهاها ، ولكن الشجرة ترسل أثمارها يتناقلها الناس ، وهي تُدِيعُ الثمارَ إِدَاعَ المُولَدِ العقريُّ ما يؤلمه بأشدَّ الكدِّ وأعظمِ الجهدِ ، مُطْلَقَةً ضَمِيرَها في المكرة الصغيرة يقيدها شيئاً شيئاً ، ثم تعود عليها بالزيادة ، ولا تزال كلَّ وقت تعود عليها حتى تنفزعَ أقصى القوة : ثم يكونُ سرورها في أن تَهَبَ فائدتها ، لأنها لذلك وُحِدَتْ .

إن في الشجرة طبيعةً صادقةً لاشهوةً مكذوبةً ، فالحياةُ فيها على حقيقتها ، وأكدرُ ما تكون الحياةُ في الإنسان على تحازيها ؛ وشرطُ الجوار الخيالِ والمباينةِ والتلوينِ : ولكن متى اخبر الله رجلاً فأقرَّ به سرّاً من أسرار الغلبةِ الصادقة ، ووهب له العاطفةَ العادِيةَ التي تصنعُ نمازها - فقد عرسه بصرده في منيبتها لا مفرّاً ولا مندوحةً ، وقد تُخَبِّلُ له صحفَ طبعه البشريِّ أحياناً أن يضره المجد الذي تملوه ، يتألقُ حوله كشعاع الكوكب ، هي تَبْهُ وصجره ،

أو أثرُ انخراطه وإليه ومسكته ؛ وهذا من شقاء العقل ؛ فإنه دائماً يضيف شيئاً إلى شيء ، ويخلط معنىً بمعنى ، ولا يترك حقيقةً على ما هي ؛ كأنَّ فيه ما في الطفل من غريزة التقليد ، والعقل لا يرى أمامه إلا الإلهية ، فهو يقلدها في مداخل الأشياء بعضها في بعض ، لإيجاد الأمرار بعضها من بعض .

ومن ثمَّ كانت الحقيقة الصريحة الثابتة مدعاةً للكل العقل في الإنسان ، لا يكاد يُقيم عليها أو يتقيد بها ، فإنا نال شيئاً إلا ليطمح في غيره ، وما فاز بلذة إلا ليزهد فيها ، وأجلُّ ما أحبه الإنسان أن يناله ، فإذا ناله وقع فيه معنى موته وبدأ في النفس عُمرًا آخرَ من حالةٍ أخرى ، أو مات ولم يبدأ ؛ فلا بدَّ لهذا الإنسان مع كل صوابٍ من جزءٍ من الخطأ ، فإن هو لم يجد خطأً في شيء آتفك لنفسه ^(١) الخطأ المضحك في شئهِ رواية خيالية .

إنه لشعر ضئيف بالغ السخافة أن يُتخيل الفريق مفكرًا في صيدٍ سمكي رآها ... ولكنَّ هذا من أبلغ البلاغة عند العقل الذي يبحث عن وهم يعيقه إلى هذه الحقيقة ليضحك منها ، كما يبحث لنفسه أحيانًا في أجمل حقائق الوجود عن ألمٍ يتألم به ليعبَس فيه !

قلت لنفسي : فهل ينبغي لي أن أحرِّق دمي لأنني أفكر ، وهل أغلُّ دائماً هذا التفكير كالذي ينظر في وجهٍ حسناء بمظهر مكثّر : لا يريه ذلك الوجه المعشوق إلا ثقباً وتقرحاً كأنه خشبةٌ نُزعت منها مساميرٌ غليظة ... أفلا يجد المسكين هذه الحقيقة إلا ليفقد ذلك الجمال ؟ وهل بُد من الشبه بين بعض الناس وبين ما أرتصد له من عمل يحيا به ، فلا يكون الحردى حودياً إلا لشبهه بين نفسه وبين الحيل والعمال والحير ... ؟

(١) : كذب واختراع ، ومته حديث الإلهك .

وقالت لى النفس : إن فأسَ الخطأ لا تكونُ من أداة الطيب ، فخذ لكل شيء أداته ، وكن جاهلاً أحياناً ، ولكن مثلَ الجاهل الذى يَصْنَعُ لوجهِ الطفل نشاطه الدائمة ؛ هذا الجاهل هو أكثر علم الشعور الدقيق المرفف ، ولولاه هلك الأنبياء والحكماء والشعراء غمّاً وكداً ، ولكانوا فى هذا الوجود على هذه الأرض ، بين هذه الحقائق - كالذى قيد وحبس فى رهج تثيره القدم والخف والحافر : لا يتنفس إلا تغباز يثار من حوله إلى أن يقضى عليه . آجهل جهلك يا صاحبي فى هذه الشهوات الحسية ، فإنها العلم الخبيث الذى يفسد الروح ، وأعرف كيف تقول لروحك اللذة فى ملائكتيها حين تساورك الشهوات : هذا ليس لى ، هذا لا يلغى لى ا تساورك الروح الكبيرة هى فى حقيقتها الطفل الملائكى .

وعلم خصائص الحياة يجعل للإنسان فى كل حسيّة نفساً تتعلق بها ، فيكون المسكين بين نفسين وثلاث وأربع ، إلى ثلاثين وأربعين كلهن يتنازعن ، فيضيق بهذه الكثرة ، ويصبح بعينه بلاء على بعض ، وتشغله الفضول ، فيعود لها كالمزبلة لما ألقى فيها ويمحى فى نفسه الطبيعية حسّ الفرح بجمال الطبيعة ، كما يمتح فى المزبلة معنى النظافة ومعنى الحس بها .

هذه الأنفس الخيالية فى هذا الإنسان المنكود ، هى الأرواح التى ينفتحها فى مصائبه ، فتجعلها مصائب حية تعيش فى وجوده وتعمل فيه أعمالها ، ولولاها لماتت فى نفسه مطامع كثيرة ، فانت له مصائب كثيرة .

انظر بالروح الشاعر ، تر الكون كله فى سمائه وأرضه انه جاما واحدا ليس فيه إلا الجمال والسرور وفتنة الطرب ، وأنظر بالعقل العالم هل ترى فى الكون كله إلا مواد علم الطسعة والكيمياء .

ومدى الروح جمال الكون كله ، ومدى العقل قطعة من حجر ، أو عظمة

من حيوان ، أو نسيجة من نبات ، أو فلذة من معدن وما أشبهها .
إنَّجَهْلُ جَهْلِكَ يَا صَاحِبِي ؛ فَنَفِي كُلِّ حُسْنٍ غَزَلٌ بِشَرَطِ أَلَّا تَكُونَ الْعَاشِقَ
الطَّامِعَ ، وَإِلَّا أَصْنَتَ فِي كُلِّ حَسَنِ هَمًّا وَمَشَقَّةً ... ١

* * *

قُلْتُ لِنَفْسِي : إِلَى الْآنَ لَمْ أَقُلْ لَكَ ذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي كَتَمْتَهُ عَنْكَ .
وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ : وَإِلَى الْآنَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِلَّا جَوَابَ ذَلِكَ الَّذِي كَتَمْتَهُ عَنِّي ..

الانتحار^(٥)

حَدَّثَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ الْكُوفِيُّ قَالَ : بَيْنَا أَنَا يَوْمًا فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ ، وَمَعِيَ سَعِيدُ بْنُ عَثْمَانَ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَدَاوُدُ الْأَزْدِيُّ ، وَجَمَاعَةٌ . أَقْبَلَ فِيَّ بَعْضُ قُرَيْبِيَا مِنْهُ ، وَكَانَ تَلْقَاءَ وَجْهِ ؛ لَا أَمُدُّ نَظْرِي إِلَّا أَنْتَلِقَ فِي سَمْتِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ ، وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ ، وَرَأَيْتُهُ يَنْسَمِعُ إِلَى حَدِيثِنَا : فَلَمَّا تَكَلَّمَ سَعِيدٌ - وَكَانَ خَافَتْ الصَّوْتِ مِنْ عِلَّتِهِ ، وَكُنَّا نَسْمِيهِ الْعَمَلَةَ الصَّخَاةَ - رَأَيْتُ الْفَتَى يَتَزَحَّفُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى صَارَ بِحَيْثُ يَقَعُ فِي سَمَاعِهِ خَسِيسٌ تَمَلَّتِنَا .

وَكَانَ سَعِيدٌ يَقُولُ : اجْتَزْتُ أَنَا وَالشَّعْبِيُّ^(١) أَمْسَ لِعِمْرَانَ الْخِطَاطِ ، فَارْزَحَهُ الشَّيْخُ فَقَالَ لَهُ : عِنْدَمَا حَبَّ^(٢) مَكْسُورٌ ، تَخِيْطُهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْطٌ مِنْ رَجٍّ أَقْلُتُ أَنَا : فَاهْزَبْ لِحْنًا بِالْمِنْزَلِ الَّذِي يَنْزِلُ الْهَوَاءُ لِصَنْعِ لَكَ الْخَيْطِ .

قَالَ مُجَاهِدٌ : هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ . فِي تَنَادُرِ شَيْخِنَا وَمَا يَتَّفِقُ لَهُ : أَخْبَرَنِي أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فِي مَسْئَلَةٍ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْبَيْتَ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ امْرَأَتِهِ ؛ فَقَالَ الرَّجُلُ : أَبَيْكَ الشَّعْبِيُّ .. ؟ فَأَوْمَأَ الشَّيْخُ إِلَى امْرَأَتِهِ وَقَالَ : هَذِهِ ... ١

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَضَحَّكْنَا جَمِيعًا ، وَأَحْذَظْ نَظْرِي الْعَلَامَ فَإِذَا هُوَ نَاكِسٌ حَزَنًا

(٥) انظر سبب إنشائه هذه المقالات الست ص ٢٨١-٢٨٢ « حياة الرافعي » ،
(١) هو الإمام العظيم (عمر بن شراحيل الشعبي) توفي سنة ١٠٣ للهجرة وأحوالها عن نضع وثمانين سنة ، وكان في عصره أحد العلماء الأربعة في الإسلام . سعيد ابن المسيب في المدينية (ذكرناه في قصة زواج) ، والحسن البصري في البصرة (ذكرناه في قصة بقة الصعيرة) ، ومكحول في الشام ، والسجي هذا في الكوفة . وكان يشبه في زمانه ابن عباس في زمانه

(٢) الحب (بكسر الحاء) هو الرير ، يستقطر الماء من أسفله فيخرج صافياً ، ويقال لرشحته . قطرحب .

وهما ، وكأنه لا يسمع إلينا لسمع ، بل يشغل نفسه عن شيء فيها ، فتوزع
خواطره ، فيتبدد اجتماعها على همه يصوت من هنا وصوت من هنا ، كما يفعل
المحزون في مغالبة الحزن ومداقته : يشغل عنه بصره وقلبه وسمعه جميعاً ،
فيكون الحزن فيه وكأنه بعيد منه .

قلت في نفسي : أمر أمت الضحك في هذا الفتي وكسر حنقه وشبابه .
ثم تحولت إليه وقلت : رأيتك يابى مقبلاً علينا كالنصر ف عنا ، فبالك
لم تضحك وقد ضحكا جميعاً ؟

قال : إليك عنى يا هذا ؛ فأين منى الضحك وأما على شفير القبر ، وروح
الزباب مالى عيبى في كل ما أرى ، وكأن حفرى آتلت الدنيا التى أنا فيها
لتأخذنى فيها ، وأما الساعة ميت حتى ؛ رجل فى الدنيا ورجل فى الآخرة ؛
قلت : فأعلمنى ما بك يابى ؛ فقد أحسنتُ ولداً لى كان فى مثل سنك
وشبابك ولم أزد غيرَه ، فقلبي بعده مريض به ، يتوسمه مفرقاً فى لدائه ،
متوهما أن وجوههم تجتمع ملامحه ؛ فأما من ذلك أحبهم جميعاً وأطول النظر
إليهم والتأمل فى وجوههم ، ولست أرى أحداً منهم إلا كان له وقلبي حديث ؛
فإن رأيت حزيناً مثلك تقطعت له من إشفاق ورحمة ، وطلعت فتاى فى مثل
هم وحزبه وأنكساره ؛ فيعود قلبي كالعين التى غشاها الدمع ، تحمل أثر الحزن
ومعناه وسره ؛ فئنى مانحداً يابى ، فلعل لى سبباً إلى كشف ضرك أو إسعافك
محتاجتك ؛ ولعلك تكون قد حزنت من أمر قريب المتناول هين المحاولة ،
لم يجعله عدك كبيراً أنه كبير ، ولكن أنك أنت صغير .

قال الفتى : مهلاً يا عم ، فإن ما زلنا بما تنقطع عنه الحيلة ولا تنفاد
فيه الوسائل ، ولا علاج منه إلا بالموت يأخذنا ويأخذ ١

قلت : يابى ، هذه كلمة ما أحسب أحداً يقولها إلا من أخذ للقتل بحايته
(٧ وحى رقم ٢)

ولم يُعَفْ أهلُ الدم ، فهل جنيتَ أو جنى أبوك على أحد ؟
قال : إن الأمر قريبٌ من قريب ، فإني تركتُ أبي الساعةَ مُجمِعاً على
إزهاقِ نفسه ، وقد أغلقتُ عليه الدارَ وآستوثق من الباب !
قال المسيّب : فكأنما لدغتنى حيةٌ بهذه الكلمة ، وأكبرتُ أن يكون رجلاً
مسلمٌ يقتلُ نفسه ، فتناهضتُ ، ولكن الغلامَ أمسك في وقال : إنه لا يزال
حياً ، وسيقتل نفسه متى أظلم الليلُ وهذأت الرجل .
قلت : الحمد لله ، إن في الور عقلاً ، ولكن ما الذي صار به إلى ما قلت ،
وكيف تركته لِقدَرِهِ وجئت ؟

قال الفتى : إنه قال لي : يا ولدي . ليس لك أبٌ بعدى ؛ فإن أردت
الحاقَ بي فارجع مع الليل لتُسَلِّمَ أنفَساً ، وإن آثرتَ الحياةَ فارجع مع
الصبح لتُسَلِّمَ إلى عاملٍ !

قلت : فأمين أنت ألا يكونَ أبوك قد أخرجك عنه لأن عينك تُمسِكُ
يدَهُ وترثُهُ عما يَهُمُّ به ، حتى إذا خلا وجهه منك أزهق نفسه ؟

قال : لم أدعُه حتى أضمَّ أن يحا إلى الليل ، وحتى أقسمتُ أن أرحع
لاموتَ معه ؛ فإن لم تمسكه يمينُهُ أمسكه أنظاري ؛ وقد فرغتِ الحياةَ منا فلم
يَبَقْ إلا أن نفرغَ منها ، ومن كان فيما كما فيه تم اهدر إلى ما اهدرنا إليه ،
لم يُرِ الناس من نفسه ضِعَّةً ولا استكانة ؛ وإنما خرجتُ لأسألَ هذا الإمام
(الشعبي) وجهاً من الرأى فيمن يقتل نفسه ، إذا صاقت عليه الدنيا ، ونزلت
به البارالاتُ ، وتعدر القوت ، واشتد الضر ، وتذلت به المسكةُ إلى حَضِيضِهَا
وَأُلْجِئَ إلى أحوالِ دَفَنِهِ دَقَ الرِّيحِ لما تدور عليه ، ولم يُعَدِّ له إلا رأى
واحد في معنى الدنيا : هو أنه مكدوب مزور على الدنيا .

قلت يا بني . فإني أراك أديباً ؛ فمن أبوك ؟

قال : هو فلان التاجر ظهر ظهور القمر ونُحِقَ بحاقه ، وهو اليوم في أحلك الليالي وأشدّها انطاساً ، جَهْدَه الفقر ، وباليته كان الفقر وحده ، بل انتهكتُه العِلك . وليتها لم تكن إلا العِلك مع الفقر ، بل أخذ الموت امرأته فأتت هماً به وبى ، ولم يكن له غيرى وغيرُها ، وكان كلُّ من ثلاثتنا يحيا للآخرين ، فهذا ما كان يعمل كلاماً لا يفرغ إلا امتلاءً ، ولما ذهبت الأم ذهبت الحقيقة التى كنا نقاتل الأيام عنها ، وكانت هى وحدها تُرينا الحياة بمعناها إن شاءت الحياة فارغة من المعنى ، وكما من أجلها نفهم الأيام على أنها مجاهدة النقاء ؛ أما الآن والحياة عندما قتلُ الحياة ١٠

قلت : يا بى ، بآبك والله مع أدبك لحكيم ، وإنى لا نفسُ بك على الموت ؛ وكيف ردُّك حياة أمك عن قتل نفسك ولا تترك حياة أهلك ؟ قال : لويق أبى حيا لبقيت ، ولكن الدهر قد انتزع منه آخر ما كان يملك من أسباب القوة ، حين أخذ القلب الشقيق الذى كان يحمله يرتعد إذا فكّر فى الموت ؛ فهو الآن كالذى يحاربُ عن نفسه تلقاء عدو لا يرحمه ؛ إن عجز عن عدوه فالرأى قتلُ نفسه ليستريح من تشكيل العدو به .

قال المسيّب بن رافع : وأدركتُ أن الفتى يُريد من سؤال الشيخ نَحْلَةً يعلمنُ إليها أن يموت مسلماً إذا قتل نفسه كالمضطر أو المكروه ؛ فأشفتُ أن أكسِرَ نفسه إذا ما حدثته أو أفئته ، وقلت : هذا مريض يحتاج العلاج لا الفتى ، وكان إمامنا (الشعمى) حكيماً حيناً فطيناً . سَمَرَ بين أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهل الروم ، فحسدنا العاهلُ أن يكون فينا مثله وقلتُ : امل الله يُحدث به أمراً . فأحدثُ بيد الفتى إليه . ومشيتُ أكله وأرفه عن نفسه ؛ وقلتُ له : أما تدرى أنك حين فرغت من سرور الحياة فرغت من غرورها

أيضا ، وأن الزاهد المنقطع في عُرْعُرَةِ الجَبَلِ ينظر من صومعته إلى الدنيا ،
ليس بأحكم ولا أبصر ممن ينظر من آلامه إلى الدنيا ؟

يأبى : إن الزاهد يحسب أنه قد فرَّ من الرذائل إلى فضائله ، ولكن فراره
من مجاهدة الرذيلة هو في نفسه رذيلةٌ أكل فضائله ؛ وما ذا تكون العقَّةُ
والأمانة والصدق والوفاء والبرُّ والإحسانَ وغيرها ، إذا كانت فيمن انقطع
في صحراءٍ أو على رأس جبل ؟ أيزعم أحدٌ أن الصدق فضيلةٌ في إنسان ليس
حواله إلا عشرة أحجار ؟ وآيُمُ الله إن الخالي من مجاهدةِ الرذائل جميعا ، لمَوْ
الخالي من الفضائل جميعا !

يأبى : إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قَحَّ هذه الإنسانية : يَنْبُتُونَ
وَيُحْصَدُونَ وَيُطَاخَتُونَ وَيُعْجَنُونَ وَيُخْبَزُونَ ، ليكونوا غداءَ الإنسانية في بعض
فضائلها ؟ وما أراك أنت وأباك إلا من المختارين ، كأن في أعراقكما دم نبيٍّ
يُقْتَلُ أو يُصَلَّبُ !

قال المسيب : وانتهيا إلى دار الشعي ، فطَرَقْتُ الباب ، وجاء الشيخ ففتح
لنا ، وسَلَّمْنَا وسَلَّمَ ، ثُمَّ بَدَرْتُ قُلْتُ : يَا أَمَامِ عَمْرُو ، إن أَمَا هَذَا كَانَ مِنْ حَالِهِ
كَيْتَ وَكَيْتَ ، فَتَرَاقَتْ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ ؛ وَوَالَتْ النِّكَاتُ ، وَتَوَاتَرَتْ
الْأَسْقَامُ ... ثُمَّ اقْتَصَصْتُ مَا قَالَهُ ابْنُهُ حَرًّا حَرًّا ، ثُمَّ قُلْتُ : وَإِنَّ الْآنَ
مُوشِكُ أَنْ يُزْهَقَ نَفْسُهُ ، وَسَتَبْعُهُ ابْنُهُ هَذَا : وَقَدْ (هَدَاهُ اللَّهُ إِلَيْكَ) جَاءَ
يَسْأَلُكَ : أَيْمُوتَ مَسْلُومًا مِنَ الْجُنَى وَأَكْرَهَ وَاضْطُرَّ وَاسْتَضَاوً وَاحْتَلَّ ، وَحَسَى
سُئَامَ فَهْلِكَ ، أَوْ تَوَحَّأَ بِمَجْدِيدَةٍ فَقَضَى ، أَوْ ذَمَّحَ نَفْسَهُ بِنَصْلِ نَخَمَتَ ، أَوْ حَزَّ
فِي يَدِهِ سَكِينًا فَأَرَادَهُ حَيًّا مَاتَ ، أَوْ أَحْضَقَ فِي حَبْلِ قَفَاضَتِ نَفْسُهُ ،
أَوْ تَرَدَّى مِنْ شَاهِقٍ فَطَلَحَ . . .

وأدرك الشَّحَّ مَعَى فَوَلَّى : (هَدَاهُ اللَّهُ إِلَيْكَ) ، وَمَعَى مَا أَكْرَهْتُ مِنْ

الآلفاظ المترادفة على القتل وما استقصيتُ من وجرمه ؛ فلم أُنْ لم أسأله الفتيا والنص ولكني سألتُه الحكمة والسياسة ؛ فقال : هذا والله رجلٌ كريم ، أخذته الأتفة وعزّة النفس ، وما أنا الساعة بمُعزّل عن مهمّة ؛ فذهب نكلمه والله المستعان .

ومشيئا ثلاثينا ، فلما شارفنا الدارَ قال الفتى : إنه لا يفتح لي إذا رأينا ، وربما استفزّ بنفسه فأزهقها ، وسأستور الحائط وأتدلى ثم أفتح لكما فتدخلان وأنا عنده .

ودخلنا ، فإذا رجل كالمریص من غير مرض ، خوارٌ مَسلوبُ القوة ، ازعج قلبه إلى الموت وما به جُرأة ، وإلى الحياة وما به قوّة ؛ وصغّر إليه نفسه أنها أصبحت في معاملة الناس كالدرهم الزائف لا يقبله أحد ، وثابر عليه داء الحزن فأضناه وتركه رُوحاً تتقعقع في جِلدها ، فهي تهم في لحظة أن تنبّ وتندلق . وسلمَ الشيخُ وأقبلَ وجهه على الرجل ، ثم قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والصابرين في البأساء والضراء وحينَ البأس . أولئك الذين صدّقوا وأولئك هم المتقون . »

فقطع عليه الرجل وقال للمحقق : أيها الشيخ ، قد صرنا حتى جاء ما لا صبر عليه ؛ وقد خلونا من دعائِ الكلام كله ، فانهدر عليها إلا لفظاً واحدةً بملك معناها ، هي أن ننتهى ا

ومدَّ الشيخُ عيه رأى كوةً مسدودةً في الجدار ، فقال لي : افتحْ هذه ودع الهواء يتكلم معكلامه . فقممت إليها فعالجتها حتى فتحها ، ونفذ منها رُوحُ الدنيا ، وقال الشيخ للرجل : أصغِرْ إلى ، فإذا أما فرغتُ من الكلام فشأنك بنفسك .

أَعْلِمْتَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ مَرَضَ فَأَعْضَلَ مَرَضُهُ فَأَثْبَتَهُ عَلَى سِرِيرِهِ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَا يَتَحَرَّكُ ، وَطَوَى فِيهِ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ حَيًّا وَنَشَرَ مِنْهُ الرَّجُلُ الَّذِي سَيَكُونُ مَيِّتًا ، فَبَقِيَ لَا حَيًّا وَلَا مَيِّتًا ثَلَاثِينَ سَنَةً ... ؟

قال الرجل : وفي الدنيا من يعيش على هذه الحال ثلاثين سنة ؟
قال الشيخ : نَحْمَحُ الْكَلَامَ وَأَسْأَلُ : أَيَصْبِرُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَلَا يَقُولُ : جَاءَ مَا لَا صَبْرَ عَلَيْهِ ، أَوْ أَيْ شَيْءٍ لَا صَبْرَ عَلَيْهِ عِنْدَ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ الْبَلَاءَ مَالٌ غَيْرُ أَنَّهُ لَا يَوْضَعُ فِي الْكَيْسِ بَلْ فِي الْجِسْمِ ؟
أَفْتَدْرِي مَنْ كَانَ الصَّابِرَ ثَلَاثِينَ سَنَةً عَلَى بَلَاءِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ يَجْتَمِعَانِ فِي عِظَامٍ مُتَدَدَةٍ عَلَى سِرِيرِهَا ؟ إِنَّهُ لِمَأْمُنَا (عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ الْحِزَامِيُّ) ^(١) الَّذِي أَرْسَلَهُ عِمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُعَفِّهِ أَهْلَ الْبَصْرَةِ وَتَوَلَّى قَضَاءَهَا ، وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَدِمَ خَيْرٌ لَمْ يَنْصَرِفْ مِنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ؛ وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَيْهِ أَنَا وَأَخُوهُ (الْعَلَاءُ) فَرَأَيْنَاهُ مُثَبَّتًا عَلَى سِرِيرِ الْجَرِيدِ كَأَنَّمَا شُدَّ بِالْحَبَالِ ، وَمَا شُدَّ إِلَّا بِأَنْتَاهَاكَ عَصَاهُ وَذَوْبَانِ لَحْمٍ وَوَهَيَّ عِظَامِهِ ؛ فَكَيْ أَخُوهُ ، فَقَالَ : لِمَ تَكُنِي ؟ قَالَ : لِأَنِّي أَرَاكَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الْعَظِيمَةِ ؛ قَالَ لَا تَبْكُ ، فَإِنَّ أَحَبَّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَحَبَّهُ إِلَيَّ ؛ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ تَحْمِلُ الْجِبَالَ فَلَا يَشْعُرُ مَوْضِعُهَا بِالْجِبَالِ الْقَائِمِ عَلَيْهِ ، لِذَا كَانَ تَمَاسُكُ الْأَرْضِ كُلِّهَا قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهَا قُوَّةَ الْجَمِيعِ ، وَلَوْلَا هَذَا لَدَكَ الْجِبَلُ مَوْضِعَهُ وَغَارَهُ ؛ وَكَذَلِكَ يَحْمِلُ الْمُؤْمِنُ مِثْلَ الْجِبَالِ مِنَ الْبَلَاءِ عَلَى أَعْصَانِهِ لَا يَنْكسرُ لَهَا وَلَا يَهْدُمُ ، إِذْ كَانَتْ قُوَّةُ رُوحِهِ قُوَّةَ كُلِّ مَوْضِعٍ ، فَالْبَلَاءُ يَحْمَلُ عَلَى هَيْئَةِ الرُّوحِ لَا عَلَى الْجِسْمِ ، وَهَذَا مَعَى الْخَبَرِ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، إِنْ رُوحُهُ لَتُنزَعُ مِنْ بَيْنِ جَنِيهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ قَالَ : وَلَكِنْ ذَلِكَ هُوَ الْمُؤْمِنُ ، فَاسْأَلْ اللَّهَ فَكَمَا قَالَ لَهُ : « آمَنَ حَيٌّ »

وكيف تراك إذا كنتَ بطلاً من الاطال مع قائد الجيش ، أما تفرض عليك
شجاعتك أن تقول للقائد : « لمتحني وأرزم بي حيث شئت » ، وإذا رمى
بك فرجعت مُتَخَنًا بالجراح ونالك البُسرُ والتشويه ، أترأها أوصافاً لمصائبك ،
أم ثناءً على شجاعتك ؟

ثم قال : إذا لم يكن الإيمانُ بالله أطمئناناً في النفس على دلائلها وكوارثها ،
لم يكن إيماناً ، بل هو دعوى بالفِكر أو باللسان لا يُعَدُّوها ، كدعوى الجبان
أه بطل ، حتى إذا فجأه الرُّوعُ أحدثَ في ثيابه من الخوف ... ومن ثم كان
قَتْلُ المؤمن نفسه لبلاءً أو مرضاً أو غيرهما كمرأى ما لله وتكذيباً للإيمانه ،
وكان عمله هذا صورةً أخرى من طيش الجبان الذي أحدث في ثيابه !

والإيمانُ الصحيحُ هو بِشاشةُ الروح ، وإعطاء الله الرضى من القلب ،
ثقة بوعده ورجاء لما عنده . ومن ههنا يكون الأطمئنان : والبشاشة
والرضى والثقة والرجاء ، يصبح الإيمانُ عقلاً ثانياً مع العقل ، فإذا أَتَى
المؤمن بما يذهب معه الصبرُ ويطيئُ له العقل وصار من أمره في مثل الجنون -
برزَ في هذه الحالة عقله الرُّوحاني وتولى سياسةَ جسمه حتى يُفِيقَ العقلُ الأول
ويحمي الخوف من عذاب الله ونقمته في الآخرة ؛ فيَغمرَ به خوف النفس من
الفقر أو المرض أو غيرهما فيقتلُ أقوامها الأضعف ، ويُخرج الأعرضَ منهما الأذل .

فالأطمئنانُ بالإيمان هو قتلُ الخوفِ الدنيويِّ بالتسليم والرضى ،
أو تحويله عن معناه يحمل البلاء ثواباً وحسنات ، أو تحريده من أوهامه
باعتبار الحياة سائرة بكل ما فيها إلى الموت ؛ وهو هذا عقلٌ رُوحانيٌّ له شأنٌ
عظيم في تصريف الدنيا ، يترك النفسَ راضيةً مَرْضِيَّةً ، تقول لمصائبها

وهي مطمئنة : نعم ! وتقول لشهواتها وهي مطمئنة : لا !

وما الإنسان في هذا الكون ؟ وما خبره وشبهه ؟ وما يحيط به ، رضاه ؟

إن كل ذلك إلا كما ترى قبضةً من الزراب تتكبر وقد نسيت أنه سيأتي من يكسها ... !

قال الشيخ : وانظر ، أما تُبْتَلَى الشجرةُ الحضراءُ في بعض أوقاتها بمثل ما يُبْتَلَى به الإنسان ، غير أن لها عقلاً روحانياً مستقراً في داخلها يمسك الحياة عليها ويتربصُ حالاً غير الحال ؛ ومهما يكن من أمرٍ ظاهرها وبلائه فالسعادةُ كلها في داخلها ، ولها دائماً ربيعٌ على قدرها حتى في قر الشتاء .

فالعقلُ الروحانيُّ الآتي من الإيمان ، لا عملَ له إلا أن يلشئ للنفس عريضةً متصرفَةً في كل عرازها تُكَلِّ شَيْئاً وتَقْصُصُ من شيء ، وتُوجِّهُ إلى ناحية وتَصْرِفُ عن ناحية ؛ وبهذه العريضة تسمو الروح فتكون أكبر من مصائبها وأكثر من لذاتها جميعاً .

وتلك العريضة هي نفسها معنى الرضى بالقدر خيرهِ وشرهِ ، وهي تأتي للتأويل لكل موم الدنيا ، فتضعُ في النكبات معاني شريفةً تنزعُ منها شرّها وأذاها للنفس ؛ وليست المصيبةُ شيئاً لولا تأذي النفسِ بها ، وإذا وقع التأويلُ في معاني النكبات أصبحت تعمل عملَ الفصائل ، وبغيرت طبيعتها ، فيعود الفقرُ باباً من الرهد ، والمرضُ نوعاً من الجهاد ، والحبُّ طريقاً من الصبر ، والحزنُ وحماً من الرحاء ، وهلمَّ جزاً .

والنفسُ وحدها كنزٌ عظيم ، وفيها وحدها الفرحُ والآبَاحُ لافي غيرها ، وما لذاتُ الدنيا إلا وسائلٌ لإثارة هذا العرج وهذا الآتِاح ، فإن وُجِدَ مع الفقرِ بطلتْ عِزَّةُ المالِ وأصبح حجرُك من الحجر ؛ والبلبلُ يتعردُ بحجرته الصغيرة ما لا تُعي فيه آلاتُ الطُربِ كلها . وفي النفس حياةٌ ما حوَّلها ، فإذا قُوِيَتْ هذه النفسُ أدلت الدنيا ، وإذا صَعُقتْ أذلها الدنيا !

قال المسيّب : ثم سكت الشيخ قليلا ، وكنت أرى الرجل كأنما ينتسل بكلامه ، وقد أشرق وجهه وتضرّ وأنقلب إلى روحه التي كان مصرفاً عنها ، فدادت مصائبه تضغط روحاً لينة كما تضغط اليد على الماء . وأيقن أن النكبة كلها هي أن ينظر الإنسان إلى الحياة بعين شهواته ، فيُنكَبَ أولَ ما ينكَبُ في صدره وبقينه .

ثم قال الشيخ ، وأند رأيتُ بعيني رأسي معجزة (العقل الروحاني) وكيف يصنع : رأيت عروة بن الزبير ^(١) وهو شيخ كبير ، عند الوليد بن عبد الملك ، وقد وقعت في رجله الأكلة ، فأشاروا عليه بقطعها لا تُفسد جسده كله ، فدعيت له من يقطعها ، فلما جاء قال له : نسقيك الخمر حتى لا تجدها لها ألماً فقال عروة : لأستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية قال : فسقيك المُرْقِد ؟ فقال عروة : ما أحب أن أسلبَ عضواً من أعضائي وأنا لأجد ألمَ ذلك فأحتسبه !

ثم دخل رجال أنكرهم عروة ، فقال : ماهؤلاء ؟ قالوا : يُسكوتك ، فإن الألم ربما عَزَبَ معه الصدر . قال أرحو أن أكفيكم ذلك من نفسي !

قال الشيخ : فانظر أيها الضعيف الذي يريد قتل نفسه كيف صنع عروة ، وكيف استقبل البلاء ، وكيف صبر وكيف احتمل : إنه أنصرف بحسه إلى النفس فانبسط روحه عليه ، وأخذ يكثر ويهلل ليقى مع روحه وحدها ، وخرج من دنيا ظاهره إلى دنيا باطنه ، وعمرت حواسه وأعصابه بالنور الإلهي من معنى التكبير والتهلل ، فقطع القاطع كعبه بالسكين وهو لا يلتفت ، حتى إذا بلغ العظم وضع عليها المشار ونشرها وعروة في التكبير والتهلل ثم حى بالزيت معلياً في موارف الحديد فحسّم به مكان القطع . فتشيت على عروة

ساعة ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، ولم يُسمع منه في كل هذه
الآلام الماحقة أَنَّهُ ولا آهَةً ، ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك :
« جاء مالا صبرَ عليه ... »

قال المسيب : وأرهف بأْس الرجل الضعيف وقوى جأشه ، وأنبعثت
فيه الروحُ إلى عمر جديد ، ونشأ له اليقين من عقله الروحاني ، وعرف أن
مالاً يمكن أن يدرك ، يمكن أن يترك .

وجاء هذا العقل الروحاني فرّاً بالمِلشار على اليأس الذي كان في نفسه
فقطعه : فراعنا إلا أن وثب الرجل قائماً يقول : الله أكبر من الدنيا !
الله أكبر من الدنيا !

ثم أكبَّ على يد الشيخ وهو يقول : صدقت : « إن كلَّ ذلك إلا كما
تري قبضةً من التراب تتكبر ، وقد نسيت أنه سيأتي من يكسها » ،

ماذا يصنع الإنسان إذا غلط في مسألة من مسائل الدنيا إلا أن يتجرى
الصواب ، ويجتهد في الرجوع إليه ، ويصبر على ما يناله في ذلك ؟ وماذا
يصنع الإنسان إذا غلطت فيه مسألة ... ؟

الانتحار

٢

قال المسيّب بن رافع : وقام الشعبي إلى الرجل فاعتنقه فراحا بما آل أمره إليه ، بعد إذ رأى النور يجرى على لونه ويرقرق في دياجته ؛ كأنما وقع الصلح بين وجهه وبين الحياة . ثم قال له : إنم أخو الإسلام أنت ! فاستعذ بالله من خذلانه ، فإنه ما خذلك إلا وضعتك نفسك بإزاء الله تعارضه أوتحاريه في قدرته ؛ فيكلك إلى هذه النفس ، فتنتهى بك إلى العجز ، وينتهى العجز بك إلى السخط ؛ ومتى كنت عاجزاً ساخطاً ، محصوراً في نفسك ، موكولاً إلى قدرتك ؛ كنت كالأسد الحائض في القفر إذا ظل أن قوته تتناول خلق الفريسة ؛ فيدعو ذلك إلى نفسك اليأس والازعاج والكآبة وأمثالها من هذه المهلكات ، تفدح في قلبك الشك في الله ، وتثبت في روعك شر الحياة ، وتهدى إلى خاطرك حماقات العقل ، وتقرر عندك عجز الإرادة ؛ فتنتهى من كل ذلك مبتأ قد أزهقتك نفسك قبل أن تزهيها !

ولو كنت بدّل إيمانك بنفسك قد آمنت بالله حق الإيمان ، لسلطك الله على نفسك ولم يسلطها عليك ؛ فإذا رمتك المطامع بالحاجة التي لا تقدر عليها ، رميتها من نفسك بالاستعانة الذي تقدر عليه ؛ وإذا جاءتك الشهوات من ناحية الرعية المقلّة ، جثتها من ناحية الزهد المصروف ، وإذا ساورتك كبرياء الدنيا أذللتها بكبرياء الآخرة

وبهذا قلب الاحاذ والالام ضروباً من فرح الفوز والانتصار على

النفس وشهواتها، وكانت فنونا من الخذلان والهم، وتعود موضع غفر ومباهاة وكانت أسباب خزي وانكسار، وعزيمة الإيمان إذا هي قويت حَصَرَت البلاء في مقداره، فإذا حصرته لم تزل تَنْقُصُ من معانيه شيئاً شيئاً، فإذا ضعفت هذه العزيمة جاء البلاء غامراً مُتَفَشِّياً يُجَاوِزُ مقداره بما بَصَحَبُهُ من الخوف والروع، فلا تزال معانيه تَزِيدُ شيئاً شيئاً عما فيه وبما ليس فيه . وللإيمان ضوء في النفس ينير ما حولها، قراه على حقيقته الفانية وشيكا أن يزول؛ فإذا انطفأ هذا الضوء انطلمست الأشياء، فتوهمها النفس أوهاماً مُتَبَايِنَةً على أحوالها المختلفة: كما يرى الأعمى بومه: لاهيته مع الأشياء تكون في طبيعتها، ولا أشياءؤه عند عينه تكون في حقيقتها .

• • •

قال المسيب: وكانت الشمس قد طفلت للغيب: فقال الإمام للرحل: قم فتوضاً وأتسخ الوضوء؛ وسأعلمك أمراً تلتفع به في دينك ودنياك: فإذا قمت إلى وضوئك فأيقن في نفسك واعزم في خاطرك على أن في هذا الماء سرّاً وحاتياً من أسرار الغيب والحياة، وأنه رمزٌ للسماء عندك، وأنتك إماما تقتطهره من ظلمات نفسك التي امتدت على أطرافك: ثم سم الله تعالى مقيضاً اسمه القادر الكريم على الماء وعلى نفسك معاً، ثم تمثل أنك غسلت يديك بما فيهما وبما تتعاطاه بهما من أعمال الدنيا، وأنتك آخذٌ فيهما من السماء لوجهك وأعصائك: وقرر عند نفسك أن الوضوء ليس شيئاً إلا مسحاً سماوياً تُسبِّحُها على كل أطرافك، ليشرق بها جسمك وعقلك، وأنتك هذه المسحة السماوية تستقبل الله في صلابك سماوياً لا أرضياً .

فإذا أنت استشعرت هذا وحملت عليه وصار عادة لك، فإن الوضوء حينئذ يزل من النفس مزلّة الدواء، كلها اعممت أو تكرهت أو سخطت

أَوْ غَشِيكَ حَزَنٌ أَوْ عَرَضَ لَكَ وَسْوَاسٌ ؛ فَا تَوَضَّأْ عَلَى تِلْكَ النِّيةِ إِلَّا غَسَلْتَ
 الْحَيَاةَ وَغَسَلْتَ السَّاعَةَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا مِنَ الْحَيَاةِ ^(١) وَتَرَى الْمَاءَ تَحْبِسُهُ
 هَدُوءاً لِنَا لِيَنَّ الرِّضَى ، وَإِذَا هُوَ يَسَابُ فِي شَعُورِكَ وَفِي أَحْوَالِكَ جَمِيعاً .
 قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَقْتُ أَمَا جَدَّدْتُ وَضُوءِي عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ بِتِلْكَ النِّيةِ ؛ فَإِذَا
 أَنَا عِنْدَ نَفْسِي مُسْتَضِيءٌ بِرُوحِ نَعْمَةٍ لَهَا إِشْرَاقٌ وَسَنَاءٌ ، وَإِذَا الْوَضُوءُ فِي
 أَضْمَفٍ مَعَانِيهِ هُوَ مَا عَلَّمْنَا مِنْ أَنَّهُ الطَّهَارَةُ وَالنِّظَافَةُ ، أَمَا فِي أَقْوَى مَعَانِيهِ فَهُوَ
 إِفَاضَةُ مِنَ السَّمَاءِ فِيهَا التَّقْدِيسُ وَالزَّكَاةُ وَغَسْلُ الْوَقْتِ الْإِنْسَانِيِّ بِمَا يَخَالِفُهُ كُلُّمَا
 مَرَّتْ سَاعَاتٌ ، وَابْتِدَاؤُهُ لِلرُّوحِ كَالنَّبَاتِ الْآخِضِرِّ بَاضِراً مَطْلُولاً مَرْتَبِطاً بِالْمَاءِ .
 ثُمَّ صَلَّى بِنَا الشَّيْخُ ، وَأَمَرَنِي بِالْمَبِيتِ مَعَ الرَّجُلِ ، كَأَمَّا خَشِيَ الْبَدَوَاتِ
 أَنْ تَبْدُوَ لَهُ فَتَقْضَ عَزَمُهُ ، أَوْ هُوَ زَادَنِي عَلَيْهِ لِأَغْيَرِ شَخْصَةً وَأَبْدَلَ وَحْدَةً
 الَّتِي كَانَ فِيهَا ، أَوْ كَأَنَّ الشَّيْخَ لَمْ يَأْمَنْ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانُهُ الرُّوحِيُّ
 قَدْ تَلَّهَ بِأَكْلِهِ فَوْضَعِي كَالنِّيَةِ لَهُ .

وَجَاءَ الْعِشَاءُ مِنْ دَارِ الشَّيْخِ فَطَعِمَنَا ، ثُمَّ قَامَ الرَّجُلُ قَوْماً وَصَلَانَا
 الْعَتَمَةَ وَجَلَسْنَا نَتَحَدَّثُ ، فَاسْتَبَأْنَاهُ نَبَأَهُ ، فَقَالَ : مَهْلًا . ثُمَّ نَهَضَ فَتَوَضَّأَ
 الثَّلَاثَةَ وَقَالَ : نَافَقَهُ مَا أَعْرِفُ الْوَضُوءَ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَّا مَلَامَسَةً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالنَّفْسِ ،
 وَمَا أَعْرِفُ وَقْتَهُ مِنَ الرُّوحِ إِلَّا كَسَاعَةِ الْفَجْرِ عَلَى الْبَاتِ الْآخِضِرِّ .

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَأَصْبَحْنَا فَنَعْدُوْنَا عَلَى الْإِمَامِ : ثُمَّ لَزِمْنِي الرَّجُلُ فِي بَعْضِ
 أُمُورِي ، ثُمَّ وَافَيْنَا الْمَسْجِدَ صَلَاةَ الْعَصْرِ لِحُضُورِ دَرَسِ الشَّيْخِ : وَكَانَ النَّاسُ
 كَالْحَبِّ الْمَتَرَاصِفِ عَلَى الْعُنُقُودِ ، لَا أُدْرِي مِنْ سَاقِهِمْ وَجَمْعِهِمْ : كَأَمَّا عَلِمْتُ
 الْكُوفَةَ أَنَّ رَجُلًا مَسْلِكاً كَهَرَّ نَافَقَهُ كُفْرَةً صَلَّعَاءَ ، وَأَنَّهُ سَيَحْضُرُ دَرَسَ الشَّيْخِ

(١) هذه في رأينا حكمة تكرار الوضوء وتلك هي أسرارها عددا .

وسبحر الشيخ من أجله ، فهتت الرياح الأربع تسوق أهلها إلى المسجد من أقطارها .

وجلس الشيخ مجلس الحديث فقال :

رَوَيْنَا أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ بِهِ جِرَاحَةٌ ، فَأَنَّى قَرَنَّا لَهُ فَأَخَذَ مِشْقَصًا ^(١) فَذَمَحَ بِهِ نَفْسَهُ ؛ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَرَكَ جَنَازَتَهُ مَطْرُودَةً تَقْتَحِمُ مَتَلَفَةَ الْآخِرَةِ كَمَا اقْتَحَمَتْ مَتَلَفَةَ الدُّنْيَا !

روينا في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الَّذِي يَحْنُقُ نَفْسَهُ يَحْنُقُهَا فِي النَّارِ ، وَالَّذِي يَطْعُنُ نَفْسَهُ يَطْعُنُ نَفْسَهُ فِي النَّارِ ، وَالَّذِي يَقْتَحِمُ يَقْتَحِمُ فِي النَّارِ !»

روينا عنه صلى الله عليه وسلم : «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بَشَى عَذَابَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ !»

روينا عنه صلى الله عليه وسلم قال : «كَانَ رَجُلٌ بِهِ جِرَاحٌ فَصَلَ نَفْسَهُ ، فَقَالَ اللَّهُ : بَدَرَنِي عَبْدِي بِعِيسِهِ فُحِرْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ !»

قال الشعبي : يقول الله : «بَدَرَنِي عَبْدِي بِعِيسِهِ ...» أَيِ بَدَرَنِي وَتَأَلَّهَ فَجَمَلَ نَفْسَهُ إِلَهَ نَفْسِهِ ، فَحَبَسَهَا وَتَوَفَّاهَا ، فَكَانَ ظَالِمًا .

بَدَرَنِي وَتَأَلَّهَ فِي آخِرِ أَنْفَاسِهِ لِحَظَّةٍ يَنْفَلِبُ إِلَى ، فَكَانَ مَعَ ظُلْمِهِ مَعْرُورًا أَحَقُّ ! بَدَرَنِي وَتَأَلَّهَ حِينَ ضَاقَ ، فَهُوَ نَفْسُهُ فِي الْمَوْتِ مِنْ مَجْزِهِ أَنْ يُمَسِكَهَا فِي الْحَيَاةِ ؛ فَكَانَ عَاجِزًا مَعَ ظُلْمِهِ وَغُرُورِهِ وَخُفْيِهِ !

بَدَرَنِي وَتَأَلَّهَ عَلَى جَهْلِهِ بِسَرِّ الْحَبَاءِ وَحِكْمَتِهَا ، فَلَمْ يَسْتَحْ هَذَا الْمَخْلُوقُ الظَّالِمُ الْمَعْرُورُ فِي حَقِّهِ وَعِجْزِهِ وَجَهْلِهِ - لَمْ يَسْتَحْ أَنْ يَحْيِي فِي صُورَةِ إِلَهٍ !

(١) القرن (بفتحين) . حبة القثاب و المتقص . سهم فيه فصل عريض .

بَدَرَنِي وَتَأَلَّه ، فَطَبَعَ نَفْسَهُ طَائِعَهَا الْأَبَدِيَّ مِنْ غَيٍّ وَتَمَرَّدَ وَسَفَاهَةٍ ،
وَأَرْسَلَهَا إِلَى مَقْتُولَةٍ يَرُدُّهَا عَلَيَّ .

بدرني وتأله كلما يقول : إن له نصف الأمر ولي النصف ؛ أنا أحييت
وهو أمات ...

بدرني عندي بنفسه حرمت عليه الجنة !

قال الشعبي : وإنما تحرم الجنة على من يقتل نفسه ، إذ ينقلب إلى الله
وعلى روحه جناية يده ما تفارقها إلى الأبد ؛ فهو هالك جيفة من الجيف مسمومة
أبدًا ، أو مخنوقة أبدًا ، أو مذروحة أبدًا ، أو مهشمة أبدًا ، يقول الله له : أنت
بَدَرْتَنِي بِنَفْسِكَ ، وجريت معي في القدر مجرى واحدًا ، فستخذل نفسك في
الصورة التي هي من عملك ، وما قتلت إلا حسناتك .

قال الشعبي : ولو عرف قاتل نفسه أنه سيصنع من نفسه جيفة أبدية ،
فن ذا الذي يعرف أنه إذا فعل كذا وكذا تحول حمارًا وبق حمارًا ، فيرضى
أن يتحول ويسرع ليتحول ؟

من ذلك نظر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى جنازة ذلك الرجل الذي
قتل نفسه ، كما ينظر إلى ذبابة توجهت بالسب إلى الشمس والكواكب
والأملاك كلها ، ثم حامت تقول له : أشهد لي .

قال الشيخ : ويمّ يقتل الإنسان نفسه ؟ أما إن الموت آتٍ لا ريب فيه
ولا متقصر لحيته ، وهو الحية الكبرى تُلقَى على هذه الحياة ؛ فما ضررُ
الحية الصغيرة في أمرٍ من أمور الحياة ؟

إن المرء لا يقتل نفسه من محاح بل من خيبة ، فإن كانت الحية من مال
فهو الفقر أو الحاجة وإن كانت من عافية فهي المرض أو الاختلال ، وإن

كانت من عِزَّةِ فهي الذل أو البؤس ، وإن كانت مما سوى ذلك - كالسوء
وغيرهن - فهي العجز عن الشهوة أو التخلُّ القاسد .

وليس ينبغي الإنسان إلا خيبة عقل أو إرادة ، وإلا فالفقر والحاجة ،
والمرض والاختلال ، والذلُّ والبؤس ، والعجز عن الشهوة وفساد التخليل
- كل ذلك موجودٌ في الناس ، يحمله أهله راضين به صابرين عليه ، وهو
الغبار النفسى لهذه الأرض على نفوس أهلها ، وباعجبا إن العُمان هم بالطبيعة
أكثرُ الناس صحكا وأتساماً وعساً وسحرية ، أفريدون أن تخاطبكم الحياة
بأفصح من ذلك ؟

ليست الخيبة هي الشر ، بل الشرُّ كله في العقل إذا تبدَّل جُمَد على حالةٍ
واحدة من الطمع الحائب ، أو في الإرادة إذا وَهِنَتْ فبقيت متعلقة بما لم
يُوجد ؛ أفلا ترون أنه حين لا يُبالى العقل ولا الإرادة لا يبقى للخيبة معنى
ولا أثرٌ في النفس ، ولا ينبغي الإنسان حينئذ ، بل تخيب الخيبة نفسها ؟

لهذا يأبى الإسلام على أهله الترفَّ العقلي والتخلُّ القاسد ويشدُّ كلَّ
الشدَّة في أمر الإرادة ، فلا يترخص في شيء يتعلَّق بها ، ولا يزال يُنمى
بأعمال يومئذ تشدُّ منها لتكون رقيقة على العقل حارسة له . فإن للعقل أمراً
كثيرة يقيس فيها درجات من الطيش حتى يبلغ الجنون أحياناً : فكانت
الإرادة عقلاً للعقل ؛ هي لينه إذا تصلَّب ، وهي حركته إذا تبدَّل ، وهي
حِلْمُه إذا طاش ، وهي رضاه إذا سخط .

الإرادة شيء بين الروح والعقل ، فهي بين وجودين . ولهذا يكون بها
الإنسان بين وجودين أيضاً ، فيستطيع أن يعيش وهو في الدنيا كالمفصل عنها ،
إذا يكون في وجوده الآقوى وجود روحه ؛ وأكثرُ همه محاحه في هذا الوجود
وهذا النجاح لا يأتي من المال ، ولا يُحقِّقه العافية ، ولا يُيسِّره الشهوات ،

ولا يُسَلِّيه التَّخِيلُ الفاسد ، ولا يكون من متاع الغُرُور ، ولا مما تُعْمَرُهُ
خمسون سنة أو مائة سنة ، بل يَأْتِي مما تُعْمَرُهُ الخلود وما هو باق أبداً
في معانيه من الخير والحق والصلاح ؛ فهُنَّها يُدْعَى المرضُ بالصبر عليه
مالاً تعين الصحة ، ويُفِيد الفقرُ بحقائقه مالاً تقيد الثروة ؛ وهنا يكون العقل
الإنساني عاملاً أكثر مما هو متخيل ، وقانعاً أكثر مما هو طامع ؛ وهُنَّها
لا موضعُ لغلبة الشهوة ، ولا كبرياء النفس ، ولا حُبُّ الذات ، وهذه الثلاثُ
هي جالبةُ الشقاء على الإنسان حتى في أحوال السعادة ، وبدونها يكون
الإنسانُ هاتئاً حتى في أحوال الشقاء .

بالإرادة المؤمنة القوية ينصرف ذكاء المؤمن إلى حقائق العالم وصلاح النفس
بها ، وبغير هذه الإرادة ينصرف الذكاء إلى خيال الإنسان وفساد الإنسان ...
وإذا آنصرف الذكاء إلى حقائق الدنيا كان العقل سهلاً مَرِناً مطواعاً ،
وَأَسْتَحَال عليه أن يفهم فكرة قتل النفس أو يُقَرِّها ؛ فإن هذه الفكرة
الخبیثة لا تَسْتَطِيق إلى العقل إلا إذا تحجَّرَ وأحصَر في غرض واحد قد
غاب وخابت فيه الإرادة ففرَّغَت الدنيا عنده .

ولو أن أَمْرًا تمَّ عزمُهُ على قتل نفسه ثم صابر الدنيا أياماً ، لَانْفَسَخَ عزمُهُ
أو رُكَّ ؛ إذ يلين العقلُ في هذه المدة نوعاً ما ، ويحعلُ الصبرُ بينه وبين المصيبة
مسافةً ما ، فتتغير حالة النفس هَوْنًا ما ؛ فالصبرُ كالترُّوح بالهواء على العقل
الذي يكاد يَحْتَقُّ من احتباسه في معنى واحدٍ مُقَلِّ من جوانبه ؛ ومَثَلُ العقل
في هذه الحال مَثَلُ القائم في إعصارٍ لَفَّه بالتراب لَفًّا وسَدَّ عليه منافذ الهواء ،
وحبسه في هذا التراب الملتفَّ حَبْسَ الحشرة في جوف القصبَةِ ؛ فهو على
اليقين أَمَّا حالُهُ ساعة طارئة في الزمن لا حالة الزمن ، وأن الهواء الذي جاء
بهذا الهم هو الذي يذهب بهذا الهم .

وكا أن الأرض هي شيء غير هذا الإحصار الناصر منها ، فالحياء كذلك هي أمر آخر غير شغائنا .

قال الإمام : وفي كتاب الله آيتان تدلان على أنه كتاب الدنيا كلها ، إذ وضع لهذه الدنيا مثالين : أحدهما المثال الروحي للفرد الكامل ، والآخر المثال الروحي للجماعة الكاملة .

أما الآية الأولى فهي قوله تعالى : «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر» .

وأما الثانية فهي قوله تعالى : «نحمدك رسول الله والذين معه أشداه على الكفار رحماء بينهم» .

ففي رجاء الله واليوم الآخر يتساقى الإنسان فرق هذه الحياة الفانية ، فتمرُّ همومها حوله ولا تصدِّمه ؛ إذ هي في الحقيقة تجري من تحته فكان لا سلطان لها عليه ؛ وهذه الهموم تجد في مثل هذه النفس قوى بالغة تصرفها كيف شاءت ، فلا يجيء الهمُّ قوةً تسحق ضعفاً ، بل قوة تمتحن قوة أخرى أو تُثيرها لتكون عملاً ظاهراً يقلِّده الناس ويتفخعون منه بالأسوة الحسنة ، والأسوة وحدها هي علمُ الحياة .

وقد ترى الفقير من الناس تحسبه مسكيناً ، وهو في حقيقته أستاذ من أكبر الأساتيد يلقي على الناس دروسَ نفسه القوية .

وفي رجاء الله واليوم الآخر يبطل أكبر أسباب الشرِّ في الناس ، وهو نظرُ الإنسانِ لِمَن هو أخفى منه بفتنة الدنيا نظراً لا يبعث إلا الحقدَ والسخطَ ، فينظر المؤمن حينئذ إلى ما في الناس من الخير والصلاح والإيمان والحق والفضيلة ؛ وهذه بطبيعتها لا تبعث إلا السرور والغبطة ؛ ومن جعلها في تفكيره أبطل أكثر

الدنيا من تفكيره ؛ وبها تسقط الفروق بين الناس عالمهم ونازلهم ؛ كالرجل
الفقير العالم إذا قَدِمَ على الغنى العالم ؛ تجمع بينهما الاتفاق العقلي وسقط ما عده .
وفي رجاء الله واليوم الآخر يعيش الإنسان عُمره الطويل أو القصير كأنه
في يوم يُصبح منه غادياً على الحشر والحساب ؛ فهو متصلٌ بالخلود غير
معنيٍّ إلا بأسبابه ، وبهذا تكون أمراضه وآلامه ومصائبه ليست مكاره من
الدنيا ، بل هي تلك المكاره التي حُفَّت الجنة بها ؛ ولا يضُرُّه الحرمان لأنه
قريب الزوال ، ولا يُغَرُّه المتاع لأنه قريب الزوال أيضاً .

وفي رجاء الله واليوم الآخر يسود الإنسان على نفسه ؛ ومن كان سيِّدَ
نفسه كان سيِّدَ ما حوَّلها يُصَرِّفه بحكمه ، ومن كان عَبْدَ نفسه صَرَّفَه بحكمه
كلُّ ما حَوَّلَه .

قال الشعبي : وأما المثالُ الروحيُّ للجماعة الكاملة ، فهو في وصف المؤمنين
بأنهم «رُتَمَاءٌ بينهم» فهذا هذا ، ما أحسبه يحتاج إلى بَسْطٍ وبيان .
إن أكثر ما يضيّق به الإنسان يكون من قَبْلِ من حوله ممَّن يُعَايِشُهُم
ويتصل بهم لا من قَبْلِ نفسه ، فإذا قام اجتماعُ أمةٍ على أهم «رُتَمَاءٌ بينهم»
تَقَرَّرَتِ العظْمَةُ النفسِيَّةُ للجميع على السواء ؛ ومن كانوا كذلك لم يُخَفِّروا
الفقيرَ بفقره ، ولم يُعْظَمُوا الغنى لِنِغْناه ؛ وإِذَا يُخَفِّرونَ ويُعْظَمُونَ لصفات
ساميةٍ أو حقيرةٍ ؛ وبين هؤلاء يكون الفقيرُ الصابرُ أعظمَ قدراً من الغنى
الشاكِر ، وإِعْظَامُ الناسِ لفضيلةِ الفقير هو الذي يجعل فقره عند نفسه
شيئاً ذا قيمة في الإنسانية .

ومنى تَصَحَّحتْ آراءُ الجماعة في هذه المعاني المؤلِّة للناس ، نَظَّلَ إليها واستحالت
معانيها ، وصار لا يَبْلَى معنى من معاني الحياة في إنسانٍ إلا وضع إيمانه معنىً
جديداً في مكانه ، وتصبح الفضيلةُ وحدها غايةَ النفس في الجميع ؛ وبذلك يصبر

الفرد على مصائبه، لا بقوة وحده، ولكن بجميع القوى التي حوله. أفلا ترون أن إعجاب الناس بالشجاعة وتعظيمهم صاحبها يضع في ألم السلاح لذة يحسها لحم الشجاع البطل؟

قال المسيب بن رافع، فقام رجل من المجلس فقال أيها الشيخ، وإذا قُتِلَ الناس وغُلِظَتْ قلوبهم، ونقطت بينهم الأسباب، ولم يعودوا رُحَمَاءَ بينهم، وشتموا بالفقير وتهزأوا بالمبتلى وطرحوه في ألسنتهم كما يطرح الشاعر في لسانه رجلاً بهجوه لا يكف عنه - فما عسى أن يصنع المسكين حينئذ وكل شيء يدفعه إلى قتل نفسه؟

وقال الشعبي: ها هنا الرجاؤ في الله واليوم الآخر، وهو شعور لا يُستري بمال، ولا يلتبس من أحد، ولا يعسر على من أراده: والفقير والمبتلى وغيرهما إما يصنع كل منهم مثاله السامى؛ فالصبر على هذا العنت هو صبر على إتمام المثال، وإذا وقع ما يسوءك أو تحزنك فابحث فيه عن فكرته السامية فقلما يحلو منها، بل فلما يحى إلا بها^(١).

قال المسيب: فقام آخر فقال: وكيف يصنع امرؤ آلت أحوال الدنيا إلى ما يُخيفه أو يبلِّغ الهم مبلغه من قلبه فهم أن يقتل نفسه؟

قال الشعبي: فليجعل الخوف خوفاً: أحدهما خوفه عذاب الله خالداً مُخَلِّداً فيه أبداً؛ فيذهب الأقوى بالضعف؛ وإذا ابتلى فليضم إلى نفسه من هو أشد بلاء منه؛ ليكون منه أحد هامين، فيذهب الأتقى بالأخف.

إن الإنسان ونفسه في هذه الحياة كالذى أعطى طفلاً نزعاً طليئاً عارماً متبرداً ليؤذبه، ويُحْكِمَ تربيته وتقويته فيثبت بذلك أنه أستاذ، فيعطى أجر صده وعمله؛ ثم يضيق الأستاذ بالطفل ساعة فيقتله. ألكذلك التأديب والزينة؟

(١) في كتابنا (المساكين) كلام كثير في هذه المعاني.

الانتحار

٣

قال المسيب بن رافع : وكان الإمام قد شغل خاطره هذه القصة فأخذت تمدد مدتها في نفسه ، ومكنت له من معانيها بمقدار ما مكن لها في همه ، وتفتق بها ذهنه عن أساليب عجبية يتأ بها بعض من بعض كما يلد المعنى المعنى ؛ فلما قال الرجلان مقالهما آنفاً وأجابهما بتلك الحكمة والموعظة الحسنة ، أنقذح له من كلامهما وكلامه رأى فقال :

يا أهل الكوفة : أشدكم الله والإسلام أئماً رجل منكم ضاق بروحه يوماً فأراد لإزهاقها إلا كشف لأهل المجلس نفسه وصدقنا عن أمره ؛ ولا يحسدن في ذلك تلباً ولا عاباً . فإنما التكبُّ مذهب من مذاهب القدر في التعليم ؛ وقد يكون ابتداء المصيبة في رجل هو ابتداء الحكمة فيه لنفسه أو لغيره ؛ وما من حزين إلا وهو يشعر في بعض ساعات حزنه أنه قد غيبت فيه أسرار لم تكن فيه ؛ وهذا من إبانة الحقيقة عن نفسها وموضعها ، كما لألاً في سيف بريقه . وعقل المم عقل عظيم ؛ فلو قد أريد استخراج علم يعلمه الناس من اللغات والنعم ، لكان من شرح هذا العلم من الخير والبغال والنواب ما لا يكون مثله ولا قرأه في العقلاء ، ولا تبلغه القوى الآدمية في أهلها ؛ بيد أنه لو أريد علم من البؤس والالم والحاجة لما وجد شرهه إلا في الناس ، ثم لا يكون الحاصل منه إلا في الخاصة مهم .

وما بان أهل النعمة ولا عثروا المساكين في تطاولهم بأعناقهم إلا من

أنهم يَعْلَمُونَ أَكْثَافَ الشَّيَاطِينِ ؛ فالشَّيْطَانُ دَابَّةُ الْغَيِّ الَّذِي يَجْهَلُ الْحَقَّ عَلَيْهِ فِي غَنَاهُ وَيَحْسِبُ نَفْسَهُ مُخَلَّى لَشَهْوَاتِهِ وَنَعِيمِهِ ؛ كَمَا هُوَ دَابَّةُ الْعَالَمِ الَّذِي يَجْهَلُ الْحَقَّ عَلَيْهِ فِي عِلْمِهِ ، وَيَزْعُمُ نَفْسَهُ عَزْلَى لِعَقْلِهِ أَوْ رَأْيِهِ ؛ وَمَا طَالَ الطَّوِيلُ بِذَلِكَ وَلَا عَنِ ذَلِكَ قَصَرَ الْقَصِيرِ ، وَهَلْ يَصِحُّ فِي الرَّأْيِ أَنْ يُقَالَ هَذَا أَطْوَلُ مِنْ هَذَا لِأَنَّ الْأَوَّلَ فَوْقَ السَّلَمِ وَالْآخِرَ فَوْقَ رَجُلِيهِ ... ؟

* * *

قَالَ الْمَسِيَّبُ : فَقَامَ شَيْخٌ مِنْ أَقْصَى الْمَجْلِسِ وَأَقْبَلَ يَتَخَطَّى الرِّقَابَ وَالنَّاسُ يَنْفَرُجُونَ لَهُ ، حَتَّى وَقَفَ يَأْزَاهُ الْإِمَامُ ؛ وَفَرَسَتْهُ وَجَعَلَتْ عَيْنِي تَعْبُجُهُ ، فَإِذَا شَيْخٌ تَبْدُو طَلَاقَهُ وَجْهَهُ شَبَابًا عَلَى وَجْهِهِ . أَبْلَجُ الْفُرَّةَ مُتَهَلِّلٌ عَلَيْهِ بِشَاشَةِ الْإِيمَانِ وَفِي أَسَارِيرِهِ أَثَرٌ مِنْ تَقْطِيبٍ قَدِيمٍ ، يَنْطَلِقُ هَذَا وَذَاكَ أَنَّ الرَّجُلَ فِيهَا آتَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ قَدْ كَانَ أَطْفًا الْمَصْبَاحِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَّةٌ ثُمَّ أَضَاءَهُ ؛ وَعَجِبْتُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ هَذَا الشَّيْخِ قَدْ تَمَّ بِقَتْلِ نَفْسِهِ يَوْمًا ، وَأَنَا أَرَى بَعْضَ نَفْسِهِ هَذِهِ مُتَبَشِّقَةٌ فِي الْحَيَاةِ انْتِبَاقَ النَّخْلَةِ السَّحُوقِ .

وَتَكَلَّمَ هَذَا الرَّجُلُ فَقَالَ :

أَمَّا إِذَا نَاشَدْتَنَا اللَّهُ وَالْإِسْلَامَ وَمِينَاقَ الْعِلْمِ وَوَحْيَ الْأَقْدَارِ فِي حِكْمَتِهَا ، فَإِنِّي عَدْتُكَ بِجَبْرِ عَلَى وَصْفِهِ وَرَضَعُهُ : أَمَلْتُ مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَقَفْتُ فِي الدَّهْرِ مَا كَانَ يَجْرِي ، وَأَصْبَحْتُ فِي مِرَاوِلَةِ الدُّنْيَا كَمَا صَرَّ النَّجَّارُ يَرِيدُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهُ ، وَعَجَزَتْ يَدِي حَتَّى لَطْفُفْتُ دَسَجَاجَةً فِي نَيْشِهَا التَّرَابَ عَنِ الْحَبَّةِ وَالْحِشْرَةِ أَقْدَرُ مِنِّي ؛ وَطَرَقَتْنِي النَّوَائِبُ كَأَنَّمَا هِيَ تُسَاكِنُنِي فِي دَارِي ، وَأَكْلَنِي الدَّهْرُ لِحْمًا وَرِمَانِي عِظَامًا ، فَكَانَ يَقِفُ عَلَيَّ إِلَّا كَلَابُ الطَّرِيقِ ؛ وَلِي يَوْمُئِذٍ امْرَأَةٌ أَعْقَبْتُ مِنْهَا طِفْلًا وَيَلِزُمُنِي حَقُّهُمَا وَلَا أَسْتَطِيعُهُ ؛ وَكَانَ يَلِينَا حُبٌّ فَوْقَ الْمَعَاشَةِ وَالْأُلُفَّةِ قَدْ تَرَكْنِي مِنْ امْرَأَتِي هَذِهِ كَالشَّاعِرِ الْغَزَلِ مِنْ صَاحِبَتِهِ ، غَيْرَ أَنْ الثَّمَرَ فِي دَمِي لَا فِي لِسَانِي .

فلما هكّنتي المصائبُ وتناولتني من قريب ومن بعيد ، قلت للمرأة ذات يوم
وقد نجيت وأنكسر وجهها وتقبّض من هزاله : وإيم الله يا فلانة لو جاز أن
يؤكل لحم الأدمى لاذبعت نفسي لتأكلي وتذري على الصبي ! ولقد ممت أن
أركب رأسي وأذهب على وجهي لتفقداني فتفقدوا شؤمي عليكم ؛ ولكن ردّني
قلي ، وهو حبسني في هذه الدنيا الصغيرة التي بينكما ، فليس لي من الأرض
مشرق ولا مغرب إلا أنت وهذا الصبي ؛ ولست أدري واقه مانصنع بالحياة
وقد كنا من نباتها الأخضر فرجعنا من سطها اليابس ؛ وعادت الشمس
لا تفتدها بل تمتص منها ما بقي ؛ ولا تستحي لها ، ولكن تستوفد عليها !
إن من فقد الخير ووقع في الشر ، حري أن يكون قد أصاب خيراً عظيماً
إذا قتل نفسه فخلص من الشر والخير جميعاً ، لا يكدي ولا ينجح ، ولا يالم
ولا يلد ؛ وكما أنكرته الدنيا فليذكرها ! أما إنه إن كان القبرُ فالقبرُ ولكن
في بطن الأرض لا على ظهرها كحائنا ، وإن كان الموتُ فالموتُ ولكن بمرّة
واحدة وفي شيء واحد لا كهذا الذي نحن فيه أوعاءاً أوعاءاً ؛ قد ماتت أياماً ،
وتركنا نعيش كاللوقي لا أيام لهم ، وزاد علينا الموتى في النعمة والراحة أنهم
لا يتطفّلون على أيام غيرهم فيطردوا عن يوم هذا ويوم ذاك !

قال : فاستعبرت المرأةُ باكيةً ، ولما رغت من كلام دموعها قالت : كأنك
تريد أن تفجّعنا فيك ؟ قلت : ما عدّوت ما في نفسي ؛ ولكن هل بقي في من
تفجّعين فيه ؟ أما ذهب مني ذلك الذي كان لك زوجاً وكاسباً ، وحاء الذي
هو مثلك ومثله هذا الصبي من رجل كالخمرة لا تقتل من مكابها وتأخذ
ولا تعطى ؟

أم والله لكأنّي خلقتُ إنساناً خطأً ، حتى إذا تبين العلط أريد إرجاعي
إلى الحيوان فلم يأت لاهذا ولا ذاك وبقيتُ بينهما ؛ يمرّ الناس بي فيقولون :

إنسان مسكين ! وأحسب لو نطقت الكلابُ لقالت عني : كلبٌ مسكين ! يا عجبا
عجبا لا ينتهى ! أصبحت الدنيا في يدنا من العجز واليأس كأنما هى بئرةٌ نجهُدُ
في تحويلها يا قوّة أو ثلوثه ...

قالت المرأة : والله لئن حيّيت على هذا إن هذا لكفرٌ قبيح ، ولئن مُت
عليه إنه لأقبحُ وأشدُّ .

قلت لها : ويحك ! وماذا تنظر العينُ المبصرةُ فى الظلامِ الحالكِ
إلا ما تنظرُ العمياء ؟

قالت : ولِمَ لا تنظر كما ينظر المؤمنُ بنور الله ؟

قلت : فانظرى أنت وخبرينى ماذا ترى ؟ أترين رغيفا ؟ أترين إداما ؟
أترين دينارا ؟

قالت : والله إن لارى كلَّ ذلك وأكتر من ذلك : أرى قرأ سيكشفُ
هذه السُدقةَ المظلمةَ إن لم يَطْلُعْ فكانَ قدَّ .

قال : ففاظننى المرأةُ ورأيتها حينئذ أشدَّ على بِفلةٍ ذاتِ عقلها من قلّةِ
ذاتِ يدى ؛ ولولا حُبِّ إياها ورحمى لها لأوفعتُ بها . وأستحكم فى ضميرى
أن أزهقَ نفسى وأدعها لما كُتِبَ لها .

وقلت : إنَّ حُبَّ المرأةِ هو نصفُ إيمانها حين لا يكون نصفُ عقلها ،
ولِلقدَرِ يدٌ ضعيفةٌ على النساءِ تَصْفَعُهُنَّ وتمسحُ دموعهن ، وله يدٌ أخرى على
الرجالِ ثِقيلةٌ تصفعُ الرجلَ وتأخذُ بحلقه فتعصرُه !

قال : وكنتُ قد سمعتُ قولَ الجاهليةِ فى هذه الخليقة : أرحامٌ تدفعُ ،
وأرضٌ تبلعُ . فخصرتنى هذا القولُ تلكَ الساعةَ وشبه لى ، واعتقدتُ أن هذا
الإنسانُ شيءٌ حقيرٌ فى الغايةِ من الهوانِ والضعمةِ : حملته أمه كُرْها ، وأفلكتُ

به كرها ، ووضعت كرها ؛ وهو من شؤمه عليها إذا دنا لها أن تضع لم يخرج منها حتى يضربها الخاض فتقلب وتصيح وتمزق وتنصدع ، وربما نشب فيها فقتلها ، وربما التوى فنبقر بطنها عنه ، وإذا هي ولدت على أي حالها من عسر وطريق بمنل المطارق المحطمة ، أو سراح ورواح كما يتيسر - فإما تلده في مشيمة ودماء وقدر من الاخلاط كأنما هو خارج من جرح ، ثم تناوله الدنيا فتضعه من معانها في أقيح وأقذر من ذلك كله . ثم يستوفى مدته فيأخذ القبر فيكون شراً عليه في عزيقه وتعفينه وإحالة .

قال : وحضرني مع كلمة الجاهلية قول ذلك الجاهل الزنديق الذي يعرف (بالثقل) - إذ كان يزعم أن الإنسان كالبقلة ، فإذا مات لم يرجع . وقلت لنفسى : إما أنت بقلة حمقاء ذابوة في أرض نشاشة ^(١) فقتلها ملح أرضها أكثر مما أحيها .

قال : وثرث إلى المذبة أريد أن أتوجأ بها ، فتبادرنى المرأة ونحول بيني وبينها ؛ وأكاد أبطس بها من الغيظ ، وكانت روح الجحيم تزفر من حولى ، لو سمعوا سمعوا لها شهيقاً وهى تفور ؛ فما أدري أى ملك هبط بوخى الجنة فى لسان آمرأتى .

قلت لها : إما عزيمة منى أن أقتل نفسى !

قالت : وما أريد أن أقتضها ولست أرذك عنها وستمنها !

قلت : تخلى بين نفسى وبين المذبة .

قالت : كلنا نفس واحدة ، أنا وأنت والصبي ، فلنقض معاً ؛ وما بنفسى عن نفسك رغبة ، ولا ندع الصبي يتيماً يصفعه من يطعمه ، ويضربه ابن هذا وابن ذاك ، إذ لا يستطيع أن يقول فى أولاد الناس : أنا ابن ذاك ولا ابن هذا !

(١) الأرض النشاشة : هى السبخة التى فيها الملح والماء .

قلت : هذا هو الرأى .

قالت : فتمالْ أذبح الطفل

قال المسيب بن رافع : وما بلغ الرجلُ فى قصته إلى ذبح صغيره حتى ضج الناسُ ضجةً مُنكرةً ؛ وتوهم كلُّ أبٍ منهم أن طفله الصغيرَ مُمدَّدٌ للذبح وهو ينادى أباه ويشقُّ خلقه بالأصراخ : يا أبى يا أبى ! أدركنى يا أبى !
أما الإمامُ فدَمَعَتْ عيناه ، وكنتُ بين يديه فسمعتُه يقول : إنا لله !
كيف تصنعُ جهنمُ حطبها ؟

وأنا فإِ قَطُّ نسيْتُ هذه الكلمة ، وما قَطُّ رأيتُ من بعدها كافراً ولا فاسقاً فاعتبرتُ أعمالهُ إلا كان كلُّ ذلك شيئاً واحداً ، هو طريقهُ صُنْعته حطباً... كَأَن الشيطانَ لعنه الله يقول لِأتباعه : جُفِّفُوهُ ...
وكانت هُتَيْهاتُ ، ثم فاء الناسُ ورجعوا إلى أنفسهم ، وصاحوا بالمتكلم : ثم ماذا ؟

قال الرجل : فَتَحْتُ عيني وفلنى معاً ورمقتُ الطفلَ المسكينَ الذى لا يملك إلا يديه الضعيفتين ، ونظرتُ إلى تَحْرِى السكين من حلقه وإلى تحزُّها فى رقبته اللينة ، ورأيتُه كأما تَفَرَّقَ بصرُه من الفزع على كل جهة ، ورأيتُه يتضرَّعُ لى يعينه الباكيتين ألا أذبحه ، ورأيتُه يتوسلُ يديه الصغيرتين ، كأنه عرف أنه منى أمام قاتله ، ثم خِيلَ لى أنه يتلوى ويتنفض ويصرخُ من ألم الذبح تحت يد أبيه ؛ تحت يد أبيه النَّعِيسِ !

يا ويلتاه ! لقد أخذنى ما كان يأخذنى لو تهَدَّمت السماء على الأرض ، وحسبتُ الكونَ كله قد آنفجر صُراخاً من أجل الطفل الضعيف الذى ليس له إلا ربه أمام القاتل !

فهرؤلت مسرعا وتركْتُ الدارَ والمرأةَ والصبيَّ وأنا أقول : يا أرحمَ الراحمين !
يا من خلقَ الطفلَ عالمه أمه وأبوه وحدهما وباقي العالم حباؤه عنده ! يا من دبرَ
الرضيعَ فوجهه مُلكا وعلكةٌ وغنىٌ وسروراٌ وفرحا ، كلُّ ذلك في كُدى أمه
وصدرها لا غير ! يا إلهي ، أنسني مثلَ هذا اللسان ، وارزقني مثلَ هذا الرزق ،
واكفُلني بمثلَ هذا التدبير ؛ فإني منقطعٌ إلا من رحمتك انقطاعَ الرضيع إلا من أمه !

قال للرجل : ولقد كنتُ مَروراً كالجيفةِ الراكدةِ نحسبُ أنها هي تفور
حين فارت حشراًتها ؛ ولقد كنتُ أحقرُ من الذباب الذي لا يجد حقائقه ،
ولا يلتصقها إلا في أقدرِ القدر .

وما كنتُ أمضى كما تسوقني رجلاي حتى سمعتُ صوتاً مدياً مظلولا يَرْجِعُ
ترجيعَ الرِّقَاءِ في تحانيها وهو يُرْتَل هذه الآية :

« وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ،
وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ
ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا . »

قال : فوقفت أسمع ، وماذا كنت أسمع ؟ هذه سُعْلٌ لا كلمات ، أحرقت
كلَّ ما كان حولي ولمستُ مصباحَ رُوحِي المنطفيء ، فإذا هو يتوهجُ ، وإذا الدنيا
كلُّها تتوهج في نوره ، وارتفعت نفسي عن الجذبِ الذي كنتُ فيه ، وكأما
لقتني محاجةٌ من السُّعْبِ ، ففي رُوحِي نسيمُ الماءِ الباردِ ورائحةُ الماءِ العذبِ .
لعمري أن هذا الاضطرابَ الذي يُبْتَلَى الخائف به : إنما يحسبه اضطراباً وما هو
إلا اختلاطُ الحقائقِ على النفسِ وذهابُ بعضها في بعضٍ وتَضَرُّبُ الشرِّ في
الخير والخير في الشرِّ حتى لا يَبِينَ جَسَدٌ من جسدٍ ، ولا يُعرفُ حَدٌّ من حَدٍّ ،
ولا تمتازُ حقيقةٌ من حقيقة ؛ وبهذا يكونُ الزمنُ على المبتلى كالماء الذي يجمدُ :

لا يتحرك ولا يَنقَاسِرُ ؛ فيلوحُ الشرُّ وكأنه دائماً لا يزال في أوله ينذرُ
بالأهوال ، وقد يكون هوْلُه انتهى أو يُوشِكُ .

قال الرجل : وكنت أرى يأبى قد اغترى كلُّ شيء ، فامتدَّ إلى آخر
الكون وإلى آخر الزمن ؛ فلما سَكَنَ ما بي إذا هو قد كان يَأْسُ يوم أو أيام
في مكانٍ من الأمكنة ؛ أما ما وراء هذه الأيام وما خلف هذا المكان ، فذلك
حكمُه حكمُ الشمس التي تطلع وتغيب على الدنيا لإحيائها ، وحكمُ الماء الذي
تَهْمِي السَّابِغُ به ليسقى الأرض وما عليها ، وحكمُ استمرارِ هذه الأجرام السماوية
في مدارِها لا تُمسِكُها ولا تُرْزُها إلا قُوَّةُ خالقها .

أين أثرُ الإنسان الدنْءِ الحقيرِ في كل ذلك ؟ وهل الحياةُ إلا بكل ذلك ؟
وما الذي في يد الإنسان العاجزِ من هذا النظام كله فيَسُوْغُ له أن يقول في
حادثةٍ من حوادثه : إن الخير لا يبتدىءُ وإن الشر لا ينتهى ؟

تغترى المصائبُ هذا الإنسانَ لتمحوَ من نفسه الحِيسَةَ والدَّعَاةَ ، وتكسر
الشرَّ والكبرياءَ ، وتَفْنِئُ الحِدَّةَ والطيشَ ؛ فلا يكون من حُقه إلا أن يزيدَ بها
طيشاً وحِدَّةً ، وكبرياءً وشرّاً ، ودَماةً وخسةً ؛ فهذه هي مصيبةُ الإنسان لا تلك ؛
المصيبةُ : هي ما يَنْشَأُ في الإنسان من المصيبة .

قال : ورددتُ الآيةَ الكريمةَ في نفسى لا أشعُ منها ، وجملتُ أرتلها
أحسنَ ترتيلٍ وأطره وأشجاه ؛ فكانت نفسى تهترُ وترتجُ كأنما هي تبدأ تنظيمَ
ما فيها لإقرار كل حقيقة في موضعها بعد ذلك الاختلاط والاضطراب .
صبرُ النفس مع الذين يمثلون روحانيَّتها تمثيلاً دائماً بالخدَّةِ والمعشَى ، وعلى
نور الحياة وظلامها ، يريدون وَجْهَ الله الذى سبيلُه الحبُّ لا غيره من مال
أو متاع ؛ وتقييدُ العيين بهذا المثل الأعلى كما يكون الأمرُ في الجمال والحب ؛

والربط على الإرادة كيلا تَغَلَّتْ قُسِفٌ إلى حَقَارِ الدنيا المسماة هُزْماً وتهكماً
زينة الدنيا ، تلك التي تشبه حقائق الذباب العالية ... فتكونُ قَدْرَةً نجسةً
ولكنها مع ذلك زينة الحياة لهذا الخلق الذبابي ...
تلك والله هي أسبابُ السعادة والقوة ؛ أما المصائبُ كلها ، فهي في إغفالِ
القلب الإنسان عن ذكر الله .

قال : ولما حُتَّتْ تَوْبِي ، وَقَوِيَ اليقينُ في نفسي ، كَبُرَتْ رُوحِي وَاَتَسَعَتْ
وَأَنْبَعَثَ لها بواعث من غير حقائق الذباب ، وأشرق فيها الجمالُ الإلهي ساطعاً
من كل شيء . وكان الصبحُ يطلعُ على كَأَنه ولادةٌ جديدةٌ ، فأنا دائماً في عُمرٍ
طفل ، وجاءني الخير من حيثُ أَلَحَسَبُ ولا أَلَحَسَبُ ، وكأَنا نمتُ فانتَهتُ
غَيًّا ، وعَمِلَ القلبُ الحَيُّ في الزمن الحَيِّ .
ولقد أَفَدْتُ من الآفةِ طَبيعةً لم تكن فيَّ ولا يَثْبُتُ معها الشرُّ أبداً ،
فأصبح من رِخصالي أن أرى الحاضرَ كُلَّهُ متحركاً يَمُرُّ بما فيه من خيرِه وشرِه
جميعاً ، وأَسْتَشْعِرُ من حركته مثلاً ترى عيائى من قِطَارِ الإِبِلِ يَهْتَزُّ تحتَ
رِحالِه وهو يُفِذُ السَّيرَ .

لم أَتَبَعْدُ قليلاً وأما أمشي مطمئناً تائباً متوكلاً حتى دعاني رجلٌ ذو نعمة
ومُرودةٍ وجاه ، وكأَنا كُلَّمَا قَلْبُهُ أَوَكَلَه وجهي في قلبه ؛ فاستَبَأَنِي ، وبَثَّنَهُ
حالي وأَقْصَصْتُ قِصَّتِي ؛ فقال : سَيُحْيِيكَ الله بالطفل الذي كَدْتَ تَقْتُلَه ،
فارجع إلى دارك . ثم وَجَّهَ إلى دنانير وقال : ائْجِرْ بهنَّه على أسمِ الله وبركته ،
فسيمنو فيها طفلٌ من المال يبلغُ أَشَدَّهُ . وقد صدقَ إِيْمَانُهُ وإِيْمَانِي ؛ فبارك لي
الله وبما طفلُ المالِ وبلغَ وجاوزَ إلى شِبابِه .

قال المسيب : وجلس الرجل ، وكان كالخطيب على المنبر ، فقال الإمام :
ما أشبه النكبة بالبيضة : تُحَسَّبُ بجنا لها فيها وهي تحوطه وترثيه وتُعينه
على تمامه ، وليس عليه إلا الصبر إلى مدة ، والرضى إلى غاية ، ثم تَنَقُّفُ
البيضة فيخرج خلقا آخر .

وما المؤمن في دنياه إلا كالفرخ في بيضته : عمله أن يتكوّن فيها ،
وتمامه أن ينشق شخصه الكامل فيخرج إلى عالمه الكامل .

الانتحار

٤

قال المسيب بن رافع : ومد الإمام عينه وقد رُفِعَ له شخص من المجلس ؛
ثم تجلّى بنظره كأنما يتطالع إلى عجيبة كالخق إذا بطل ، والصدق إذا كذب ؛
ثم ردّ بصره على كأنه يُعَجِّبُ من عجيبة ؛ ثم سحا طرفه كأنما أنكر رأى عينيه
فهو يلتبس رأى قلبه . وتبيّنت في وجهه اتقباضا خيلا إلى أن الشيطان
جاءه بهذا الرجل يُفجِّمُه به يُريه كيف يجعل أحد المؤمنين الصالحين يتحمس
في دينه ليرجع بعد ذلك أصلا لا غنى عنه في إنشاء قصة كُفِّرَ !

هذا هو ضيفنا (أبو محمد البصري) (*) يتخوّض الناس ليجي فيحدثنا

(*) يعنى المؤلف بأبي محمد البصري هذا ، صديقا الأستاذ د م ، ومن أجله أنشأ
هذه المقالات ، وقد سبقت إشارتنا إلى حادثته وخبره وما فعل بنفسه ؛ فانظر كل
ذلك في موضعه من كتابنا « حياة الرافعي » وأكثر ما يأتي في هذا الفصل على لسان
د أبي محمد البصري ، فهو من قوله بحرقه ، إلا قليلا من قليل .

حديثه في قتل نفسه والإثم بربه؛ فلو قيل لى : إن قوس السماء بأحمره وأصفره وأزرقه وأخضره، وقد وقع إلى الأرض واصطلع من ألوانه أوحالاً وأقذاراً، لكان هذا كهذا في تعاطيه وإنكاره والعجب منه؛ فأبو محمد من الرجال الخمس^(١) الذين لو كفر أحدكم ثم قيل : إنه كفر، لقصر اللفظ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شئتها، كما يقصر لفظ الجنون عن وصف حكيم تألى أن يعمل عملاً يخرج به من الكون . فلا يبقى في أرض ولا سماء ولا تناله يد الله ! إن في لفظ الكفر مع ذلك، وفي لفظ الجنون مع هذا - شيئاً من اتفاق العقل وتأذيه في أداء المعنى الآخر الذي لا يشبهه جنون ولا كفر. ونموذ ما لله من خدلاؤه : فلقد يكون الرجل المؤمن في تشدده وإيغاله في الدين - كالذى يصنع جبلاً يفثله قتلاً شديداً فيبرئه على طاق بعد طاق، ليكون أشد له وأقوى، ثم يحاذيه الشيطان حبله، فإذا هو كان في الوةن مثل العنكبوت اتخذت بيتاً في سقف حذاء؛ فرأته يصب الحديد المصهور بحمله سلسلة حلقة في حلقة، فذهبت تحكيه وترسل من لعابها خيطاً في خيط تزعمه سلسلة . . .

إن مع كل مؤمن شيطانه يربص به، فلهذا ينبغي للمؤمن أن يكون في كل ساعة كالذى يشعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة، فهو أبداً محترس متيقن متجدد الحواس مرهفها يستقبلها الدنيا جديدة على نفسه بين الفترة والفترة؛ ومن هذا حكمة أن يؤذن المؤذن وأن تُقام الصلاة مراراً في اليوم، فكلماً بدأ وقت قال المؤمن : الآن أبداً إيماني أطهر ما كان وأقوى .

وقال الإمام : هيه يا أبا محمد ! فقال البصري وقد رأى الكراهة في وجه

(١) أى المتحمسين في دينهم .

الإمام : لا يُفْرَعُكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ مَا يَجِبُهُ هُوَ فَيَا نَكْرَهْ
نَحْنُ ؛ وَلَيْسَ لِلْأَقْدَارِ لُغَةٌ فَتَجْرَى عَلَى أَلْفَاظِنَا ؛ وَقَدْ نُسِيَ النَّازِلَةُ تَنْزِلُ بِنَا
خَسَارًا وَهِيَ رِيحٌ ، أَوْ نَقُولُ مُصِيبَةٌ جَاءَتْ لِتَبْدِيلِ الْحَيَاةِ ، وَلَا تَكُونُ
إِلَّا طَرِيقَةً تَيْسَّرَتْ لِتَبْدِيلِ الْفِكْرِ . إِنَّمَا لُغَةُ الْقَدَرِ فِي شَيْءٍ هِيَ حَقِيقَةُ
هَذَا الشَّيْءِ حِينَ تَظْهَرُ الْحَقِيقَةُ ؛ وَكَأَيِّنْ مِنْ حَادِثَةٍ لَا تُصِيبُ أَمْرًا فِي نَفْسِهِ
إِلَّا لَتَقَعَ بِهَا الْحَرْبُ بَيْنَ هَذِهِ النَّفْسِ وَبَيْنَ غَرَازِمِهَا ؛ فَتَكُونُ أَعْمَالُ الطَّبِيعَةِ
الْمَعَادِيَةِ أَسْبَابًا فِي أَعْمَالِ الْعَقْلِ الْمُنْتَصِرِ .

وكثير من هذا البلاء الذي يُفَضَّى عَلَى الْإِنْسَانِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا وَمَسَائِلَ
مِنْ الْقَدَرِ يُرَدُّ بِهَا الْإِنْسَانُ إِلَى عَالَمِ فِكْرِهِ الْخَاصِّ بِهِ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا عَالَمٌ
وَاحِدٌ لِكُلِّ مَن فِيهَا ، وَلَكِنْ دَائِرَةُ الْفِكْرِ وَالنَّفْسِ هِيَ لِصَاحِبِهَا عَالَمُهُ وَحْدَهُ ،
وَالسَّعِيدُ مَنْ قَرَّ فِي عَالَمِهِ هَذَا وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِ كَالْمَلِكِ فِي مَمْلَكَتِهِ ؛ نَافَذًا
الْأَمْرَ فِي صَغِيرَتِهَا وَكَبِيرَتِهَا ؛ وَالشَّقِيُّ مَنْ لَا يَزَالُ ضَائِعًا بَيْنَ عَوَالِمِ النَّاسِ ،
يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْعَمِيِّ ، وَإِلَى ذَلِكَ الْمَجْدُودِ ، وَإِلَى ذَلِكَ الْمَوْفِقِ وَهُوَ فِي كُلِّ هَذَا
كَأَلَا جَنِيٍِّّ فِي غَيْرِ بَلَدِهِ وَغَيْرِ قَوْمِهِ وَغَيْرِ أَهْلِهِ ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ يَصْبِحُ أَجْنَبِيًّا عَنْ
الْإِنْسَانِ مَا دَامَ هُوَ أَجْنَبِيًّا عَنْ نَفْسِهِ .

لَقَدْ كُنْتُ ضَالًّا عَنْ نَفْسِي وَعَالَمِي ، فَكُنْتُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَسْتَشْعِرُ شُعُورَ
الْأَلْسِنِ ، أَشْيَاؤُهُ هِيَ أَشْيَاءُ الْبَاسِ جَمِيعًا ؛ وَاللَّصُّ يَنْظُرُ إِلَى أُمُودِ الْبَاسِ بِعَيْنِ
شَاعِرٍ مُتَحَبِّبٍ كَلَفٍ ، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ بِعَيْنِ مُقَاتِلٍ مُتَرَبِّصٍ حَذَرٍ .

كُنْتُ وَاللَّهِ إِنْ ضَلَّتُ بِالنَّاسِ أَوْ وَسِعَتْهُمْ ، رَأَيْتُ فِي ذَلِكَ مَعْنَى مِنْ
ضَيْقِ الْبَاسِ وَسَعَتِهِ ؛ هُوَ عَلَى أَيِّ حَالٍ لَا يَنْظُرُ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ إِلَّا شَخْصًا
مُتَوَارِيًا تَحْتَ الظَّلَامِ يَنْسَلُّ فِي خَشْبَةٍ وَحَذَرٍ .

وَكُنْتُ بُزُقًا حَبِيدَ الطَّبِيعِ سَرِيعَ الْبَادَرَةِ ؛ وَمَنْ قَعَدَ عَالَمَ نَفْسِهِ وَكَانَ فِي

مثلي اللص الذي ذكرت ؛ فإن هذه الطباع تكون هي أسلحته يذفع بها أو يعتدى ؛ وما قطع تمكن لإنسان من نفسه وأحاط بها ونفذ فيها تصرفه ، إلا كان راضيا عن كل شيء ؛ إذ يتصل من كل شيء بجهته السامية لا غيرها ، حتى في اتصاله بأعدائه من الناس وأعدائه من الأشياء ؛ فما يرى هؤلاء ولا هؤلاء إلا امتحانا لفضائله وإثباتا لها . وقد يكون عدوك في بعض الأمور عيناً لك في رؤية نفسك ؛ ففيه بركة هذه الحاسة ونعمتها .

ولو نحن كنا مسلمين لإسلام نبينا صلى الله عليه وسلم ، وإسلام المقتدين به من أصحابه - لأدركنا سر الكمال الإنساني ؛ وهو أن يقر الإنسان في عالم نفسه ويجعل باطنه كباطن كل شيء ، إلهي ، ليس فيه إلا قانونه الواحد المستمر به إلى جهة الكمال ، المرتفع به من أجل كاله عن دوافع غيره ؛ فنظر الإنسان إلى نقص غيره هو أول نقصه ؛ والمؤمن كالنفس ؛ إن أتمر فتلك ثمارة نفسه ، وإن عطل لم يشحذ ولم يحشد واستمر يعمل بقانونه .

ولقد نشأت في مغرس كريم ؛ على صورة من الحياة تشبه صورة الثمرة الحلوة آتت لها من طبيعة مغرسها ومرتبها ما تتعين به من حلاوة ونكهة ومذاق ؛ فلما عقلت وعرفت الناس بعد تجاربهم وخالطهم ، رأيتي مهم كالنفاحة ملقاة في البصل ... وكانت النفاحة حمقاء فزادت حُمقاً ، وكانت حديدة فزادت حدة ، وظننت أن الحكمة قد مسخت في الدنيا وبدلت إذ خلقت البصلة بعد أن خلقت النفاحة ؛ وما علمت الحرقاء أن الكمال في هذه الحياة مجموع نقائص ، وأن للجمال وجهين ؛ أحدهما الذي آمنه القبيح ؛ لا يعرف هذا إلا من هذا ؛ وأن البصلة لو أدركت ما يريد الناس من معاها ومعنى النفاحة ، لسمت نفسها هي النفاحة ، وقالت عن هذه إنها هي البصلة !

ولما رأت نفاحتي أنها عاجزة أن تجعل الشجر كله في مثل مرتبتها
(٩٠ رسم القلم ٢٥)

ومفرسها ، قالت إن الأمر أكبر من طبعتي ، وما دام سر الكون مغلقاً فلا تعريف له إلا أنه سر مغلق ، ولينطبق كل شيء في طبيعة نفسه ؛ فلي هذا يصلح كل شيء ولو في نفسه وحدها .

قال أبو محمد . ولكن بقيت وحشة الدنيا وجفوتها ، إذ لم أكن أعتديت إلى عالمي ، ولا تأكدت عقيدتي بنفسي ؛ فكان كل ما حولي منجساً في رُوحِي بِسَرِّهِ ، وكانت الدنيا بهذا كالمطابقة في رأيي على معنى واحد ، وزادني أني كنت رجلاً عزباً متعففاً ؛ وما أشبه فراغ الرجولة من المراء بفراغ العقل من الذكاء ، هذا هو العقل البليد ، وتلك هي الرجولة البليدة ؛

والمرأة تُضاعِفُ معنى الحياة في النفس ، فلا جرم كان الخلا منها مضاعفةً لمعنى الموت ، علمَ هذا من علم وحمله من جهل ؛ فكنت أعيش من الكون في فراغ ميت ، وكنت أحس في كل ما حولي وحشة عقلية تُشعرني أن الدنيا غير تامة ؛ وكيف تتم في عيني دنيا أراها غير الدنيا التي في قلبي ؟

وعرفتُ أن كل يوم يمضي على الرجل العزب المتعفف لا يمضي حتى يهني فيه مرض يوم آخر ؛ ومن هذه الأيام المريضة المتهالكة ، تُعِدُّ الحياة انتقامها من هذا الحَيِّ الذي نقض آيتها وأفانت عليها وجمل نفسه كالإله لزوجته له ولا صاحبة !

وأتيم الله إن الشيطان لا يفرح بالرجل الرائي والمرأة الزانية ما يفرح بالرجل العزب والمرأة العزباء ؛ لأنه في ذنك وذيلة في أسلوبها ، أما في هذين فالشيطان رذيلة في أسلوب فضيلة ... ! هناك يُلمُّ الشيطان ويمضي ، وهنا يأتي الشيطان ويُقيم !

وقد عشتُ ما عشتُ بقلب مغلق وعقل مفتوح ؛ وليتي كنت جاهلاً

مُغْلَقًا عَقْلَهُ وَكَانَ قَلْبِي مُفْتَوْحًا لِأَفْرَاحِ هَذَا الْكَوْنِ الْعَظِيمِ !
وَمَضَتْ أَيَّامِي يُعْزَبُ بِمَعْضَا فِي بَعْضٍ ، وَيُمْرِضُ بِبَعْضَا بِمَعْضَا حَتَّى انْتَهَتْ
مُنْتَاهَا ، وَجَاءَ الْيَوْمُ الْمُدْتَفُّ الْهَالِكُ الَّذِي سَيَمُوتُ ...
أَصْبَحْتُ فَقُلْتُ لِنَفْسِي : كَمْ تَمِيشِينَ وَبِحَاكِ فِي أَحْكَامِ جَسَدٍ مُخْتَلٍّ لَا تَصْدُقُ
أَحْكَامَهُ ، وَمَا أَنْتِ مَعَهُ فِي طَبِيعَتِكَ وَلَا هُوَ مَعَكَ فِي طَبِيعَتِهِ ، قَهِيمِ اجْتِمَاعُكُمَا
إِلَّا عَلَى ثَلَاثِي وَنَكَدِي ؟

لَمْ تَصْطَلِحَا قَطُّ عَلَى وَاجِبٍ وَلَا لَذَّةٍ ، وَلَا حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ ؛ فَأَنْتَا عَدُوَّان
لَا تُمْ لِكُلَيْهِمَا إِلَّا لِإِسَادِ الْمَسْرِقَةِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْآخِرِ ؛ وَمَا أَدْرَى بَيْنَ يَسْخَرُ
الشَّيْطَانُ مِنْكَ ؟ وَالْعَابِدُ الَّذِي يُوسَّسُ بِالذَّاتِ يَتَمَتَّى أَقْرَأَهَا ، كَالْفَاجِرِ الَّذِي
يُورِقُهَا وَيَقْتَحِمُهَا !

وَبِحَاكِ يَا نَفْسُ ! إِنْ رَأَيْتِ هَذِهِ الدُّنْيَا الْخَرْقَاءَ لَمْ تُقَدِّمِي إِلَّا رَغِيفًا وَقَالَتْ :
أَمْلَأِي هَذَا بَطْنَكَ وَعَقْلَكَ وَعَيْنَيْكَ وَأُذُنَيْكَ وَمَشَاعِرَكَ آه آه ! تُمْكِنُ وَاحِدٌ
مَعَهُ أَرْبَعَةُ مَسْتَحِيلَاتٍ ^(١) : إِنْ هَذَا لَا يُلَبِّثُنِي أَنْ يَنْهَبَ مِنِّي بِالْأَرْبَعَةِ الَّتِي تُمْسِكُنِي
عَلَى الْحَيَاةِ : الْأَمَلِ وَالْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ وَالصَّبْرِ .

لَقَدْ اسْتَوَى فِي هَذِهِ الْكَأَنَةِ صَغِيرُهُمْنِي وَكَبِيرُهُ ، وَمَا أَرَانِي إِلَّا قَدْ أَشْرَفْتُ
عَلَى الْهَلِكَةِ الَّتِي لَا بَاقِيَ لَهَا ، فَإِنْ وَجَّهِي الْمَتَكَلِّحَ الْمُتَقَبِّضَ يَدُلُّ مِنِّي عَلَى
أَعْصَابٍ مُخَضَّرَةٍ نَهَكَتْهَا أَمْرَاضُهَا وَوَسَاوُسُهَا ، وَإِنَّمَا وَجْهُ الْإِنْسَانِ فِي قُطُوبِهِ
أَوْ ثَلَاثُهُ هُوَ وَجْهُهُ وَوَجْهُ دُنْيَاهُ تَعْبَسُ أَوْ تَبْقَسِمُ

وَتَالِقُهُ لَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ كِفَاحِ الدُّنْيَا بِهَذِهِ الْأَعْصَابِ الْمَرِيضَةِ الْوَاهِتَةِ ؛ فَإِنْ
جِبَالَةُ الصَّيْدِ - صَيْدِ الْوَحْشِ - لَا تَكُونُ مِنْ خَيْطِ الْإِبْرَةِ . ١٠ وَأَرَانِي أَصْبَحْتُ
كَإِنْسَانٍ حَبْرَى لَيْسَ فِي طَبِيعَتِهِ الْإِكْتِرَاءُ إِلَى بَيْنِ الْحَيَاةِ وَبَسَارِهَا ؛ وَيُخَيَّلُ لِي
(١) الرِّغِيمُ بِلَا الْبَطْنِ ، فَهَذَا هُوَ الْمُمْكِنُ وَلَكِنْ عَمِلَ فِي الْبَاقِيَاتِ مَسْتَحِيلٌ

من صلابتي أتي الأسد ، ولكنني أسدٌ من حِجر ، لا تَفْرِضُ قُوَّتُهُ الفَرَارَ مِنْهُ
على أحد !

قال أبو محمد : ورأيتُ نفسي في هذا الحِوَارِ كالمِيتَةِ ، لا تُحْيِي ولا تَمُوتُ ،
ولا تُنْكِرُ ، وكنتُ أظنُّهَا تُرَاوِدُنِي على الحَيَاةِ أو تُرَدُّني عن غَوَايِي : فَلَأَنِّي
سَكُونُهَا جَزَعًا ، وَأَيَقِنْتُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَبْنِي وَيَبْنِي ، وَأَنَّهُ أَخَذَ بِمَنَاوِدِهَا ، فَأَرَدْتُ
الصَّلَاةَ فَتَقَلَّتْ عَنْهَا وَرَأَيْتُي لَا أَصْلَحُ لَهَا ، بَلْ تُخْبِلُ إِلَيَّ أَنِي إِذَا قُتُّ إِلَى الصَّلَاةِ
فَأِنَّمَا قُتُّ لَأَتَهَرَّأَ بِالصَّلَاةِ !

وجعل الشَّيْطَانُ يَأْخُذُنِي عَنْ عَقْلِي وَيُرَدُّنِي إِلَيْهِ ، ثُمَّ يَأْخُذُنِي وَيُرَدُّنِي ، حَتَّى
تَوَهَّمْتُ أَنِّي جُنُنْتُ ، وَكَأَنَّمَا كَانَ يَرِيدُ اللَّعِينُ بَقِيَّةَ إِيمَانِي بِمَحَاضِبِي فِيهَا وَأَجَازِيهِ ،
فَلَمْ أَلْبَسْ أَن مَسْنَى خَبَالٍ وَأَلْقَيْتُ هَذِهِ الْبَقِيَّةَ فِي يَدَيْهِ !
ثُمَّ أَقْبَعْتُ إِفَاقَةً سَرِيعَةً ، فَرَأَيْتُ (الْمَصْحَفَ) يَرْقُبُنِي مِنْ قُرْبٍ ، فَعُدَّتْ بِهِ
وَعَطَفَتْ عَلَيْهِ وَقَلَّتْ لَهُ : أَمْنَعُ الضَّرْبَةَ عَنْ قَلْبِي ! بَدَأَ أَنِي أَحْسَسْتُ أَنَّهُ خَصَمِي
فِي مَوْقِفِي لَا ظَهِيرِي ، كَأَنِّي جَعَلْتُهُ مَصْحَبًا عِنْدَ زَيْدِي ، فَكَانَ كُلُّ إِيمَانِي الَّذِي
بَقِيَ لِي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنِي ضَعُفْتُ عَنْ سَحْلِ الْمَصْحَفِ كَمَا ثَعَلْتُ عَنْ الصَّلَاةِ ،
بَقِيَ الطَّاهِرُ طَاهِرًا وَالنَّجِسُ نَجَسًا

وَلَمْ تَكُنْ نَفْسِي فِيَّ وَلَا كُنْتُ فِيهَا ؛ فَرَأَيْتُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ لَا أَدْرِي
مَا هُوَ ، غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَعْقُولًا مِنْ تَخَالِيطِ مَجْنُونٍ تَرَكَ عَقْلَهُ
مِنْ سَاعَةٍ : بَقَايَا شَعْوَرٍ ضَعِيفٍ ، وَبَقَايَا فِهْمٍ مَرِيضٍ ، تَتَصَاغَرُ فِيهِمَا الدُّنْيَا
وَيَتَحَاوَرُ فِيهِمَا الْعَقْلُ .

فَلَمَّا انْتَبَيْتُ إِلَى هَذَا لَمْ أَعْقِلْ مَا عَمِلْتُ ، وَكَأَنَّتِ الْمَوْسَى قَدْ أَصَابَتْ مِنْ
يَدِي عِرْقًا بَاشِرًا مُنْتَبِرًا ، فَقَارَ الدَّمُ وَانْتَجَرَ مِنْهُ مِثْلُ الْبِلْبُوعِ ضَرْبَ عَنْهُ
الصَّخْرُ فَانْشَقَّ فَانْتَقَى .

وتحققت حينئذ أنه الموتُ فنظرتُ فرأيت ...

قال المسيبُ راوى القصة : ونجَّهم وجهُ الرجل فأطرق وسكت ، وكان على وجهه شفقٌ مُحمرٌّ فأظلم بفتةٍ عند ما قال : ؛ فنظرتُ فرأيت ، .

وارتجَّ المسجدُ بصيحةٍ واحدةٍ : فرأيتَ ماذا ؟ رأيتَ ماذا ؟

وبعثتُ الصيحةُ أبا محمد فقال : رأيتُ ثلاثةَ وجوهٍ أشرفتُ من المصحف تنظرُ إلى كالعاتبة ، وكان أوسطُها كالقمر الطالع ، لو تمثلتُ آياتُ الجنة كلها وجهاً لكاتبته في نصرته وبشاشته ؛ وغمغمتُ الوجوهُ الثلاثةُ بكلمات لم أسمع منها شيئاً ، ولكنَّ نظرَها إلىَّ كان يؤدِّي لي معانيها ، وكأنها تقول : « أكَذلك المؤمن ... ؟ » .

ثم غابت وتحلَّت عني وبرزت ثلاثةَ وجوهٍ أخرى ، كأنها نقائضُ تلك ، وأعوذ بالله من أوسطها ، لو تمثلتُ آياتُ الجحيم كلها وجهاً لكاتبته في نُكرهه وهوله ، وخُيِّلَ إلىَّ أن الوجهَ الأصغرَ منها وجهُ سورةٍ من سُورِ المصحف ، فقكرتُ ، فوقعَ لي مما قام في نفسي من اللَّعنة أهما : « تَبَّتْ يَدَايَ لِهَبٍ وَتَبَّ ... » .

وطمَسَ الظلامُ هذه الرؤيا وتغيَّمتِ الدنيا ، فأيقنتُ أن آتامي قد أقبلتُ على ظلمةٍ بعد ظلمةٍ ، والنفعُ شيءٌ أحمر ، فنظرتُ فإذا الدُّمُّ يتخايلُ في عيني كأنه شعلٌ تتلوَّى ، فغرغرتُ أشدَّ الجرع ، وحسبتها طرائقُ ممتدةٍ لرؤسِي تذهب بها إلى الجحيم .

وماتت كلُّ خواطري بعد ذلك إلا فكرةً واحدةً بقيت حيةً تاكلُ في قلبي أكل النار ، وهى : « كيف تحرأتُ فوضعتُ بيني وبين الله خُرقاً ! » .

ويقولون : إن أختي قد رأتني ألتصَّحُطُ في دمي مصاحت ، وجاء الناس على صوتها ، وكان فيهم طبيب ، فبعد لأيٍ ما ، استطاع حبسَ الدم ، واحتال حيلته حتى أمسَّ الجرحَ دواءً وممَّده ؛ فجعلتُ أئوبُ نفساً بعد نفس ، وراجعتُ قليلاً قليلاً .

ثم طافت الحياة على عيى قفحتهما ، فإذا الأشياءُ نبدولى وليس فيها حقائق ولا معانٍ ، كأنها تتخلَّقُ جديدةً تحت بصرى ، وكأنها خارجةٌ لساعتها من يد الله !

ونماثلتُ شيئاً بعد ساعات ، فأحسستُ أن نفسى قد رجعتُ إلى ساحةٍ متى تقول : كيف رأيتَ تحلَّ العقلُ أيها العاقل ؟

وبدأت الحياة تتجدد ، فأقسمتُ بينى وبين نفسى أن أحدد إيمانى بالله ؛ ولم أكد أفعل حتى أحسستُ كأن قوةَ الوجود كلها مسنقرَّةٌ في روحى ، وُخِّلَ إلى أنى أنا وحدى القويُّ على هذه الأرض قوةً جالها وصخورها ، على حين كان جسمى ممزداً كالبت لا يتماسك من الضعف !

فأيقنتُ حينئذٍ ما لم أعرفه قط من الدنيا ولم أشعر به قط في الحياة ولم يأتنى به علمٌ ولا فكر : أيقنت أنها معجزةُ الإيمان الجديد الغصن المتصل بالله لتوِّه كإيمان الانبياء ، دون أن تلبسه شهوة ، أو تعترضه خاطرة ، أو تكدره ذرةٌ واحدة من فكرٍ أرضيٍ دَنِس .

• • •

قال المسيبُ ثم جلس المتحدث ، وكان الناسُ في آخر كلامه كأنما غادروا الدنيا ساعةً ورجعوا إليها على مثل حالته ومثل إيمانه : فسكت الإمام ولم يتكلم ، لبدع كلِّ نفس تكلم صاحبها .

الانتحار

٥

قال المسيّب بن رافع : وأطرقَ الناس قليلا بعد خبرِ (أبي محمد البَصْرِي) إذ كان كلُّ منهم قد جَمَعَ ما له لِمَا سَمِعَ وأخذَ يَحْدُسُ في نفسه ويراجعُها الرأى وكان المجلسُ قد أَمْتَدَّ بنا منذ العصر وما يكادُ النهارُ يُشْعِرُنَا بإدباره حتى أَعْرَضْتُ في شمسِ العُبرَةِ التي تَمَرِّبُها إذا دَنَتْ أَنْ تَقْرُبَ ؛ وكان إلى يسارى قَتَى رِيَّانُ الشَّبابِ ، حَسَنُ الصُّورَةِ ، وَضِيءُ مُشْرِقٍ ، له هَيْئَةٌ وَسَمْتٌ ، أَقْبَلَ على الأيامِ وأَقْلَتِ الأيامُ عليه .

فسمي أَطِنُّ على أُذُنِ (مجاهد الأزدي) ، وكنت أعرُفُه شاعراً في كلامه وشاعراً في قلبه ؛ فقلت له : إنه لم يبقَ من النهارِ يا مجاهد إلا مثل صبرِ المحب دَمًا له المَوْعِدُ ؛ ولم يبقَ من الشمسِ إلا مثلُ ما تَلَفَّفَ صاحِبَتُهُ ، تأخذُ عليها نوبَهَا وَغَلَّائِلَهَا ، ولكن بعد أن تُسْقِطُها من هنا ومن هنا ، لَتُرى جَمالَ جَسَمِها هنا وهنا !

فاهترَ العنى لهذه الكلمات ، وسالت الرِّقَّةَ في إعطائه ، وقال : يا عمّ ، أما ترى ما بقي من النهارِ كأنه وجهُ باكٍ مَسَحَ دموعَه وليس حوله إلا كَأَنَّهُ الزمن ... ؟

قلت : كأنَّ لك خبراً يا فتى ، فإن كان شأنُكَ مما نحن فيه فقصّه علينا وعَلَّنا به سائرَ الوقتِ إلى أن تَحِبَّ الشمسُ ، ولعلَّكَ طائرٌ با طَيِّرَةٌ فوق الدنيا .
قال : فَمَنَّةُ ؟

قلت : تقرُّمُ فتكلِّمُ ، فإنِّي أرى لك لساناً وبياناً .

قال : أَوْ يَحْسُنُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ عَنْ صَرَعَةِ الْحُبِّ وَصَرِيحِهِ ،
وَعَاشِقَةٍ وَعَاشِقٍ ؟

فبَادِرْ بِجَاهِدِ فَقَالَ : وَيَحْكُ يَا قَتِي ! لَقَدْ تَحَجَّجْتَ وَاسْعَا ؛ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِيَهْلِي
بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَكِتَابُ سَيِّئَاتِهِ فِي عُنُقِهِ مَلْشُورٌ مَقْرُوءٌ ؛ وَهَلْ أَوْقَاتُ الصَّلَاةِ
إِلَّا سَاعَاتٌ قَلْبِيَّةٌ لِكُلِّ يَوْمٍ مِنَ الزَّمَنِ ، تَأْتِي السَّاعَةُ مِمَّا قَبْلُهَا كَمَا تَأْتِي نُوبَةُ
الْقَلْبِ مِمَّا عَمِلَ الْجَسْمُ ؛ إِنَّمَا يَتَلَقَّى الْمَسْجِدُ مَنْ يَدْخُلُهُ لِسَاعَتِهِ الَّتِي يَدْخُلُهُ فِيهَا
وَلَوْ أَنَّهُ حَاسِبُهُ عَنْ أَمْسٍ وَأَوَّلٍ مِنْهُ وَمَا خَلَا مِنْ قَبْلِ ، لَطَرَدَهُ مِنَ الْعَتَبَةِ !
إِنَّ الْمَسْجِدَ يَا بَنِيَّ إِنَّمَا يَقُولُ لِدَاخِلِهِ : أَدْخُلْ فِي زَمْنِي وَدَعْ زَمَنَكَ ، وَتَعَالَى إِلَيَّ
أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْأَرْضِيُّ ، لِتَتَحَقَّقَ أَنَّ فِيكَ حَاسَّةً مِنَ السَّمَاءِ ، وَجِيئَنِي بِقَلْبِكَ
وَفِكْرِكَ ، لِيَشْعُرَا سَاعَةً أَنَّهُمَا فِي لَافِيكَ ^(١) وَلَسْنَا الْآنَ يَا بَنِيَّ فِي مُتَحَدِّثٍ
كَكِدِّي الْقَوْمِ يَتَطَارَحُونَ فِيهِ أَخْبَارَهُمْ ، بَلْ نَحْنُ فِي مَجْلِسٍ عِلْمٍ تَكَلَّمْتُ فِيهِ
رَقَبَةً هَذَا وَرَقَبَةً هَذَا بِمَا سَمِعْتُ ؛ فَقُمْ أَنْتَ فَادْكُرْ عِلْمَ قَلْبِكَ وَهَؤُلَاءِ عَلَيْنَا
خَيْرٌ طَلِيحُ الْحُبِّ وَالشَّيْبَانِ الَّذِي يُشَبِّهُ الْكَلَامُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا عَنِ
الصُّعُودِ إِلَى الْقَمَرِ وَالْقَبِيصِ مِنْ هُنَاكَ عَلَى الرَّقِّ !

* * *

قَالَ الْمُسَيَّبُ : فَاتَهَضَّ الْفَتَى ، وَرَأَيْتُ بِجَاهِدٍ يَتَمَدَّ كَأَمَّا أَنْصَدَعْتُ
كَدَّهُ ؛ فَقُلْتُ : مَا بَالُكَ ؟ قَالَ : إِنَّ شَبَابِي قَدْ مَرَّ عَلَى السَّاعَةِ فَلَسَمْتُ مِنْهُ
فِي بُرْدَةِ هَذَا الْفَتَى ، ثُمَّ قَدَّعْتُهُ فَقَدْ تَانِيَا فَهَرِمْتُ هَرَمًا ثَانِيًا وَجَاءَنِي الْحُزْنُ
مِنْ إِحْسَاسِي بِأَنِّي شَيْخٌ ، حُزْنَ مَنْ مِمَّ أَنْ يَدْخُلَ بَابَ حَبِيبٍ ثُمَّ رُدَّ ... !
وَتَحَدَّثَ الْفَتَى ، فَإِذَا هُوَ يُدِيرُ بَيْنَ فَكَيْهِ لِسَانَ شَاعِرٍ عَظِيمٍ ، يَتَكَلَّمُ كَلَامَهُ

(١) سَتَأْتِي قَلْبَهُ الْمَسْجِدُ فِي مَقَالَاتٍ أُخْرَى مِمَّا يَجْمَعُ هَذَا الْكِتَابُ وَانْظُرْ مَعَالَةَ
(الله أكبر)

بنفسين : إحداهما بشرية تصنع المعنى واللفظ . والاخرى علوية تلقى فيها النار والنور .

قال : إن لى قصة أيها الشيخ ، لم يبقَ منها إلا الكلام الذى دُفِنَتْ فيه معانيها : وقد تأتى القصة من أخبار القلب مُقَمَّمةً بالآلام والاحزان ، لا يُراد بالآلام وأحزائها إلا إيجاد أخلاق القلب يعيشُ بها ويتبدل . والذى قُدر عليه الحب لا يكون قد أحبَّ غيره أكثر مما يكون قد تعلم كيف يلبس نفسه فى غيره ، وهذه كما هى أعلى درجات الحب ، فهى أعلى مراتب الإحسان . ومتى صدق المرء فى حبه كانت فكرته فكرتين : إحداهما فكرة ، والاخرى عقيدة تجملُ هذه الفكرة ثابتة لا تتغير ؛ وهذه كما هى طبيعة الحب فهى طبيعة الدين .

ولاشئ فى الدنيا غيرُ الحب يستطيع أن ينقلَ إلى الدنيا ناراً صغيرة وجنة صغيرة ، بقدر ما يكفى عذاب نفس واحدة أو نعيمها ؛ وهذه حالة فوق البشرية .

والفضائلُ عاقمتها تعمل فى نعل الإنسان من حيوانيته ، وقد لا تنقل إلا أقله ويبقى فى الحيوانية أكثره ؛ ولكن الحب الصادق يقتلع الإنسان من حيوانيته عمدة واحدة ، يبدأ أنه لا يكون كذلك إلا إذا قتله بالآلام ؛ فهو كأعلى السلك والعبادة .

كان من خبرى أرى دُعيت يوماً إلى ما يدعى لثله الشبابُ فى مجلس عشاء وشراب ، ياله من مجلس ! وقد قال تعالى « إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا نَحْنُ عَلَيْهِ فَمَا فُوتَقَهَا ، وَالْبَعُوضَةُ الَّتِي قَصَتْ أَمَّا كَانَتْ أَمْرًا نَصْرَانِيَّةً ... قَيْتَةً فَلَانَ الْمَحْنَةَ الْحَادِقَةَ الْمُحْسِنَةَ الْمُتَأَنِّةَ . تحفظ الحر وتروى الشعر ، وتنكلم بألفاظٍ فيها حلاوة ، وتخلقُ النكدة إذا شامت خلق الزهرة المتمتحة عليها

سَقِيطُ النَّدَى ؛ وَتَجِدُ بِالْحَدِيثِ مَا شَاءَتْ وَتَهْزُلُ ، فَتَجْعَلُ لِلْكَلامِ عَقْلاً وَشَهْوَةً
تُضَاعَفُ بِهِمَا مَنْ تَحْدِثُهُ فِي شَهْوَاتِهِ وَعَقْلِهِ !

وَسَتَجْرِي فِي قِصَّتِهَا أَلْفَاظُ الْقِصَّةِ نَفْسِهَا ، لَا أَتَأْتِي مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَتَنَعَمُ ؛
فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ الْخَمْرَ بِلَفْظِ الْخَمْرِ وَلَمْ يَقُلْ : « الْمَاءُ الَّذِي فِيهِ السُّكَّرُ » ، وَوَصَفَ
الشَّيْطَانَ وَلَمْ يَقُلْ : « الْمَلَكُ الَّذِي عَمِلَ عَمَلِ الْمَرْأَةِ الْحَسَنَاءِ فِي تَكْبُرِهَا » ، وَذَكَرَ
الْأَصْنَامَ بِأَنَّهَا الْأَصْنَامُ ، وَلَمْ يُسَمِّهَا حَامِلَةَ السَّيِّئِ الَّتِي يَصْنَعُهَا الْإِنْسَانُ بِيَدَيْهِ .
وَحِكَايَةُ مَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ هِيَ كَلَامٌ يَقْبَلُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَيَلْتَزِمُ وَيَتَعَاقِقُ !
قَالَ الْمَسِيْبُ : فَتَبَسُّمُ إِمَامِنَا وَنَظَرُ عَيْنِهِ تَسْأَلَانِ سَوْأًا ، أَمَا جَاهِدُ
الْأَزْدَى فَكَانَ مِنْ هِزَةِ الطَّرَبِ كَأَنَّهُ عَلَى قَتَبٍ بَعِيرٍ ، وَقَالَ : اللَّهُ ذَرَهُ قَتَى !
إِنْ هَذَا لِيَأْنُ كَيْلُ الْعَيْنِ !

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى : وَذَهَبْتُ إِلَى الْمَجْلِسِ وَقَدْ جَعَلْتُهُ هَذِهِ الْمَغْنِيَّةُ مِنْ حَوَاشِيهِ
وَأَطْرَافِهِ كَأَنَّهُ تَفْسِيرٌ لَهَا هِيَ ، أَمَا هِيَ فَجَعَلْتُ نَفْسَهَا تَفْسِيرًا لِلْكَلِمَةِ وَاحِدَةً
هِيَ : « اللَّذَّةُ ... »

قَالَ الْمَسِيْبُ : وَطَرِبَ جَاهِدُ طَرَبًا شَدِيدًا ، وَسَمِعَتْهُ يُجَافِتُ بِصَوْتِهِ يَقُولُ :
« اللَّهُ ذَرَهَا امْرَأَةً ! هَذِهِ عَدُوَّةُ الْخَوْرِ الْعَيْنِ ! »

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى : وَتَقَارَّبَ جَمَاعَةُ أَهْلِ الْمَجْلِسِ إِلَى الشَّرْبِ ، وَدَادَقَتْ خُمْرُ آقِطٍ
وَلَنْ أَذْوَقَهَا وَلَوْ شَرِبَهَا النَّاسُ جَمِيعًا ، وَلَنْ أَذْوَقَهَا وَلَوْ أَقْطَعَ الْغَيْثُ وَلَمْ يَمْطُرْ
السَّمَاءُ إِلَّا خُمْرًا ؛ فَإِنِ مَذَكْتُ يَافِعًا رَأَيْتُ أَبِي يَشْرِبُهَا ، وَكَانَتْ أُمِّي تَلُومُهُ فِيهَا
وَتَشْتَدُّ فِي تَعْنِيْفِهِ وَتَحْتَدِمُ ، وَكَانَا يَتَشَاحَنَانِ فِينَا لَهَا بِالْأَذَى وَيَنْدَرِي عَلَيْهِمَا بِالسَّبِّ
وَفُحْشِ الْقَوْلِ ؛ وَسَكِرَ مَرَّةً وَغَلِبَهُ السُّكْرُ حَتَّى ثَارَتْ أَحْشَاؤُهُ ، فَذَرَعَهُ الْفَتَى ؛
فَتَوَهَّمَنِي وَعَامًا ، وَجَاءَ إِلَيَّ وَأَنَا جَالِسٌ فَأَمْسَكَ نِي وَوَقَعَ فِي حِجْرِي ، حَتَّى أَهْرَغَ
جَوْفَهُ ؛ وَتَارَتْ أُمِّي لَتَنْزِعَةٍ وَأَشْأَتْ تَعَالِجُهُ عَنِّي ، فَتَصَارَعَ جُودَهُ وَعَقْلُهَا حَتَّى

كفأته على وجهه كالإناه ، فالتوى كالخية بطناً لظهره ، واستجمع كالتفخذ في شوكه ، ثم لكرزها برجله أسفل بطنها فانقلبت ، وأصاب رأسها إرجانة^(١) العجين فثلم تليثم الإناه كأما شديخ ضرباً بحجر ، وانتثر دماغها على الأرض أمام عيني ، ورأيتها لم تزد على أن دقمت يا حدى يديها في الهواء ، وضمت بالآخرى إلى صدرها ، تنوهم أنها تحمى وتدفعه عني ؛ ثم سكنت ، ولولم تمت من الشجة في رأسها لماتت من الضربة في بطنها !

قال المسيب : وأطرق الفتى هنيةً وأطرق الناس معه ؛ فرفع مجاهد صوته وقال : رحمها الله ! فقال الناس جميعاً : رحمها الله !

ثم قال الفتى : وكان عامّة من في المجلس يعرفون ذلك منى ، ويعرفون أنه لو ساع لإنسان أن يشرب دم أمه ما شربت أنا الحمر ؛ فقالوا اللغنية : إن هذا لا يدخل في ديواننا^(٢) . فنظرت إلى ، وهربت أما من نظرتها بإطراقة ؛ ثم قالت : تشرب على وجهى ؟ فقلت لها : إن وجهك يقول لى : لا تشرب ... فتضاحكت وقالت : أهو يقول لك غير ما يقول لهؤلاء ؟ فهربت من كلامها بإطراقة أخرى ، ووصلت الإطراقتان ما بينى وبين قلبها ؛ وتلبّيه فيها مثل حنو الأم على طفلها إذا آذنه بلسانها فأطرق ساكناً يشكوها إلى قلبها !

والتفتت لمن حضر وقالت لهم : لست أطيّب لكم ولا تتفنعون بى إلا أن تشربوا لى ولهُ ولا فسخكم ! واحتط عليهم الساقى ، فشربوا أرتالاً وأرتالاً ، وهى بين ذلك تغنيهم وقد أقبلت عليهم وخلا وجوهاً لهم من دوى ، وإعما تخالسى النظرة بعد النظرة .

(١) هى ما يصعب فيه العجين ويسهل فيه الثياب ، وقد يوضع فيها الماء ليتوصأ منه ، ويتخذ من حمر أو حروف أو غيرها .

(٢) يعبر قديم كانوا يريدون به الشرب كأنه ديوان ملك

فوسوس لي شيطاني أن تشدد مع هذه بمنزل عزميتك مع الخمر ؛ فإنما
 هما شيء واحد . ولكنني كنت أحيّد النظر إليها ، فزرة أو أومئها نظرة الحب
 للحبيب ، و مرة أغضى عنها بنظرة لا تنظر ؛ وكأنّ بذلك كنت آخذها وأدعها ،
 وأصلها وأهجرها ؛ فقالت لي كالمسكرة على : ما بالاك تنظر إلى هكذا ؟
 ولكن هيئة وجهها جعلت المعنى : لا تنظر إلى إلا هكذا ... !

وأسرع الشراب في القوم وأفرط عليهم السكر ؛ فبقيت لي وحدي
 وبقيت لها وحدها ؛ ثم تناولت عودها وضمتها إليها ضمّا شديدا أكثر من
 الضم ... وألمسته صدرها ونهديها ، ثم رنت إلى بمعنى ، فاشككت أنها
 ضمت لي أنا والعود ؛ ثم غنت هذا الصوت :
 ألا قاتل الله الحمامة غدوة

على النصف ؛ ماذا هيبت حين غنت ؟
 لما سكنت حتى أويت لصوتها ،
 وقلت : ترى هذي الحمامة جنت ؟

وما وجد أعرابية قذفت بها
 صروف النوى من حيث لم بك ظنت ..
 إذا ذكرت ماء العشاء وطيبه ،
 وبرّد الحصى من بطن خبت ، أدنت ...
 ... بأكثر مني لوعة ، غير أنني

أحلم أحشائي على ما أجت !
 وغنت غناء من قلب يئن ، وصدر يتهد ، وأحشاء لا تحي ما أجت ؛
 وكانت ترتفع بالصوت ثم كأنها همى الهمع على صوتها فير تعش ويتزل

قليلا قليلا حتى يئن أنينَ الراكية ، ثم يعتلجُ في صدرها مع الحب : فيتردد
عالياً ونازلاً ، ثم يرفض الكلامُ في آخره دموماً تجري !

* * *

قال المسيب : فنظر إلى مجاهد وقال : عدوةُ الجنةِ واقيةُ هذه يا أبا محمد ،
لا تقبلُ الجنةُ من يكون معها ؛ تقول له : كنت مع عدوتي !

ثم قال الفتى : وكان القوم قد انتشوا ، فاعتراهم نصفُ النوم وبقى نصفُ
البَقْظَةِ في حواسهم ؛ فكل مارأوه منارأوه كأحلام لا وجود لها إلا خلف أجفانهم
الْمُثَقَلَةِ سكرًا ونعاسًا ؛ ووثبتُ المعينة فجأت إلى جانبي والتصقتُ في ،
وأسرع الشيطانُ فوسوس لي . أن احذرْ فإنك رجلٌ صدق ، وإذا صدقت
في الخمر فلا تكذبن في هذه ، ولئن مسستها لهما لصياحك آخرَ الدهر !

فمجيئُ أشدَّ العجب أن يكون شيطاني أسلم وأعنتُ عليه كما أعين
الأنبياء على شياطينهم ؛ ولكن اللعين مضي يصدّق عن المرأة دون معانيها ،
وكان ممي كالذي يُدنى الماء من عنبى القليل المتلهبِ بجوفه ثم يحمله دائماً
قوتَ فهِ ، ولقد كنتُ من الفُحولة بحيث يبدو لي من شدةِ الفُورة في دمي
وشبابي أني أجمع في جسمي رجالاً عِدَّة ، ولكن صرّنى الشيطانُ بالخيال
فلم أستطع أن أكونَ رجلاً مع هذه المرأة .

وعجبتُ هي لذلك ، وما أسرَعَ ما نطق الشيطانُ على لسانها بالموعظة
الحسنة ... فالت : لقد أحببتُك ما لم أحبَّ أحداً ، وأحبتُ خجلك أكثرَ
منك ، فما يسرُّني أن تأتم في فتدخلَ البارِ بجي ، ولو أنك ابتعنتني من
مولاي ! فقلت : بكم اشتراك ؟ قالت : بألف دينار ! قلت : وأين هي مني
وأما لو بعثتُ نفسي ما حصلتُ لي ؟

فتنمَّ الشيطانُ موغظته ، وقالت وأشارت إلى قلبها : إن قلبي هذا قبلك

غنياً كنت أوقيرا، وأحس بك وحدك حُب العذراء أول ما تحب، وأنا
- كما تراني - أعيش في السيئات كالمكرهه عليها، فأعمل على أن تكون
أنت حسنى عند الله . أذهب إليه حاملة في قلبي حبي لإياك وعفتي عنك،
ولئن كانت عفة من لا يشتهي ولا يحذتعذ فضيلة كاملة، إن عفة من يجد ويشتهي
كتعذ ديناً محالة؛ ولا يزال حبي يكرراً، ولا أزال في ذلك عذراء القلب،
وهؤلاء قد نزعوا الحياء عني من أجل أنفسهم، فاليسئد أنت من أجلك
خاصة؛ وإن قوة حبي الذي سيتألم بك ويتعذب منك لإطول ما يصبر عنك،
ستكون هي بعينها قوة لفضيلتي وطهارتي .
ثم تناولت عودها وسوته وغنت :

فلو آما على حجرٍ ذُبَحنا جري الدميان بالخير اليقين^(١)
وجعلت تآوّه في غنائها كأنها تُذبح ذبحاً، ثم وضعت العود جانباً وقالت :
ما أشقاني إذا انفتحت لي ساعة زواجي في غر وقتها لجأت كالحلم يأتي
بخيال الزمن فلا يكون فيه من الأشياء إلا خيال الأشياء !

ثم سألتني : ما بالك لم تشرب الخمر ولم تدخل في الديوان ؟ فبدّر شيطاني
المؤمن ... وساق في لساني خبراً مريباً وأبى ، فامتصحت عيناها باكية وتم لها
رأى في كراي أما في المسكر ؛ وكان شيطانها بعد ذلك شيطانا خبيثاً مع
أصحابها ، وتطريقاً زاهداً معي أما وحدي ،

ورأيتها لا تجالس إلا مُزايلة كالعذراء الحفورة إذا انقبضت وغطت
وجهاً ، وصارت تخافني لأها تُنجني ، وهيتني الشيطان إليها فعدت لا ترى في
الرجل الذي هو تحت عيدها الثيبتين .. ولكن القديس الذي تحت قلبها البكر .

(١) كانت العرب تزعم أنه إذا قتل اثنان جرى دمياهما على طريق واحد سم النعيا،
حكم عليهما أنهما كما متحايين ، فإن لم يلتقيا حكم عليهما أنهما كما متساينين . وما أجملها
خرافة وأشعرها !

ولم يُعَدِّ جمالي هو الذى يُعجبها ويُصَيِّها ، بل كان يعجبها منى أقى صنعة
فضيلتها التى لم تصنع شيئاً غيرى ...

وأطلق الشيطانُ بعد ذلك فىَ وفيها بداهته وحُكْمَتَهُ وبكلِّ ما جَرَّبَ
فى النساء والرجال من لَدُنْ آدم وحواء إلى يومى وبومها ... افكان يحذبنى
إليها أشدَّ الجذب ، ويدفعها عني أقوى الدفع ، ثم يُغرينى بكلِّ رذائلها
ولا يغيرها هى إلا بفضائلى ؛ وألقى بها فى دى فكرة شهوةٍ مجنونةٍ متقلبةٍ ،
وألقى منى فى دمها فكرةَ حكمةٍ رريئةٍ مستقرّةٍ ؛ وكنت ألقاها كلَّ يومٍ وأسمع
غناءها ؛ فإِ هو بالغناء ولكنه صوتُ كلِّ ما فيها لكلِّ ما فى ، حتى لو التصقَ
جسمُها بجسمى وسارَّ البدنُ البدنَ ، وهَمَسَ الدمُ للدمِ ، لكان هو هذا الغناء
الذى تغنيهِ .

وأصبحتُ كلما استقمتُ لحبها تَلَوْتُ على ؛ إذ لست عندها إلا الأملَ
فى المغفرةِ والثواب ، وكأنما مُسَخَّتُ حَبْلاً طوله من ها إلى الجنة لتتعلق به
وعاد أمتناعها منى جنوناً دليلاً ما يفارقها ، فانتلانى هذا بمثل الجنون فى حها
من كَلَفٍ وشَغَفٍ !

واحصرتُ نفسى فيها ، فرحمت معها أشدَّ غباوةٍ من الجاهل ينظر إلى مدِّ
بصره من الاق فىحكم أن ههنا نهايةَ العالم ، وما ههنا إلا آخرُ بصره وأولُ
جهله ؛ وأنفَلتُ منى زمامَ رُوحى ، وأنكسر ميزانُ إرادتى ، وأختلَّ استواءُ
فكرى ؛ فأصبحتُ إنساناً من النقااض المتعادية أجمعُ اليقين والشك فيه ،
والحبِّ والبعض له ، والأملَ والحياة منه ، والرغبة والعزوف عنها . وى
أقلَّ من هذا يُخطفُ العقل ، ويتدلّه من يتدلّه .

ثم أبليتُ مع هذا اللّهمَّ بمجنون الغيظ من أتدالها لأصحابها وغفها معى ،

فكنتُ أنطايرَ قطعها بين السماء والأرض ، وأجدُ عليها وأتسكرها ، وهي في كل ذلك لا يزيدني على حالة واحدة من الرهبانية ، فكان يطير بعقلي أن أرى جسمها ناراً مشتعلة ، ثم إذا أثارته استحال ثلجاً ، وقرحت الغيرة قلبي وفئت كبدى من عادة الشيطان مع الجميع الراحة مع رجل واحد فقط . . . ١
ورجعت خراطرى فيها بما يُعقلُ وما لا يُعقلُ ؛ فكنت أرى بعضها كأنه راجعٌ من سفرٍ طويل عن حبيب في آخر الدنيا ، وبعضها كأنه خارجٌ من دار حبيب في جوارى ، وبعضها كأنه ذاهبٌ إلى المارستان . . . ١
ورأيتنا كأننا في عالَمين لاصلةً بينهما ، ونحن معا قلباً إلى قلب ؛ فذهب هذا بالبقية التي بقيت من عقلى ؛ ولم أرَ لي مُنْجاءَ إلا في قتلِ نفسى لأزهدَ هذا الوحش الذى فيها .

وذمت فابتعت شعيرات من السمِّ الودجى الذى يُعجلُ بالقتل ، وأخذتها في كفى وهممت أن أقمَحها وأبتلعها ، فذكرتُ أُمى فظَهَرَت لىالى مشدوخة الرأس في هيئة موتها ، وإلى جانبها هذه المرأة في هيئة جمالها ، وثبتت على عيني هذه الرؤيا : وأدمنتُ النظرَ فيها طويلاً ، فإذا أنا رجلٌ آخرٌ غيرُ الأول ؛ وإذا المرأةُ غيرُ تلك ، وطفت عيرة الموت على شهوة الحياة ففتحها ، وصبح عندى من يومئذٍ أن لا علاج من هذا الحب إلا أن تُقرَن في النفس صورة امرأة ميتة إلى صورة المرأة الحية ، وكلما ذكرتُ هذه جىء لها بتلك ، فإذا استمر ذلك فإن الميتة تُبْمِيتُها النفس ، وتُنبِتُ الشهوة إليها ، ما من ذلك بُدْ ، فليجربْه من شك فيه .

وانفتح لى رأى عجيب ، فجعلتُ أنا أكل : كيف آمن شيطانى ثم كفر بعذ ، على أن شيطانها هى كفر فى الأول ثم آمن فى الآخر ؟ هواقه ما كنتُ إلا غيباً حامدةً الفطلة ، إذ لم يَسَحْ لى الصوابُ حتى كدت أزهد نفسى وأخسر الدنيا

والآخرة ؛ فإن الشيطان - لعنه الله - إما ردني عن الفاحشة وهي ذنب واحد ، ليرميني بعدها في الذنوب كلها بالموت على الكفر !
ورّد إلى هذا الخاطر ما عَزَبَ من عقلي ، ومَن ابْتُلِيَ ببلاءٍ شديدٍ يزلزل يقينه ثم أبصر اليقين ، جاء منه شخص كأما حُلِقَ لساعته ؛ فلعلتُ شيطاني واستعدتُ بالله من مكره ، وألقيت السمَّ في التراب وغَيَّتُهُ فيه ، وقلتُ لنفسي : ويحك يا نفس ! إن الحياةَ تعمل عملاً مالحى ، أقرّضين أن تعمل الحياةَ بأبطالها ورجالها ما عرفت وما علمت ، ثم يكون عملها بك أنت القعود ناحيةً والبكاء على امرأة ؟

أيتها النفس ، ما الفرق بين سرقة لحم من دكان قصاب ، وبين سرقة لحم امرأة من دار أبيها ، أو زوجها ، أو مولايها ... ؟
أيتها النفس ، إن إيمانَ أسلافنا معنا ؛ إن الإسلامَ في المسلم .

قال المسيّب : وهنا طاش مجاهد واستخفه الطرب ، فصاح صيحة النصر :
الله أكبر ! وجاوبه أهلُ المسجد في صيحةٍ واحدة : الله أكبر ! ولم يكدهم يهتف بها الناس حتى ارتفعت صيحة المؤذن لصلاة المغرب : الله أكبر ...

الانتحار

٦

تممة

قال المسيّب بن رافع : وانفضّ مجلس الشيخ ، ودَرَجتْ بعده أعرامُ في
عدّة الشهور من تخل المرأة ، بلغت فيها أمورُ الناس مبلغها من خير الدنيا وشرّها
مما أعرفُ وما لا أعرفُ ؛ ودخلتُ البصرةَ أنا ومجاهدُ الأزديّ ، نسمع
الحسنَ وتأخذ عنه ^(١) ؛ فإنا لسائران يوماً في سكةٍ بهي سُمرةٍ ، إذ وافقنا الفقي
صاحبَ النصرانية مقيلاً علينا ، وكنا قد ناه تلك المدة ، فأسرعَ إليه مجاهد
فالتزمه وقال : مرحباً مرحباً بذى نسبٍ إلى القلب ، وسلّمتُ بعده وعاقفته ،
ثم أقبلنا نسأله ، فقلت له : ما كان آخرُ أولئك ؟ قال مجاهد : بل ما كان آخرُ
أولها هي ؟

فضحك الرجل وقال : النصرانية تمي ؟ قال : نعم . قال : آخرُها من
أولها كهذا مي ؛ وأوماً إلى ظله في الأرض ممدوداً مشوحاً محتليطاً غير
متميز ، كأنه ثوبٌ منشورٌ ليس فيه لائسه ، وكنا في الساعة التي يصير فيها
ظل كلِّ شيءٍ مثله فهو مزجُ المسخِّ بالمسخ ...

قال مجاهد : ما أظنّ جوابك وأثقله يا رجل ! كأنك والله تاجر لا صلة له
بالأشياء إلا من أنعمائها ؛ فتطرّه إلى قراهة الدابة من الدوابّ وإلى فراهة
الجارية من الرقيق سواء .

(١) الحسن البصري الإمام العظيم .

قال الرجل : فأنا والله تاجر ، وأنا الساعة على طريق الإيران ^(١) الذي يلتقي فيه تجار العراق والشام وخراسان ؛ وقد صربت في هذه التجارات وحسنت بها حالي وتأملت منها ؛ غير أن قلب التاجر غير التاجر ، فليس يزِن ولا يقيض ، ولا يبيع ولا يشتري . أما « تلك » فأصبحت نسياناً ذهب أسيله في الزمن ! قال مجاهد : فكيف كنت تراها وكيف عدتَ تنظر إليها ؟

قال : كنت أنظر إليها بعيني وأفكاري وشهواني ؛ فكانت بذلك أكثر من نفسها ومن النساء ، وكانت ألواناً ألواناً ما تنقضي ؛ فلما دخل بيني وبينها الزمن والعقل ، أبعداها هذا عن قلبي وأبعداها ذلك عن خيالي ؛ فنظرتُ إليها بعيني وحدهما ، فرجعتُ امرأة ككل امرأة ؛ وبزولها من نفسي هذه المنزلة رجعتُ أقل من نفسها ومن النساء ، وهذه القلة فيما عرفتُ لا تُصيب امرأة عند محبتها إلا فعلتُ بجمالها مثل ما تفعله الشيخوخة محسبها فأدبرتُ به ثم أدبرتُ واستمرتُ تُذكر !

وأنت فإذا أنصرتُ امرأةً شيخةً قد ذهبت التي كانت فيها وأخطرتُ في ذهنك نيةً مما بين الرجال والنساء ، فهل تُراك واجداً الشهوة والميل إلا التفرقة والمعصية ؟ إن هذا الذي كان الحب والهوى والعشق ، هو بعينه الذي صار الإثم والذنب والضلالة !

قال مجاهد : كأنك لما ذهبتَ تقتلُ نفسك من حبا قتلتها هي في نفسك ؟ قال : بآرحمه قد رجحتُ بها نفسي يومئذ ! أما والله إن الذي يقتل نفسه من حب امرأةٍ لغى ؛ وبه أفلتتخلص من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفسها ؛ وقد جعل الله للحب طرفين : أحدهما في اللذة ، والآخر في الحماقة ، ما منهما بد ؛ فهذا الحب يُلقى صاحبه في الأحلام ويُغشى بها على نصره ،

(١) هذه الكلمة خير ما يعبر به عن (البورصة) ، وكذلك كانوا يستعملونها .

ثم إن هو آتجه بطرفه السعيد إلى حظه المقيّل وآتفت اللذة للحب ، أيقظته اللذة من أحلامه : وإن آتجه الحب بطرفه الشقيّ إلى حظه المذّبر ، وقعت الحاقات فنوناً شتى بين الحبيين ، وفعلت آخرّاً فعل اللذة ، فأيقظت العاشق من أحلامه أيضاً . وهذا تدير من الرحمة في تلك القوة المدمرة المسماة : الحب . أفلا يدل ذلك على أن اللذة وهم من الآواهام مادام تحقّقها هو فناءها ؟ خذ عني بإجهاذه هذه الكلمة : « ليس الكمال من الدنيا ولا في طبيعتها ، ولا هو شيء يُدرك ، ولكن من عظمة الكمال أن أستمّر العمل له هو إدراكه » .

قال مجاهد : لقد علّمت بعدنا علماً ، فمن أين لك هذا وعمن أخذت ؟

قال : عن السماء !

قال : وبيك ! أين عقلك ؟ فهل نزل عليك الوحي ؟

قال الرجل : لا ، ولكن تعال يا معي إلى الدار فأحدثكما .

قال المسيّب : وذهنا معه : فأيتنا طعام نظيف فأكلنا ، وأشعرتنا الدار أن ربّها قد وقع فيما شاء من دنياه وتواصلت عليه النعمة : فلما غسلنا أيدينا قال مجاهد : هيه يا أبا ... يا أبا من ؟ قال : أوعبيد . قال : هيه يا أبا عبيد ... فأفكر الرجل ساعة ثم قال : عهدكما في منذ تسع في مجلس الإمام الشعبي بالكوفة : وقد كُت في بقية من العمة أنجملها ، وكانت تمسكني على موضعي في أعين الناس : فإرات تلك البقية تدق وتنفض حتى نكد عيشي ووقعت في الأيام المقعدة التي لا تمشي بصاحبها ، وآكل الزمن كالعدوّ المصير جاء ليضطلم ويحرب ويفسد ، فأثر في أقبح آثاره ، فبعت ما بقي لي وتحملت عن الكوفة إلى البصرة وقلت : إن لم تتعبّر حالي تعبرت نفسي ،

ولا أكون في البصرة قد انتهيتُ إلى الفقر ، بل أكون قد بدأتُ من الفقر كما يبدأ غري ، وأدعُ الماضيَ في مكانه وأمضى إلى ما يستقبلني .

فالتستُ رُفَقَةً ثَلَاثِينَ عَشْرِينَ رجلاً ، فلما كنا في الطريق ، سلبنا اللصوصُ وحازوا القافلةَ وما تحويه ، ونجوتُ أنا راكباً فرسى وعُمرى ، وأدركتُ حينئذ أن الحياةَ وحدها مُلْكٌ عظيم ، وأنها هي الأداةُ الإلهيةُ ، والباقي كله هو من أنفسنا لأنفسنا والامرُ فيه هينٌ والخطبُ يسير .

وقلت : لو أن اللصوصَ قد مرُّوا بنا كما يمرُّ الناسُ بالناسِ لما فكَّبونا ، ولكنهم عرضوا لنا عُرُوضَ اللَّصِّ للبالِ والمتاعِ لا للناسِ ، فوضعوا فينا الأيديَ الناهيةَ ؛ ومن هذا أدركتُ أن ليس الشرُّ إلا حالةٌ يتلبَّسُ بها من يستطيع أن يتخلصَ منها ؛ فإذا كان ذلك فاصلُ السعادةِ في الإنسان ألا يعبأ بهذه الحالاتِ متى عَرَضَتْ له ؛ وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا تمثل الشرَّ كما يراه واقعاً في غيره ؛ فالمرأةُ العفيفةُ إذا عَرَضَتْ لها حالةٌ من الفجور ، ونظرت إلى نفسها وحطَّتْ نفسها ، فقد تعمى وثرَلَتْ ؛ ولكنها إذا نظرت إلى ذلك في غيرها وإلى أثره على الفاجرة ، كانت كأنما زادت على نفسها نفساً أخرى تربها الأشياءُ مجردةً كما هي في حقائقها .

قال : ومضيت على وجهي تتقاذفُ البقاعُ والامكهُ ، وأما أعاني الأرضَ والسماءَ ، وأحشى الليلَ والنهارَ ، وأكابُدُ الألمَ والجوعَ ، حتى دخلتُ البصرةَ دخولَ البعيرِ الرزاحِ ، قَطَعَ الصحراءَ تأكلُ منه ولا يأكلُ منها ، فأفضاء السفرِ وحسره الكلالُ ونحته القَلُّ الذي يحمله ، فجاء بيديَّ غيرِ التي كان قد خرج بها . وكانت أيامي هذه عمراً كاملاً من الشقاء ، جعلتني أوقن أن هؤلاء الناسَ في الحياةِ إنْ هم إلا كالذُّوَابِ تحتِ أحمالها : لا تختارُ الدابةَ ماتحملُ ولا من تحملُ ، ولا يتركُ لها مع هذا أن تحارَ الطريقَ ولا مدةَ السيرِ ؛ وليس للدابةِ

إلا شيئان : صبرها وقوتها : إن فقدتهما هلكت ، وإن وهّنا فيها كان ضعفها بحسب ذلك .

إن هناك أوقافاً من الشقاء والبؤس تغدّف بالإنسان وراء إنسانيته وإنسانيّة البشر جميعاً ، لا تنبأ كيف وقع ، وفي أيّ وادٍ هلك ، فلا ينفع الإنسان حينئذ إلا أن يعتصم بأخلاق الحيوان ، في مثل رضاه الذي هو أحكم الحكمة في تلك الحال ، وصبره الذي هو أقوى القوة ، وقناعته التي هي أغنى الغنى . وجهله الذي هو أعلم العلم ، وتوكّله الذي هو إيمان فطرته بفطرته . لا يبالى الحيوان مالا ولا نعيماً ، ولا متاعاً ولا منزلةً . ولا خطاً ولا جاهاً ، ولن تحدّ حمار الملك يعرف من الملك أكثر مما يعرف حمارُ السّقاء من السّقاء : ولعلك لو سألتهما وأطافا الجواب لقال لك الأول : إن الذي فوق ظهري ثِقيلٌ مقيتٌ بغيض ، ولقال لك الثاني : إن الذي يركبه خفيفٌ سهلٌ سَمَحٌ !

ولكنّ بلاء الإنسان أنه حين يطوّحه البؤس والشقاء وراء الإنسانية ، لا ينظر لغير الناس ، فيزيد ذلك بؤساً وحسرة ، ويمحق في نفسه ما بقي من الصبر ، ويقلب رضاه غبطاً ، وقناعته سخطاً ، ويبتليه كلّ ذلك بالفكرة المهلكة أعجزها أن تهلك أحداً فلا تحدّ من تُدْمِرُه غير صاحبها ؛ فإذا هي وجدت مساعاً إلى الناس فأهلكت وعانت وأفسدت ، جمعت صاحبها إما لصاً أو قاتلاً أو مجرماً ، أيّ ذلك تيسر !

قال : وكنت أعرف في البصرة فلاناً التاجر من سرائها ووجوه أهلها ، فاستطرقته ؛ فإذا هو قد تحوّل إلى خراسان ، وليس يعرفني أحدٌ في البصرة ولا أعرف أحداً غيره ؛ فكأما سكبت مرةً ثانية بغاره شرباً من تلك ، غير أنها قطعت عليّ في هذه المرة طريق أبيي ، وسابقتني آخر ما بقي لفسى ، وهو الأول !

ورأيت أنه ما من نزول إلى الأرض بُدَّ ، فأكون فيها إنساناً كالذابة
أو الحشرة : حياتها ما اتفق لا ما تريد أن يتفق ؛ وأنه لا رأى إلا أن أسخر من
الشهوات فأزهد فيها وأنا القويُّ الكريم ، قبل أن تسخر هي مني إذا جئتها
وأنا الطامعُ العاجزُ !

وفي الأرض كفاية كلِّ ما عليها ومن عليها ، ولكن بطريقتها هي لا بطريقة
الناس ؛ وما دامت هذه الدنيا قائمة على التغير والتبديل وتحول شيء إلى شيء ،
فهذا الطَّيْبُ الذي يأكله الأسد لا تعرف الأرض أنه قد أكل ولا أنه أفرس
ومزق ، بل هو عندها قد تحول قوة في شيء آخر ومضى ؛ أما عند الناس
فذلك خَطْبٌ طويل في حكاية أوهام من الخوف والوجل ، كما لو أخرجت
قصة خرافية تحكيها عن أسد قد زرع لحماً . فتعده فأنبته فخصده فأكله ،
فذهب الزرع يحتاج على آكله ، وجمل يشكو ويقول : ليس لهذا زرعتني
أنت ، وليس لهذا خرجت أنا تحت الشمس ، وليس من أجل هذا طلعت
الشمسُ عليَّ وعليك !

والإنسان يرى بعينه هذا التغير واقعاً في الإنسانية عاقبتها وفي الأشياء
جميعها ؛ فإذا وقع فيه هو ضجَّ وبيَّح : كأن له حقاً ليس لاحد غيره ؛ وهذا
هو العجيبُ في قصة بني آدم . فلا يزال فيها على الأرض كلمات من الجنة
لا تقال هنا ولا تفهم هنا ، بل محلُّ الاعتراض بها حين يكون الإنسان خالداً
لا يقع فيه التغير والتبديل ؛ ومن هذا كان خيالُ اللذة في الأرض هو دائماً
ماعت الحافة الإنسانية .

قال أبو عبيد : وذُهِبُ أَعْتِيلُ يَدِي وجسمي على آلام من الفاقة والضر ،
ومن الحية والإحفاق ، ومن إلجاء المسكنة وإحراج الخصاصة ؛ فلقد رأيته
وإنَّ يدي كيا . العبد ، وظهري كظهر الذابة ، ورحلي كرحل الأسر ، وعنقي

كفنت المخلول ؛ ويطلُحُ قرصُ الشمس على الدنيا ويغيب عنها وما أعتيلُ
إلا بقرص من الخبز ؛ ولقد رأيتني أبذلُ في صيانة كل قطرة من ماء وجهي سحابةً
من العرق حتى لا أسأل الناس ، ويا يؤماً لي إن سألتُ وإن لم أسأل !

وما كان يُمكنني على هذه الحياة المرمقة ، تأتي زمناً بعد زمناً في يوم
يوم - إلا كلامُ الشعبي الذي سمعته في مسجد الكوفة ، وقوله فيمن قتل
نفسه ؛ فكان كلامه بوراً في صدرى يُشرق منه كل يوم مع الصبح صبحُ
الإيمان ؛ ولكن بقيت أيامُ نعمتي الأولى ولها في نفسي ضربانٌ من الوجع
كالذي يجده المجرع في حرقه إذا ضربَ عليه ؛ فكان الشيطان لا يجد منفذاً
إلى إلا منها . وفقدتُ الصديقَ وعونه ، فما كان يُقبلُ على صديقٍ إلا في أحلامي
من وراء الزمن الأول !

قال مجاهد : والحبيب ؟

فتبسم الرجل وقال : إذا فرغت الحياة من الذي هو أقل من الممكن ،
فكيف يكون فيها الذي هو أكثر من الممكن ؟ إن حوَّعَ يوم واحد يحل
هذه الحياة حقيقة جافية لا شعرَ فيها ، ويترك الزمن وما فيه ساعة واحدة
مُعطرة ... والبؤسُ يقطُّه مؤلة في القلب الإساقى تُحرمُ عليه الأحلام ؛
وما الحبُّ من أوله إلى آخره إلا أحلام القلوب بعضها بعض !

* * *

قال أبو عبيد : وتَصَفَّصَتْ لهذه الحياة الحزبية وأثره نبي أيامها ، وحملتُ
في الميت والحي ، ورأيتُ الشيطان - لعنه الله - كما اتخذني وعاءاً مُطرَّحاً على
طريقه يُلقِي فيه القمامة ... وظهر لي فلي في وسواسه كالمدينة الخربية ضربها
الرواء ، فأعتر ما فيها مَقَرُّها ؛ وعاد البؤسُ وَفَّاحَ الوجه لا يسجى فلا أراه إلا في
أرذل أشكاله وأبردها ؛ ولقد يكون البؤسُ لبعض الناس على شيء من الحياة

فِيَانِي فِي أَسْلُوبٍ مُعْتَذِرٍ كَالْمَرْأَةِ الدَّمِيمَةِ فِي نَقَابِهَا !
وَقُلْتُ لِنَفْسِي : مَا هُوَ وَاقَهُ إِلَّا الْقَتْلُ ، هَذَا مُحَرَّمٌ أَرَاهُ كَالْأَسِيرِ أُقِيمَ عَلَى
النُّطْعِ وَسُلِّ عَلَيْهِ السِّيفُ ، فَمَا يَنْتَقِمُ مِنْهُ الْمُنْتَقِمُ بِأَفْطَحَ مِنْ تَأْخِيرِ الضَّرْبَةِ ،
وَمَا يَرْحَمُهُ الرَّاحِمُ بِأَحْسَنَ مِنْ تَعْجِيلِهَا !

وَبَتْ أَوْامِرُ هَذِهِ الْفَسِّ فِي قَتْلِهَا وَأُحْدِثَهَا حَدِيثَ الْمَوْتِ ، فَسَدَّدَتْ رَأْيِي
فِيهِ وَقَالَتْ : مَا تَصْنَعُ بِجَسْمٍ كَالْمُتَعَفِّفِ أَصْبَحَ كَالْمَقْبُورِ لَا أَيَّامَ لَهُ إِلَّا أَيَّامُ انْقِرَاضِهِ
وَتَفْتِيْتِهِ ؟ يَبْدُو أَنِّي ذَكَرْتُ كَلَامَ (الشَّعْبِيِّ) فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَأَنَا أَحْفَظُهُ كُلَّهُ ،
فَفَعَلْتُ أَلْهَذَهُ " مَا أَتْرَكَ مِنْ حَرْفٍ ، وَاتَّخَذْتُهُ مُتَكَلِّمًا مَعَ نَفْسِي لَا كَلَامًا ، كُنْتُ
كَلَّمَا غَلَبَنِي الضَّعْفُ رَفَعْتُ بِهِ صَوْتِي وَأَصْغَيْتُ كَمَا أَصْنَى إِلَى إِنْسَانٍ يُكَلِّمُنِي ؛
فَرَأَيْتُ الشَّيْطَانَ بَعْدَ ذَلِكَ كَاللَّصِّ إِذَا طَمَعَ فِي رَجُلٍ ضَعِيفٍ مُتَفَرِّدٍ ، ثُمَّ لَمَّا
جَاءَهُ وَجَدَ مَعَهُ رَجُلًا ثَانِيًا قَوِيًّا فَهَرَبَ !

قَالَ أَبُو عُيَيْدٍ : وَنَالَنِي رَوْحٌ مِنَ الْأَطْمَئِنِّانِ وَجَدْتُ لَهُ السَّكِينَةَ فِي قَلْبِي
فَنَمْتُ ، فَإِذَا الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ الَّذِي لَا يَسَاءُ مِنْ سَمْعٍ بِهِ ، فَكَيْفَ الَّذِي رَأَى بِعِيْلِهِ ؟
رَأَيْتُ مَيْتًا فِي يَدِ عَاسِلِهِ يُقَلِّبُهُ وَيَنْسِلُهُ كَأَنَّهُ خِرْقَةٌ ، ثُمَّ حُمِلْتُ عَلَى النَّعْشِ ،
كَأَنَّ الْحَامِلِينَ قَدَرَمَعُونِي يَقُولُونَ : انْظُرُوا أَيُّهَا النَّاسُ كَيْفَ يَصِيرُ النَّاسُ ؟ ثُمَّ
صَلَّى عَلَى الْإِمَامِ الشَّعْبِيِّ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ ، ثُمَّ دُلِّيتُ فِي قَفَرٍ مُظْلِمَةٍ وَهَيْلٍ
الْتِرَابُ عَلَى ، وَتَرَكْتُ وَحِيدًا وَانْصَرَفُوا !

وَمَا أَدْرَى كَمْ بَقِيَتْ عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ رَأَيْتُ كَأَنَّمَا نُفِخَ فِي الصُّورِ وَبُعْثِرَتْ
الْأَمْوَاتُ جَمِيعًا ، فَطَرَبَا فِي الْعِضَاءِ ، وَكَانَتْ النُّجُومُ غِبَارًا حَوْلَنَا كَتَرَابِ
الْعَاصِفَةِ فِي الْعَاصِفَةِ ، وَإِذَا مَحْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ وَفِي هَوْلِ الْمَوْقِفِ !
وَتَوَجَّهْتُ بِكُلِّ سَعْرَةٍ فِي جَسْمِي إِلَى الرَّجَاءِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَرَأَيْتُ أَعْمَالِي

رؤية أحرقتني ، فهي كدنية عظيمة كل أهلها صعاليك إلا قليلا من المستورين ، أرى منهم الواحد بعد الواحد في الساعة بعد الساعة ، نذروا وتبعوا واضاعوا كأعمال الصالحة !

وذكرت أني كدت أقتل نفسي فراراً بها من العمر المؤلم ، فنظرت ، فإذا الزمن قد ظهر في أبدية ، ورجع الماضي حاضراً بكل ما حوى كأنه لم يمض ، وإذا عمري كله لا يكاد يبلغ طرفه عين من دهر طويل ، لحمدت الله أني لم أقدر ألم اللحظة القصيرة القصيرة ، بعذاب الأبد الخالد الخالد . وحيى على أعين الخلق بأنهم أهل الدنيا وأكثرهم لذات في تاريخ الدنيا كله ، فصاح صائح : هذا أنتم من كان على الأرض منذ خلقها الله إلى أن طواها ، ثم غمس هذا المنعم في النار غمسة خفيفة كنبضة البرق ، وأخرج إلى المحشر ، وقيل له والانس جميعاً يسمعون : هل ذقت نعيماً قط ؟ قال : لا والله ؟

ثم حيى بأنفس أهل الأرض وأشدّهم بؤساً منذ خلقت الأرض ، فغمس في الجنة غمسة أسرع من اللسيم تحرك ومر ، ثم أخرج إلى المحشر وقيل له : هل ذقت بؤساً قط ؟ قال : لا والله !

وسمعنا شقيق جهنم وهي تقور تكاد تميز من العيظ : فأيقنت أن لها نفساً خلقت من غضب الله ؛ وخرج منها عنق عظيم هائل ، لو تضربت السماء كلها ناراً لأشبهته ، فجعل يلتقط صنفاً صنفاً من الخلق ، وبدأ بالملوك الجبابرة فالتقطهم مرة واحدة كالمناعطيس لُرّاب الحديد ، وقذف بهم إلى النار ، ثم انبعث فالتقط الأغنياء المفسدين فأطارهم إليها ؛ ثم جعل يأخذ قوماً قوماً ، وقد ألبنى العرق من الفزع ، ثم طرت أمانيه ، ونظرت ، فإذا أنا محتبس في مظلة نارية كالهواية ، ليس حولي فيها إلا قاتلو أنفسهم ، ولو أن بحار الأرض

جُعِلَ فيها البحرُ فوق البحر فوق البحر ، إلى أن تجتمع كلها فيكون العمق كبعيد ما بين الأرض والسماء ، ثم تُسَجَّرُ ناراً تَلْطَفُ ، لكأنك هي الهاوية التي بحس في أعماقها ، وكنت سمعت من إمامنا الشعبي : أن عَصَاَ المؤمنين الموحدين إذا ماتوا على إيمانهم كانوا في النار أحياء وجوارحهم مَوْتَى ؛ لأن هذه الجوارح قد أطاعت الله وسبَّحته فكَرَّمَتْ بذلك حتى على جهنم ، ثم يعذبون عذاباً فيه الرحمة ، ثم يُخْرِجُونَ ويتنظرون إيمانهم على باب النار ؛ فكان إلى جانبي رجلٌ قَتَلَ نَفْسَهُ ، فسمع قائلاً من بعيد يقول للمؤمن : اخرج فإن إيمانك ينتظرك . فصاح الذي إلى جانبي : وأنا ، أفلا ينتظرن إيمانى ؟ فقيل له : وهل جئت ؟

ورأيت رجلاً دَبَّحَ نفسه يريد أن يصرخ يسأل الله الرحمة ؛ فلا يخرج الصوت من حلقه ، إذ كان قد قرأه وبقى مَقْرِيئاً ؛ وأبصرتُ آخرَ قد طعن في قلبه بمديّة ، فهو هناك تسليخُ الزانيةُ قلبه تبحث هل فيه نية صالحة ؟ فلا تزال تسليخ ولا تزال تبحث !

ورأيت آخر كان تَحَسَّى من السم فأت ظمآن يتلظى جوفه ، فلا تزال تَتَشَأَلُهُ في النار سحابة رَوِيَّةٌ تَبْرُقُ بالماء ، فإذا دَنَتْ منه ورَجَّاهَا ، انصجرت عليه بالصواعق ، ثم عادت تَتَشَأَلُ وتنفجر !

وقال رجل : إيمانك مَجْنُوناً ضعيفاً عاجزاً فأزهقت نفسي . فتودى : أو ماعلت أن الله يحاسبك على أنك عاقلٌ لا مجنونٌ ، وقوى لا ضعيف ، وقادر لا عاجز ؟ كنت تعقل بالآقل أنك ستموت ، وكنت تهوى على أن تصبر ، وكنت تقدر أن تترك الشر .

وقال رجل عالم قد حَزَّ في يده بسكين فأت : « لم يكن الكمال من الدنيا ولا في طبيعتها ولا هو شيء يدرك » ، فصرخ فيه صوت رهيب : « ولكن

من عَظَمَةِ الكَمَالِ أَنْ استمرَّ العملُ له هو إدراكه !

قال أبو عُبَيْد : ثُمَّ اتَّصَبَ يَارَأَى شَيْطَانُ مَارِذَ أَحْمَرَ ، يَلْتَمِعُ أَلْتَمَاعَ الزَّوْجِاجِ
فِيهِ الْخُرُ ، قَامَ فِي وَجْهِهِ وَقَالَ : بِمَاذَا جِئْتُ إِلَى هُنَا بِأَعْدُو الْخُرُ ؟ فَكَانَ
إِلَّا أَنْ سَمِعْتَ النَّدَاءَ شَفَعْتُ فِيكَ الْخُرُ الَّتِي لَمْ تُشْرِبْهَا ، أَخْرَجَ ، إِنْ إِيْمَانُكَ
يَنْتَظِرُكَ !

فَصَحَّتْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ! وَتَحَرَّكَ بِهَا لِسَانِي ، فَانْتَبَهْتُ .
لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْمَصَائِبِ نِعْمَةٌ كَبِيرَةٌ لَا يُنْعِمُ اللَّهُ بِهَا إِلَّا
فِي الْمَصَائِبِ !

(٥٠) وحي القبور

ذهبتُ في صُبح يوم عيد الفطر أحلُّ نفسى بنفسي إلى المقبرة ، وقد مات لي من الخواطر موتى لا مَيِّتٌ واحد ؛ فكنتُ أمشي وفي جنازة بمُشيئها : من فِكْرِ يَحْمِلُ فِكْرًا ، وخاطرٍ يَتَّبِعُ خَاطِرًا ، ومعنى يَبْكِي ومعنى يُبْكِي عليه .

وكذلك دأبى كلما احدثتُ في هذه الطريق إلى ذلك المكان الذى تأتبه العيون بدموعها ، وتمشى إليه النفوس بأحزانها ، وتجيء فيه القلوب إلى بقاياها . تلك المقابر التى لا يُنَادَى أهلها مِنْ أهلهم بالأسماء ولا باللقاب ، ولكن بهذا النداء : يا أحبابنا ، يا أحزاننا !

ذهبتُ أزورُ أمواتى الأعراء وأتصلُ منهم بأطراف نفسى ، لأحياءهم فى الموت ساعةً أَعْرِضُ فيها أمرَ الدنيا على أمرِ الآخرة ، فأُنسى وأذكر ، ثم أنظرُ وأعتبرُ ، ثم أتعرفُ ، وأتوسمُ ، ثم أَسْتَبْطِنُ مما فى بطن الأرض ، وأستظهرُ مما على ظهرها .

وجلسْتُ هناك أَشْرِفُ من دهرٍ على دهرٍ ، ومن دُنْيَا على دُنْيَا ، وأُخْرِجَتُ الذاكرةُ أَفْرَاحَهَا القَدِيمَةَ لتُجْعَلَهَا مَادَّةً جَدِيدَةً لأَحْزَانِهَا ؛ وأَفْتَحَ لِي الزَّمَنُ فَرَأَيْتُ رَجْمَةَ الأَمْسِ . وكأن دهرًا كاملاً خُلِقَ مُحَوِّدُهُ وَأَيَّامُهُ وَرُفْعُ لَعْنَتِي كَمَا تُرْفَعُ الصُّورَةُ المُلَقَّاةُ فى إطَارِهَا .

أعرفُ أنهم ماتوا ، ولكنى لم أشعر قط إلا أنهم غابوا . والحبيبُ الغائبُ لا يَتَغَيَّرُ عليه الزمانُ ولا المكانُ فى القلبِ الذى يحبه مهما تَرَأَّخَتْ بِهِ الأيامُ ،

وهذه هي بقية الروح إذا أمتزجت بالحب في روح أخرى : ترك فيها مالا يُبْحَى لأنها هي خالدة لا تُمَحَى .

ذهب الأموات ذهابهم ولم يقيموا في الدنيا ، ومعنى ذلك أنهم مروا بالدنيا ليس غير ، فهذه هي الحياة حين تعبّر عنها النفس بلسانها لا بلسان حاجتها وحرصها .

الحياة مدة عمل ، وكأن هذه الدنيا بكل ما فيها من المتناقضات إن هي إلا مَصْنَعٌ يُسَوِّغُ كلَّ إنسان جانباً منه ، ثم يقال له : هذه هي الآداة فاصنع ما شئت ، فضيلتك أورديلتك ،

جلستُ في المقبرة ، وأطرقتُ أفكرك في هذا الموت . يا عجبا للناس كيف لا يستشعرونه وهو يهدمُ من كل حى أجزاء تحيط به قبل أن يهدمه هو بجملته ؟ وما زال كل بُنْيَانٍ من الناس به ، كالحائط المُسَلَّطِ عليه خرابه ، يتأكلُ من هنا ويقتاتُ من هناك !

يا عجبا للناس عجبا لا ينهى كيف يحملون الحياة مدة نزاع وهي مدة عمل ، وكيف لا تبرحُ تنزوي النوازي هم في الخلاف والباطل ، وهم كلما نذاقوا بينهم قضية من النزاع فاضربوا خصما بخصم وردوا كيدا بكيد ، جاء حكم الموت تكذيباً قاطعاً لكل من يقول لشيء : هذا لى !

أما والله إنه ليس أعجب في السخرية بهذه الدنيا من أن يُعطى الناس ما يملكونه فيها لإنات أن أحدا منهم لا يملك منها شيئاً ، إذ يأتى الآتى إليها لهما وعظما ، ولا يرجع عنها الراجع إلا لهما وعظما ، وبينهما سفاهة العظم والعم حتى على السكّين القاطعة ...

تأتى الأيام وهي في الحقيقة تهرُ فرارها ؛ فمن جاء من عمره عشرون سنة

فإنما مضت هذه العثرون من عمره ؛ ولقد كان ينبغي أن تُصَحَّح أعمالُ الحياة في الناس على هذا الأصل السَّيِّئِ ، لولا الطَّبَاعُ المدخولةُ ، والنَفُوسُ الغافلةُ والعقولُ الضعيفةُ ، والشهوات العارمةُ ؛ فإنه مادام العمرُ مُقْبِلًا مُذْبِرًا في اعتبار واحد ، فليس للإنسان أن يتناولَ من الدنيا إلا ما يُرضيه محسوبًا له ومحسوبًا عليه في وقتٍ معا ؛ وتكونُ الحياةُ في حقيقتها ليست شيئًا إلا أن يكونَ الضميرُ الإنسانيُّ هو الحى في الحى .

وما هي هذه القبور ؟ لقد رجعتُ عند أكثر الناس مع الموقى أبية مية ؛ فاقطُ رأوها موجودةً إلا ليسوا أنها موجودة ، ولولا ذلك من أمرٍم لكان للقر معناه الحى المُتَخَلِّلُ في الحياة إلى بعيد ؛ فإ القبرُ إلا بناء قائمٌ لسكره الهاية والانتقطاع ؛ وهو في الطرف الآخر رَدُّ على البيت الذى هو بناء قائم لفكرة البدء والاستمرار ؛ وبين الطرفين المَعْبُدُ وهو بناء لسكره الضمير الذى يحيا في البيت وفى القر ، فهو على الحياة والموت كالعاضى بين خصمين يُصلح بينهما صلحا أو يقضى .

القبرُ كلُّه الصدق مبيةً متجسمةً ، فكل ماحولها يتكذب ويتأول ، وليس فيها هي معناها لا يدخله كذب ولا يعتريه تأويل ، وإذا ماتت في الأحياء كلُّه الموت من غرور أو باطل أو غفلة أو أثره ، بقى القبرُ مُذَكِّرًا بالكلمة شارحا لها بأظهر معانيها ، داعيا إلى الاعتبار بملولها ، مبيِّنًا بما ينطوى عليه أن الأمرُ كلُّه للهابة .

القبرُ كلُّه الأرض لمن يتخدعُ هيرى العمرَ الماصى كله غيرُ ماضٍ ، فيعملُ في إفراغ حياته من الحياة ^(١) بما يملؤها من رذائله وخصائسه ؛ فلا يزال

(١) أى من إنسانية الحياة .

دائماً في معاني الأرض وأستجماعها والاستمتاع بها ، يتلوه في ذلك تلو الحيوان
ويقتاس به ، فشريعته جوفه وأعضاؤه ؛ وترجع بذلك حيوانيته مع نفسه
الروحانية ، كالخمار مع الذي يملكه ويعلفه : لو سئل الخمار عن صاحبه من
هو ؟ لقال : هو حمارى ...

القبر على الأرض كلمة مكتوبة في الأرض إلى آخر الدنيا ، معناه أن
الإنسان حتى في قانون نهايته ، فلي نظر كيف ينتهى !

إذا كان الأمر كله للنهاية ، وكان الاعتبارُ بها والجزاء عليها ، فالحياة هي
الحياة على طريقة السلامة لا غيرها ؛ طريقة إكراه الحيوان الإنسانى على
ممارسة الأخلاقية الاحتمالية ، وجعلها أصلاً في طباعه ، ووزن أعماله بنتائجها
التي تنتهى بها ، إذ كانت روحانيته في النهايات لافى بداياتها .

في الحياة الدنيا يكون الإنسان ذاتاً تعمل أعمالها ؛ فإذا انتهت الحياة انقلبت
أعمال الإنسان ذاتاً يخلدُ هو فيها ؛ فهو من الخير خالدٌ في الخير ، ومن الشر هو
خالدٌ في الشر ؛ فكان الموت إن هو إلا ميلادٌ للروح من أعمالها تولد مرتين :
آتيةً وراجعة ...

وإذا كان الأمرُ للنهاية فقد وجب أن تبطل من الحياة نهايات كثيرة ،
فلا يترك الشرُّ يعمى إلى نهايته ، بل يُحسم في بدنه ويُقتل في أول أنفاسه ؛
وكذلك الشأن في كل ما لا يحسن أن يبدأ ، فإنه لا يجوز أن يمتد ؛ كالعداوة
والبغضاء ، والبخل والآثرة والكبرياء والغرور والخداع والكذب ، وما شابهك
هذه أو شابهها ؛ فإنها كلها انبعاثٌ من الوحود الحيوانية وانفجارٌ من طبيعته ؛
ويجب أن يكون لكل منها في الإرادة قرُّ كي تسلم للفسس الطيبة إنسانيتها
إلى النهاية .

يا من لهم في القبور أموات !
إن رؤية القبر زيادةً في الشعور بقيمة الحياة ، فيجب أن يكون معنى
القبر من معاني السلام العقلي في هذه الدنيا .

القبر فمٌ ينادى : أسرعوا أسرعوا ، فهي مدة لو صُرِفَتْ كلها في الخير
ما وَفَتْه ؛ فكيف يضيع منها ضياع في الشر أو الإثم ؟ لو ولد الإنسان
ومشى وأيقَعَ وشبَّ واكْتَهَلَ وَهَرِمَ في يوم واحد ، فما عساه كان يُصِيع من
هذا اليوم الواحد ؟ إن أطولَ الأعمار لا يراه صاحبه في ساعة موته إلا
أقصرَ من يوم

ينادى القبر : أصِلِّحوا عيوبكم ، وعليكم وقتٌ لإصلاحها ، فإنها إن جاءت
إلى هنا كما هي ، بقيت كما هي إلى الأبد ، وتركها الوقتُ وهرب .

هنا قبر ، وهناك قبر ، وهناك القبرُ أيضاً ؛ فليس ينظر في هذا عاقلٌ
إلا كان نظره كأنه حكمٌ محكمة على هذه الحياة كيف تنبى ، وكيف تكون ؟
في القبر معنى إلغاء الزمان ، فمن يفهم هذا استطاع أن ينتصرَ على أيامه ،
وأن يُسْقِطَ منها أوقاتَ الشر والإثم ، وأن يُبَيِّتَ في نفسه خواطرَ السوء ؛
فمن معاني القبر ينشأ للإرادة عقلها القوي الثابت ؛ وكل الأيام المكروهة
لا تجد لها مكاناً في زمن هذا العقل ، كما لا يجد الليلُ محلاً في ساعات الشمس
ثلاثة أرواح لا تصلح روح الإنسان في الأرض إلاها :
روحُ الطبيعة في جمالها ، وروح المعبد في طهارته ، وروحُ القبر في موعظته !

عروس تزف الى قبرها^(١)

- ١ -

كان عمرها طاقّة أزهارٍ تسمى أياما
كان عمرها طاقّة أزهارٍ يَنْتَشِقُ فيه اليومُ بعد اليومُ كما تَبْتُ الورقة
الناعمةُ في الزهرة إلى ورقةٍ ناعمةٍ مثلها .

أيامُ الصَّبَا المَرِحَةِ حتّى في أحزانها وهمومها ؛ إذ كان يجيئها من الزمن
الذي تُحْصَى بشباب القلبِ ، تبدو الأشياءُ في تجارى أحكامها كالمسحورة ؛
فإن كانت مُفْرِحةً جاءت حاملةً فرَحَيْنِ ، وإن كانت مُحْزَنةً جاءت بنصف الحزن .
تلك الأيامُ التي تعملُ فيها الطبيعةُ لشباب الجسمِ يَقْوَى مختلفه : منها
الشمسُ والهواءُ والحركة ، ومنها الفَرَحُ والسيانُ والأحلامُ !

* * *

وَسُبْتُ العذراءَ وأُفْرِغْتُ في قَالِبِ الأُنُوثَةِ الشمسيِّ القمريِّ ، واكتسَى
وجْهها دِياجَةً من الزَّهْرِ الفَضِّ ، وأودعتها الطبيعةُ سِرِّها الفَسَادَ الذي يحلُّ
العذراءَ أنْ جمالِ لَها منْ حياةٍ ، وجعلتها تَمَنَّا للظرفِ ؛ وما أعجَبَ سِرَّ
الطبيعةِ عند ما تُحْمَلُ العذراءُ بظرفِ كظرفِ الأطفالِ الذين ستلدُهم من بعدِ !
وَأُسَبِّتُ عليها معاني الرقة والخانِ وجمالِ النفسِ ؛ وما أكرَمَ يَدَ الطبيعةِ
عند ما تَمْتَهَرُ العذراءُ من هذه الصفاتِ مَهْرَها الإنسانِ !

(١) هي زوج ولده ساسى ، وانظر حرة وحرمها ص ٢٢٥ - ٢٢٧ .
حياة الراعى .

وخطبت العندراء لزوجها ، وعقدت له عليها في اليوم الثالث من شهر مارس في الساعة الخامسة بعد الظهر .

وماتت عذراء بعد ثلاث سنين ، وأزِلَتْ إلى قبرها في اليوم الثالث من شهر مارس في الساعة الخامسة بعد الظهر !
وكانت السنوات الثلاث تُحمرُّ قلبَ يقطعُهُ المرض ، ينتظرون به العُرس ، ويتنظر بنفسه الرمس !

ياجمائب القدر ! أذاك لحنٌ موسيقيٌّ لأنينٍ استمرَّ ثلاث سنوات ، فجاء آخره موزوناً بأوله في ضبطٍ ودقة ؟
أكانت تلك العندراء تحملُ سرّاً عظيماً سيغيّرُ الدنيا ، فردّت الدنيا عليها يومَ النهنّة والابتسام والروية ، فإذا هوم يومُ الولولة والدموع والكفن ؟

وما لك أيها الزمن آمن الذي يفهمك وأنت مُدَّة أقدار ؟
واليوم الواحدُ على الدنيا هو أيامٌ مختلفةٌ تعدد أهلَ الدنيا جميعاً . وهذا يعود لكل مخلوقٍ سرٍّ يومه ، كما أن لكل مخلوقٍ سرٍّ روحه ، وليس إليه لا هذا ولا هذا .

وفي اليوم الزمى الواحدِ أربعمائة مليون يومٍ لإنسانٍ على الأرض اومع ذلك يُحصيه عقلُ الإنسان أربعمائة وعشرين ساعة ؛ باللباقوة ١٠٠٠
وكلُّ إنسانٍ لا يتعلّق من الحياة إلا بالشعاع الذي يُضيء المكانَ المظلمَ في قلبه ، والشمسُ بما طلعت عليه لا تستطيع أن تثير القلبَ الذي لا يضيئه إلا وجهٌ محبوب .

وفي الحياة أشياء مكدومةٌ تكثُرُ الدنيا وتُصغرُ النفس ، وفي الحياة أشياء

حقيقة تُعْظَمُ بالنفس وتَصْغُرُ بالدنيا ؛ وذَهَبَ الأرض كله فقر مدقع حين تكون المعاملة مع القلب .

أيها الدنيا . هذا تحقيرك الإلهي إذا أكبرك الإنسان !

ويا عجباً لأهل السوء المغترين بحياة لا بد أن تنتهي ! فماذا يرتقبون إلا أن تنتهي ؟ حياة عجيبة غامضة ؛ وهل أعجب وأغمض من أن يكون انتهاء الإنسان إلى آخرها هو أول فكره في حقيقةها ؟

عند ما نحين الدقائق المحدودة التي لا تُرَقَمُها الساعة ولكن يرقها صدر المُحْتَضَر ... عند ما يكون مُلْكُ الملوك جميعاً كالتراب لا يشتري شيئاً ألبسته ... ماذا يكون أيها المجرم بعد ، ما تقتَرِفُ الجناية ، ويقومُ عليك الدليل ، وترى حولك الجنّة والقضاة ، وتقف أمامك الشريعة والعدل ؟

أعمالنا في الحياة هي وحدها الحياة . لا أعمارنا . ولا حظُّنا . ولا قيمة المال ، أو الحياء ، أو العافية ، أو هي معاً . إذا سُلِبَ صاحبها الأمن والفرار والأمن في الدنيا لم تكن وراه جريمة لا تزال تحرم ، رماه . والسعي في الآخرة من لم تكن له جريمة نُطَارِدُهُ وهو في السماوات !

كيف يمكن أن تصدع الآلة صاحبها وفيها (العداد) : ما تحرك من حركة إلا أشعرته قَعْدُها ؟ وكيف يمكن أن نَذِيبَ الإنسان ربه وفه القلب : ما يعمل من عمل إلا أشعره معدّه ؟

- ٣ -

ورأيت العروس قبل موتها بياض .
أرأيت أنت الغنى عند ما يُدْبِرُ عن إنسان ليترك له الحيرة والذكرى

الآلية ؟ أرايت الحقائق الجميلة تذهب عن أهلها فلا تترك لهم إلا الأحلام بها ؟ ما أتعب الإنسان حين تتحول الحياة عن جسمه إلى الإقامة في فكره ! وما هي المموم والأمراض ؟ هي القبر يستبطن صاحبها أحياناً فينفض في بعض أيامه شيئاً من تراه ... !

رايت العروس قبل موتها بأيام ، فياqq من أسرار الموت ورهبتها ! قرغ جسمها كما فرغت عندها الأشياء من معانيها ! وتخلّى هذا الجسم عن مكانه للروح تظهر لأهلها وتقف بينهم وقفة الوذاع !
وتحول الزمن إلى فكر المريضة ؛ فلم تعد تعيش في نهار وليل ، بل في فكر مضى أو فكر مظلم !

يا إلهي ! ما هذا الجسم المتهدم المقبل على الآخرة ؟ أهو تمثال تطل تعبيرة ، أم تمثال بدأ تعبيرة ؟

لقد وثقت أنه الموت ، فكان فكرها الإلهي هو الذي يتكلم ؛ وكان وجهها كوجه العابد : عليه طيف الصلاة وبورها . والروح الإنسانية متى عثرت لا تعبر إلا بالوجه .

ولها آتسامة غريبة الحال ؛ إذ هي آتسامة آلام أيقنت أنها موشكة أن تنتهي ! آتسامة روح لها مثل مرج السجين قد رأى مجانته واقعاً في يده الساعة يقرب الدفينة والساية لقول : أطلقي !

ودخلت أعريها ، برأت كأنني آت من الدنيا ... ! وتسممت مي هواء الحياة كأنني حديقة لا شخص !

ومر غير المدعى الأذنة ، بحرف ادب الدنيا كلمة ليس لها مع أدب

إلا العافية ؟ من غير المريض المُشْفَى على الموت يعيش بقلوب الناس
الذين حوله لا بقلبه ؟

تلك حالة لا تنفع فيها الشمس ولا الهواء ولا الطبيعة الجميلة ، ويقوم
مقام جميعها للمريض أهله وأحبّاءه !

وكان ذووها من رهبة القدر الداني كأهم أسرى حَرْبٍ أُجْلِسُوا تحت
جِدَارٍ يريد أن ينقضَّ ! وكانت قلوبهم من فزعها تَلْبِضُ نبضاً مثل
ضربات المعاول .

وباقتراب الحبيبِ المحتَضِرِ من المجهول ، يُصبح من يحبه في مجهول آخر ،
فتختلط عليه الحياة بالموت ، ويعود في مثل حيرةِ المجنون حين يُمسكُ بيده
الظلُّ المتحركَ لينتبه أن يذهب ! وتُعرّوه في ساعة واحدة كآبةُ عمرٍ كامل ،
تُهَيِّئُ له جلالَ الحسن الذي يشهد به جلالُ الموت !

وحانت ساعة مالا يفهم ، ساعة كل شيء ، وهي ساعة اللاشيء في العقل
الإنساني ! فالتفتت العروس لأبيها تقول : « لا تحزنْ يا أبى ... » ولأمها
تقول : « لا تحزنى يا أمى .. ! »

وتبسمت للدموع كأنها تحاول أن تكلّمها هي أيضاً ، تقول لها :
« لا تبكى ... ! » وأشفقت على أحياتها وهي تموت ، فاستجمعت روحها
ليبقى وجهها حياً من أجلهم بضغّ دقائق ! وقالت : « سأغادركم مبتسمةً
فعيشوا مبتسمين ، سأتركُ تذكاري ببيكم تذكّارَ عروس ! ... »

ثم ذكرت الله وذكّرتهم به ، وقالت : « أشهد أن لا إله إلا الله ،
وكررناها عشرًا ! وتعلّأت روحها بالكلمة التي فيها نور السماوات والأرض ،

ونطقت من حقيقة قلبها بالاسم الأعظم الذى يحمل النفس منيرة تتلألا حتى وهي في أحزانها .

ثم استقبلت خالق الرحمة في الآباء والامهات ا وفى مثل إشارة وداع من مسافر أتبع به القطار - ألفت إليهم تحية من آبتسامتها وأسلت الروح ا

- ٤ -

بالعجائب القدر ا مشينا في جنازة العروس التي تُزَفُّ إلى قبرها طاهرة كالطفلة ولم يبارك لها أحد فـا جاوزنا الدار إلا قليلاً حتى أبصرتُ على حائط في الطريق إعلاناً قديماً بالخط الكبير الذى يصبح للأعين ؛ إعلاناً قديماً عـ (رواية) هذا هو اسمها : مبروك ... ا ،

وأخترقنا المدينة وأنا أنظر وأتقصي ، فلم أرَ هذا الإعلان مرة أخرى ا وأخترقنا المدينة كلها ، فلما أقطع الممرانُ وأشرفنا على المقبرة ، إذا آخرُ حائط عليه الإعلان : « مبروك ... ا ،

موت أم^(١)

رجعتُ من الجنّازة بعد أن غيّرتُ قديمى ساعةً فى الطريق التى ترأبها ترابٌ وأشعة ، وكانت فى النعش لؤلؤةٌ آدميةٌ محطمةٌ هى زوجةُ صديق طحطختها الأمراضُ ففرّقها بين علل الموت ، وكان قلبها يُحييها فأخذ يُهلكها ، حتى إذا دنا أن يَقضى عليها رحما الله فقضى فيها قضاءه . ومن ذا الذى مات له مريضٌ بالقلب ولم يره من قلبه فى علته كالعصفورة التى تهتكُ نحت عيني ثعبان سلط عليها سمومٌ عييه ؟!

كانت المسكينةُ فى الخامسة والعشرين من سها ، أما قلبها فى الثمانين أو فوق ذلك . هى فى سن الشباب ، وهو منهزمٌ فى سن الموت .

وكانت فاضلةً تقيةً سالحةً ، لم تتعلم ولكن علّمتها التقوى والفضيلة : وأكملُ النساءِ عندى ليست هى التى ملأت عينيها من الكنب هى تنظر إلى الحياه بطراتٍ تحلُّ مشاكلَ ويخلق مشاكلَ ؛ ولكها تلك التى تنظر إلى الدنيا بعين متلاثةٍ بور الإيمان تُقرّ فى كل شئ معناه السماوى ، فتؤمن بأحزانها وأفراحها معاً ، وتأخذ ما تُعطى من يد خالقها رحمةً معروفةً أو رحمةً مجهولة . هذه عندى سُمى امرأةً ، ومعناها المعدُّ القدسى ؛ وتكون الزوجة ومعناها القوةُ السعيدةُ ؛ ونصيرُ الأمَّ ومعناها التكيّلةُ الإلهيةُ لصغارها وزوجها ونفسها .

ومهما تبلع المرأةُ من العلم فالرجلُ أعظمُ منها بأنه رجل ، ولكن المرأةُ حقّ المرأةُ هى تلك التى خلقت لكونَ للرجل مادةَ الصيلة والصدر والإيمان ، فتكون له وحياً وإلهاماً وعزاءً وقوةً ، أى زيادةً فى سروره وهيناً من آلامه .

^(١) م. روج صديداً الأ. باد حسين مخلوف ، وإ. ا. م. ٢١٢ ، ح. ا. ر. ا. م.

ولن تكون المرأة في الحياة أعظم من الرجل إلا بشيء واحد ، هو صفاتها التي تجعل رُحْلَهَا أعظم منها .

ومشييتُ من البيت الذي ألبسته الميتة معنى القبر ، إلى القبر الذي ألبسَ الميتة معنى البيت ؛ وأما منذ مشييتُ في جنازة أمي (رحمها الله) لا أسير في هذه الطريق مع الأحياء ، ولكن مع الموتى ، فأَتَع من الميتِ صديقاً ليس رجلاً ولا امرأة ، لأنه من غير هذه الدنيا ؛ وأمشي في ساعة ليست ستين دقيقة ، لأنها خرجت من الزمن ؛ ولا أرى الطريق من طرق الحياة ، لأنني في صحبة ميت ؛ وتُصبح للأرض في رأي جغرافيه أخرى عَمِي الناس عنها لشدة وضوحها ، كالألوهية خفيت من شدة ما ظهرت .

يقولون : إن ثلاثة أرامع الأرض يغمرها البحر . أما أنا فأرى في تلك الساعة أن ثلاثة أرامع الأرض لا يغمرها البحر الذي وصفوا ، ولكن خِصَمُ آحَرُ زُخَارٍ مُتَضَرِّب ، هو ذلك البحرُ الترابيُّ العظيمُ المسمى «المقبرة» .
يقولون : إن الحياة هي .. هي ماذا - ويحكم - أيها المعرورون ! أهلا ترون هذه الصلة الدائمة بين بطلي الأثم وبعطي الأرض ؟

لعمري كيف تجعلُ هذه الحياة للناس قلوباً مع قلوبهم ، فيحس المرء بقلب ، ويعمل بقلب آخر : يعتقد ضررَ الكذب ويكدب ، ويعرف معزةَ الإنم ويأثم ، ويؤقن بعاقبة الحياة ثم يحون ، ويمضي في العمر منتهياً إلى ربه ، ما في ذلك شك ، ولكنه في الطريق لا يعمل إلا عمل من قد فرَّ من ربه ... ؟
هبَّت الرِّيحُ في السَّحَرِ على روضةٍ غناءٍ قطابت لها ، فعقدت عُقْدَتَهَا أن تتخذَ لها بيتاً في ذلك المكان الطيب لتعم فيه .. بالها حكمة من التدبير !

تزعم الریحُ الإقامة على حين كل وجودها هو لحظة مرورها ، وتعلم بالقرار
في البيت وهي لا تملك بطبيعتها أن تقف !
بألها حكمة سامية لا يسكنها من المعنى إلا أضحى ما في الحق !

تمدد الحى وانطفات عيناه ، ولكنه تحرك في تاريخه مما ضيق على نفسه
أو وسع ، وأصبح ينظر بعين من عمله إما مبصرة أو كالعمياء : فلو تكلم يصف
الحياة الدنيا لقال : إن هذه النجوم على الأرض مصايح مائمه أقيم بليل ،
وما أعجب أن يجلس أهل المائمه ليضحكوا ويلعبوا !

ولو نطق الموتى لقالوا : أيها الأحياء ، إن هذا الحاضر الذى يمر فيكون
ماضيكم في الدنيا ، هو بعينه الذى يكون مستقبلكم في الآخرة ، لا تزيدون
فيه ولا تنقصون . وإن الدنيا تبدأ عنكم من الأعلى إلى الأدنى : من العظام إلى
الفقر ، ولكنها تنقلب في الآخرة فتبدأ من الفقراء إلى العظام : وأنتم
ترسمونها بخطوط المطامع والخطوط ، ورسما الله بخطوط الحرمان والمجاهدة ،
إن التأم على الأرض من تم بمتاعها ولذاتها ، ولكن التأم في السماء من تم
بنفسه وحدها .

يا أسفا ! إن يقول المبتلى للحى شيئا ، ومن يدري ؟ لعلنا ونحن نأجُد
للموتى ونزلمهم في قبورهم ، يرون بأرواحهم الخالدة أننا نحن موتاهم المساكين ،
وأنا مدفونون في القبر الذى يسمونه « الكرة الأرضية » ، وهل الكرة
الأرضية من اللانهاية إلا خفرة برجل ملة لندف في ملة ... ؟
الحياة ... أتريد أن تعرفها على حقيقتها ؟ هي المبهمات الكثيرة التى ليس
لها فى الآخر إلا تفسير واحد : حلال أو حرام .

ورجعنا مع الصديق إلى بيته ، وله خمسة أطفال صغار لو أنهم هم الذين
أَنْزَعُوا من أمهم لترك كل واحد على قلبها مثل المِكْرَاةِ المحمي عليها في النار
إلى أن تحترق ؛ ولكن أمهم هي التي نُزِعَتْ منهم ، فكان بقاؤهم في الحياة
تخفيفاً لسكرة الموت عليها . وعَشِيَّتُهَا العَشِيَّةُ فانت وهي تضحك ، إذ ترام
نائمين تحت جناح الرحمة الإلهية الممدود ، وقالت : إنها تسمع أحلامهم .
وكانوا هم عقلاً في ساعة الموت !

تبارك الذي جعل في قلب الأم دنيا من خلقه هو ، ودنيا من خلق أولادها !
تبارك الذي أتاب الأم ثواباً ما تُعاني ، لجعل فرحها صورة كبيرة من
فرح صغارها !

* * *

وحاء أكبر الأطفال الخمسة ، وكأه ثمانية أرواح من الحياة لثمانية أعوام
من العمر : جاء إلينا كما يحى الفرع لقلوب مطمئة ، إذ كان في عياله
الباكيتين معنى فقد الأم !

وطغى عليه الدموع فتناول منديلَه ومسحها بيده الصغيرة ؛ ولكن روحه
اليَتِيْمَةُ تأتي إلا أن ترسم هذه الدموع على وجهه معاني يُثَمُّها !
وظهر الانكسار في وجهه يعبرُ بِلَاغَةٍ أنه قد أحس حقيقة ضعفه
وطفولته بإزاء المصيبة التي نزلت به ، وجلس مستسلياً ترجم هيئته معاني
هذه الكلمة : « رفقاً بي ! »

تم تطير من عياله نظرات في الهواء ، كأنما يحس أنه أمه حوله في الجو
ولكنه لا يراها !

ثم يُرْخِي عليه في إغماضة خفيفة ، كأنما يرجو أن يرى أمه في طَوِيَّتِهِ !
ولا يَصْدُقُ أنها ماتت ، فإن صوتها حتى في أذنيه لا يزال يسمعه من أسس !

ثم يعود إلى وجهه الانكسار والاستسلام ، ويتملئ في مجلسه فينطقُ
جسمه كله بهذه الكلمة : يا أمى !

أحس - ولا ريب - أنه قد ضاع في الوجود ، لأن الوجود كان أمه .
ولس خسرة الدنيا منذ الساعة ، بعد أن فقد الصدر الذى فيه وحده
لين الحياة لأن فيه قلب أمه وروحها .

وشعر بالذل ينساب إلى قلبه الصغير ، لأن تلك التى كان يملك فيها حق
الرحمة قد أخذت منه وتركته بلا حق في أحد ؛ وليس لأحد أمان !
وليسته المسكنة ، لأن له شيئاً عزيزاً أصبح وراء الزمان لمن يصل إليه !
وليسته المسكنة ، لأنه صار وحده في المكان كما هو وحده في الزمان !
وآرتسم على وجهه التعجب ، كأنه يسأل نفسه : « إذا لم تكن أمى هنا ،
فماذا أنا هنا ؟ »

ثم تفرغرت عيناه ، فبحرجٍ مديله ويمسح دمعته بيده الصغيرة . ولكن
روحه البتيمة تأبى إلا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معاني بُذمتها !

ونفض الصغير ولم ينطق بذات شفة ، هض يحمل روحاً إلى ما أت
منذ الساعة !

أتمت - أيها الطفل المسكين - أمانك من الآم ، هذه الامام السودة
التي كنت تعرف أنها قبل أن يأتى معرفتك أمس الذى مضى ، إديان
الغد ومعك أملك !

وبدأت - أيها الطفل المسكين - أيامك من الزمن ، و... أى كل ساعة تبدأ
مرهوباً : إذ يأتى لك وحدك ، ويأتى وأنت وحدك !
الأم . ؟ يا إلهى ، أى صغير على الأرض يخذلها ؟ من الروح إلا فى الأم ؟

٢٠٠ قصة أب (*)

حدثني المسكينُ فيما حَدَّثَ وهو يصف ما نزل به ، قال :
رأيتُ الناسَ قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً فقساً بالولَدِ في آثارهم ،
ومدَّ بالسل في وجودهم ، وزاد منه في أرواحهم أرواحاً ، وضمَّ به إلى
قلوبهم قلوباً ، وملا أعيُنهم من ذلك بما تقرُّ به ، قُرَّة عينٍ كانت لم تجد ثم
وَجَدَتْ ؛ هم هؤلاء الاطفالُ يملكون القوةَ التي تُرْجِعُهُم أطفالاً مثلهم
في كل ما يسرُّهم ، فيكبرُ العَرَحُ في أنفسهم وإن كان في ذات نفسه ضئيلاً
صغيراً ، ويعظمُ الأملُ في أشياءهم وإن كان هو عن شيءٍ خفيٍّ لا يُؤْبَهُ له .
وتلك حقيقةٌ من حقائق السعادة لا أَسْمِي ولا أَهْطَمُ منها إلا الحقيقة
الآخري : وهي القوةُ التي يتحوَّلُ بها الكونُ في قلب الوالدين إلى كنزٍ من
الحب والرحمة وجمالِ العاطفة ، بسخرٍ من ابتسامِ طفلٍ أو طفلة ، أو بكلمةٍ
منهما أو حركة ، محلي حين لا يتحوَّلُ مثلُ ذلك ولا قريباً منه بمال الدنيا
ولا يملك الدنيا .

رأيتُ الناسَ قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً ، ولكنه ابتلائي بأن
أكون أنا ، وأخرج لي من أراح قلبي أحزانَ قلبي أولد كنت كرجلٍ ملك
داراً يستمتع بها ، فتبي أن يُشرَعَ^(١) في جانبِها غرفة يَخرِفُها ، فلما
نم له ذلك وبلغ المقترَح . اهتدت الدارُ وبقيت الغرفة قائمةً
تَمَرِّكُ الله ، أشعرُ هذا الرجلُ في نكبتِه بالغرفة أم بالدار ؟ وهل تراه زاد

(١) هو الصديق الأديب عبداً عمار ، وانظر ص ٢٣٩-٢٤٠ «حياة الراقعي»

(٢) أي يهتج غرفه إلى السارح

أو نقص؟ وباليتهما بيتٌ وغرفةٌ من بيت : فإن الحجارة تحيا بالبناء إذا ماتت بالهدم ، ولكن من ذا يحيي الزوجة ماتت بعد أن وضعت بكرها الأول والآخرا إنها طفلةٌ ولدتُ وكأما أُخرجتُ من تحت الرديم ، إذ ولدت تحت ماض من الحياة منهدم ، وهل فرق بين هذا وبين أن تكون أمها قد ولدتها في الصحراء ثم أكرهت أن تدعها وحدها في ذلك القفر تصرخُ وتبكي أفا المسكينة على الحالين منقطعةٌ أول ما انقطعت من حنانِ الأم ورحمتها .

طفلةٌ ولدت صارخةً ، لا صرخةَ الحياة ، ولكن صرخةَ النوح والندب على أمها !

صرخةٌ حزينةٌ معناها : ضعوني مع أمي ولو في القبر !
صرخةٌ ترتعدُ ، كأن المسكينة شمرت أن الدنيا خاليةٌ من الصدر الذي يُدقها !

صرخةٌ تردد في ضراعةٍ ، كأنها جملةٌ مركبةٌ من هذه الكلمات : « يارب ارحمني من حياة بلا أم » .

قال المسكين وهو يبكي امرأته :

ولما ضربها الخاض ، ضاعفت قوتها من شعورها أنها ستكون بعد قليل مضاعفةً بمولودها ، وستكون روحين لارواحاً واحدة ، وتلد لي الحياة والحب الإلهي معاً ، وتأتي لقلبي بمنزل طفولته الأولى التي يستحيل أن تأتي الرجل إلا من زوجه . كل ذلك ضاعف قواها ساعةً وشدّها بها ؛ ولكن ما أسرع ما تبينت أنه الموت ، إذ عضلتُ وعسّر خروج مولودها .

وجامها الجراحى بمبضعه ، وكأنها رأت ذابحاً لا طبيباً ، فجعلت تعثر بعينها ، إذ لم تملك في آلامها القاتلة غير هاتين العينين .

كانت بنظرة تبتكي على وعلى يؤسى ، وبأخرى تبتكي على يؤس مولودها
وشقائه ؛ وبنظرة تودّعنى ، وبأخرى تدعو الله لى جزاء ما أحسنتُ إليها ؛
وبنظرة تتوحّح لنفسها ، وبأخرى تتألم من أنها ترانى أكادأجن .
نظرات نظرات ...

يا الهى ! لقد خيل لى أن ملك الموت واقف بين عشرين مرآةً تحيط
به ، فأنا أراه موتاً متعدداً لا موتاً واحداً ، وكل نظرة من عيني زوجتى لى
كانت منها هى نظرة ، وكانت عندى أنا مرآة الروح للروح .
ولاكنها لم تلس أنها تموت لوضع مولودها ، وأن هذه الآلام الدموية
الذابحة هى الوسيلة لأن تترك لى بقية حياة منها ؛ فيا للرحمة والحنان والحب !
لقد أبنتمت لى وهى تموت ؛ وهى تلد ، وهى تدبح !

ليست رحمة المرأة المحبة خيالاً إلا إذا كانت حرارة الشمس التى نحيى
الدنيا خيالاً أيضاً ؛ إن هذا القلب النسوى المستقر فوق أحشاء تحمل الجنين
صابرة راضية فرحة بالآلامها ، وتغذوه وتقاسمه حياة نفسها . هذا القلب
يحمل الحب أيضاً صابراً راضياً فرحاً بالآلامه ، ويغذوه ويقاسمه حياة نفسه .
والرحمة الإلهية أدلة كثيرة تدل الإنسان عليها دلالات مختلفة ؛ فالشمس
تدل عليها بالضوء الذى تَطْعُمُه الحياة ، والهواء يدل عليها بالضوء الذى
تننفسه الحياة ، والماء يدل عليها بالضوء الذى تشربه الحياة ، وهكذا إلى أن
يأتى فى الآخر قلب المرأة فيدل على رحمة الله بالحب الذى تقوم به الحياة .
آتسامة الحب غالبت زفات الموت التى تَعْلُجُ من تحتها حتى غلبتها ،
وأعادت الحياة لحظة إلى وجه زوجتى لأراها آخر ما أراها فى صورة المحبة
لى ، فكان كل جمال نفسها منتشراً على ذلك الوجه ، وظهرت فيه روحها وعواطفها ،

تودعني وداعاً حزيناً متبسماً يتكلم ؛ يتكلم بعجزه عن الكلام .
 أتسامة لا ريب أن فيها أشياء ليست من جمال هذه الدنيا ولا من حقائقها ؛
 فكأنما التمت بأشعة من الخلد ترف رفيفها على وجه الحبيب ليظهر ساعة
 الموت أن حبه أقوى من الموت

* * *

قال المسكين : ونثر الطبيب ذا بطنها فكانت طفلة ، وما كانت زوجتي
 تقترح أن يكون الحنين غيرها ، بل كانت مستيقنة أنها تضعها أنثى ، وصنعت
 لها ثيابها ووشتها زينة الاوثة ، وعرضت أسماء البنات فاخترت اسمها
 أيضاً ، وكنت أكره ذلك منها وأريدُ ولداً لايتك ، فكانت تُعاطي بعملها
 وإصرارها غيظ دُعابة لا عيظ حياء .

ومضت لا تذكر إلا بنتها مدة الحمل ، ولا تتكلم إلا عن بنتها ، وقد
 كنت أعجب لذلك ، فلما قضى الله فيها قضاءه ، علمت أن ذلك أمرٌ من أمر
 الروح ، فكان الإلهام فيها أنها على باب قهرها ، وأنها لن ترى طفلتها ، ولن
 تعيش لها ، فعاشت أيام الحمل مع ذكراها : تضم ثيابها إلى صدرها ،
 وتحملها على يدها ، وتناغي وتقلها ، وتأخذها من الوهم وتردّها إليه ؛
 وكذلك نعيمَت المسكينة المسكينة !

لك الله يا معجزة الرحمة ، يا نفس الأم !

* * *

ولما قيل : ماتت . جعل يكلمني المتكلم ولا أعقل ؛ فإن الكلمة التي
 تأتي بالمصيبة المتوقعة طال آرتقائها ، لا تأتي بممان لغوية كغيرها من الكلام ،
 بل بأسلحة تضرب في النفس وفي العقل ، وتُخننها جراحاً وقتكاً .
 وجعلني موتها كأن ميت يحمل نفسه ، ما حوله إلا المشيعون ؛ وأحسست

كَانَ قُوَّةٌ أَخَذْتُ بِأَحَدِي رَجُلِي فَوَضَعْتُهَا فِي الْآخِرَةِ وَزَكَتِ الثَّانِيَةَ فِي الدُّنْيَا،
وَلَحِقَنِي مِنَ الْجَزَعِ مَا أَفْلَحَ عَالَمٌ بِهِ وَوَحِدْتُ أَحْرَقَ الْوَجْدَ ، وَبَكَيْتُ أَحْزَى الْبُكَاءِ ؛
وَجَعَلْتُ أَفْكَارِي تَنْحِدِرُ مِنْ رَأْسِي إِلَى حَاقِي فَأَخْتَنُقُ بِهَا ثُمَّ لَا يُنْفَسُ عَنِّي
إِلَّا الدَّمْعُ ، كَأَنَّ أَعْضَانِي اخْتَأَتْ مِمَّا ضَغَطُوا مِنَ الْحُزَنِ ، فَأَنَا أَتَنَفَسُ بِرَيْثِي وَعَيْنِي .
بِمَوْتِهَا شَعَرْتُ بِهَا ؛ وَلَعَلَّهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ بِلَذَّةِ الْحُبِّ
كَامِلَةً إِلَّا فِي آلَامِ الْحُبِّ وَحْدَهَا ، وَكَانَتْ فِي حَيَاتِهَا تَصْعَقُ مِنْ رُوحِهَا فِي
سُرُورِي ، وَهَذَا هُوَ سِرُّ الْمَرْأَةِ الْمَحْبُوبَةِ : يَحْدُثُهَا فِي كُلِّ سُرُورٍ لِحَاثِ رُوحَانِيَّةٍ ؛
وَكَذَلِكَ فَعَلْتُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَجَعَلْتُ رُوحَهَا فِي أَحْزَايَ ؛ وَلَوْلَا أَنَّ رُوحَهَا فِي
أَحْزَايَ لَقَتَلَنِي الْمَصِيبَةُ .

وَكُنْتُ أَذْلِفُ وَرَاءَ النَّعِيشِ وَقَدْ بَطَلَتْ فِي نَفْسِي الشُّعُورُ بِالدُّنْيَا ، وَكَانَ النَّاسُ
يَمْشُونَ حَوْلِي بِمَا فِيهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَكَانُوا ذَاهِبِينَ إِلَى الْمَقَرَّةِ عَلَى أَنَّهُمْ سَائِرُونَ
كَأَنَّهُمْ يَذْهَبُونَ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ ؛ أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَمْشِي بِمَا فِيَّ مِنَ الْحُبِّ مُنْكَسِرَةً
مَنْخَذِلًا مَتَضَعِّعَةً ، لِأَنِّي وَحْدِي سَائِرٌ وَرَاءَ مَا لَا يُلْحَقُ .

وَقُلْتُ النَّاسُ عَلَى قُلُوبِي ، وَرَجَعْتُ كُلَّ أَمْرِهِمْ عِنْدِي إِلَى الْقَيْبِ وَالْقَيْصَةِ ؛
إِذَا كَانَ لِي عَقْلٌ طَارَى مِنْ الْحَالَةِ الَّتِي أَنَا فِيهَا لَيْسَ لَهُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ ؛ وَكُنْتُ
وَحْدِي الْمَصَابِ بَيْنَهُمْ ، فَكُنْتُ وَحْدِي بَيْنَهُمُ الْعَاقِلُ .

أَمَّا أَمْشِي لِأَنْتَهَى إِلَى آخِرِ مَصِيبَتِي ، وَهُمْ يَمْشُونَ لِيَنْتَهَوْا إِلَى آخِرِ الطَّرِيقِ ؛
وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ وَشَتَّانَ !

وَلَمَّا رَأَيْتُ قَرَامًا ابْتَدَرْتُ عَيْنَايَ تَنْظُرًا بِالْأَبْصَارِ ، وَرَأَيْتُ
الْزَّبَابَ كَأَنَّهُ غَيُومٌ مُلَوَّنَةٌ بِالْوَانِ السَّحْبِ الدَّاكَةِ تَنْهَى فِي مِمَاتِهَا تَحْتَ الظَّلَامِ
لَتُخْفِي كَوْكَبًا مِنَ الْكَوَاكِبِ ؛ وَظَهَرَ لِي الْقَبْرُ كَأَنَّهُ قَمٌّ الْأَرْضِ بِحَاطِبُ
(١٢ دس ١٢)

الإنسان بحزيم حارم ، بخاطبُ الفقير والغني ، والضعيف والقوي ، والملوك والصالحين : « أن كل قوة تُزَع هنا » .

قال المسكين : وكما يحذ الإنسان في أيام المطر رائحة السيم مبتل بالماء ، كنتُ أُسْتَرَوْجُ في رَجْعتي إلى الدار رائحة نسيم مبتل بالدسوع ؛ وحضرتُ الماتم وعزاني الناس ، فكنت فيهم كالماصور بينهم : لا أتمنى إلا أن يدعوني فأنجوا على وجهي ، ولا أرى إلا أنهم يحرقوني الوجود غصصاً كما تجرعتُ الفقد غصة غصة ؛ إلى أن تقزقوامع سواد الليل ، فانكفأتُ إلى الدار ، فإذا كل شيء قد تغير ولمسه الموتُ لَمْسَةً ، وإذا الدار نفسها كالعين المقروحة من آثار البكاء : ماتم شيء إلا لي طالعتني بأن مسراتي قد ماتت !
ولاح الصبحُ لعيني الساهرتين صبها فاتراً تبيلت فيه الخجل كأنه يقول
« لم أطلع لك .. » ، فانسلتُ من البيت ، وذهبتُ أمشي في دنيا هي الكأبة
المضيتة تحترق الأقدارُ منها يظهارها في هذا الصوء مظهر وجه المحور المتصاية
في زينة لا تزيد لها إلا قبها !

ومضيتُ على وجهي لا غاية لي ، أضربُ في كل جهه كأنما أريد أن أهرب
من نفسي ! وما خطر لي قط أني في يوم جديد ، بل كنتُ عند نفسي لا أزال
في أمس ، وتغيرُ عندى الزمانُ والمكان : فأحدهما ساعه موت لا تترك ما فيها
والآخر قبر مية لا يرد ما فيه .

آه من الوقت الذي ينتهى فيه الموحود ليعذبنا بالدكر أنه كان موحودا

قال المسكين : ثم أعادتني قدماي إلى البيت لأرى طعني - وما كنت رأيتها

ولقد كانت ولادتها أولَ الحياة لها ، وأولَ الحياة لي أيضاً ؛ إذ لولاها
لا تحرتُ غيرَ شك .

يا ويلي ! لم تلتق عيني بعينِ الطفلة حتى انفجرتُ تبكي ! أتبكين لي
يا أبتى أم على ؟

أهذا بكاؤك أيتها المسكينة ، أم هو صوتُ قلبك اليتيم ؟
أصوتك أنت ، أم هي روحُ أمك تصرخُ ترقى لي ، وتتوجعُ لفريط
ما قاسيت ؟

يا أبتى ، إنما أنتِ الحقيقةُ الصغيرةُ التي خرجتُ لي من كل تلك الحيات
الشعرية الجميلة ، حياتِ الأيام السعيدة التي مرّت !
يُخلَقُ المواليدُ من اللحم والدم ، وأراكِ أنتِ يا مسكينة خلقتِ من اللحم
والدم والدموع !

بقيةُ حياةٍ ماتت ! فهل معنى ذلك إلا أنكِ بقيةُ موتٍ يحيا ؟
مسكينة ! مسكينة ! لو أن نواميسَ العالم متغيرةٌ لشيءٍ لتغيرتِ من أجل
بؤسكِ فردّت لك الأم ؛ ولكنها لن تتغير ، وما بكاؤنا وآلامنا وتعاسُننا
إلا تُراثُ الحياة في أجسامنا الأرضية ، كلُّ ذلك طبيعة ، ولكن بقعةً أنظفُ
من بقعة ، وأراكِ يا أبتى كالبيتِ الذي هُدمَ أولَ ما بُني يملؤه تراثُه !
لن تتغيرَ النواميس ، فلن تجدى عطفَ الأم ، ولكن لن يتغيرَ قلبي
أيضاً ، فلن تحرمي عطفَ الأب .

وإذا صبرَ الناسُ على الحياة فن أجلكِ يا مسكينة ! من أجل ضعفِكَ
وأنفطاعِكَ سأعاني الصبرَ لك ، وأعاني الصبرَ لي ، وأعاني الصبرَ عن أمك ،
سأصبرُ على الصبرِ نفسه !

يا أبتى ، يا أبتى ، لماذا وضعتكِ الأقدارُ من هذه الحياة في الناحية التي

ليس فيها إلا قبرٌ مظلمٌ مقفلٌ على أملكِ ، وأبٌ مسكينٌ مقفلٌ على آلامه ؟

قال المسكين : وهكذا كُنْتُ من أهل البؤس والهم ، فلم أتزوج
إلا لتصنع لي حبيبتى دموعي ، ثم لم تمت إلا بعد أن تركت لي حبيبةً أخرى
ستظل زمناً طويلاً تصنع لي دموعي !

السمة

جَدَّث أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ الْبَغْدَادِيُّ قَالَ : حَصَلَتْ فِي مَدِينَةِ (بَلْخ) ^(١)
سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَعَالِمُهَا يَوْمَئِذٍ شَيْخُ خُرَاسَانَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الزَّاهِدُ
صَاحِبُ الْمَوَاعِظِ وَالْحِكَمِ ؛ وَهُوَ رَجُلٌ قَلْبُهُ مِنْ وَرَاءَ لِسَانِهِ ، وَنَفْسُهُ مِنْ
وَرَاءَ قَلْبِهِ ، وَالْمَلِكُ الْأَعْلَى مِنْ وَرَاءَ نَفْسِهِ ، كَأَنَّهُ يَلْقَى عَلَيْهِ فِيمَا زَعَمُوا .
وكَانَ يُقَالُ لَهُ عِنْدَهُمْ : (لَقَدْ هَذِهِ الْأُمَّةُ) ؛ لِأَنَّهُ يُعْجِبُهُمْ مِنْ حِكْمِهِ فِي
الزَّهْدِ وَالْمَوْعِظَةِ ، وَهِيَ حَضَرَتْ بِجَالِسِهِ وَحَفِظَتْ مِنْ كَلَامِهِ شَيْئاً كَثِيراً ،
كَقَوْلِهِ : مَنْ دَخَلَ فِي مَذْهَبِنَا هَذَا (يَعْنِي الطَّرِيقَ) فَلْيَجْعَلْ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ
خِصَالٍ مِنَ الْمَوْتِ : مَوْتُ أَيْصٍ ، وَمَوْتُ أَسْوَدٍ ، وَمَوْتُ أَحْمَرٍ ، وَمَوْتُ
أَخْضَرٍ ؛ فَالْمَوْتُ الْأَيْصُ الْجُوعُ ، وَالْمَوْتُ الْأَسْوَدُ أَحْتِمَالُ الْأَذَى ، وَالْمَوْتُ
الْأَحْمَرُ مَخَالَفَةُ النَّفْسِ ، وَالْمَوْتُ الْأَخْضَرُ طَرَحُ الرِّقَاعِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ
(يَعْنِي لِبْسَ الْمَرْقَةِ وَالْحَلَقِ مِنَ الشَّيْءِ) .

(١) هُوَ حَاتِمُ بْنُ يُونُسَ حَرَّاسَانَ وَوَعَاظَهَا تَوَفَّى سَنَةَ ٢٣٧ لِلْهَجْرَةِ .

وقلت يوماً لصاحبه وتلميذه (أبي تراب). وجازيت في تأويل هذا الكلام :
قد فهمنا وجه التسمية في الموت الأخضر ما دامت المرقمة خضراء ؛ فما الوجه
في الأبيض والأسود والأحمر ؟ جاء بقول لم أره ، وليس معه دليل ، ثم قال :
فما عندك أنت ؟ قلت : أما الجوع فيميت النفس عن شهواتها ، ويتركها
بيضاء نقية ، فذلك الموت الأبيض ؛ وأما احتال الأذى فهو احتال سواد
الوجه عند الناس ، فهو الموت الأسود ؛ وأما مخالفة النفس فهي كإضرار
البار فيها فذلك الموت الأحمر .

قال أحمد بن مسكين : وكنت ذات نهار في مسجد (بلغ) ، والناس
متواهبون ينتظرون (لهما الأمة) لسمعوه ، وشغل بعض الأمر فرائ
عليهم ، فقالوا : من يعظنا إلى أن يحىء الشيخ ؟ فالتفت إلى أبو تراب وقال :
أنت رأيت الإمام أحمد بن حنبل ، ورأيت بشراً الحاقى وفلاناً وفلاناً ،
فقم لحديث الناس عنهم ؛ فإما هؤلاء وأمثالهم هم بقايا النبوة . ثم أخذ يدي
إلى الأسطوانة التي يحلّس إليها إمام خراسان فأجلسي تمة وقعد بين يدي .
وتناولت الاعتناق ، ورماني الناس بأصابعهم ، وقالوا : البغدادى !
البغدادى ! وكأنما صوّغت عندهم مجلسي مرة ويلينقي مرة أخرى ، فقلت
في نفسي : والله ما في الموت الأحمر ولا الأخضر ولا الأسود موعظة !
ولو ليس عزرائيل قوس قزح لافسد شعر هذه الألوان معناه ، وإما يجب
أن يكون كما يجب أن يكون ؛ ولا موعظة في كلام لم يمتلئ من نفس
قائله ، ليكون عملاً فيتحول في النفوس الأخرى عملاً ولا يبقى كلاماً ؛
وإنه ليس الوعظ تأليف القول للسامع يسمعه ، لكنه تأليف النفس لنفس
أخرى تراها في كلامها ، فيكون هذا الكلام كأنه قرابة بين النفسين ، حتى
لأن الدم المنجاذب يجري فيه ويدور في ألباطه .

وكنْتُ رأيتُ رؤيا (يلبخ) تتصل بقصة قديمة في بغداد ، فقصصتها عليهم ، فكانت القصة كما حكيتها : أني امتحنتُ بالفقر في سنة تسع عشرة ومائتين ؛ وانحسستُ مادي وقطعتُ مذي قحطاً شديداً جمع على الحاجة والضُرَّ والمسكنة ؛ فلو انكشيت الصحراء المجدبة فصغرت ثم صغرت حتى ترجع أذرعاً في أذرع ، لكنت هي داري يومئذ في محلة باب البصرة من بغداد . وحام يومٌ صحراوي كأنما طلعت شمسُه من بين الرمل لا من بين الشَّجْب ، ومَرَّت الشمسُ على داري في بغداد مرورها على الورقة الجافة المعلقة في الشجرة الخضراء ؛ فلم يكن عندي شيء يُسيفُهُ حَلْقُ آدمي ، إذ لم يكن في الدار إلا ترابها وحجارتها وأجنداءها ، ولى امرأة ولى منها طفلٌ صغير ، وقد طَوَّينا على جوعٍ يخفِّف بالجوف خسفاً كما تهبط الأرض ؛ فلَمَسْنِيْتُ حينئذ لو كنا جُرْذَاناً فنَقَرِضَ الخشب ، وكان جوعُ الصبي يزيدُ المرأةُ ألماً إلى حرعها ، وكنْتُ هما كالجائع بثلاثة بطونٍ غاوية .

فقلت في نفسي : إذا لم تأكل الخشبَ والحجارة فلأأكلُ بشمها ، وجمعتُ نيتي على بيع الدار والتحولِ عنها ، وإن كان خروجي مما كالتحروج من جِلْدِي : لا يسئني إلا سلاحاً وموياً ؛ وبِت ليلتي وأنا كالمُتَخَيِّمِ حِلٍّ من معركة ؛ فما يتقلبُ إلا على جراحٍ تعملُ فيه عملَ السيوف والأسنة إلى عملتُ فيها . ثم خرجتُ بنفسي لصلاة الصبح ، والمسجدُ يكون في الأرض ولكن السماء تكون فيه ، فرأيتُ عند نفسي كأنني خرجتُ من الأرض ساعة . ولما قضيت الصلاة رجع الناسُ أكرمهم يدعون الله تعالى ، وجرى لساني بهذا الدعاء : « اللهم بك أعوذ أن يكون فقري في ديني ، أسألك النفع الذي يُعَلِّمُنِي بطاعتك ، وأسألك ركة الرضى بقضائك ، وأسألك القوة على الطاعة والرضا يا أرحم الراحمين » .

ثم جلستُ أنأملُ شأني، وأطلتُ الجلوسَ في المسجدَ كأنِّي لم أعُدْ من أهل الزمر فلا تجرى عليَّ أحكامه، حتى إذا ارتفعَ الضحى وأبيضت الشمسُ جاءت حقيقةُ الحياة، فخرجتُ أتسبَّبُ لبيع الدار؛ وأنبعتُ وما أدري أين أذهب، فما سرتَ غيرَ بعيدٍ حتى لقيني (أبونصر الصياد)، وكنتُ أعرفه قديماً، فقلت: يا أبا نصر! أنا على بيع الدار؛ فقد ساءت الحالُ وأخوَجَتِ الخصاصةُ؛ فأقرضني شيئاً يُمسِكُنِي على يومى هذا بالِقِوام من العيش حتى أبيع الدار وأوفيك. فقال: يا سيدي! اخذ هذا المنديلَ إلى عيالك، وأنا على أثرك لا يحقُّ بك إلى المنزل. ثم ناولني مندبلاً فيه رقاقتان بيهما حلوى، وقال: إنهما والله بركة الشيخ.

قلت: مَنْ الشيخ وما القصة؟

قال: وقعتُ أمس على باب هذا المسجد وقد أنصرف الناس من صلاة الجمعة، فمرَّ بي أبونصر بِشَرِّ الخافى^(١) فقال: مالى أراك في هذا الوقت؟ قلت: مافى البيت دقيقٌ ولا حبز ولا درهم ولا شيء يباع. فقال: الله المستعان: أحمل شكتك وتعال إلى الخندق. فحملتها ودعبتُ معه، فلما أتينا إلى الخندق قال لي: توصاً وصل ركعتين ففعلت، فقال: سَمَّ الله تعالى وألني الشبكة فسميتُ وألقيتها، فوقع بها شيء فعبثتُ، فجعلتُ أجره فشقَّ عليَّ؛ فقلت له: ساعدني فإن أخاف أن تنقطع الشبكة فجاء وحرَّها معي، فخرجتُ سمكة عظيمة لم أركلها مِنْتناً وعظماً وفراخه؛ فقال: خذها وبعها واشترِ بثمنها ما يصلح عيالك فاستقبلني رجل اشتراها، فابتعتُ لأهلي ما يحتاجون إليه، فلما أكلتُ وأكلوا ذكرتُ للشيخ فقلت: أهدى له شيئاً! فأخذتُ هاتين

(١) هو الزاهد العظيم بشر الحارت المعروف بالخافى، توفي سنة ٣٢٧ الهجرة، وكان واحداً الدنيا في ورعه وتقواه، وقيل له (الخافى) لأنه كان في حديثه يمشي إلى طلب العلم حافياً، لإجلال الحبيب النبي صلى الله عليه وسلم.

الرفاقتين وجمعت بينهما هذه الحلوى ، وأتيت إليه فطرقت الباب ، فقال : من ؟ قلت : أبونصر اقال : أفتح وضع مامعك في الدهليز وادخل . فدخلت وحدته مما صنعت : فقال : الحمد لله على ذلك . قلت : إني هيات للبيت شيئاً وقد أكلوا وأكلتُ ومعى رفاقتان فهما حلوى .

قال : يا أبا نصر ! لو أطلعنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة ! اذهب كله أنت وعيالک .

* * *

قال أحمد بن مسكين : وكنت من الجوع بحيث لو أصبت رغيفاً لحسبته مائدة أنزلت من السماء ، ولكن كلمة الشيخ عن السمكة أشبعني بمعانيها شبعاً ليس من هذه الدنيا ، كما طعمت منها ثمرة من ثمار الجنة ، وطفقت أرددها لنفسي وأتأمل ما تفنق الشهوات عن الناس ، فأيقنت أن البلاء إنما يصيبنا من أننا نفسر الدنيا على طولها وعرضها بكلمات معدودة ، فإذا استقر في أنفسنا لفظ من ألفاظ هذه الشهوات ، استقرت به في النفس كل معاني المعاصي والدنوب ، وأخذت شياطين هذه المعاني تحوم على قلوبنا ، فنصح مهتئين لهذه الشياطين ، عاملين لها سم عاملين معها ، فمدخلنا مداخل السوء في هذه الحياة ، وتفجئنا في الورطة بعد الورطة ، وفي الهاكة بعد الهاكة . وما هذه الشياطين إلا كالدياب والبعوض والهوام ، لا تحوم إلا على راحة تحبها ، فإن لم تجد في النفس ما تنمغ عليه ، تفرقت ولم تنمغ : وإذا ألست الواحدة منها بعد الواحدة لم تثبت . لو أننا طردنا من أنفسنا الكلمات التي أهدت علينا رؤية الدنيا كما خافت ، لكان للدنيا في أنفسنا شكل آخر أحسن وأجمل من شكلها ، ولكتاب لا أعمال أخرى أحسن وأظهر من أعمالنا .

والشيخ لم يذكر في هذه المسألة ، لكلمة (اللائد) ، وبطرده من نفسه هذا

اللفظ الواحد ، طَرَدَ معاني الشرِّ كلها ، وَصَلَحَ له دينه ، وَحَلَصَتْ نَفْسُهُ للخير ومعاني الخير ، ولو أن رجلاً وَضَعَ في نفسه امرأةً يَعِشُهَا ، لصارت الدنيا كلها في نفسه كَالْمَخْدَعِ : ما فيه إلا المرأة وحدها بأسبابها إليه وأسبابه إليها ..

وقد كُنْتُ سَمِعْتُ في درس شيخنا أَحْمَدَ بن حنبل هذا الحديث : «لولا أن الشياطينَ يَحْمُونَ على قلوب بني آدَمَ لَنَظَرُوا إلى مَلَكُوتِ السمواتِ» .
فما هُمْتُ والله معناه إلا من كَلِمَةِ الشيخ في السمكة ، وقد عَلَّمَنِيهَا هذا الصيَّاد العامي ؛ فالشياطينُ تَنَجِدُبُ إلى المعاني ، والمعاني يُوجِدُهَا اللفظُ المستقرُّ في القلب استقرارَ غَرَضٍ أو شهوةٍ أو طمعٍ ؛ فإذا خلا القلب من هذه المعاني ، فَقَدِ أَمَرَ مُنَازَعَتَهَا له وَشَغَلَهَا لِمَا به ، فيصيحُ فوقها لا يبيها ؛ ومتى صار القلبُ فوق الشهوات ولم يجد من ألفاظها ما يُعِيبُهُ ويعتْرِضُ نَظَرَهُ إلى الحقائق ، انكشفت له هذه الحقائق فانكشف له المَلَكُوتُ ؛ فإذا وَقَعَ بعدُ في واحدةٍ من اللذات ولو (كالرفاقين والحلوى) ، اسْتَعَلَّتْ الأشياءُ عليه لِحَبَّتِهِ ، وعاد بيئها أو تَحَمَّها ، وعَمِيَ عَمَى اللَذَّةِ ؛ وَالْحِجَابُ على البصر كأنه تعليقُ العَمَى على البصر .

وكنْتُ لَا أَرَأِي أُعْجِبُ من صبر شيخنا أَحْمَدَ بن حنبل وقد ضُرِبَ بين يدي المعتصمِ بالسَّيَاطِ حتى غُتِيَ عليه ^(١) فلم يتحوَّلْ عن رأيه ؛ ففعلتُ الآن من كلمة السمكة أنه لم يحلْ في نفسه للضرب معنى الضرب ، ولا عرف للصبر معنى الصبر الادعى ؛ ولو هو صَبَرَ على هذا صَبَرَ الإنسانُ لِحَزَنٍ وتحوَّلْ ، ولو ضُرِبَ صَرَبَ الإنسانُ لتَأَلَّمَ وتعبير ؛ ولكنه وَضَعَ في نفسه معنى ثباتِ السنَّةِ وبقاء الدين ، وأنه هو الأُمَّةُ كلها لا أَحَدٌ من جنسٍ ، ولو تحوَّلَ لتحوَّلَ النَّاسُ ، ولو اتَّذَعُوا لَاتَّذَعُوا ؛ فكان صَبْرُهُ صَبْرَ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ لا صَبْرَ رجلٍ فَرْدٍ ، وكان يُضْرَبُ

(١) كان هذا في سنة ٢١٩ وقد أرادوا الإمام العظيم على القول بحلق القرآن فلم يمل به ، فألقى القاصي ابن أبي دؤاد بقله وشعب عليه ثم ضرب بين يدي المعتصم ، فلما صم ولم يحب . أطلقه المعتصم ، ودم على ضربه

بالسياط ونفسه فوق معنى الضرب ، فلو قرضوه بالمقاريض ونشروه بالمنشير لما بالوا منه شيئا ؛ إذ لم يكن جسمه إلا ثوباً عليه ، وكان الرجل هو الفكر ليس غير .

هؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل ، ولكمهم يرونها أمانات قد اتُّمِنُوا عليها من الله لتبقى بهم معانيها في هذه الدنيا ؛ فهم يُزَرِّعون في الأرض زرعاً بيد الله ، ولا يملك الزرع غير طبيعته ، وما كان المعتصم وهو يريد شيخنا على غير رأيه وعقيدته ؛ إلا كالأحمق يقول لشجرة التماح : أثمرى غير التماح !

• • •

قال أحد بن مسكين : وأخذت الرقائق وأنا أقول في نفسي : لعن الله هذه الدنيا ! إن من هوانها على الله أن الإنسان فيها يلبس وجهه كما يلبس نعله . فلو أنب إنسانا كانت له نظرة ملائكية ثم أعترض الخلق ينظر في وحوهم ، رأى عليها وحوها وأفاداراتها في نعالهم أو أقدر أو أقبح ، ولعله كان لا يرى أجل الوحو التي تستهيم الناس وتَصْأها من الرجال والنساء ، إلا كالأحذية العتيقة ..

ولكى أحسست أن في هاتين الرقائق سر الشيخ ، ورأبهما في يدي كالوئيمتين بخير كثير ؛ فقلت : على بركة الله ! ومضيت إلى داري ؛ فلما كنت في الطريق لقيتني امرأة معها صبي ؛ فنظرت إلى المتدبل والمالت : إسياسي ، هذا طفل يتيم حائع ولا صبر له على الجوع ، فأطعمته شئنا برحمتك الله ، وانظر إلى الطفل نظرة لا أساسا حسنت فيها خشوع ألف عابد بمدود الله تعالى مُقْطِعِينَ عَنِ الدُّنْيَا : بل ما أظن ألف عابد يستطعون أن يروا الناس نظرة واحدة كالتى تكون في عين صبي يتيم حائع يئس الرحمة . إن شدة الهم لتجعل وجوه الأطفال كوجوه الآدميين ، في عين من يراها من الآباء والامهات ،

لَعَجَزَ هَؤُلَاءِ الصَّغَارِ عَنِ الشَّرِّ الْأَدْمِيِّ ، وَأَنْتَقَاعِهِ إِلَّا مِنْ اللَّهِ وَالْقَلْبِ الْإِنْسَانِيِّ ،
فِيظَهَرُ وَجْهُ أَحَدِهِمْ وَكَأَنَّهُ يَصْرُخُ بِمَعَانِيهِ يَقُولُ : يَا رَبَّاهُ ! يَا رَبَّاهُ !

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينَ : وَخِيلَ إِلَيَّ حِينَئِذٍ أَنَّ الْجَنَّةَ نَزَلَتْ إِلَى الْأَرْضِ
تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَى مَنْ يُشْبِعُ هَذَا الْعُطْفَلَ وَأُمَّهُ ، وَالنَّاسُ مُخْمِي لَا يُبْصِرُونَهَا ،
وَكُلُّهُمْ يَمْرُونَ بِهَا فِي هَذَا الْمَوْطِنِ مَرُورَ الْحَمِيرِ بِقَصْرِ الْمَلِكِ : لَوْ سُلِّتَ فَضَّلْتُ
عَلَيْهِ الْإِصْطَبَالَ الَّذِي هِيَ فِيهِ ...

وَذَكَرْتُ أَمْرًا قَدْ وَابَّهَا وَهَمَّاجَانًا مِذَّ أَمْسٍ ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ لَهَا فِي قَلْبِي
مَعْنَى الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ ؛ بَلْ مَعْنَى هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْحَاجَّةِ وَطِفْلِهَا ، فَأَسْقَطْتُهَا عَنْ قَلْبِي
وَدَفَعْتُ مَا فِي يَدَيَّ لِلرَّأَةِ ، وَقُلْتُ لَهَا : حُدِّي وَأَطْعِمِي أَبْنَتَكَ ، وَوَاللَّهِ مَا أَمْلَكُ
بِضَاءً وَلَا صَفْرَاءً ، وَإِنَّ فِي دَارِي لِمَنْ هُوَ أَحْوَجُ إِلَى هَذَا الطَّعَامِ ؛ وَلَوْلَا هَذِهِ
الْحَلَّةُ لَبَيَّ لَتَقَدَّمْتُ فِيهَا يُصْلِحُكَ . فَزَمَعْتُ عَيْنَاهَا ، وَأَشْرَقَ وَجْهُ الْعَبِيِّ ، وَلَكِنْ
حَلَمْتُ عَلَى قَلْبِي مَا أَمَّا فِيهِ فَلَمْ أَجِدْ لِلدَّمْعَةِ مَعْنَى الدَّمْعَةِ ، وَلَا لِلنَّسَمَةِ مَعْنَى الْبِسْمَةِ .
وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : أَمَا أَمَا فَاطِمَةُ إِنْ لَمْ أَصِبْ طَعَامًا ، فَقَدْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ
الصَّدِيقُ يَطْوِي سِتَّةَ أَيَّامٍ ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَطْوِي ، وَكَانَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ مِنْ حَفِظَتِنَا
أَسْمَاءً وَرَوَيْنَا أَخْبَارَهُمْ ؛ وَلَكِنْ مَنِ الرَّأَةِ وَأَبْنَاهَا بِمَتَلِ عَقْدِي وَنَيْتِي ؟ وَكَيْفَ
لِي بِهِمَا ؟

وَمَشَيْتُ وَأَمَّا مُنْكَبِرٌ مُنْقَبِصٌ ، وَكَأَنِّي كُنْتُ لَسِيْتُ كَلِمَةَ الشَّيْخِ : « لَوْ أَطْعَمْنَا
أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ السَّمَكَةُ » فَذَكَرْتُهَا وَصَرَفْتُ خَاطِرِي إِلَيْهَا وَشَغَلْتُ
نَفْسِي تَذَكُّرُهَا ، وَقُلْتُ : لَوْ أَنِّي أَشْبَعْتُ ثَلَاثَةَ بَحُورٍ أَتَيْنَ لِحَرَمَتِ خَمْسِ فُضَائِلٍ ^(١)

(١) يريد - حور و حور امرأته و حور ابنة ، ثم سبغ هذه المرأة ، و شجق ابها ،
هذه - من فضائل .

وهذه الدنيا محتاجةٌ إلى الفضيلة ، وهذه الفضيلةُ محتاجةٌ إلى مثل هذا العمل ، وهذا العملُ محتاجٌ إلى أن يكونَ هكذا ؛ فإِستقيم الأمرُ إلا كما صنعت . وكانت الشمسُ قد آنستْ في السماء وذلك وقت الضحى الأعلى ، فالتُ ناحيةً وجلستُ إلى حائط أفكر في بيع الدار ومن يبتاعها ، فأنا كذلك إذ مرَّ أبو نصر الصياد وكأه مُسْتَطَارٌّ فَرَحًا ، فقال : يا أبا محمد ، ما يجلسك ههنا وفي دارك الخيرُ والغنى ؟ قلت : سبحان الله ! من أين خرجت السمكة يا أبا نصر ؟ قال : إنني لفي الطريق إلى منزلِك ، ومعي ضرورةٌ من القوت أخذتها لعيالك ، ودراهمُ آستَدْتُها لك ، إذا رجلٌ يَسْتَدِلُّ الناسَ على أيك أو أحدٍ من أهله ، ومعه أقالٌ وأحمال ، فقلت له : أنا أدلك . ومشيتُ معه أسأله عن خبره وشأنيه عند أيك . فقال : إنه تاجر من البصرة ، وقد كان أبوك أودَّعه مالا من ثلاثين سنة فافلس وأنكسر المال ، ثم ترك البصرة إلى خراسان ، فصلَّح أمره على التجارة هناك ، وأيسرَ بعد المِحْنَةِ ، وآستَظْهَر بعد الخِذْلان ، وأقبلَ حذُه بالثراء والغنى ، فعاد إلى البصرة ، وأراد أن يتحلَّلَ ، فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحه في هذه الثلاثين سنة ، وإلى ذلك طرائف وهدايا

قال أحمد بن مسكين : وأنقلبُ إلى داري فإذا مالٌ حمٌّ وحالٌ جميله ! فقلت : صدق الشيخ : « لو أطعمنا أنفسنا هذا ، أخرجت السمكة ! » فلو أن هذا الرجلَ لم يلقَ في وجهه أبا نصر ، في هذه الطريق ، في هذا اليوم ، في هذه الساعة ، لما آتدنى إليّ ؛ فقد كان أنى مـهورا لا يعرفه أحدٌ وهو حي ؛ فكيف به ميتا من وءِ عشرين سنة ؟

وآلُبُ لِيَعْلَسَ اللهُ شُكْرِي هذه العمة ، فلم تكن لي همه إلا الحب عن المرأة المحتاجة وآبئها ، فكفيتهما وأجريتُ عليهما رزقا ، ثم آتَحَرْتُ في المال ،

وجعلتُ أَرْبُهُ بالمعروف والصَّيِّغَةِ والإحسان وهو مُقْبِلٌ يزداد ولا ينقص :
حتى تَمَوَّلْتُ وتَأَثَّلْتُ .

وكأنى قد أعجبتنى نفسى ، وسررتى أن قد ملأتُ بِجِلَّاتِ الملائكة بِحَسَنَاتى ،
ورحوتُ أن أكونَ قد كُتِبْتُ عِدَّةً فى العالَين ، فَمَتُّ لَيْلَةً فَرَأَيْتُنِ
فى يوم القيامة والخالقُ بِمَوْجُ بِمَضْمُومٍ فى بعض ، والمولُ هَوْلُ الكونِ الأعظمِ
على الإنسان الضعيف ، يُسْأَلُ عن كل مامسة من هذا الكون . وسمعتُ
الصَّاحِّحَ يقول : يا معشرَ بى آدم ! نَجَدْتِ الهائمُ شُكْرًا لله أنه لم يجعلها من
آدم ! ورأيتُ النَّاسَ وقد وُسِّعَتْ أبدأهم فهم يحملون أوزانهم على ظهورهم
مخلوقة مجسمة ، حتى لكان العاسقُ على ظهره مدينةً كُلُّها تُخْزِيَات !

وقيل : وَضَعْتَ الموازين . وجيءَ بِبِلُوزِنِ أَعْمَالِي ، فَحُصِّلَتْ سَيِّئَاتِي فى كفه
وَأُلْقِيَتْ بِجِلَّاتُ حَسَنَاتِي فى الأخرى ، فطاشتُ السجلات ورجحت السيئات
كأما وزوا الجبل الصخرى العظيم الضخم بلعاقه من القطن ...

ثم جعلوا يُلْقَوْنَ الحسنة بعد الحسنة بما كنت أصغره ، فإذا تحت كل
حسنة شهوة خبيثة من شهوات النفس : كالرياء والغرور وحبُّ المَحْمَدَةِ عند
الناس وغيرها ، فلم يسلمْ لى شيء ، وهلكت عى حُجَّتِي ، إذ الحجة ما يُبَيِّنُهُ
الميزان ، والميزان لم يبدلْ إلا على أنى فارغ .

وسمعتُ الصوت : ألم يقلْ له شئ ؟ فقيل : بَقِيَ هذا .

وأنظر لأرى ما هذا الذى بقى ، فإذا الرقاقتان اللتان أحسنتُ هما على المرأة
وانها ! فأيقنتُ أنى هالك ! فلقد كنتُ أَحْسِنُ بِمِائَةِ دِينَارٍ ضَرْبَةً واحدة
فما أعنتُ عى . ورأيتها فى الميزان مع غيرها شيئاً معلقاً ، كالعلم حين يكون
ساقطاً بين السماء والأرض : لا هو فى هذه ولا هو فى تلك .

ووضعتُ الرقاقتان ، وسمعتُ القائل : لقد طار نصفُ نواهما فى ميزان

أبى نصر الصياد : **مَاتَ** أَخْذَلْتُ أَخْذَلًا شَدِيدًا ، حَتَّى لَوْ كُيِّرْتُ نَصْفَيْنِ لَكَانَ أَخْفَ عَلَى وَأَهْوَنَ لِي يَدَّ أُنَى نَظَرْتُ فَرَأَيْتُ كِفَّةَ الْحَسَنَاتِ قَدْ نَزَلَتْ مِنْزِلَةَ وَرَجَحَتْ بَعْضَ الرَّجَحَانِ .

وسمعتُ الصوتَ : ألم يبقَ له شيء ؟ فقيل : بَقِيَ هَذَا .

وأنظرُ ما هذا الذى بقى ، فإذا جوعُ امرأتى ووَلَدَى فى ذَلِكَ اليوم ؛ وإذا هو شيءٌ يُوضَعُ فى الْمِيزَانِ وإذا هو يَزَلُ بِكَفَّةٍ وَيَرْتَفِعُ بِالْآخَرَى حَتَّى اعْتَدَلْنَا السَّوِيَّةَ ؛ وَتَبَّتِ الْمِيزَانُ عَلَى ذَلِكَ ، فَكَنتُ بَيْنَ الْهَلَاكِ وَالنَّجَاةِ .

وَأَسْمَعُ الصَّوْتِ : ألم يبقَ له شيء ؟ فقيل : بَقِيَ هَذَا .

ونظرتُ فإذا دموعُ تلك المرأة المسكينة حين نكتُ من أثر المعروفِ فى نفسها ، ومن إيثارى إياها وإبناها على أهلى . وَوُضِعَتْ غُرْغَرَةٌ عَلَيْهَا فى الْمِيزَانِ فَهَارَتْ ، فَطَمْتُ كَأَنَّهَا لُجَّةٌ ، مِنْ تَحْتِ اللَّجَّةِ بَحْرٌ ؛ وَإِذَا سَمَكَةٌ هَائِلَةٌ قَدْ خَرَجَتْ مِنَ اللَّجَّةِ وَقَعَتْ فى نَفْسِ أَنَّهَا رُوحُ تِلْكَ النَّمْعِ ، فَجَعَلْتُ تَعْظُمُ وَلَا تَزَالُ تَعْظُمُ ، وَالْكَفَّةُ تَرْجَحُ ، حَتَّى سَمِعْتُ الصَّوْتَ يَقُولُ دَعْنَا . وَصَحْتُ صَبِيحَةً انْتَهَتْ لَهَا ، فَإِذَا أَنَا أَقُولُ : « لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ السَّمَكَةُ » .

الزاهدان^(*)

٢

قال أحمد بن مسكين : وانتشر حديث السمكة في أهل (بلخ) . واستفاض بينهم . وكنتُ قصصته عليهم يوم السبت ، فلما دار السبتُ من أسبوعه لقيتُ شيخهم حاتم بن يوسف (لهما الأمة) ومعه صاحبه أبو تراب ، فقال : يا أحمد ! لكأنك في هذه المدينة قرأَ طَلَعَ بَلْبَل ، فلا يَمِظُ الناسُ في يوم السبت غيرك ؛ ومن سمع وكأه عاب ، وليس على السنة أهل بلخ منذ تعدت إلا يشر وابن حنبل ، ولا على نال أحدٍ منهم إلا موعظتك وحديثك .
والكلامُ عن الصالحين في مثل ما وصفت وحكى قُرْبُ من حقائقهم ، وسُمو إلى معانيهم ؛ وليس في القول بابٌ له موقعٌ كوقع القصة عن هؤلاء الذين يخلقهم الله في البشرية خلق النور : يُضَيّ . ما حوله من حيث يُرى ، ويعملُ فيها حوله من حيث لا يُرى وفي ظاهره الجلال والمنفعة ، وفي باطنه القوة والحياة . ولست أقول لك أذهب لحديث الناس ، ولكني أقول أذهب فأعطي الناس عقلا من الحديث .

قال ابن مسكين : فلما صلينا العصر ، قدّمني أبو تراب فجلسْتُ في مجلسي ذاك ، وهتَفَ في الناسُ يريدون الحديث عن (بشر الحافي) وما سَقَطَ لي من أحباره على الطريقة التي حدثتهم بها من قبل ، فانتدأت بذكر موته (رحمه الله) ، وأن يومه كما عا آجتماع له أهلُ خمس وسبعين سنة^(١) ، إذ خرجتُ حنازُهُ بعد صلاة الصبح ، فلم يحصلْ في قبره إلا في الليل مما آحَشَدَ في طريقه

(*) هذا هو الفصل الثاني من قصة السمكة

(١) مات رحمه الله عن خمس وسبعين سنة .

من الخلق ، حتى لكان في نعشه سرا من أسرار الجنة يطالِعُهُم به الموت
غفر جوا ينظرون إليه ، وكانوا يصيحون في جنازته : هذا والله شرف الدنيا
قبل شرف الآخرة .

ثم قلت : حدثني حسينُ المازلي ^(١) : أن يسرا رحمه الله كان لا يأكل
إلا الخبز ، تورعا عن الشبهات وأكثفا للضرورة الحياة بالآقل الأيسر : وكان
يقول في ذلك : بَدْ أَصْغُرْ مِنْ يَد ، وَلَقَمَةٌ أَصْغُرْ مِنْ لَقْمَةٍ . وسئل مرة : بأيَّ
شيء تأكل الخبز ؟ فقال : أذكر العافية فأجعلها إداما . وقد أعانه على ذلك أنه
لم يتزوج ، وكان يرى هذا نصفا في نفسه ، حتى فضل الإمام أحمد بن حنبل بأشياء :
مها : أن له أهلا ؛ غير أنه قيل له ذات يوم : لو تزوجتَ تَمَّ نُسُكُكَ فقال :
أخاف أن تقوم الزوجة بحقي ولا أقوم بحقها فكانت هذه النية في نفسه
أفضل من زواجه .

وكان مع هذا لا يؤاكل أحدا ، ولا يستعي إلى لقاء أحد ، حتى إنه لما رغب في
مؤاخاة الزاهد العظيم (معروف الكرخي) ، أرسل إليه (الاسود بن سالم) وكان
صديقا لها ، فقال لمعروف : إن بشر بن الحارث يريد مؤاخاتك وهو يستحي أن
يُشَافِهَكَ بذلك ، وقد أرسلني إليك يسألك أن تعقد له فيما بينك وبينك أخوة
تحتسبها ويعتد بها ؛ إلا أنه يشترط فيها شروطا ، أولها : أنه لا يجب أن يشتر
ذلك ، وثانيها : ألا يكون بينك وبينه مُرَاوَرَةٌ ولا ملاقة . فقال معروف : أما
أنا فإذا أحببتُ أحداً لا أحب أن أفارقه ليلا ولا هاراً ، وأزوره في كل وقت ،
وأورثه على نفسي في كل حال ، وأما أعقد لبشر أخوة بيني وبينه ، ولكني

(١) نسبة إلى عمل المازل ، وكان حسين هذا صديقا لسر ، وكان بشر يعمل
المازل ويعيش من عها ، ومن كلامه لابن أخته عمر يا بني . إعمل يدك ، فإن أثره
في الكمين أحسن من أثر السحرة بين العيين ! هكذا كانوا رحمهم الله .

أزوره متى أحببت ، وأمره بلقائي في مواضع فلتقي فيها إذا هو كره زيارتي . قال حسين المغازلي : وكان هذا كله من أمر بشر معروف في بغداد ، لا يحمله أحد من أهلها ، إذ لم يكن لبغداد إمام غيره وغير ابن حنبل ؛ فما كان أكثر عجيبي حين كنت عنده يوما وقد زاره (فتح الموصلي) ، فقام بجاء مدرام ملء كفه ودفعها إلي وقال : اشتر لنا أطيب ما تجد من الطعام ، وأطيب ما تجد من الحلوى ، وأطيب ما تجد من الطيب . وما قال لي مثل ذلك قط ، وهو الذي رأى الفاكهة يوما فقال : ترك هذه عبادة ! وهو القائل لأبي نصر الصياد : لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة ^(١)

فذهبت فاشتريت وانتقيت وتحيرت ، ثم وضعت الطعام بين أيديهما ، فرأيته يأكلُ معه وما رأيته أكل مع غيره ، ورأيته منبسطا إليه وما لي عهدُ كان بالنساطة إلى أحد . وقد كنت أخبرته في ذلك الهار بخبر أحد من حنبل ، علمته من إدريس الحداد : فإنه لما زالت المحنة بعد أن ضرب بين يدي المعتصم ، وصُرف إلى بيته ، حُل إليه مالٌ كثير من سَرَوَات بغداد وأهل الخير فيها ، فرد جميع ذلك ولم يقبل منه قليلا ولا كثيرا . وهو محتاجٌ إلى أيسره ، وإلى الأقل من أيسره ، وإلى الشيء من أقله ، فجعل غمه يسحقُ يحسبُ ما ورد في ذلك اليوم ، فكان خمسين ألف دينار ، فقال له الإمام : يا عم ، أراك مشغولا بحساب ما لا يفيدك ! قال : قد رددت اليوم كذا وكذا ألفاً وأنت محتاج إلى حبة من دائق ! فقال الإمام : يا عم ، لو طلبناه لم يأتنا ، وإنما أنا لما تركناه .

• • •

قال المغازلي : فسمت تلك الليلة وأما أفكر في صليح الشيخ ، وقد تعلق خاطرى : كيف انقلبت الحالُ معه ، وأى شيء هذه الحال ؟ وجعلتُ أكيدُ

(١) مر هذا في مقال (السمكة)

ذهنى لأعرف الحقيقة العقلية التى سَلَطَتْ عليه هذه الضرورة فتسلط النعيم على نفسه ، وأنا أعلم أن للقوم علوما روحانية ليست فى الكتب ، فنها ما لا يتعلمونه إلا من الفقر ؛ ومنها ما لا يتعلمونه إلا من اللأء ، ومنها ، ومنها ، ولكن ليس منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات ؛ وذهب قلبى إلى أوهايم كثيرة ليس فى جميعها طائل ولا بها معرفة ، حتى غلبتنى عيناى ، وأنا من وهج الفكر نائم كالمريض ، وقد ثقل رأسى واختلط فيه ما يُعقل بما لا يُعقل .

فرايتُ أول ما رايتُ مليكا جبارا يحكم مدينة عظيمة ، وقد أطلق المادى فى جمع كل أطفال مدينته ، فجى بهم من كل دار ، ثم رأينه قد جلس على سريره وفى يده مقراضٌ عظيم ، قد اتخذته على هيئة نصلين عريضين لو وُضعتَ بينهما رقبة لفصلاها عن جسمها ؛ فكان هذا الجبار يتناول الطفل من أولئك فيضع أصابع إحدى قدميه فى شِقِّ المقراض فيفرضها ، فإذا هى تتناثر أسرع بما يقرضُ المِقَصُّ الخيط ، ثم يرمى بالطفل مغشيا عليه ، ويتناول غيره فيسترُ أصابعه ، والأطفال يصرخون ، وأنا أرى كل ذلك ولا أملك إلا أعطى على هذا الجبار من حيث لا أستطيع أن أمضى فيه هذا العَبْط فأقرضَ عنقه بمقراضه ! ثم رأيتُه يأخذ طفلا صغيرا ، فلما حامت قدم الطفل بين شِقِّ المقراض صاح : يارب ، يارب ! فإذا المقراض يلتوى فلا يصنع شيئا ، وكان فيه حجرا صُلدا لا قدما رَحْصَةً ؛ فتميز الجبارُ من العيظ وقال : مَنْ هذا الطفل ؟ سمعتُ هاتفا يهتف : هذا بشر الحافى ، لا يبلغ تاجُ ملكٍ فى الأرض أن يكون لعدمه الحافية فعلا عند الله !

وكان إلى يمينى رجل يتوصأ وحُله صلاحا وتقوى ، فقلت له : مَنْ هذا الطاغية ؟ ولِمَ اتَّخَذَ المقراض لأهدام الأطفال خاصة ؟

فقال : يا حسين ، إن هذا الجبار هو ذلُ العيش ، وهذا وثنُه لاهل الحياه

على الأرض ، يحقق به في الإنسان معنى البهيمية أول ما يدب على الأرض ، حتى كاله ذو سافر لاذو قدّم .

قلت : فما مالُ هذا الطفل لم يعمل فيه المقرض ؟

قال : إن لله عبادةً استخضعهم لنفسه ، أول علامته فيهم أن الذلّ نحت أقدامهم . وهم يحثون في هذه الحياة لإثبات القدرة الإنسانية على حكم طبيعة الشهوات التي هي نفسها طبيعة الذل ؛ فإذا أطرح أحدُهم الشهوات وزهد فيها ، واستقام على ذلك في عقديّة وقوة إرادة ، فليس ذلك بالزاهد كما يصفه الناس ، ولكنه رجل قوى اختارته القدرة ليحمل أسلحة النفس في معاركها الطاحنة ، كما يحمل البطل الأروع أسلحة الجسم في معاركه الدامية ؛ هذا يُتعلم منه فن ، وذاك يُتعلم منه فن آخر ؛ وكلاهما يُربى به على الموت لإيجاد النوع المستعزّ من الحياة ، فأول فضائله الشعور بالقوة ، وآخر فضائله إيجاد القوة .

قال المعالي : وضرب النوم على رأسى ضربةً أخرى ، فإذا أما في أرض خيبة داخنة ، قد ارتفع لها دُخان كثيف أسود يتضرّب بمضه في بعض ، وجعلت أرى شعلاً حراً تذهب ونجى كأنها أجسام حية ، فوق في وهمي أن هؤلاء هم الشياطين : إبليس وجنوده ، وسمعت صارخاً يقول : يا بشرى ! هل تبك السماء على الأرض ، لقد أكل بشر الخاف من أطيب الطعام وأطيب الحلوى بعد أن استوى عنده حَجَرُها ومدَرُها ، وذَهَبُها وفضتها ! فعارضه صائح أسع صوته ولا أرى شخصه : ويلك يا زلتور^(١) ! إن هذا شر علينا من عامّة نسكه وعادته ؛ فهذا ويحك هو الزهد الأعلى الذي كان لا يطيقه بشر إلا به إعانت

(١) هذا اسم بعض ولد إبليس فيما يروى ، وفي بعض النسخ التي بأيدينا انه خبز

سلطه على نفسه ، فإن دعتُ هذا المغالِى الأعمى القلبَ ليزينَ له ما فعل
أحمد بن حنبل من ردِّه خمسين ألف دينار على حاجته ، زهداً وورعاً ، وقوة
عزم وتقاضاً لإرادة ؛ وقلتُ : عسى أن تتحرك في نفسه شهوة الزهد فيحسُدُ
أو يغار أو تغيبه نفسه ، فيكونُ لى من ذلك لمةٌ بقلبه فأوسوسُ له ، فإننا نأتى
هؤلاء من أبواب الثواب ، كما نأتى غيرهم من أبواب المعاصى ، وتورعُ مع أهل
الورع كما تتسَخَّفُ مع أهل السخف ؛ ولكنَّ الرجلَ رجلٌ وفيه حقيقة الزاهد ،
فقد أعطى القوة على جعل شهرات نفسه أشخاصاً حية يعادىها ويفاتلها ؛ فإذا
أنا جعلتُ شهوته في اللذة قتلَ اللذة ، وإذا جعلتها في الكدابة قتلَ الكدابة ،
وليس الزاهدُ العابدُ هو الذى يتعَشَّفُ ويتعَفَّفُ ، ويتخَفَّفُ ويلتَفِفُ ؛ فإن كثيراً
ما تكونُ هذه هى أوصاف الذلِّ والحق ، ويكونُ لها عملُ العادة وفيها لائمُ
المعصية ؛ ولكنَّ الراهِدَ حقَّ الزاهد من أدار في هذه الأشياء عينا قد تعلت
النظرَ بحقه والإغضاء بحقه ؛ فهذا لا يخطئ معنى الشر إن لبسناه عليه في صورة
الخير ، ولا معنى الخير إن زورناه في صورة الشر ؛ وبذلك يصع نفسه في
حيث شاء من المنزلة ، لافى حيث شادت الدنيا أن تضعه من مازالها الدينية .
وما أكلَ بشرٌ هذه الطيبات إلا لبأدر بها وسوسى ويردنى عن نفسه
وعن اللمة بقلبه ، فلو أنه أعجبه زهد ابن حنبل ونظر من ذلك إلى زهد نفسه
لحطَّ أجره ؛ فهذه الطيبات عالج نفسه علاجَ مريض وقد غيّر على جوفه
طعاماً بطعام ، كما يتدل على جلده ثوباً بنوب ؛ ولا شهوة للجلد في أحدهما .

قال المغالِى : وثقلَ النوم على ثلثة أخرى ، فرأيتنى في وادٍ عظيم ، وفي وسطه
مثلُ الطود من الحجارة قد رُكِّمَ بعضها على بعض ؛ ورأيتنى مع شر أقص عليه
خبير أحمد بن حنبل ؛ فقال أنظر ويحك ! إن الناس يسمونها خمسين ألف دينار ،

وهي هنا في وادي الحقائق خمسون ألف حجر لو أصابت أحد لقتلته ولكانت قبره آخر الدهر .

إن المال يابى هو ما يعملهُ المالُ لا جوهرهُ من الذهب والفضة ؛ فإذا كنتَ بمَفَازَةٍ ليس فيها من يبيِعُك شيئاً بذهبك ، فالترابُ والذهبُ هناك سواء ؛ والمعضلُ هي ذهبُ الآخرة ؛ فهنا تجددُ بالمالِ دينك التي لا تبقى أكثرَ من بقائك ، وهناك تجددُ بالمعضلِ نفسك التي تتحدُّ بجلودها .

ومعنى المعنى معنى مُلتَبَسٍ على العقولِ الأدمية لأجتماعِ الشهواتِ فيه ، فحين يرِدُ أحمدُ بنُ حنبلٍ خمسين ألفاً ، يكون هذا المعنى قد صحَّحَ نفسه في هذا العملِ وجهاً من التصحيح .

قال حسين المغازلي : وَعَظَى اليوم في أعماقه غَظَّةٌ أخرى ؛ فإذا أنا في المسجد في درس الإمام أحمد وهو يحدث بحديث النبي صلى الله عليه وسلم : « إِذَا عَظَّمْتَ أَمْرَ الدِّيَارِ وَالِدْرَهْمِ بُزِعَ مِنْهَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ » ؛ وإذا تركوا الأمرَ بالمعروفِ والنهي عن المنكر حُرِّمُوا بَرَكَةُ الْوَحْيِ ، وهم أن يتكلم في تفسيره (١) ولكنه رأى فأمسك عنه وأقبل على فقال : يا حسين ! إذا احتزأ شيخك بالرغيف فهذا عنده هو قَدْرُ الضرورة ؛ فإن أكلَ الطيباتِ فقد عرَضَتْ حَالُ حَمَاتِ هذه الطيباتِ عنده هي قَدْرُ الضرورة ؛ وفي هذه النفوس الساموية لا يكون الجزء الأرضي إلا محدوداً ، فلا يكون محصوله إلا ما ترى من قدر الضرورة .

ولما صغرَ الجزء الأرضي في نفوس المسلمين الأولين ملكوا الأرض كلها بقوة الجزء الساموي فيهم ، إذا كانت إرادتهم فوق الإطماع والشهوات ، وكانت

(١) سيأتى تفسيره في مجلس آخر من محاسن أسس مكين .

بذلك لا تذلل ولا تضعف ولا تسكس فالأدمية كلها تنتهى إلى بعض صورٍ ،
وهؤلاء هم الذين علّمهم في أعلاها .

يا حسين ! ألا وإن ردّ خمسين ألف دينار هو كذلك قدرُ الضرورة .
قال حسين : وذهبتُ أعترض على الإمام بما كان في نفسى من أن هذا
المال وإن لم يكن من كسبه ، فقد كان يتحول في يده عملاً من أعمال الخير ؛
وأُفْسِيْتُ أن هذه الصدقات هي أوساخُ الناس وأقدارُ نفوسهم ؛ فلم أكد أفتح
في حتى رأيتُ الكلام يتحول طيناً في في ليذكرني بهذا المعنى ؛ وكدتُ
أختنق فانتفضتُ أنفُس ، فطار النومُ والحلمُ .

ابليس يعلم^(*)

٣

قال أحمد بن مسكين : ودار السدّ الثالثُ ، وجلستُ مجلسي للناس وقد
انتظمتُ حلقَتَهُمْ ، فقام رجلٌ من عُرُضِ المجلس فقال : إن الحسن بن كُجَاع
البلخي تليذُ الإمام أحمد بن حنبل^(١) ، كان مند قريب يحدّثنا بأحاديث عن
الشیطان ، حفظنا منها قوله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن يُنْضَى
شيطانه كما يُنْضَى أحدكم بغيره في سفره » وكان الحسن يقول في تأويله :
إن شيطانَ الكافر ذمّه من سمّ كاسٍ ، وشيطان المؤمن مهزولٌ أشعتُ أغبرُ

(*) انظر المصليين السابقين

(١) داعبا إبليس لعه الله مداعبه قيلة في كتابة هذا المقال ، وسقص للقراء
حكايه في مهاله داعبا إبليس

(١) توفى ابن سحاح هذا سنة ١٠٢٤هـ وكان من حفاظ (باج)

عاب . فهل يأكلُ الشيطان ويدَّهِن ويلبَسُ ليكون له أن يجمع مع المؤمنين
ويعرَى ويتشعَّت ويَغْتَرَّ ؟

قال ابن مسكين : قلت في نفسي : لا حول ولا قوة إلا بالله ! ما أرى
السائل إلا شيطانَ هذا السائل : فإن إبليس إذا أراد أن يَسْخَر من العالم
ويُسَيِّمَهُ طَنَزَهُ وتهكمه ^(١) ، حرَّك من يسأله عنه ما هو وكيف هو ؟ كما ما
يقول له : تَلَبَّ ويحك على معنای ، فأنت تتكلم وأما أعمل ، وأنت صورة من
الردِّ عَلَيَّ ولكني حقيقة من الرد عليك ، وما أنت في محاربتك لي بالوعظ
إلا كالذي يريد أن يضربَ عُنُقَ عدوه عماته اسمٍ وُضِعَتْ للسيف ...

قال : وكنت قد سمعت خيراً عجيباً عن أبي عامر قيسَةَ بن عُقبة الكوفي
المحدث الحافظ الثقة أحدِ شيوخ أحمد بن حنبل ^(٢) : وهو الرجلُ الصالح
العابد الذي كان يقال له راهبُ الكوفة : من زهده وعبادته وأحساس نفسه
في داخله كأنما جَسَدُهُ جِدارٌ بين نفسه وبين الدنيا ، فقات : واقه لا غيظُ
الشيطان بهذا الخبر ، فإن أسماء الزهاد والعباد والصالحين هي في تاريخ الشياطينِ
كأسماء المواقع التي تهزُم فيها الجيوش ، وما الرجلُ العابد إلا صاحبُ الغمرات
مع الشيطان ، وكأنه يحتملُ المكارة عن أمة كاملة بل عن البشرية كلها حيث
كانت من الأرض ، فالتأسُّ يحسوه قد تخلى من الدنيا ويطؤون التُّركَ أيمراً
شيئاً ، وما علوا أن الزهد لا يستقيم للزاهد حتى يجعلَ جَسَمَهُ كأنه في نظامٍ
آخر غير نظام أعضائه : ولا أشقَّ من ذلك على النفس ومعجزة الزاهد
أنه مكلف أن يُخرج للناس أقوى القوة من المعاني التي هي عند الناس أضعفُ
الصعف : ولو أن ملكاً عظيماً تف في جمع الدنيا وفتح الممالك حتى حيزت له

(١) الطَّنَز . التهزؤ والتهمك ، ولعل منه كلمة (طط) عد العامة

(٢) توفي سنة ٢١٥ هـ .

جوانب الأرض ، لكان عمله هذا هو الوجه الآخر لنسب الزاهد في مجاهدة هذه الدنيا وتركها .

قال أحد من مسكين : وقصصت عليهم القصة فقلت : كان أبو عامر قبيصة ابن عفة كثير الفكر في الشيطان ، يود لو رآه وناقله الكلام ؛ وكان يتدبر الأحاديث التي صَحَّ ورودها فيه ، ويفسر معنى الشيطان بأنه الروح الخبيث للخطأ على الأرض ؛ والخطأ يكون صواباً عموماً عن طريقته وجهته ، ولهذا كان إبليس في الأصل ملكاً من الملائكة وتحول عن طبيعته حين خلق آدم عليه السلام ، أي وجد في الكون روح الخطأ حين وجد فيه الروح الذي سيخطئ .

فلما هبط آدم من الجنة وحرمها هو وزوجه وذريته ، كان إبليس لعمري الله هو معنى بقاء هذا الحرمان واستمراره على الدهر ، فكان هذه الأدمية أخرجت من الجنة ، وأُحرحت معها قوة لا تزال تصدّها عنها . ليضطربا في الكفاح ملياً من زمن هو عمر كل إنسان ، وهذا هو العدل الإلهي : لم يعرف آدم حق الجنة ، فعوقب ألا يأخذها إلا بحققها ، وأن يقاتل في سبيل الخير قوة الشر .

وبات أبو عامر ذات ليلة يفكر في هذا ونحوه بعد أن فرغ من صلاته وقراءته : ثم هَوَّمَ فكان بين اليقظة والوم ، وذلك حين تكون العين نائمة والعقل لا يزال منتبهاً ، فكان العين متراحة تبصر من تحت أحفائها بصراً يشاركها فيه العقل

فأرى شيخنا أبو عامر صورة إبليس جاءه في زي رجل زاهد ، حسن السمات ، طيب الريح ، نظيف الهيئة ، وكاد يشبه عليه لولا أنه قد عرفه من عبيده ، فإن عبي الكاذب تصدقان عنه ، وقد علم الله أن الكاذب آدمي فمُرَّ بالملك من الأرض ، فجعل عيابه كالآلامات على حائض العلاء .

وظهر الشيطان زاهداً عاداً تقياً فبما كانه دين صحيح خلق بشراً ، فصرخ فيه أبو عامر : عليك لعنة الله ! أمصية في ثوب الطاعة ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ! لو لم تقل المعصية لها طاعة لم يُقَارَفْها أحد : وهل خلقت الشهوات في نفس الإنسان وغريزته إلا لتقريب هذه المعاصي من النفس ، وجعل كل منها طاعة لشيء ما : فتقع المعصية بأها طاعة لا بأها معصية ؟ أو لا ترى يا أبا عامر أن الحيلة مُحْكَمَةٌ في الداخل من الجسم أكثر مما هي مُحْكَمَةٌ في الخارج عنه ، وأنه لولا أن هذا الباطن بهذا المعنى وهذا العمل لما كان لظاهر الوجود كله في الإنسان معنى ولا عمل ؟

قال الشيخ : عليك لعنة الله ! فإرى الموت قد خلق إلا ردّاً عليك أنت ، ليتبين الناس أنك الممتلئ الممتلئ ، ولكك الفارغ الفارغ ؛ بل كل ، شهواتك سمومية منك ورد عليك ، فلا طعم للذة من لذاتك إلا وهي تموت وإمّا تمام وجودها ساعة تنقضي : ومضى قالت اللذة : قد انتهت . فقد وصفت نفسها أبلغ الوصف .

قال إبليس : يا أبا عامر ، ولكن اللذة لا تموت حتى تلد ما يبقها حية ، فهي تلد الحين إليها ، وهو لا يسكن حتى يعود لذة تنقضي وتلد .

قال الشيخ : معاني التراب ، معاني التراب ؛ كل نبتة فيها بذرتها ، ولكن عليك لعنة الله لمادا حثني في هذه الصورة ؟

قال إبليس : لاني لا ألبس إلا حبة القلب الآدمي ، ولولا ذلك لطردتني القلوب كلها وبطل عمل فيها ، وهل عملي إلا التليس والتزوير ؟ أفترى يا أبا عامر أني لا أعترى الحيوان قط ؟

قال الشيخ : لأن الحوارد لا يطر إلى الشيء إلا نظرة واحدة ، هي بطرته وفهمه ، معاً ، فلا محل للتزوير مع هذه النظرة الواحدة : وصدق الله العظيم :

«هل أنبئكم على مَنْ تَنَزَّلُ الشياطين ؟ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ، فأنتم أيها الشيطانُ التزوير ، والتزويرُ موضعه الكذب ؛ فمن لم يكذب في الفكر ولا في النظر ولا في الفهم ولا في الرجاء ، فليس لك عنده عمل .

قال إبليس : يا أبا عامر ! وهل ترى رحلك الله أعجب وأغرب وأدعى إلى الهُزء والسخرية من أن أعظم العقلاء الزهاد العباد ، هو في جملة معانيه حيوان ليس له إلا نظرة واحدة في كل شيء ؟

قال الشيخ : عليك وعليك ... ؛ إن الحيوان شيء واحد ، فهو طبيعة مسخرة بنظامها ، ولكن الإنسان أشياء متناقضة بطبيعتها ، فالوهيته أن يُقرَّ النظام بين هذه المتناقضات ، كما امتحِرَ فأعطى من جسمه كوناً فيه عناصر الاضطراب ، وحوله عناصر الاضطراب ، تم قيل له دبره .

فضحك إبليس : قال الشيخ : مم ضحكْتَ لعنك الله ؟ قال : ضحكْتُ من أنك أعلتني حقيقة الإبلية ، فالزهاد هم الصالحون لأن يكونوا أعظم الأمالسة ...

قال الشيخ : عليك لعنة الله ؛ فما هي تلك الحقيقة التي زعمت ؟ قال إبليس : والله يا أبا عامر ، ما علا إنسان في زعم التقوى والفصيلة إلا كانت هذه هي الإبلية ؛ وسأعليك يا أبا عامر حقيقة الزهد والعبادة . فلا تقل إنها ألوهية تُقرَّ النظام بين متناقضات الإنسان ومتناقضات الطبيعة قال الشيخ : وتسحر مني لعنك الله ؟ فتى كست تعلم الحقيقة والفصيلة ؟ قال إبليس : أو لم أكن شيخ الملائكة ؟ فمن أهدر من شيخ الملائكة أن يكون عالمها ومعلمها ؟

قال : عليك لعنة الله ؛ فما هي حقيقة الزهد والعبادة ؟ قال إبليس : حقيقتها يا أبا عامر ، هي التي أنجزتني في نبيكم .

قال الشيخ : صلى الله عليه وسلم ، فما هي ؟
قال إبليس : هي ثلاث بها نظامُ النفس ، ونظامُ العالم ، ونظامُ اللذات والشهوات : أن تكونَ لك تقوى ، ثم يكونَ لك فُكْرٌ من هذه التقوى ، ثم يكونَ لك نظرٌ إلى العالم من هذا الفكر ما اجتمعت هذه الثلاثُ في إنسان إلا قَهَرَ الدنيا وقهر إبليس .

فإن كانت التقوى وحدها - كتقوى أكثر الزهاد والرهبان - فما أيسرَ أن أجعلَ النظرَ منها نظراً المغلة والجبين والبلادة والفصائل الكاذبة ، وإن كان المَكْرُ وحده - كفكر العلماء والشعراء - فما أهونَ أن أجعلَ النظرَ به نظراً الزَّيغ والإلحادِ والبهيمية والذائل الصريحة .

قال الشيخ : صدق الله العظيم : « إن الذين اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » .

قال إبليس : يا أبا عامر ! ما يضرني والله أن أفسرَ لك ، فإنَّ قارورةً من الصَّغْنِ لا تصْنَعُ الحر وأنا أعدُّ الزهاد والعلماء المصلحين فأضعُ في الناس بجانب كل واحد منهم مائة ألف امرأة مفتونة ، ومائة ألف رجل فاسق ، ومائة ألف مخلوق ظالم ، ولو أنك صَنَعْتَ البحرَ مملء قارورة حمرأ لما صبغتَ الحرَّ الإنساني بالزاهد والمصلح ، مادام المصلح شيئاً غيرَ السيف ، ومادام الزاهد شيئاً غيرَ الحاكم .

قال الشيخ : لعنك الله من شيطانٍ عارِمٍ ، فإذا وصعتَ المصلحَ بين مائة ألف فاسد ، فهل هذه إلا طريقة شيطانية لإفساده ؟
قال إبليس : ومائة ألف امرأة فتانة مفتونة يا أبا عامر ، كل واحدة تحسبُ حسنها ..

صرح الشيخ . أعْرَبْ عني ! ... عليك لعنة الله !

قال إبليس : ولكن الآية الآية يا أبا عمر : لقد لقيتُ المسيحَ وجربتهُ وهو كان تفسيراها .

قال الشيخ : عليه السلام ، عليك أنت لعنة الله فكيف قال وكيف صنع ؟
قال إبليس : ألقيتُ به جانما في الصحراء لا يجد ما يطعمهُ ، ولا يظن أنه يجد ، ولا يرجو أن يظن : ثم قلتُ له : إن كنتَ رُوحَ الله وكلته كما تزعمُ ، فمرَّ هذا الحجرَ ينقلبُ خبزا ، فكان قويا ، فذكر فإذا هو مبصر ، فقال : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان افتلُ هذا لو مات جوعا لم يتحول ، لأن الموتَ إتمامُ حقيقته السامية فوق هذه الدنيا ، ولو ملئتُ له الدنيا خبزا وهو جائع لم يتحول ، لأن له بصرا من فوق الخبز إلى حقيقته السماوية ؛ فليس بالخبز وحده يحيا ، بل بمعانٍ أخرى هي لإشباع حقيقته السماوية التي لا شهوة لها .
ثم ارتقيتُ به إلى ذروه جبل وأريته ممالك الحافقين ، كشفتها كلها لعيده وقلت له : هذا كله لك إذا أنت سجدتَ لي ، فكان متقبا ، فذكر فإذا هو مبصر : أبصر حقيقةَ الحيال الذي جَسَمته له ، وعلم أن الشيطان يُعطي مثلَ معاني هذه الممالك في جرعة خمر ، كما يُعطيها في ساعة لذة ، كما يُعطيها في شقاء عيظ بالقتل والأذى ؛ ثم لا يبقى من كل ذلك باقٍ غير الإثم ، ولا يصح منه صحيح إلا الحرام ، ومن ملك الدنيا نفسها لم يبق لها إذا بقيتُ له . هي - قال - في حُرعة الحياة ، كما هي حيالٌ في جرعة الخمر .

يا أبا عامر : إن هذا النظر ، الذي وراه التدكر ، الذي وراه التهوى ، التي وراها الله - هذا وحده هو العقود التي تتناول شهوات الدنيا مُصصها أربع مرات حتى تعودَ بها إلى حقائقها الربانية الصميرة إلى آخرها القبر ، وآخر وجودها الثلاثي .

فالبصرُ الكاشفُ الذي يُجردُ الأشياءَ من سحرها الوهمي ، هذا هو كلُّ السر .

قال الشيخ : لعنك الله ؛ فكيف مع هذا تفنن المؤمن ؟
قال إبليس : يا أبا عامر ، هذا سؤالٌ شيطاني .. تريد - ويحك - أن
تحتالَ على الشيطان ؟ ولكن ما يضرني أن أفسرها لك .

ليس الإيمانُ هو الاعتمادُ ولا العملُ ، ولو كان من هذين لما شقَّ على أحدٍ
ولصلحت الدنيا وأهلها ؛ إماما الإيمانُ وضعُ يقينٍ خفيٍّ يكونُ مع الغريزة
في مَقَرِّها ، ويصلحُ أن يكونَ مَقَرِّها لتصدُّرِ عنه أعمالُ الغريزة ؛ وهذا
اليقينُ لا يصلحُ كذلك إلا إذا كان يقيناً تاماً بما هو أكبرُ من الدنيا ، فيرجع
إليه الإنسانُ فيتذكرُ فيُنصر . هناك ميراثٌ من الآخرة للؤمن ، فاليقينُ بهذا
الميراثِ هو سرُ الإيمان .

والعملُ الشيطانيُّ لا يكونُ إلا في إفسادِ هذا اليقينِ ومعارضةِ الخيالِ
العظيمِ الذي فيه الحقائقُ الصغيرةُ التي تظهرُ للنخلةِ عظيمةً ، كما تُشبَّ نارُ
أكبرُ من قُرصِ الشمسِ ثم يقالُ للأله : أنظرْ بعينيك . فيصدقُ أنها
أكبرُ من الشمسِ .

ومنى بصير هذا اليقينُ وكانت الحقائقُ الدنيويةُ أكبرَ منه في النفسِ
فأبسرُ أسبابِ الحياة حينئذٍ يُفسدُ المعتقدَ ويُسقطُ الفضيلةَ ؛ ويدمرهم واحدٌ
يوجدُ اللُّصَّ حينئذٍ .

أما إذا ثبت اليقينُ والشيطانُ مع الإنسانِ يصغرُ ثم يصغرُ ، ويعجزُ ثم
يعجزُ ، حتى ليرجعُ مثلَ الدرهمِ إذا طمِعَ الطامعُ أن يحملَ الرجلَ العميَّ
الكثيرَ المالِ إيصاً من اللصِّ ص هذا الدرهم .

قال الشيخ : لعنك الله ! فإن لم تستطع إفساد هذا اليقين فكيف تصنع في فتنه المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ، إن لم أستطع إفساد اليقين زدته يقيناً فيفسد ، وأستحسانُ الرجل لأعماله السامية قد يكون هو أول أعماله السافلة ؛ وبأى عجيب يكون الشيطانَ شيطاناً إلا بمثل هذا ؟

قال أحمد بن مسكين : وعضب الشيخ ، فمَدَّ يده فأخذ فيها عُنُقَ إبليس وقد رآه دقيقاً ، ثم عَصَرَهُ عَصْرًا شديداً يريد خنقه ؛ فقهقه الشيطانُ ساخراً منه . وبتلبه الشيخ ، فإذا هو يشدُّ يده اليمنى على يده اليسرى

الدينار والدرهم^(١)

٤

قال أحمد بن مسكين : وَأَزِفَ رُحْلِي عَنْ (بلخ) ، ونهياتُ للخروج ، ولم يبق من مَدَّةِ مَقِيلِيهَا إِلَّا أَيَّامٌ بَحْيٌ. فيها السُّدُ الرُّابِعُ ، وكان قد وقعتُ مُمَارَاةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ مَفْعَى (بلخ) أَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَوْسُفَ الْبَاهِلِيِّ^(٢) تَلْبِيزُ أَيْ يَوْمُفٍ صَاحِبِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّهُ شَحِيجٌ عَلَى الْمَالِ ، وَأَنَّهُ يَتَغَلَّلُهُ مِنْ مُسْتَعْلَاتٍ كَثِيرَةٍ^(٣) ، فَكُلَّمَا غَشِيَتْهُ عَمَامَتِي ، هُوَ لَا يَرَى أَنَّ أَتَكَلَّمَ فِي

(١) الفصل الرابع من حديث أحمد بن مسكين .

(٢) توفى مفعى بلخ هذا سنة ٣٣٩ هـ .

(٣) المستعلات أصول الأموال ، وتطل واستعل بمعنى .

الزهد، وبحسب هذا الزهد تَمَاتَتْ العباد. وَتَفُضَّ الأيدي من الدنيا، وسوء
المصاحبة لما يُنْعِمُ الله به على العبد، وخذلان القوة في البدن، وما جرى هذا
المجرى من تزوير الحياة بالباطيل التي زَعَمَ أنها أباطيل الطاعات وما أقرَّبَها
من أباطيل المعصية. ولم يكن هذا المفتي قد سمعني ولا حَضَرَ مجلسي، ولولا
الذي لم يعرفه من ذلك لقد كان عرف.

وجادلته فرأيتُه واهنَ الدليل ، ضعيفَ الحجّة ، يُخَمِّنُ تخمينَ قبيحٍ ، وينظر إلى الحفايا من سقائق النفوس نظرَ صاحب النصّ إلى الظاهر ، كأن الحقيقة إذا أُلقيتْ على الناس مضتْ باهتةً كمتوى المفتى . . . ويزعم أنّ الوعظَ وعظ الفقهاء ، يقولون : هذا حرام . فيكون حراماً لا يُعارِفه أحد ، وهذا حلالٌ فيكون حلالاً لا يتركه أحد ؛ وهو كان بعيداً عن حقيقة الوعظ ومدّاخله إلى النفس وسياسيته فيها ، ولا يعرف أن الحقيقة كالآتي : إن لم تُزَيَّنْ بزِينتها لم تَسْتَهْوَ أحداً ، وأن الموعظةَ إن لم تَرَأَدْ في أسلوبها الحيّ كانت بالباطل أشبه ! وأنه لا يغير النفس إلا النفسُ التي فيها قوّة التحويل والتغير ، كنفس الانبياء ومن كان في طريقة رُوحهم ، وأن هذه الصناعة إنما هي وضعُ نور البصيرة في الكلام ، لا وضعُ القياس والحجّة ، وأن الرجلَ الزاهدَ الصحيحَ الزهد ، إنما هو حيّاه تلبسُها الحقيقة لكونه شيئاً في الحياة والعمل . لاشيئاً في القول والتوهم ، فيكون إلهاؤها فيه كرامة النار في النار : من وآثامها أحسّها .

ولعمري ، كم من فقيه يقول للناس : هذا حرام . فلا يزيد هذا الحرام إلا ظهوراً وانكشافاً مادام لا ينطق إلا بنطق الكتب ، ولا يحسن أن يصل بين النفس والشرع ، وقد خلا من القوة التي تجعله روحاً تتعلق الأرواح بها وتضعه بين الناس في موضع يكون في اعتبارهم كأنه آت من الجنة مسدود فريب راجع إليها بعد قريب .

والفقيه الذى يتعلق بالمال وشهوات النفس ، ولا يجعل همه إلا زيادة الرزق وحظ الدنيا - هو الفقيه الفاسد الصورة فى خيال الناس ، يفهمهم أول شيء ألا يفهموا عنه ؛ إذ جرّسه فوق بصيرته ، وله فى النفوس رائحة الخبز وله معنى خمس وخمس عشرة ^(١) ... وكأن دنياه وضعت فيه شيئاً فاسداً غريباً يُفسد الحقيقة التى يتكلم بها ؛ ولست أدري ما هو هذا الشيء . ولكنى رأيتُ فقهاء يعظون ويتكلمون على الناس فى الحرام والحلال وفى نص كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ثم لم أجد لكلامهم نفعاً ولا رداً ؛ إذ يُليّمون الناس بأرواحهم غير المعنى الذى يتكلمون فيه ؛ وتسخر الحقيقة منهم - على حطّهم وجلال شأنهم - بذات الاسلوب الذى تسخر به من نص يعظ لصا آخر فيقول له : لا تصرف ...

* * *

قال ابن مسكين : فلما دار يوم السبت أقبل الناس على المسجد أفواجا ، وكاوا قد تعالّما لإزماعى الرحيل عن بلدكم - وجاء (لقمان الأمانة) فى أشياعه وأصحابه ، وجاء أبو إسحق المعنى فى جماعته ؛ واستقرى المجلس فنفضت الناس بنظري ، فكانهم من كثرتهم نبات غطى الارض ، فأذكرى هذا شيخنا السرى بن مُعَلِّس السقطى ^(٢) ، وكان قد لزم داره فى بغداد لا يخرج منها ولا يراه إلا من قصد إليه ، وهممت أن أجعل الموعدة فى شرح كتابته المشهورة : « لا تصح المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر : يا أمانا ، وما فعلوا عنه من أنه قال مرة لبعض أصحابه : منذ ثلاثين سنة وأنا فى الاستغفار من قولى :

(١) يريد أنه فى هذه الدنيا « عملية حسائية . . . وفى أيام صغره الدين يكون الفقه استخراج الدرام من النصوص .

(٢) السقط - ردى المناخ (روبايكيا) وباتمه ، السقطى ؛ وهذا الإمام العظيم كان أوجد أهل زمانه فى الورع ، وله كلام إلهى مشرق ، وقد توفى عن سن عالية فى سنة ٥٢٥ هـ

(الحمد لله) ائفال صاحبه : وكيف ذلك ؟ قال : وقع بينداد حريق ، واستقبلني رجل فقال : بما حاولت . فقلت : الحمد لله . فأنا نادم من ذلك الوقت على ما قلت ؛ إذ أردت لنفسى خيراً من الناس !

قال ابن مسكين : ولكي أحببت أن أكلم المفتي ومال المفتي ؛ فحدثهم حديث معرفي بالسري : أي سمعت يوماً (غيلان الحياط) يقول : إن السري كان اشترى كُرَّ لوز^(١) بستين ديناراً ، وأثبت في رزانه^(٢) وكتب أمامه : ربحه ثلاثة دنانير^(٣) فلم يلبث أن غلا السعر فبلغ تسعين ديناراً ؛ فأناه الدلال الذي كان اشترى له فقال : أريد ذلك اللوز . قال الشيخ : خذه . قال : بكم ؟ فقال : بثلاثة وستين ديناراً . وكان الدلال رحلاً صالحاً ، فقال للشيخ : إن اللوز قد صار الكُرَّ تسعين . قال السري : ولكني عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله ، فليست أبيع إلا بثلاثة وستين ديناراً ؛ فقال الدلال : وأنا قد عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله ، ألا أعش مسلماً ؛ فليست أشتري منك إلا بتسعين ؛ فلا الدلال أشتري منه ، ولا السري ماعه ... !

قال أحمد بن مسكين : فلما سمعت ذلك لم تكن لي همة إلا أن ألقى الشيخ وأصحته وأخذ عنه ، فلم أعزج على شيء حتى كنت في المسجد الذي يعلى فيه فأحذه في خلقتة وعنده عن كنت أعرفهم : عبد الله بن أحمد بن حنبل ، وإدريس الحداد ، وعلي بن سعيد الرازي ، وحوله خلق كثير ، وهو فيهم كالشجرة الخضراء بين الهشيم تعلوه نضرة روحه ، وكأما يمدّه بالنور عرق من السماء ، فهو تلاً للدين ؛ ولا يملك الناظر إليه إلا أن يحس في ذات نفسه أنه الأدنى

(١) الكُرَّ (نصم الكاف) . مكيال عظيم قدرون به في الحساب . وهو أربعون إردباً مصرياً .

(٢) أي دفتر حسابه .

(٣) خمسة في المائة .

من رؤيته في ذاتِ نفسه أن هذا هو الإنسانُ الأعلى .

ورأيتُ على وجهِ آلاما تَمَسُّحُهُ مِسْحَةُ الأَشْوَاقِ لِمِسْحَةِ الآلامِ ، فهو آثارُ ما يَحْدُهُ في روحه القوية ، لا كآلامِ النَّاسِ التي هي آثارُ الحرمانِ في أرواحهم الواهنة الضعيفة فلا تَمَسُّحُ وحوهم إِلَّا مِسْحَةُ النِّعمِ والكآبةِ .

وما يَخْطُئُ النَّظَرُ في تمييزِ آلامِ السماءِ على هذه الوجوه السعيدة من آلامِ الأرضِ في الوجوه الأخرى ، فَإِنَّ الأولى تَتَنَدَّى على رُوحِ الناظرِ بِمَثَلِ الطَّلِّ إِذَا قَطَرَهُ الفجرُ ، والأخرى تَتَنَوَّرُ في روحه كما تَهْبِجُ الغَبْرَةُ إِذَا ضَرَبَتْ الرِّيحُ الأرضَ .

كان الشيخُ في وجودٍ فوق وجودنا ؛ فلا تَلَوَّنَ له الأشياءُ ، ولا تعدو عنده ما هي في نفسها ، ولا يحملُ الشيءُ له إلا معناه من حيث يصلحُ أو لا يصلحُ ، ومن حيث يلبغى أو لا يلبغى . فإِذَا تَلَوَّنَ الأشياءُ عند ما يضعُ الشيطانُ عينه في عينِ الناظرِ إليها ؛ وإِذَا تَزِيدُ وتَنْقُصُ في القلبِ عند ما يكونُ رُوحُ الشيطانِ في القلبِ ؛ وإِذَا يَشْتَدُّ ما يلبغى وما لا يلبغى عند ما يأتي الشيءُ من جهنين ؛ جهته من طبيعته هو ، وجهته من طبيعتنا نحن . وبهذا قد يجمعُ الإنسانُ المسالِمُ ثم لا يجدُ في المسالِمِ معنى البغى ، وقد تنقُ أسبابُ العِيمِ ولا يكونُ منها إِلَّا الذلُّ . وكَمِ من إنسانٍ يَحْدُ وكأَنه لم يَحْدُ إِلَّا عَكْسَ ما كانَ يبغي ، وآخَرَ لم يَحْدُ شيئاً ووجدَ بذلكَ راحتَهُ .

قال ابن مسكين : وما كان أشدَّ عَجَبِي حين تكلم الشيخُ ، فقد أُحْبِبَ عَمَّا في نفسى ولم أسأله ، كَأَنَّ الذى في فكرى قد انقلَّ إليه ؛ فروى الحديثُ : « إِذَا عَظَّمْتَ أَمْرَ الدِّينَارِ والدِّرْهَمِ ، نُزِعَ مِنْهَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ : وَإِذَا زَكَّوْا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، حُرِّمُوا بَرَكَهَ الْوَحْيِ . » ثم قال في تأويله :
إِنَّ مَلَكَ الْوَحْيِ يَرُلُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لِيُخَصِّصَ صَوْلَهُ الْأَرْضَ بِصَوْلِهِ السَّمَاءَ .

فإذا بقي الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، بقي عملُ الوحي إلا أنه في صورة العقل ، وبقيت روحانية الدنيا إلا أنها في صورة النظام ، وكان مع كل خطيئة تصحيحه ؛ فيصحُّ الإنسان بذلك تنفيذاً للشرعية بين أمرٍ مطاعٍ وأمورٍ مطيع ، فيعامل الناس على حالةٍ تحمل بعضهم أستاذاً لبعض ، وشيثاً مهم تعديلاً لشيء ، وقوةً سنداً لقوة ؛ فيقوم العزم في وجه التهاون ، والشدة في وجه التراخي ، والقدرة في وجه العجز ؛ وهذا يكونون شركاء متعاونين ، وتعودُ صفاتهم الإنسانية وكأنها حيشٌ عاملٌ يناصرُ بعضه بعضاً ، فتكونُ الحياة مفسرةً مادامت معانيها السامية تأمرُ أمرها وتُلهمُ إلهامها ، وما دامت ممثلةً في الواجب النافذِ على الكل .

والناسُ أحرارٌ متى حكمتهم هذه المعاني ، فليست حقيقة الحرية الإنسانية إلا الخضوعُ للواجب الذي يحكم ، وبذلك لا يغيره يتصلُ ما بين الملك والسوقة ، وما بين الأغنياء والعقراء : اتصالُ الرحمة في كل شيء ، واتصالُ القسوة في التأديب وحده ؛ هركةُ الوحي إلهامها هي جعلُ القوة الإنسانية عملاً شرعياً لا غير أما تعظمُ الأمة للدينار والدرهم ، فهو استعبادُ المعاني الحيوانية في الناس بعضها لبعض ، وتقطعُ ما بينهم من التشابك في لحمِ الإنسانية ، وجعلُ الكبير فيهم كبيراً وإن صغرت معانيه ، والصغير فيهم صغيراً وإن كبر في المعاني ؛ وهذا تموجُ الحياة بعضها في بعض ، ولا يستقيم الناسُ على رأيٍ صحيح ؛ إذ يكونُ الصحيحُ والفاقدُ في ملكِ الإنسان لا في عملِ الإنسان ، فيكنزُ العبيء ما لا ويكره الفقيرُ عداوةً ، كأن هذا قتلُ ماله هذا ، وكأن أعمالاً قتلت أعمالاً ، وترجعُ الصفاتُ الإنسانية متعاديةً ، وتُناعُ المضائل وتشتري ، ويزيد من يزيد ولكن في القسوة ، وينقص من ينقص ولكن في الحرية ، وتكونُ المفسدةُ الداتية هي التي تأمرُ في الجميع وتنهى ، ويدخلُ الكذبُ في كل

شئ حتى في النظر إلى المال ، فيرى كل إنسان كما يدرهه وديناره أكبر قيمة من دينار الآخر ودرهيه ، فإذا أعطى نقص قش ، وإذا أخذ زاد فسرق ؛ وتصبح النفوس نفوساً تجارية تُساوم قبل أن تدبث لفضيلة ، ومما كُس إذا دُعيت لأداء حق ، ويتعامل الناس في الشرف على أصول من المعدة لا من الروح ، فلا يقال حينئذ : إن رغيفين أكثر من رغيف واحد . كما هي طبيعة العدد ، بل يقال : إن رغيفين أشرف من رغيف . كما هي طبيعة النفاق . أما التجارة - وهي التفسير الظاهر لمعاني النفوس - فتُصبح بين الغش والضرر والمأكرة ، وتكون يقظة التاجر من غفلة الشاري ، وتفسد الإرادة فلا تحدث إلا آثارها الزائفة . وما التاجر في الأمة القوية إلا أستاذ لتعليم الصدق والخلق في الموضع المتقلب ، فكلمه كالرقم من العدد لا يحتمل أزيد ولا أنقص مما فيه ، ويمتنع بالدينار والدرهم أشد مما يُمنحن العائد بصلاته وصيامه . وقد شهد رحل عند عمر بن الخطاب في قضية ، فقال له عمر : أتني بمن يعرفك ، فأناه برحل أتني عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت حاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا ، قال : فكنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا ، قال : فماملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع الرجل ؟ قال : لا .

قال عمر : أظنك رأيته قائماً في المسجد يُهمهم بالقرآن ، يَحْفِضُ رأسه طوراً ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم .

قال : فاذهب فلست تعرفه !

ولما التاجر صورة من ثمة الناس بعضهم بهض ، وإرادة الخير واعتقاد الصدق ، وهو في كل ذلك مظهرٌ توضع اليد عليه كما تحسُّ اليد مرضى المريض وصحته .

فإذا عظمت الأمة الدينار والدرهم، فإنما عظمت النفاق والطمع والكذب والعداوة والقسوة والاستعباد؛ وبهذا تقيم الدنانير والدرام حدوداً فاصلة بين أهلها، حتى لتكون المسافة بين غني وفقير كالمسافة بين بلدين قد تباعد ما بينهما . وإعماهيبة الإسلام في العزة بالنفس لا بالمال ، وفي مذل الحياة لا في الحرص عليها ، وفي أخلاق الروح لا في أخلاق اليد . وفي وضع حدود الفضائل بين الناس لا في وضع حدود الدرام ، وفي إزالة النقائص من الطباع لا في إقامتها ، وفي تعاون صفات المؤمنين لا في تعاديبها ، وفي اعتبار الغنى ما يُعملُ بالمال لا ما يُجمعُ من المال ، وفي جعل أول الثروة العقل والإرادة ، لا الذهب والفضة .

هذا هو الإسلام الذي غلب الأمم ، لأنه قبل ذلك غلب النفس والطبيعة .

دعابة إبليس

أما إنى سأقص هذه الحكاية كما اتفقت ، لا أزينها بحيال ، ولا أزيّد فيها بخير ، ولا أولد لها معنى ؛ فإنما هى حكاية خُبث الخبيث : فثنا حذقه ودهاؤه ، ورقتها غلظته وشره ، ومعانيها بلاؤه ومحنته ، وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، واقفه المستعان .

لما فكرتُ فى وضع مقالة (إبليس) من أحاديث (ابن مسكين) ، وأدرتُ رأى فى نهجها وحدودها ومعانيها ، جعل فكرى يتقطع فى ذلك ، يذهبُ ويحى . كأن يبدى وبينه منازعة ، أو كأن فى نفسى شيئاً يثنى ويقطعنى عن القزم ؛ وخيل لى حينئذ أن (إبليس) هذا منفعة من المنافع ... وأنه هو قانون الطبيعة الذى نصر مادته الأولى : ما أعجبك فهو لك : ونصر مادته الأخيرة : ما احتجت إليه فتمنه أن تعدد على أخذه ...

وحجس فى نفسى هاجس : أن (إبليس) قائم فى لفظ الحرب كما هو قائم فى لفظ الإثم ، وأه إن يكن فى قلوب المُساق فهو أيضاً فى أدمغة الفلاسفة : وإن كان فى سقوط أهل الرذيلة إلى الرذيلة ، فهو كذلك فى سمو أهل الص إلى الص ... قال الهاجس : وإن (إبليس) أيضاً هو صاحب الفضيلة العملية فى هذا العصر المادى ، فهو من ثم حق أن يلقوه «صاحب الفضيلة ...» ولكن لم أحفل بهذه الوسوس ولم أنتح على شئ منها ، واسعتُ أفقه . أمضيتُ بيتى على الكتابة ، وأخذتُ أقلبُ الموضوع . وأنه فكرى له ،

(د) انظر ص ٢٧٥ من كتابنا «حياة الرافعى» .

(١) الدساة المراح واللب ، وكل ما سبرد فى هذه المعالاه هو صحيح لم يمزج

به شيئاً

وَأَسْتَشْرِفُ لِمَا يُوْدِي إِلَيْهِ النَّظَرُ ، وَأَتَطَّلَعُ لِمَا يَجِيءُ بِهِ الْخَاطَرُ ، وَالنَّشْءُ مَا أَبْيَى عَلَيْهِ الْكَلَامَ كَمَا هِيَ عَادَتِي ^(٥) ، فَلَمْ يَقَعْ لِي شَيْءٌ أَلْسَنَةً ، كَأَنَّمَا ذَهَبَ أَوَّلُ أَبْتَدَاءِ الْمَوْضُوعِ فَلَا أَوَّلَ لَهُ وَلَا سَبِيلَ إِلَى اقْتِحَامِهِ ، وَكَأَنَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْعِلْمِ فَلَا يُبْلَغُ إِلَيْهِ ، وَكَأَنَّهُ مِنَ التَّعَذُّرِ كَمَا حَاوَلْتُ تَصْوِيرَ حِمَاةِ الْحَيَاةِ كُلِّهَا فِي كَلِمَةٍ ؛ وَإِلَيْسَ كَلِمَةً فِيهَا حِمَاةُ الْحَيَاةِ كُلِّهَا !

وَمِنْ عَادَتِي فِي كِتَابَةِ هَذِهِ الْفُصُولِ الَّتِي تَنْشُرُهَا (الرَّسَالَةُ) ^(٦) ، أَنْ أَدْعِ الْفَصْلَ مِمَّا تَقْلَهُ الْحَوَاطِرُ فِي ذَهَبِ أَيَّامِ الثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَةِ وَالْخَمِيسِ ، وَأَتْرَكَ أَمْرَهُ لِلْقُوَّةِ الَّتِي فِي نَفْسِي ، فَتَتَوَلَّى الْمَعَانِي مِنْ كُلِّ مَا أَرَى وَمَا أَقْرَأُ ، وَتَنْتَالُ مِنْ هَهُنَا وَهَهُنَا ، وَيَكُونُ الْكَلَامُ كَأَنَّهُ شَيْءٌ حَتَّى أُرِيدَ لَهُ الْوُجُودَ فَوْجِدَ .
تَمَّ أَكْتُبُ نَهَارَ الْجُمُعَةِ ، وَمِنْ وَرَائِهِ لَيْلُ السَّبْتِ وَلَيْلُ الْإِحْدِ كَالْمَدَدِ مِنْ وَرَاءِ الْحَيْشِ إِذَا نَالَتْنِي قِرَّةٌ أَوْ كُنْتُ عَلَى سَفَرٍ أَوْ قَطَعْتَنِي عَنِ الْكِتَابَةِ شَيْءٌ مَا يَغْرِضُ .

وَفِي أُسْبُوعِ إِبْلِيسَ (لَعَنَهُ اللَّهُ) ، مَرَّتِ الْإَيَّامُ الثَّلَاثَةُ وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَلْوَانٍ : ضَحَرَ لَارُوحَ فِيهِ ، وَكَسَلُ لَانِشَاطٍ مَعَهُ ، وَأَضْطَرَابُ لَامِسَاكٍ لَهُ ، وَأَطْلَتْ التَّفَكُّيرَ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، فَكَانَتْ تَعْتَرِي حَوَاطِرُ مُضِجِكَةٍ : فَيَعْرِضُ لِي مَرَّةً أَنْ أُصَوِّرَ إِبْلِيسَ أَمْرًا لِيَكُونَ إِبْلِيسَ الْجَمِيلَ .. وَتَارَةً أَتَوَهَّمُ أَنْ إِبْلِيسَ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ شَيْخًا كَمَعْضِ رِحَالِ الدِّينِ الَّذِينَ لَا تَزَالُ تَطْلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ، لِيَقَالَ إِبْلِيسُ التَّقِيُّ الْمُصْلِي ... وَحِينَئِذٍ أَظُنُّ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا مُؤَلِّفًا شَهِيرًا ، لِيَقَالَ إِبْلِيسُ الْمَفْكَرُ الْمُصْلِحَ .. وَخَطَرُ لِي أَخِيرًا أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ حَاكِمًا

(٥) انظر : كيف كان يكتب ، في كتاب : حياة الرضي ، ص ٢٢٠ - ٢٢٧

(٦) مجلة الرسالة ، وكل مقالات هذا الجزء والجزء الأول كنت لها ونشرت

فيها ، إلا فصولا قليلة (قلت وكذلك أكرر فصول الجزء الثالث) .

ملجداً شيوخياً عاجراً ، ليكون إبليس التام ، لا إبليس الناقص ...

ولما ذهبت الأيام الثلاثة باطلاً ، خِيلَ لِيَّ أَنَّ إبليسَ (أخزاه الله) يسألني عن المقالة : إلى أى شئ أَقْلَبْتُ ... ؟ فشَقُّ ذلكَ عَلَيَّ وَأَعْتَمَمْتُ بِهِ ، غَيْرَ أَنِّي أَطْمَأْنَنْتُ لِي يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَأَنَّ وِراءَهُ لَيْتَنِي ؛ وَكَانَتْ قَدْ غَرَبَتْ شَمْسُ الْخَمِيسِ فَقُلْتُ : فَلَا خُرْجَ لَا تَفْرَجَ بِنَايَ ، وَعَسَى أَنْ أَجْعَلَ نَفْسِي لِلتَّفَكِيرِ إِذَا جَلَسْتُ فِي النَّدِيِّ ، وَلَعَلَّهُ يَقَعُ مَا اسْتَوْحِيهِ أَوْ يَنْفَتِحُ لِي بَابٌ فِي الْقِرَاءَةِ .

وخرجتُ ، فلم أَجَاوِزِ الدَّارَ حَتَّى أَتَدْرِنِي مِنْ هَبْطٍ عَلَيْهِ الْخَبْرُ مِنَ الْقَاهِرَةِ أَنَّ سَيِّباً لَنَا مِنَ الْعِظَاءِ تَوَيَّ أَخُوهُ الْيَوْمَ . فَقُلْتُ : لِأَحْوَالٍ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ! ضَاعَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ؛ إِذْ لَا بَدَّ مِنَ السَّفَرِ لِتَشْيِيعِ الْجَنَازَةِ وَحُضُورِ الْمَأْتَمِّ ؛ ثُمَّ قُلْتُ : لَعَلَّ فِي هَذَا السَّفَرِ اسْتِجَاماً وَنَشَاطَافاً فَاسْتَدْرَكَ الْإِسْبُوعَ كُلَّهُ فِي يَوْمَيْنِ ، وَإِنَّمَا الْاسْتِكْتَارُ بِالْقُوَّةِ لَا بِالزَّمَنِ ، وَلَا يَدُ إِبْلِيسَ فِي الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ ، فَلَيْسَ إِلَّا أَطْرَاحُهُ وَقَلَّةُ الْمُبَالَاهَةِ بِهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ خَطَرَاتٌ مِنْ وَسْوَاسِهِ

وَأَصْبَحْتُ فِي الْقَاهِرَةِ ، وَمَشَيْتُ فِي الْخَنَازَةِ قَبْلَ الظُّهْرِ مَسِيرَةً سَاعَةً كَامِلَةً ؛ وَكَانَتْ الشَّمْسُ سَاطِعَةً تَلَّالًا ، وَأَنَا مُثْقَلٌ بِثِيَابِ الشِّتَاءِ ، وَكَنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنَّ يَكُونُ الْيَوْمُ مِنْ أَيَّامِ الرِّيحِ الْمَجْنُونَةِ ؛ فَلَمَّا أَتَيْنَا إِلَى الصَّحْرَاءِ ، هَتَّتِ الرِّيحُ هَبُوباً لِيَبَّاً ، ثُمَّ زَفَّتْ فَكَانَتْ إِلَى الشَّدَّةِ مَا هِيَ ، وَلَكِنَّمَا مَاضِيَةٌ تَسْفِي الرَّمْلَ فِي الْأَعْيُنِ ، فَيَأْخُذُ فِي أَجْفَانِي أَكَالٌ وَتَهْيِيجٌ ، وَلَيْسَ مَعِيَ شَيْءٌ أَنْقِيَهَا بِهِ ؛ غَيْرَ أَنِّي شَغَلْتُ فِكْرِي بِرُؤْيَا الْمَقَارِ ، وَجَعَلْتُهَا فِي نَفْسِي كَالْمَقَالَةِ الْمَكْتُومَةِ سَطَراً وَرَاءَ شَطَرٍ . وَقُلْتُ : هَهُنَا الْحَقِيقَةُ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِهَا ، وَغَيْرُ الْمَقْهُومِ فِي الْحَيَاةِ يُفْهَمُ هُنَا . ثُمَّ رَجَعْتُ مُنْذَى الْجِسْمِ بِالْعَرَقِ وَعَلَى نَضْحٍ مِنْهُ ، وَكَانَ الْغَمِيقُ مِنَ الْعَدْوِ ، وَبَصْدَرِي أَثْرَمَ مِنَ الرِّلَّةِ الْمُسْحَبَةِ ، وَإِذَا تَنْدَى الصُّوفِ وَحَبَّ زَعُهُ ، إِلَّا فَهِيَ الْوَاثِقَةُ مَامِنَهَا بِنَايَ

ثم لم تكن إلا ساعة حتى انخرقت الریح وجعلت تعصف وبرد الجوّ ،
ما يقبّت أمه الزكام ، وقلتُ في نفسي : هذا بابٌ على حدة ، والمقالة ذاهبة
لأعماله ، فسيخلفُ الذهن ويتبدّل : والشيطانُ كريم في الشّرّ ، يُعطى من غير
أن يسأل ...

وتقلّ ذلك على مكان النعم به علةٌ جديدة ، بيد أني لم أزل أرجو الفرصة
في أحد اليومين : السبت والاحد ؛ وقلت : إن من البلاء الفسك في البلاء ،
ولعل من السلامة الثقة بالسلامة ؛ فإذا نهت العريضة رجوت أن يتعلّق أثرها في
البدن كلّ ، فيكون علاجاً في الدم يتحدّث به النشاط ، ويُرهفُ منه الطبع ، وتحمّ
عليه النفس ؛ وفي قوة العصب كهربائية لها عملها في الجسم إذا أحس
لملأه بعثها في نفسه وأحكم إفاضتها وتصريفها على طريقة رياضية ؛ ولهي
الدواء حين يعجز الدواء وهي القوة حين تحذل القوة .

فاعترمت وصممت ، واحتلت على الإرادة ، وتكثرت من أسباب الثقة
وترصدت لها السوايح العقلية التي تسنح في النفس ، وقلت لإبليس : اجهد
جُهدك ، فما مذهبٌ مذهباً إلا كان لي مذهب ؛ ولكنّ اللعين أخطر في ذهني
قول القائل يسخر فيه من ذلك الكاتب البعادي ^(١) .

لوقيل . كم خمسٌ وخمسٌ لا غندى يوماً وليته يُعدّ ويتحسّب ،
ويقول : معصلةٌ عجيبٌ أمرها ولئن فهمتُ لها لأمرى أعجبُ
خمسٌ وخمس ستة ، أو سبعة ؛ قولاً : قالها الخليل وتعلب ...

ثم أجمعت الرجوع من يومى إلى (ططا) ، لانتقى البرد علاجه إن مالى

(١) قيل هذا السر في وصف «روان الكاتب» وهو رجل من بغداد . وكان
كاتباً على الخراج ، وسدّه الأمر بهذا الأسلوب البديع

أثره ، وكان على وقت إلى أن يقوم القطار ، فذهبت فقصيت واجباً من زيارة بعض الأقارب في ضاحية (الجيزة) ، ثم ركب الترام الذي أعلم أنه ذاهب إلى محطة سكة الحديد .

وحسنت أفكر في إبليس ومقالته ، والترام يلبعث في طريقه نحو ثلث الساعة ، حتى بلغ الموضع الذي ينعرج منه إلى المحطة ، وهو بحيال (جمعية الإسعاف) ، حيث تشعب طرق أخرى ؛ وكنت منصرفاً إلى التفكير مستغرقاً فيه ، طائف النظرات على الجو ؛ فاراعني إلا اختلاف منظر الطريق ؛ وأتنبه فإذا الترام يمزق مروق السهم في تلك السيل الصاعدة إلى (الجيزة) ... من حيث جئت .

فلعنت الشيطان وتلبنت حتى وقف هذا الترام ، معادته ورجعت مهزولاً إلى ذلك الملتصّب ، فصادفت تراماً آخر ، هو ثبت إليه كأني أتحل إليه حملاً ، ودعيت الأجرة ، وانطلق ، فإذا هو منصّب في تلك الطريق عنها الذاهب إلى الجيزة من حيث جئت . . . ولا أستطيع الانحدار منه وهو منطلق ، قدسخت ولعنت الشيطان مرة أخرى ، ورأيت أن عبه قد ترادف : هذا سكر الترام رجعت مهزولاً إلى ذلك الملتصّب ولم يبق من الوقت غير قليل . وأطرأتم ، فإذا ترام وراء ترام ، وإذا قد وقعت حادثة لإحدى السيارات واجتمع الناس وسدت الطريق .. فجعلت أغلى من العظ ، ولست هذا الدعابة الحبيب ، وأذكرني اللعين بادرة الاعرابي الذي عهده نواب ، فأني راقياً ، فقال له الراقى : ما عصاك ؟ ما سجي أد يقول نلب ، وقال : كلب ، فلما ابتدأ الرجل برقية الكلب ، قال له الاعرابي : وأخط بها شئنا من رقبه الثعالب ..

ثم إلى لم أربدا من بلوغ المحطة على قدمي ، لآتم على عزمي في مراغمة اللعين ، فأسرعت أطوى الأرض وكأما أخوض في أحشائه ، وكان بصدرى التهاب فهاج بي ، غير أني تجلّدت واتسعت لاحتبائه ، وبلغت حيث أردت . ثم ذهبت النفس في القطار عربية خاصة أعرّفها ، كانت من عربات الدرجة الأولى يجعلوها في الثانية يرفهون بها بعض الترفيه على طائفة من المسافرين ؛ وأصبحت فيها مكاناً خالياً كأنما كان مهياً لي بخاصة ... فاصططت فيه إلى جانب رجل أوربي أحسبه ألمانيا لفأوت خلقه وعنجييته ؛ وجلست أنفّس عن صدرى ، ثم أقبلت أسخر من إبليس وبكايته ، وجعلت أتعجب عما اتفق من هذا التدبير !

وتحرك القطار وانبعث ، وكان الأوربي إلى جانبي مما يلى النافذة وقد تركها مفتوحة ، فأحسست الهواء ينصبّ منها كالماء البارد وأنا متنبّ بالمرق ؛ وترقبت أن يعلّقها الرجل فلم يفعل . فصارته قليلاً فإذا هو ساكن مطمئن يتروّح بالهواء وكأنما يشربه ، وتأملتُه فإذا شيخ في حدود الستين أو فوقها ، غير أنه على بقية من قوة مصارع في اكتناز عضله واجتماع قوته وواقفه تركيبه . فأيقنت أن الهواء من حاجته ، وهممت أن أنبهه أو أقوم أما فأغلق النافذة ، ولو شئت أن أفعل ذلك فعلت ، غير أن الشيطان أحزاه الله وسوس لي : أن هذا رجل أجنبي غربي ، وأنت مصري شرقي ؛ فلا يحسن بك أن تُعليه وتعلم الحاضرين أمامك أنك أنت الأضعف على حين أنه هو الأسس ، وكيف لا تقوم لما يقوم له وقد كنت تُباكر الماء البارد في صميم الشتاء . وكنت لا تلبس في أشد أيام البرد غير ثياب الصيف ، وكنت تحمل كذا وكذا ثقلاً للرياضة ، وتُمانى كذا وكذا من ضروب القوة ، وكنت تلوى بديك عود الحديد ، وكنت وكنت ...

فتذمّت والله بما خطر لي ؛ وأنفّت أن أنبه الرجل ، ورأيت عملي هذا ضعفاً وفسولة ، ولم أعبأ بالهواء ولا بالعرق ولا بالنزلة الشعبية ولا بالزكام ، وتركت الأوربي وشأنه ، وأقبلت على كتاب كان في يدي ، وتناسيت أن هذه النافذة جهة من تدير إبليس ؛ وكان القطار مزدهجاً بالراجعين من المعرض الزراعي الصناعي ، وبعض الناس وقوفٌ فلا مطمعٌ في مكان آخر ...

ولبثت ساعةً ونصفَ ساعةٍ في تيّار من هواء فبراير ينصبّ انصباباً ويُعصِفُ عَصْفاً ، وكأنّ أسبح منه في سحرٍ تحت ظلة الليل الماطر ، والباس معجبون بي وبالأوربي ، وهذا الأوربي معجبٌ بي أكثر منهم ، وقد رأى مكاناً وعرف موضعي ؛ وكان إلى يميني مجلسٌ بقي خالياً ولم يُقدِّم أحدٌ علي أن يجلس فيه ، خوفاً من الهواء ومن الرجل الأوربي ..

ثم تراءيت أنوارَ محطة (طنطا) ولم يبق من هذه المحطة غير دقيقتين ؛ فواقه الذي لا يُخْلَفُ بنير اسمه عزّ وجلّ ، لقد كان لإبليس رقيقاً جلفاً بارداً ثقيل المزاج ؛ إذ لم أكذّ أنهاً للقيام ، حتى رأيت الرجل الأوربي قد مدّ يده فأغلق النافذة ...

ورجعت إلى داري وأنا أقول : ثم ماذا يا إبليس ؟ ثم ماذا أنها الدعيب ^(١) ؟ وحاولت بجهدى أن أكتبَ أو أقرأ فلم أتحركَ لشيء من ذلك ، وكادت الساعة العاشرة ليلاً فصليت وأويت إلى مضجعي .

ثم أصبحت يوم السبت ، فإذا كتابٌ من الأستاذ صاحب (الرسالة) : أنه سيطلع عددين معاً فريد لهما مقالتي ؛ إذ تُغلق المطبعة في أيام عيد الأضحى ؛ وكان أملي في المقالة الواحدة مخزولاً بما قاسيت ، فكيف لي بالنتين ؟

(١) اللاعب والمداعب والدعابة (بشديد السخف) كلها بمعنى .

واختَلَطَ في نفسى ثم بهم ، وما يُفْسِدُ على أمرى شئٌ مثلُ الضيق ، فإذا تضايقتُ كنتُ غيرَ من كنتُ ؛ ولكنى تيقظتُ وتلبّيتُ وأملتُ العافية بما أجده من ثَقَلِ البردِ وَضَعْفَتِهِ ، وأحدثتُ طمعاً في النشاط إذا جلستُ للكتابة في الليل ، فإني بالنهار أحمل للحكومة .

فلما كان الليلُ لم أجد أمرى على ما أحب ، وجلستُ متفثراً مُعْتَلًا ، وقُلُ رأسى من ضَرَةِ الذاكرة ، وتسلَّطَ على ظَنِّ المرض والعجز عن الكتابة ، وانتقض الامرُ كله فأيتنى أشقُّ على نفسى بلا طائل ، فكان من صواب التدبير عندي أن أستريحَ بالنوم ثم أمهضَ في السَّحَرِ للكتابة : فأوصيتُ من يوقظنى ، وحزرتنا الساعة المنبِّهة على تمام الثانية بعد منتصف الليل .

وأحسستُ أنى حائع ، وأن معدتى مشحودةٌ ، ونسيتُ كلَّ ما أعرف من الطب ؛ وجاءنى بِشَوَاءٍ وحلوى وما بينهما ، لمعطتُ فيه ولَفَقْتُ الآخرَ بالأول ، ثم قمتُ أريد النوم ، فإذا الطعامُ كان أشدَّ علىَّ من نافذة القطار ، وكان الذى فى الفكر من المقالة أثقلَ من الذى فى المعدة من الطعام ، وساء الهضمُ فى الدماغ والبطن جميعاً !

وجعلتُ أتأوَمُ وأرجى أعضائى وأتوَمَ الكرى وأستدنيه بكل ما أعرف من وسيلة ، ثم لا أزداد على ذلك إلا أرقاً ، وتمزّد الفكر ، وأحسستُ رأسى يكاد ينفجر ، وصرتُ أتملّلُ ولا أتناه ، وتوهمتُ أن لو كان لى عقلان ما استطعتُ كتابة المقالة عن إبليس لسه الله ؛ وأذكر فى الحديثُ مادرةً مضحكة : أن رجلاً كان يركب حماراً صعباً ، وكان يعثه فلا يلبث ، فجعل يضربه ، فقيل له : أرققْه . فقال : إذا لم يقدرْ يمشى فليَم صار حماراً ... ؟

• • •

وقدعتُ بنفسى من الفراش ونظرتُ فى الساعة ، فإذا هى موشكة أن تبلغ

الثانية ولم أحسُّ الرقادَ بعد ، فأسرعت إلى المنبهة وحزرتها على تمام الساعة الرابعة صباحاً ، وأيقنتُ أن الشيطانَ يُرهِقُنِي طُغْيَاناً وَكَيْدًا ، فَطَلَفْتُ أَلْعَنَهُ ، وما أحسُّبه إلا قد رأى اللعنَ مَدَامًا فهو يستزيدني ...

ثم رجعتُ أحاول النومَ ، فإكان هذا الليلُ إلا شيئاً واحداً أولُهُ آخرُهُ إلى أن طلع الفجر .

وجاء يوم الأحد وهو يومُ عطلة الأوربيين ، فإشدَّ عجبِي إذ تركي فيه إبليس ، كأنهم لا يدعون له وقتاً في هذا اليوم

والآن يزِين لي الخبيثُ أن أختم هذه المقالة بـ... بـ... ولكن لا ، لا ، لا

(*)

الشیطان ...

قال الشيخُ أبو الحسن بن الدُّقاق : كان شيخِي أبو عبد الله محمد الأزهرِيُّ العجميُّ رضى الله عنه ، رجلاً صاحبَ آيات وخَوَارِجٍ بما فوقَ العقل ، كأنما هو سِرٌّ من الأسرار الجارية في هذا الكون ، قد بلغ بنفسه رتبةَ النجم في أُنْفِهِ البعيد ؛ ففيه أهواءُ الإنسان وشهوائُهُ وطباعُهُ ، إلا أنها كُنُوز النجم في تألقِهِ ولألانِهِ من إشراق روحِهِ وصفاتها ؛ وقد أرتفع بآدميته فوقَ نفسها ، فأصبح في الناس ومعه سماءُوه ، يحملُها بين قلبه وبين الدنيا .

والرجلُ إذا بلغَ هذا المبلغَ كان حياً كالملت ساعَةً احصارِهِ : ينظرُ إلى كل ما في الحياة نظرةً من يتركُ لا من يأخذ ، ومن يعتدُّ لا من يَعتَرُ ، ومن

يَلْفِظُ لَامِزٌ يَتَذَوِّقُ، وَمَنْ يُدْرِكُ السِّرَّ لَامِنْ يَتَعَلَّقُ بِالظَّاهِرِ ؛ وَيَرَى الشَّهَوَاتِ
كُلَّهَا مِنْ لُغَةٍ لَا يَعْرِفُهَا ، فَهِيَ أَلْمَازٌ فِيهَا مَعَانِي أَهْلِهَا لَا مَعَانِيهَ ؛ وَإِنَّمَا تَلْبَسُ
كُلُّنَا مَعَانِيَهَا مِنْ أَنْفُسِنَا ؛ وَفِي النُّفُوسِ مِثْلُ الْمَشِيمِ ؛ إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ الْمَعَانِي
الْمُشْتَعَلَةُ اسْتَطَارَ حَرِيقًا وَتَضَرَّرَ ، وَبِهَا عَلَى الْمَجَاهِدَةِ مِثْلُ الْمَاءِ ؛ فَإِذَا خَالَطَتْهُ
تِلْكَ الْمَعَانِي انْطَفَأَتْ نَارُهَا وَخَدَّتْ .

وَقَدْ سَأَلْتُ الشَّيْخَ مَرَّةً : كَيْفَ تَعْدُ الْكَرَامَاتُ وَالْخَوَارِقُ لِلْإِنْسَانِ ؟
فَقَالَ : يَا وَلَدِي ، إِنَّ الْإِنْسَانَ مِنَ النَّاسِ الْمَحْجُوبِينَ يَتَصَرَّفُ فِي جِسْمِهِ وَلَا يَكَادُ
يَمْلِكُ لِرُوحَانِيَّتِهِ شَيْئًا ، فَإِذَا أَلْبَى فِي الْمَجَاهِدَةِ وَوَقَعَ فِي قَلْبِهِ النُّورُ ، تَصَرَّفَ
فِي رُوحَانِيَّتِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لَجِسْمِهِ شَيْئًا ؛ فَمَنْ أَطَاعَ أَنْ يَفْسَلَخَ مِنْ شَرِيئَتِهِ ،
وَأَتَسَعَتْ ذَاتُهُ فِي مَعَانِي السَّمَاءِ بِمَقْدَارِ مَا ضَاقَتْ مِنْ مَعَانِي الْأَرْضِ ، وَكَانَ
مُعَدًّا لِأَنْ يَتَحَقَّقَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ ، مُعَانًا عَلَى ذَلِكَ بِطَبِيعَةٍ فَوْقَ الْأَعْتَدَالِ - فَقَدْ
شَاعَ فِي الْكَوْنِ ، وَأَصَابَ لَهُ وَجْهًا وَمَذْهَبًا إِلَى تِلْكَ الْقُوَّةِ الَّتِي تَهْدِمُ فِي الْعَالَمِ
وَتُنِي ، وَتَهْرَقُ وَتُجْمَعُ ، وَتَقْلُ الصُّورَ بِمِصْطَلَحِهَا إِلَى بَعْضٍ ؛ فَإِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ
جَوْهَرٌ وَاحِدٌ هُوَ الْبُورُ . حَتَّى الْجَلِيلُ هُوَ بُورٌ صَخِرِيٌّ ، وَحَتَّى الْبَحْرُ هُوَ بُورٌ
مَائِيٌّ ، وَحَتَّى الْحَدِيدُ وَالذَّهَبُ وَالتُّرَابُ ، كُلُّ ذَلِكَ بُورٌ ^(١) صَرَفَتْهُ الْقُدْرَةُ
الْإِلَهِيَّةُ تَصْرِيفَهَا الْمَعْجَزُ ، فَكَانَ عَلَى مَارِيٍّ : ظَاهِرٌ مُجَبَّلٌ يَلَامُ نَفْسَنَا وَمَعْجَزًا
وَحَقِيقَةً قَازِمَةً عَلَى غَيْرِ مَارِيٍّ . وَمَنْ ذَا يَعْقِلُ أَنَّ الصَّخَرَ بُورٌ مُتَجَمِّدٌ إِذَا لَمْ
يَكُنْ لَهُ إِلَّا عَقْلٌ عَلَيْهِ وَحَوَاسِيهِ ؟ وَمَنْ ذَا يُطَبِّقُ أَنْ يَفْهَمَ بِحَوَاسِيهِ وَعَيْنِهِ
قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : « وَتَرَى الْحَيَالَ تَحْسُبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » ، صُنِعَ
اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلُّ شَيْءٍ . ؟ فَالْجَلَالُ جَامِدَةٌ ثَابِتَةٌ ، غَيْرَ أَنَّهُا تَمُرُّ بِأَرْضِهَا وَتَمُوجُ

(١) كلمة البور هذه التي يعبر عنها اليوم بالكهرباء ، وقد ثبت أن الكون كله
هو هذه الكهرباء متحدة على ما شاء الله أن تكون

في نفسها؛ ومتى تأذن الله أن ينكشف نور كلامه للعقل الإنساني، فستكون هذه الآية علماً جديداً في الأرض، يثبت أن السحاب والجبل مادة واحدة وصنع واحد وبالمثل نظرية الإنسان وجهه إذا كانت الحقيقة غير مازي، فكل شيء في الدنيا هو رد على النظر الإنساني، ويكاد الجبل العظيم يكون كلمة عظيمة تقول للإنسان: كذبت!

فالشأن في الخوارق والكرامات راجع إلى القدرة أن يُسلط الإنسان الروحاني ما فيه من سر النور على ما في بعض الأشياء من هذا السر، وتلك هي طاعة بعض الكون لمن ينصرف عن المادة ويتصل بخالقها.

فإذا بقي في الرجل الروحاني شيء من أمر حسيه يقول: «أنا...» لم يكن في الرجل من تلك القدرة ذرة؛ فإن هو حاول أن يتغرق العادة أنى الكون أن يعرفه إلا كما يعرف حجراً ملقى يحاول أن يتصرف بالجبل الذي هو منه فينقله أو يزحزحه أو يرزله.

ولا خير على الأرض مطلقاً إلا وهو أخذ من حقوق هذه «أنا...» في إنسانها، ولا شر على الأرض مطلقاً إلا وهو إضافة حقوق إليها، فحين لا يبقى لها حق في شيء عند نفسها، يحب لها الحق عندئذ على كل شيء؛ وهذه هي الكرامة: تكريم الخليفة من أكرمه الخالق.

فمن أراد أن يتصل نفسه بالله، فلا يكن في نفسه شيء من حظ نفسه، ولا يؤمن إيمان هؤلاء العامة، يكون إيمانهم بالله فكرة تُذكر وتُنسى، أما عملهم فهو إيمانهم الراسخ بالجسم وشهواته يُذكر ولا يُنسى.

وأنت ترى رجالاً الروح يأكلون ويشربون ويلبسون، ولكن هذا كله ليس فيه ذرة من أرواحهم، على خلاف غيرهم من الناس، فهؤلاء كل أرواحهم في مطاعهم ومناعهم؛ ومن ثم لا يحرى الشيطان من الأولين

إلا في تجار ضيقة أشد الضيق لا يكادُ ينفذُ منها إلى فكرٍ أو شهوةٍ أو حُلْمٍ من أحلام الدنيا ، أما الآخرون فالشيطانُ فيهم هو تيارُ الدَّمِ يَعْبُ عُبَابُهُ في الأسفل والاعلى

* * *

قال أبو الحسن : وكما يوشد في دمشق ، فنهى كلامُ الشيخ عن الشيطان إلى ما قرأته عن كثيرين ممن رأوا الشيطان أو حاوروه أو صارعوه : قلت للشيخ : إن من حَفَكَ عَلَى أن أسألكَ حَقَّ عليك ، وما في نفسى أحبُّ إلى ولا أعجبُ من أن أرى الشيطانَ وأكله وأسمعه ؛ وأنتَ قادرٌ أن تنقلني إليه كما نقلتني إلى ما دخلتَ بي عليه من عوالم الغيب .

قال الشيخ : وماذا يرثُ عليك أن ترى الشيطانَ وتكلمه ؟

قلت : سبحانَ الله ! ألا يُجِدَى عَلَى شَيْئاً إلا أن أسخر منه ؟

قال الشيخ : فإني أخشى يا ولدى ، أن يكونَ الشيطانُ هو الذى يريد أن

تراه وتسمعه ... !

قلت : فإني أريد أن أسأله عن سره ، فيكونَ عَلِيماً لا سحرة .

قال : لو كَشَفَ لك عن سره لما كانَ شيطاناً ، فإنما هو شيطانٌ

سره لا بغيره .

قلت : فأريد أن أرى الشيطانَ لَأَكُونَ قد رأيتَ الشيطانَ !

قال الشيخ : لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله ! لو كنتَ يا أبا الحسنَ بأربع

أرجلٍ لهربتَ من الشيطانِ بثلاثٍ منها وتركته يمزك مر واحدة !

قلت : يا - يدي ، فلو كنتُ حماراً لبطلَ عملُ الشيطانِ في أرجلي الأربع

كلها ، إذ لا حاجةَ له إلى إغواءِ حمار !

فتبسّم الشيخ وقال : ولابد أن ترى الشيطانَ وتكلمه ؟

قلت : لا بد .

قال : إنه هو يقولها : قُم !

قال أبو الحسن : وكان الشيخُ إذا مشى إلى أمر خارق بقيتُ معه غائباً عن الحس ، كأنه يُبطلُ مِئاً ما أنا به أنا ، فأصبحُ ظلاً آدمياً معلقاً به . ولا تقع الحوارق إلا لمن وجد القوةَ المُكَمَّلةَ لروحه ، وهذه القوةُ تُسمَدُ من الشيخ الواصل ، فلا بد من إمام يأخذ عن إمام ، كأنها سلسلةٌ نفسه مُتميِّزةٌ في الأرض ، فتعبر الواحدةُ منها بالواحدة ، إذ تقع في جَوْها فتورقُ وتثمر ؛ كالشجرة : جَوْثُ يكسوها ، وجَوْثُ يذُبُّها ، وجَوْثُ يسلبها سلباً ؛ وكذلك تفعلُ النفسُ إذا كان لها جَوْ .

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشيخ كالمحمول ، رأيتنا وفد أشر فنا على بناء عظيم ، ورأيتُ أقواماً يتلقَّونَ الشيخَ ويسلمون عليه ويتبرَّكون بمهمِّه ؛ فأنكرتهم نفسى ووجدتُ منهم وَحْشَةً ، فالتفتُ إلى الشيخ وقال : هؤلاء قوم من الجن ، وما إليهم قَصْدُنَا ، فلا تشغلُ بما ترى واشتغلُ بي .

ثم انتهى إلى الباء العظيم ، فتستقمانا طائفة أخرى ، ويُدخلون الشيخَ وأنا خلفه ، ويمرُّون بنا على دنيا محبوبةٍ تُعجزُ الوصفَ ، مما لا عينُ رأتْ ، ولا أذنُ سمعتْ ؛ فيقولون : هذه كنوزُ سليمان وذخائره ؛ ويطوفون بالشيخ يرضونها عليه كذاً كذاً ؛ رأيَا نَمَّ نعباً ومُلُكا كبيراً ، ثم انهبنا آخراً إلى منارة خسيفة كأنها عرق من عُروق جسم الأرض ، يتعجَّرُ منها دوى كالرعدِ القاصف ، إلا أنه في السمع كخوار الثور ، إلا أنه تورُّ خَبَلٍ إلى أن رأسه في قَدَرِ جَبَلٍ عظيم ، يتعلقه غَبَبٌ ^(١) في قَدَرِ حلٍ آخر ، على جسم يسدُّ الحافقين ،

(١) غيب الثور وعيه . ما شئ من لحم دمه من أسفل

غوارُهُ كَأَنَّهُ صُراخُ الأَرْضِ . وإذا أنا بأفبح مكانٍ منظرًا وأنتنهِ ريحًا ،
كَأَنَّهُ يَجِنُّ بِنَاوُهُ مِنَ الجَنيفِ .

فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هذا يَجِنُّ لإبليس ، وهو هنا في هذه المغارة . منذ
زمن سليمان عليه السلام .

قلت : أَمَسَجُونٌ هُوَ ؟

قالوا : وإِنَّهُ مع ذلك مُوقَرٌّ بِأَمثالِ الجبالِ حديدًا تَرِيضُ بِهِ في عَجَسِهِ ، فلا
يَنزَحُحُ وَلَا يَنَحْلَحِلُ .

قلت : وإِنَّهُ مع ذلك قد ملأ الدنيا فسادًا ، فكيف به لو كان طليقًا ؟
قالوا : فلو أَنَّهُ كان طليقًا لَأَسْتَحَوَذَ عَلَى الناسِ كَافَّةً ، فيجتمعُ أَهلُ الأَرْضِ
على شهوةٍ واحدةٍ لا شَيْءَ غَيْرُهَا ، فيطُلُّ مع هذه الشهوةِ الواحدةِ كُلُّ
تَدْبِيرٍ بَيْنَهُمْ ، فلا تقومُ لَهُمُ سياسةٌ ؛ ولا يكونُ بَيْنَهُمْ وازعٌ ؛ فيرجعون
كالكلابِ أَصابتها الكلبُ وَهَاجَ بها ، فَأَنبأَها في لحَمِها لا يَزَالُ يَعْصُرُ بَعْضُهَا
بَعْضًا ، فليسَ بِجَميعِها إِلا عملٌ واحدٌ يُسَلِّمُها إِلى الهلاكِ وَيُصْبِحُ ظَهْرُ الأَرْضِ
أَعْرَى من سَرَاوِ أَدِيمِ .

وإِنَّمَا يَصْلُحُ الناسُ باختلافِ شهواتِهِمْ وتَنافُرِها وتَنَازُعِها : فبعضُها يحكمُ
بعضًا ، وشيءٌ منها يَزَعُ شَيْئًا ، ومن تَخَلَّصَ من زَوَاجَةٍ قَمَعَ بها زَوَاجَةَ أُخْرَى ؛
كالمُزَوَّجِ المَحْصَنِ : يَحْكُمُ بالجلدِ والرخمِ على من ليستَ لَهُ امرَأَةٌ فَرَزَى : وكالْفَرِيِّ
الوَاجِدِ يحكمُ على اللصِّ الَّذِي لم يَحْذَ فَرَقٌ ، وهَلُمَّ جِرا .

وما يَنْشَأُ الناسُ في لَالةِ أَعْمَارِ قَدِيشِثُونَ وَيَكْتَهَلُونَ وَيَهْرُمُونَ ، إِلا لاختَلَفَ
شَهَوَاتُهُمْ وتَخْتَلَفَ مَقادِيرُ الرَعِيَةِ فيها ، فَتَحَقِّقُ من تَمَّ تلكَ الحِكْمَةُ الإلهِيَّةُ
في التَدْبِيرِ ، ويَحْذُ الشَّرْعُ مَحَلَّهُ بَيْنَهُمْ كما يَحْذُ البَصِيانُ بَيْنَهُمْ مَحَلَّهُ .

ولو أَنَّ أُمَّةً كُلُّها أَطْفَالٌ أَوْ كَهُولٌ أَوْ شَبَوخٌ لَبَدَتْ في جَبيلٍ واحدٍ ؛ وإِنَّهُ

ليس أسمح من الرذيلة تكون وحدها في الأرض إلا الفضيلة تكون وحدها ؛
فلا بد من شيء يظهر به شيء غيرهُ ، كالصد والصد ؛ والمركة إذا انتصر
كل من فيها كانت هزلاً وكانت شيئاً غير المركة .

قال أبو الحسن : وقلتُ لهم : فإذا كان الشيطانُ سجيناً قد ربّضَتْ به
أثقاله حتى لمْوَ في سجينٍ من سجينٍ مبالغةً في كفه والتضييق عليه - فكيف
يَقْنُ الناسُ في أرجاء الأرض ويؤسّوسُ في قلوبهم ، حتى لمْوَ يدُ بين كلِّ
بدين ، وحتى لمْوَ العينُ الثالثةُ لعبي كلِّ إنسان ؟

قالوا : إن في روحه النارية قوةً تفصيل منها وتنتشر في الأرض ، كشعاع
الشمس من الشمس ؛ هذه كرةٌ ماريةٌ مينةٌ معلقة على الأجسام مُرَصَّدةٌ
لها ، وتلك كرةٌ ماريةٌ حيّةٌ معلقة على النفوس مُرَصَّدةٌ لها ؛ وم هذه وتلك
تحمّار الدنيا وأهل الدنيا .

قلت : لعلكم أردتم أن تقولوا : خراب الدنيا وأهل الدنيا ، فعَلِطتم ،
فكان ينبغي أن يحىء بَدَل الغلط .

فقال أحدهم : يا أبا الحسن ، خرَق الثوبُ المسمارَ : حاز هنا لَأَمْنُ اللَّبْسِ
أن يكونَ المفعولُ به - وهو الثوبُ - مرفوعاً ، وفاعله - وهو المسمار -
منصوباً : هل جئتَ - ويحك - تطلبُ النحورَ أو تطلبُ الشيطانَ ... ؟

قال أبو الحسن : فقَطَعْنِي الجِنِّي - والله - وأخجلني ، ونظرتُ خلصةً إلى
الشيخ أراه كيف يسخرُ مني ، فإذا الشيخ قد أَمْلَسَ فلا أراه ، وإذا أنا وحدي
بين الجنِّ وإبازاء هذا الساحر الذي وُضِعَتْ عينُهُ في جبهته وسُقِفَهُ في قَفَاهُ ؟
قَسَرْنِي عنى وزال ما أجده ، وقلت في نفسي : الآن أبلغ أَرَى من الشيطان
ويكونُ الأمرُ على ما أريد ، فلا أجذ من أحتشِم ولا تَقَطَعْنِي هيبةُ الشيخ . ١

ووقع هذا الحائط في نفسي ، فاستعدتُ بالله ولعنتُ الشيطان وقلت : هذا أولُ عَيْبَةٍ بي وجملُهُ إِيَّايَ من أهلِ الرِّياءِ ، كَأَن لِي شَأْنًا في حضور الشيخ وشَأْنًا في غِيَابِهِ ، وكَأَن مُنَاقٍ أُغْلِنُ غيرَ ما أُسِرَ ، وقلت : إِيَّاكَ اللهُ أَكِدْتُ يَا أَبَا الْحَسَنِ تَلْتَسِيطُ !

ثمَّ هَمَمْتُ أَنْ أَنْكَصَرَ عَلَى عَقْبِي ، فَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّ الشَّيْخَ لِمَا تَخْلَى عَنِّي لَا يَكُونُ هُنَا بِنَفْسِي لِأَنَّهُ ، وَمَا أَمَّا هُنَا إِلَّا بِهِ لَا بِنَفْسِي ، فَيُوشِكُ إِذَا بَقِيتُ فِي مَوْضِعِي أَنْ أَهْلِكَ ؛ بَيِّنٌ أَنَّ الْمَفَارَةَ انْكَشَفَتْ لِي لِحَافَةٍ ، فَمَا مَلَكَتُ أَنْ أَنْظُرَ ، وَنَظَرْتُ فَمَا مَلَكَتُ أَنْ أَقْفَ ، وَوَقَفْتُ أَرَى ، فَإِذَا دُخَانٌ قَدْ هَاجَ وَارْتَفَعَ يَثُورُ ثَوْرَانَهُ حَتَّى تَمَلَأَ الْمَكَانُ بِهِ ، ثُمَّ رَقَّ وَلَطَفَ .

وَأَسْتَظَرَمَتْ مِنْهُ بَارُ عَظِيمَةٌ لَهَا وَهْجَانٌ شَدِيدٌ يَضْطَرِمُّ بِعَظْمِهَا فِي بَعْضٍ ، وَيُسْمَعُ مِنْ صَوْتِهَا مَعْمَعَةٌ قَوِيَّةٌ ، ثُمَّ تَحَدَّتْ .

وَانْفَجَرَ فِي مَوْضِعِهَا كَالسَّدِّ الْمُنْبَثِقِ مِنْ مَاءٍ كَثِيفٍ أَيْضًا أَصْفَرَ أَحْمَرَ ، كَأَنَّهُ صَدِيدٌ يَتَّقِيعُ فِي دَمٍ ، ثُمَّ غَاضَ .

وَتَلَمَّعَتْ فِي مَكَانِهِ حَمَاءٌ مَنِيَّةٌ جَعَلَتْ نَرَوُ وَتَعْظُمُ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَبْتَلِمَنِي وَأَذْهَبَ فِيهَا ، فَسَمِيتُ اللَّهَ تَعَالَى قَنَارَتٍ فِي الْأَرْضِ .

ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا كَلْبٌ أَسْوَدُ مُعَمَّرٌ الْحَالِقُ ، هَائِلُ الْخَلْقَةِ مُسْتَأْسِدٌ ، قَدْ وَقَفَ عَلَى جِيْفَةٍ قَذِرَةٍ غَابَ فِيهَا خَطْمُهُ يُعَبُّ بِمَا تَسِيلُ بِهِ .

فَقُلْتُ : أَيُّهَا الْكَلْبُ ، أَأَنْتَ الشَّيْطَانُ ؟

وَأَنْظُرْ فَإِذَا هُوَ مَسْخُ شَائِنَةٍ كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ فِي سَهِيمَةٍ قَدْ امْتَزَجَا وَطَمَى مِنْهَا شَيْءٌ عَلَى شَيْءٍ ، أَمَّا وَجْهُهُ فَأَقْبَحُ شَيْءٍ مَنْظَرًا ، نَحْسَبُهُ قَدْ لَيْسَ صُورَةَ أَعْمَالِهِ ...

وَنَاطِقُ فَقَالَ : أَمَّا الشَّيْطَانُ !

قَالَ : فَا تِلْكَ الْحَفَّةُ ؟

قال : تلك ديباكم في شهواتها ، وأنا ألتقم قلب العاسق أو الأثم منكم
كما ألتقم دودة من هذه الجيفة .

قلت : عليك لعنة الله وعلى الفاسقين والآثمين ! فكيف كنت دخاناً ،
ثم انقلبت ناراً ، ثم رجعت قيحاً ، ثم صرت حمأة ، ثم كست كلباً على جيفة ؟
قال : لا تلعن الآثمين والفاسقين ؛ فإنهم العباد الصالحون بأحد المعنيين ،
وأنت وأمثالك عماد صالحون بالمعنى الآخر ، أليس في الدنيا حياة ووقاحة ؟
وأولئك يا أبا الحسن هم وقاحي أنا على الله ! أنا معكم في زهدكم حرمان
الحرمان ، وفقر الفقر ، ولقد أهلكتموني بؤساً ؛ غير أني معهم لذّة اللذة ،
وشهوة الشهوة ، وغنى الغنى ؛ لا تتم لذّة في الأرض ولا تحلو لذائقتها وإن
كانت حلالات ، إلا إذا وضعت أماناً فيها معنى من معاني أو وقاحة من وقاحي !
حتى لأحمل الزوجة لزوحها مثل الشعر البالغ إذا استعار لها معنى مني ،
وكل ما فسدت به المرأة هو تجاري واستعاري لها أجعلها به بليغة ...

وأنتم يا أبا الحسن تقطعون حياتكم كلها تحاهدون إثم ساعة واحدة من
حياة عبادي ، فانظر - رحمك الله - لأن كانت ساعة من حياتهم هي جهنمكم
أنتم ، فكيف تكون جهنم هؤلاء المساكين ؟

إنك رأيته دخاناً لأن كذلك أنبعث في القلب الإنساني ، فتي تحركت
فيه حركة الشر كست كالاحتياال لإصرام النار بالنفخ عليها ؛ فمن ثم أكون
دخاناً ، فإذا غفل عني صاحب القلب تضرمّت في قلبه ناراً تطلب ما يطفئها ؛
ثم يواقع الإثم والمصيبة ويقضي نهمه فأترد عن قلبه ، فيكون في قلبه مثل
الحرق الذي برد ما كل موضعه فتيقح ، ثم يختلط قبح أعماله بماده الراهية
الأرضية ، فيقلب هذا المسكين حمأة إنسانية لا تزال تربو وتنتعج كما رأيت !

قلت : أعوذ بالله منك ! أفلا تعرف شيئاً يردك عن القلب ، وأنت دخانٌ بعد ؟

فقهه العين وقال : ما أشدَّ غفلتك يا أبا الحسن إذ تسأل الشيطان أن يخترع التوبة ! أما لو أن شيئاً يخترع التوبة في الأرض لاخترعها القبر الذي يدفن فيه بعضكم بعضاً كلَّ طريقه عين من الزمن ، فتزولون فيه الميت المسكين قد انقطع من كل شيء ، وتركوه لآثامه وحساب آثامه والهلاك الأبدي في آثامه ؛ ثم تمردون أنتم لا قرأف هذه الآثام بعينها !

قلت : عليك وعليك أيها اللعين ، ولكن ألا يتبدد هذا الدخان إذا ضربته الريح أو انطفأ ما تحته !

قال : أوه ! لقد أوحشتني كأما ضربتني بحبل من نار ، إن نبيكم عرفها ولكنكم أغيباء ؛ تأخذون كلام نبيكم كأما هو كلام لا عمل ، وكأنه كلام لسان في وقته لا كلام السوء للدهر كله وللحياة كلها ؛ ولهذا غلبت أبا الانبياء على الناس ، فإني أضع المعاني التي تعمل ! لا الحكمة المتروكة لمن يعمل بها ومن لا يعمل -

أتدري يا أبا الحسن ، لماذا أعزى أسلافكم الأولون مثل عمر وأبي بكر ، حتى كان إسلامهم من أكر مصابي ، فركوني زمناً - وأنا الشيطان - أرتاب في أي أبا الشيطان .. ؟

قلت : لماذا ؟

قال : أراك الآن لم تلعن ، فلست قاتلها إلا إذا رزحت على !

قلت : عليك وعليك من لعنات الله ! قل لماذا ؟

قال : أسأئل ويأمر ؟ وطغيتي ويقترح ؟ لا بد أن ترزح !

قلت : برحمتنا الله منك ؟ قل لماذا ؟

قال : وهذه لعنة في لفظة رحمة ؛ لا ، إلا أن ترحم على أنا إبليس الرجيم ؛ قلت : فيغني الله عن علك ؛ لقد ألهمتنيها روح النبي صلى الله عليه وسلم : إن البقرة كانت هي بأعمالها وصفاتها تفسيراً للأعماظ على أسمى الوجوه وأكملها ، فكان روح النبي صلى الله عليه وسلم لتلك الأرواح كالأم لآنتاتها ؛ وقد رأوه لا يفض لنفسه ولا لحظ نفسه ، وذلك لا يستقيم إلا بالقصد في أمر النفس وجعل ناحية الإسراف فيها إصرافاً في العمل لسعادة الناس ؛ وكلما ارتد الإنسان لنفسه وحظوظها ارتد إليك - أيها اللعين - وأقبل على شقاء نفسه ، وكلما عمل لسعادة غيره ابتعد عنك - أيها الرجيم - وأقل على سعادة نفسه ؛ وترك العصب وحظوظ النفس هو الصبر ؛ وصبر الأنبياء والصدّيقين ليس صبراً على شيء بعينه في الحياة ، بل هو الصبر على حوادث العمر كله كصبر المسافر إن كان عزيمة مدة الطريق كلها ، وإلا كان فساداً في القوة ووقع به الخذلان .

فهذا الصبر المعتبر المصم الذي يوطئ به الرجل نفسه أن يكون رجلاً إلى الآخر - هو تعب الدنيا ، ولكنه هو روح الحنة مع الإنسان في الدنيا . والمؤمن الصابر رجل مقل عليه بأفعال الملائكة التي لا يقتحمها الشيطان ولا تفتحها مصائب الدنيا ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن يُنْضِي شيطانه كما يُنْضِي أحدكم بعيره في سفره ، وكأنه يقول : لو لم يصبر المسافر دائماً معتما مدة سفره كلها لما أنضى بعيره ، ولو لم يصبر المؤمن دائماً معتما مدة حياته كلها لما أنضى شيطانه .

صاح الشيطان : أوه ! أوه ! ولكن قل لي يا أبا الحس : ما صبر رجل مؤمن قوى الإيمان ، قد استطاع بقوة إيمانه أن يفيق من سُكر الغي . وقد أوردته

على أن يكذب ، فرأى الإيمان أن يصدق ؛ وجهزتُ به أن يغضب ، فرأى الحكمة أن يهتأ ؛ وحاولتُ منه أن يطمع ، فرأى الراحة أن يرضى ؛ وسوّلتُ له أن يحسّد ، فرأى الفضيلة ألاّ يبالي ؛ وأخذ انفسه من كل شيء في الحياة بما يثق أنه الإيمان والصبر والهدوء والرضا والقناعة ؛ وأحاط نفسه من هذه الأخلاق بالسعادة القلبية واجتزأ بها ؛ وقصّر نظره على الحقيقة ؛ ووجد الجمال في نفسه الطيبة الصافية ؛ وأجرى ما يؤله وما يُسرّه مجرى واحداً ؛ ونظر إلى العبد كله كأنه يومٌ واحد يرقبُ مغرب شمس ؛ وأخذ من إرادته قوة أنسته مالم تُعطيه الدنيا ، فلم يخفَلْ بما أعطت الدنيا وما منعت ؛ وعاش على فقره بكل ذلك كما يعيش المؤمن في الجنة ؛ هذا في قصر من لؤلؤة أو ياقوتة أو زبرجدة ، وذلك في قصر من الحكمة أو من الإيمان أو من العقل .

قال الشيطان : قلنا أعجزنى صلاحاً ورعى وصبراً وقاعة وإيماناً واحتساباً ، وكان رجلاً عالماً فيها - سوّلتُ له أن يخرج إلى المسجد ليعظ الناس فيلتفتوا به ، ويصّرم بديهم ، ويتكلم في نصّ كلام الله ؛ فعقد المجلس ووعظ ، وانصرفوا وبقى وحده

لجأت امرأة تسأله عن بعض ما يحتاج إليه النساء في الدين من أمر طبيعتي ؛ وكانت امرأة جَزَلَةٌ غَصَّةٌ رابية يهتز أعلاها وأسفلها ، وتمشي قصيرة الخطو مُتَنَاهِلَةً كالتصايقة من تحلّ أسرار جمالها وأسرار بدنها الجميل ؛ فبعضُ مشيتها يَقَطُّه وبعضها نومٌ فائرٌ تخالطه اليقظة ؛ ولا يراها الرجلُ القَحْلُ السامُ المُحوّلة إلا رأى الهواء نفسه قد أصبح من حولها أنثى ، مما تعصفُ به ريحها العَظِرَةُ عطرَ زينتها وحسبها .

وكان الراجع قد ترمّل من أشهر ، وكانت المرأة قد تآيملت من مسوات ؛ فلما رآها غَضَّ طرفه عنها ، ولكنها سأله بالفاظها العذبة عن أمور هي من

أمرار طليعتها، وسألته عن طبيعتها بالفاظها ؛ فسمع منها مثل صوت البلور
يتكسر بعضه على بعض .

وتحدثت له وكأنها تتحدث فيه ؛ فسمع بأذنه ودمه ، ثم كان غصُّ عينه
أقوى لرؤية قلبه ويجمع خواطره .

ورأى صوتها يشهى ، وعانقته رائحتها العطرية النفاذة ، وأحاطته بحور
الفراش ؛ وعادت أنفاسها كلها وسوسة قبل ؛ وصارت زفراتها كالقندر إذا
استجمعت غلياناً ؛ وطلعت في خياله عريانة كما تطلع السكران من كأس الخمر
حورية عريانة ، لها جسم يبدو من اللين والبضاضة والنعمة كأه من بد البحر !

... ..

قال أبو الحسن : وكنت كالنائم ، فاشعرت إلا بصوت كصك الحجر
بالحجر ، لا كتكسر البلور بعضه على بعض ، وسمعتُ شيخى يقول :
أهسقت ... ؟

(*) تاريخ يتكلم

أيعرفُ القراء أن في الاحلام أحلاماً هي قِصَصٌ عقليةٌ كاملةُ الأجزاء محكمةُ الوضع مُتسقةُ التركيب بديعةُ التأليف، تجعلُ المرءَ حينَ ينامُ كأنه أسلم نفسه إلى (شركة من الملائكة) تسبِّحُ به في عالمٍ عجيبٍ كأنما يُبحرُ فتحوّل إلى قصة؟

إن يكنُ في القراء من لا يعلمُ هذا فليعلمه مي ، فإن كثيراً ما أكتبُ وأقرأ في اليوم، وكثيراً ما يُلقَى عَلَيَّ من بارع الكلام ، وكثيراً ما أرى ما لودقته كَعَدَّة من الخوارق والمعجزات .

وهذه القصة التي أروها اليوم ، كانت المعجزةُ فيها أني مشيتُ في التاريخ كما أمشي في طريقٍ ممتدة ؛ فتقدمتُ إلى أهل سنة ٣٩٥ للهجرة وما يلها ، فعشت معهم ونحرت من أخبارهم ثم رجعت إلى زمي لأقص ما رأيته على أهل سنة ١٣٥٣ (***) ..

أسميتُ البارحةَ كالمنعوم في أحوالٍ ثقيلةٍ على النفس ما تنطلقُ النفسُ لها ، أو لها سوءُ الهضم ، ومتى كان البدءُ من هنا لم تكن الحركةُ في النفس إلا دائرةً : تذهبُ ما تذهبُ ثم لا تلتهي إلا في سوءِ الهضمِ عبيد ؛ فجلستُ في الندي الذي أثمرُ فيه أحياناً ، فكان لجوه وزن أحسسته كما يُحسُ الغائص في الماءِ ثقلُ الماءِ عليه ؛ ودخنتُ الكرّكرة^(١) فلم تكن هواءاً ودُخَاناً يتروحُ ،

(٥) يعنى بهذه المقالة والتي بعدها ذكر الدمانة . تركيا الحديثة ورعيها المعنولة ؛ وانظر ص ٢٨٥ من كتابنا حياة الراعي ،

(٦) تاريخ إسنائه هذه المقالة

(١) الكرّكرة اسم وصعاء (السينه) أو الراجله . أحداً من صوتها ، كما صغ العرب في تسميتهم (القطا) أحداً من صوت هذا الطير ، وكما هي طريقتهم ، وجمع الكرّكرة كرا كير ، مالباء للنفخة .

بل كانت من ثقلها كالطعام يدخل على الطعام ؛ ونظرت ناحية فأخذت عيني رجلاً فيلّي الخِلقة مُنطاداً البطن كأنما تُفجّع بطنه بالآلات ، يحيلُ منه مقدار أربعة من بطون التديينات الحوامل كل منهن في الشهر التاسع من حملها ... وكان ممي إلى كل هذا اللأء خمسُ صُحفٍ يومية أُريد فرائها . ١ .

ثم جئت إلى الدار والمعركة حامية في أعصابي . وما كان سوء المضمم منومةً فيدعو إلى النوم ، فدخلت بيت كُبي وأردت كتاباً أيّ كتابٍ تناله يدي ، فخرج لي كتابٌ في خرافات الأولين وأساطيرهم وهذيانهم وسوء هضمهم العقلي ... كالكلام عن أدونيس وأرطاميس وديونيس وسميراميس وإيسيس وأتونيس وأرغيتيس ... فاستعذت بالله وقلت : حتى الكتب لها في هذه الليلة أعصابٌ قد نالها الثقلُ والالَم ؟

وبات الليل يقظانٌ معي ، وبقيتُ متعلِّلاً أتقلبُ حتى أخذ الصداعُ في رأسي فانقلب التعبُ نوماً ، وجاء من النوم تعبٌ آخر وقُذِفْتُ إلى عالم الأحلام في قُنبلةٍ تستقر في حيث تريد لاحت أريد .

ورأيتني في قوم لا أعرف منهم أحداً قد اجتمعوا بجمهير ، وسمعتُ قائلاً منهم يقول : « الساعة يمر مولانا العالي » ، فقلت لمن ياي : « من يكون مولانا العالي ؟ » ، قال : « أو أنت مهم ؟ » ، قلت : « من ؟ » ، فألهاه عن حوائٍ تستوف الناس وانصرفهم إلى رجلٍ أقبل راكاً حاراً أشهب ، فصاحوا : « القمر القمر »^(١) ، وفع الرجل الذي يُباكني صوته يقول : « البركات والعطّات لك يا مولانا العالي » .

قلت إن الله ! لقد وقعت في قومٍ من الزنادقة ، يبارضون ، « الحياتُ

(١) القمر اسم ذلك الحمار ، وسيمر ذكره في القصة .

والصلوات والطيبات لله ، ثم من صاحب الحار بجذائي وغزوه الرجل عليّ ، فقال : ما مالك لا تقول مثله ؟ قلت : أعود بالله من كفر بعد إيمان فكأنما أراد أن يُلطّمني فرفع يده . فصيحْتُ فيه : كما أنت - وبلك - وإلا قصتُ عليك ، وأسلفتك للبوليس ، وشكوتك إلى النيابة ، ورفعتك إلى محكمة الجنح ! قال : ماذا أسمع ؟ الرجلُ مجنونٌ غفّوه وأحاط في جماعة منهم ، ولكنه ترَجَّل عن حماره وأخذ يدي ومشينا ، فقلت : من أنت يا هذا ؟ قال : أراك من غير هذا البلد ؛ أمّا تعرف الحاكم بأمر الله ؟ فأنا هو ! قلت : انظر - ويحك - ما تقول ؛ فإظنك إلا تمروراً ؛ لقد كتبتُ أس كتاباً إلى مجلة (الرسالة) أُرخته ١٣ من ذى الحجة سنة ١٣٥٣ ، و ١٨ من مارس سنة ١٩٣٥ ، وأرسلتُ به مقالة « الحروفين » ^(١)

قال : ماذا أسمع ؟ بحس الآن في سنة ٣٩٥ ، فالرجل مجنون ، أو لا فانت أيها الرجل من معجراتي ! لقد كتبتُ لك من التاريخ ، فستري وتكتب ، ثم تعودُ إلى التاريخ فتكون من معجراتي ، وتقصُّ عني وتشهدُ لي .. ! قلت : فإني أعرف أعمالك إلى أن قُتلت في سنة ٤١١ ... ! قال أوله أنت فتخلق ست عشرة سنة بحوادثها ؟ لقد كدت من آفك وغاوتك تُفسيد عليّ دعوى المعزة !

وهاج الصداغُ في رأسي ، وبلغ سوء الهضم حدّه ، واشتبكتُ سيّات إيسيس وأتوبيس الخ بسين إيليس ، ومرتُ بين كلِّ هذا حوادثُ الطاعية المعتوه المتحرر ، رأيته يبتدع في كل وقت بدعاً ، ويحترع أحكاماً يُكرِّه الناسُ على أن يعملوا بها ويعاقبهم على الخروج منها ، ثم يعودُ فينقضُ أمره ويعاقبُ على الأخذ به ، كأن الذي نقضَ غيرُ الذي أقرّم ، وكأنه حين يبلّد فيعجزه

(١) مرت هذه المقالة في الجزء الأول ص ٦٤ .

أن يخترع جديداً - يجعلُ اختراعه إبطالَ اختراعه .
ورأيته كأنما يعتدُّ نفسهُ مُخَرِّجَ هذه الأمة فلا بد أن يكونَ عقلاً لمقولها ،
ثم لا بد أن يستعلي الناس ويستفيدَ بهم استمداد الشريعة في أمرها ونهيها ،
فكانت أعماله في مجملها هي نقض أعمال الشريعة الإسلامية ، وظنَّ أنه مستطيع
محو ذلك العصر من أذهان الناس وقتل التاريخ الإسلامي بتاريخ قاتلٍ سفاك .
وسوَّل له جنونه أنه خلق تكديماً للنبوَّة ، ثم أهرط عليه الجنونُ لفصل
في نفسه أنه خلق تكديماً للالوهية ، وفي تكذيبه للبوَّة والالوهية يحملُ
الأمة بالقهر والغلبة على ألا تصدِّق إلا به هو ، وفي سبيل إثباته لنفسه
صنَّع ما صنَّع ، لجاء تاريخه لا يبيِّن ألوهية ولا نبوَّة ، بل ينفي العقل عن صاحبه ،
وجاء هذا التاريخ في الإسلام ليتكلم يوماً في تاريخ الإسلام ..

رأيتني أصبحت كاتباً لهذا الحاكم ، فجعلت أشهد أعماله وأدوِّن تاريخه ،
وأقبلت على ما أفرَدَني به ، وقلت في نفسي : لقد وضعتي الدنيا موضعاً
عزيزاً لم يرتفع إليه أحد من كتابها وأدائها . فساكت عر هذا الدهر بعقلي
بينه وبين هذا الدهر ٩٦٨ سنة صاعدة في العلم .

ودوّنت عشرة مجلِّدات ضخمة آنهت وأنا أحفظها كلها ، فإذا هي جملٌ
صغيرة ، حمل الحلم كل نذبة منها سيفراً ضخماً ، كما يحيل اللائم أنه عاش عمراً
طويلاً وأحدث أحداثاً ممتدة ، على حين لا تكون الرؤيا إلا لحظة .
وهذه هي المجلِّدات التي قلت إن التاريخ يتكلم بها في التاريخ .

المجلد الأول

أبلى هذا الطاغية بقيصتين : إحداهما من نفسه والآخرى من غيره ؛

فأما التي من نفسه فإن أراه قد خُلِقَ وفي مَحْنَةٍ لُفَافَةٌ عَصِيَّةٌ مِنْ يَهُودِيَّةِ جَدِّهِ
رَأْسُ هَذِهِ الدَّعْوَى ؛ فَهُوَ الْحَاكِمُ بْنُ الْعَزِيزِ بْنِ الْمُعْزِ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ الْمُهْدِيِّ عُبَيْدِ اللَّهِ
وَيَقُولُونَ إِنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ هَذَا كَانَ ابْنَ أَمْرَأَةٍ يَهُودِيَّةٍ مِنْ حُدَايَ يَهُودِيٍّ ، فَاتَّفَقَ
أَنْ حَرَى ذَكَرُ النِّسَاءِ فِي مَجَاسِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْقَدَّاحِ ، فَوَصَفُوا لَهُ تِلْكَ الْمَرْأَةَ
الْيَهُودِيَّةَ ، وَأَنَّهَا آيَةُ فِي الْحُسْنِ ؛ وَكَانَ لَهَا مِنَ الْخُدَادِ وَلَدٌ ، فَزَوَّجَهَا الرَّجُلُ
وَأَدَّبَ أَبْنَاهَا وَعَلَّمَهُ ، ثُمَّ عَرَّفَهُ أَسْرَارَ الدَّعْوَةِ الْعَلَوِيَّةِ وَعَهَّدَ إِلَيْهِهَا .

وَمِنْ بَعْضِ اللَّعَامَةِ الْعَصِيَّةِ فِي الْمَخِ مَا يَسْجُدُ بِالْوَرَاثَةِ مَطْبُوعًا عَلَى خَيْرِهِ
أَوْشَرَهُ ، لَا يَدَّ لِلزَّرِّ فِيهِ وَلَا حِيلَةَ لَهُ فِي دَفْعِهِ أَوْ الْإِتِّفَاعِ مِنْهُ ، فَيَكُونُ قَدَرًا
يَتَسَّأَلُ فِي الْخُلُقِ لِيَجِدَّ غَايَةَ الْمَقْدُورَةِ ، فَتَقِ وَقَعٌ فِي مَخِ إِنْسَانٍ فَالِدُنْيَا بِهِ
كَالْحُلِيِّ وَلَا يَدَّ أَنْ تَمْنَحُ عَنْهُ .

هَذِهِ اللَّفَافَةُ الْيَهُودِيَّةُ فِي مَخِّ هَذَا الطَّاعِيَةِ سَتُحَقِّقُ بِهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى :
« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ . » فَهُوَ لَنْ يَكُونَ الْعَدُوَّ
لِلْإِسْلَامِ دُونَ أَنْ يَكُونَ الْأَشَدَّ فِي هَذِهِ الْعَدَاوَةِ ؛ وَلَنْ يَكُونَ فِيهَا الْأَشَدَّ حَتَّى
يَعْمَلَ بِهَا الْأَفَاعِيلُ الْمُسَكَّرَةُ ؛ وَمَا أَرَى هَذِهِ الْمَآذِنَ الْقَائِمَةَ فِي الْحَقِّ إِلَّا تَحْرُقُ
مَسْطَرَهَا عَلَيْهِ مِنْ بُغْضِهِ لِلْإِسْلَامِ وَأَنْطَوَاهُ عَلَى عَدَاوَتِهِ ؛ فَوَيْلٌ لَهَا مِنْهُ !

وَأَمَّا الْبَقِيضَةُ الثَّانِيَةُ فَقَدْ ابْتَدَأَ بِقَوَاعِ فِتْنَتِهِ بِأَرَائِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ ، وَهِيَ حَزْبُ
أَنْ عَلَى ، وَالْأَحْرَمِ ، وَفُلَانٍ ، وَفُلَانٍ .. وَقَدْ لَفَقُوا لِلدُّنْيَا مَذْهَبًا هُوَ صُورَةُ
عَفْوِهِمُ الطَّائِفَةِ ، لَا يَحْجَى إِلَّا لِلْهَدْمِ ، ثُمَّ لَا يَضَعُ أَوَّلَ مَعَاوِلِهِ إِلَّا فِي قَبْرِ السَّمَاءِ
لِيَهْدِمَهَا ... ! وَلَوْ أَنَا جَمَعْتُ هَذَا الْمَذْهَبَ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَقُلْتُ : هُوَ حِمَاةُ
حِفَاءِ رُبِّدِ إِخْرَاجِ اللَّهِ مِنَ الْوُجُودِ لِإِدْعَالِ اللَّهِ فِي بَعْضِ الطُّعَاةِ !

وَيَتَلَقَّوْنَ فِي مَذْهَبِهِمْ هَذِهِ الْأَلْقَابَ : الْعَقْلُ ، وَالْإِرَادَةُ ، الْإِمَامُ ، قَاتِمُ
الْزَمَانِ ، عِلَّةُ الْعَالَمِ ... ! وَهَذِهِ هِيَ الشَّيْوعِيَّةُ نَعِيْنَاهَا . تَعْمَلُ عَلَى هَدْمِ فِكْرَةِ

الالوهية وإلحاقها بالخرافة ؛ كأن القائم هذا المذهب هو عقل الناس وإرادتهم
كـرِهوا أم رَضُوا ، فلا إرادة لهم معه ولا عقل ، وهو الزمنُ فيصنع الزمنَ
بما شاء ، ويجعله كيف شاء ، لأنه القائم به ، وعلة العلل في سياسته وتديره .
شيعية آثمة كُبرت في حماقتها أن تقوم بجنون واحد ، فلا تقوم
إلا مائتين معاً : جنونِ العقل ، و جنونِ السيف !

المجلد الثاني

أظهر الطاغية أن الله يؤيده الإسلام ، ليتألف الجند والعصب ويستميلهم
إليه : وكان في ذلك لثيم الكيد ، ذئب الحيلة يهودى المكر ، فأمر بعمارة
المدارس للفقهِ والتفسير والحديث والفتيا وبذلَ فيها الأموال ، وجعل فيها
الفقهاء (والمشايخ) ، وبالغ في إكرامهم والتوسعة عليهم والتخضع لهم ،
ودخل في ظلال العاثم .. وأحضر لنفسه قهين مالكيين (اثنين لا واحداً)
يُعَلِّمَانِهِ وَيُفَقِّهَانِهِ ، وكان أشدَّ بمُريدٍ مع شيخ الطريقة يتسعد به ويتيمن
أشرف ألقابه أنه خادم الهامة الخضراء ، وأسعد أوقاته اليوم الذي يقول له
فيه الشيخ : رأيتك في الرؤيا ورأيت لك ...

وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة من هذا الطاغية ، هي بعينها ربا
اللقافة اليهودية في حُجّه : تُصالحُ بإقراض مائة وفيها نية الخراب بالستين في
المائة ... فإنه ما كاد يتمكن من الناس ويعرف إقبالهم عليه وثقتهم به ،
حتى طلبت اللقافة اليهودية رأس المال والربا . فأمرهم بهدم تلك المدارس
وإخرايها ، وأطل العيدين وصلاة الجمعة ، وقتل العقهاء وقتل معهم قهبيه
وأستاذيه ، وعاد كالمريد الماقي مع شيخ الطريقة : يقول في نفسه : إر هناك
ثلاثة تعمل عملاً واحداً في الصيد : الفخ . والهامة ، والحية . ١٠

إن هذا الطاغية ملكٌ حاكمٌ يستطيعُ أن يجعلَ حقائقه شيئاً واقعاً، فيقتلَ علماء الدين ياهلاكهم ، ويقتلَ مدارس الدين يأخرابها ، ولو شاء لاستطاع أن يشنقَ من المسلمين كلَّ ذى عمامة في عمامته ؛ ويبلغ من كفره أن يتبجحَ ويرى هذا قوةً ، ولا يعلمُ أنه لمؤاينهِ على الله قد جعله الله كالذبابَةِ التي تُصيبُ النَّاسَ بالمرض ، والبعوضة التي تقتلُ المالحى ، والقملة التي تُضربُ بالطاعون ؛ فلو نَحَرَت ذبابَةٌ ، أو تَبَجَّحَت قملةٌ ، أو استطالت بُعوضةٌ ؛ لجاز أن يَظِنَّ طنينه في العالم ! هل فعل أكثر مما تفعل ؟

لقد أودى بأبائهم يقوم إيمانهم على أن الموتَ في سبيل الحق هو الذى يُخَلِّدُهم في الحق ، وأن ائتراعهم بالسيف من الحياة هو الذى يضرهم في حقيقتها ، وأن هذه الروح الإسلامية لا يطمسها الطغيانُ إلا ليجلوها .

إله واقه ما قَتَلَ ولا شَنَقَ ولا عَذَّبَ ، ولكن الإسلام احتاج في عصره هذا إلى قوم يموتون في سبيله، وأعورَه ذلك النوع السامى من الموت الأول الذى كان حياة الفكرِ ومادة التاريخ ، فجاءت القملة تحمل طاعونها .. !
لقد أحيام في التاريخ ، أمام قتلوه في التاريخ ؛ وجاهم بالرحمة من جميع المسلمين ، أمام مجارده باللعنة من المسلمين جميعاً !

المجلد الثالث

يرى هذا الطاغية أن الدينَ الإسلامى مُخرَافَةٌ وشَعُوذةٌ على النفس ، وأن محورَ الأخلاق الإسلامية العظيمة هو نفسه إبحادُ أخلاق ، وأن الإسلام كان جريئاً حين جاء فاحتلَّ هذه الدنيا ؛ فلا يطرده من الدنيا إلا جراءةُ شيطان كالذى تَوَفَّحَ على الله حين قال : «مِعْرَتِكَ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» ! ولهذا أمر الناس بسبِّ الصُّحابة ، وأن يُكْتَبَ ذلك على جِيطان المساجد والمقابر والشوارع !
(١٦ وحسب التلميح ٢)

أخزاه الله ! أمي رواية تمثيلية يُلصق الإعلان عنها في كل مكان ؟ لو سمع
لسمع المساجد والمقابر والشوارع تقول : أخزاه الله ... !

المجلد الرابع

هذا الفاسق لا يركبُ إلا حماراً أشهبَ يسميه (القمر) ، وقد حمل
نفسه مُحْتَمِيّاً لغاية خبيثة ؛ فهو يدورُ على حماره هذا في الأسواق ومعه عبدٌ
أسود ؛ فس وحده قد غشَّ أمرَ الأسود ... ! ووقف هو ينظر ويقول
الناس : انظروا ... !

ومن غلبةِ الفسوق على نفسه وعلى شيعته أن داعيته (حزة بر علي) نوه
بالحمار في كتابه وأوماً إليه بالثناء ، لحِصالٍ : منها أن .. ! وكتبَ حزة هذا في
بعض رسائله : أن ما يرتكبه أهلُ الفساد بحوار البساتين التي يمرُّ بها (الفاسق)
من المنكر والفحشاء .. إما يُرتكب في طاعته ... !

هذه طبيعة كلِّ حاكم فاسق مُلحد ، يرى في نفسه رذائله عُريانة ، فلا
يكونُ كلامه وعمله وفكره إلا فحشاً يتعرَّى ؛ وإن في هذا الرجل غريزه
فسق بيمية متصلة بطور الحيوان الإنساني الأول ؛ فما من ريب أن في
جسمه خلية عصبية مُهتاجة ، ما زالت تسمعُ بالوراثة في دماء الأحياء
متلفعة على خصائصها ، حتى استقرت في أعصاب هذا الفاسق فاتفحرت
بكل تلك الخصائص .

ولست أرى أكثرَ أعماله ترجعُ في مرَدِّها إلا إلى طغيان هذه العريضة
فيه : فهو يحاول هدمَ الإسلام ، لأنه دينُ العفة ودينُ صونِ المرأة ، يلزمها
حجاب عِفَّتْها وإبائها ، ويمنُّها الابتذال والحلاعة . ويُعينها أن تتخلص من
يشتبهها ، ولو كان الحاكم ... إنه يمتدُّ هذا الدينَ القوي ، كما يمتدُّ اللصُّ

القانون ؛ فهو دبنٌ يثقل على غريزة الفاسقة ، ولكل غريزة في الإنسان شعورٌ لامهناً لما إلا أن يكونَ حراً حتى في التوثم ، وهل يُعجبُ السكيرُ أو يرضيه أو يَلذّه كما يُعجبه أن يرى الناسَ كلهم سُكاري ؛ فيتشتى هو بالخمر وتسكر غريزة برؤية السكر ١

وما زال رأىُ الفساق في كل زمن أن الحرية هي حرية الاستمتاع ، وأن قتييدَ اللذة إفسادٌ لِلذّة .

المجلد الخامس

يزعم الطاعيةُ أنه يُعزّزُ قومه ، وما أراه يمزح ، ولكنه يمتحِبُ دَلْمُ وضعفهم وهوانهم على الأمم ؛ فهو يتجرأ شيئاً فشيئاً ، مُتَظَرّاً ما يَدَسَّهَلُ متربحاً ما يمكن ؛ وهو يرى أن أخلاقنا الإسلامية هي أمواتنا دفنوا أنفسهم فينا ؛ فن ذلك يهدمُ الأخلاق ويظن عد نفسه أنه يهدم قبوراً لا أخلاقاً . ولقد سَخَّرَ منه المصريون بنكته من ظرفهم البديع ، وجاءوه من غريزة ، فصنعوا امرأة من الورق الذي يُشبه الجلد ، وألبسوها خُفَّها وإزارها ، حتى لا يشك من رآها أنها آدمية ؛ ثم وضعوا في يدها قصّة وأقاموها في طريقه ، فلما رآها عَدَلَ إليها وأخذ من يدها القصّة وقرأها ، فإذا فيها سَبُّ له ولآبائه ، وسخرية من جنونه ورُعوتِهِ المضحكة ، فنضب وأمر بقتل المرأة ، فكانت هذه سخرية أخرى حين تحقّق أنها من الورق ، وأخذته النكتهُ الظريفةُ بمثل البرق والرعد ؛ فاستشاط وأمر عبيده من السودان بتجريق الثُورِ ونهب ما فيها وسبّ النساء والفجورِ بهن ، حتى جاء الأرواح يشترون زوجاتهم من العبيد بعد أن طارت الزوبعة السوداء في بياض الأعراض ١

أندلعت ثورة الفجور في المدينة ، لامن العيد ، ولكن من الحيوان
العتيق المستقر في هذا الطاغية .

المجلد السادس

وهذه رُعوة من أقبح رُعناته ، كان هذا الحيوان لا يحسب نساء الأمة
كلها إلا نساءه ، فأمرهن بأمر أمراته ؛ وكان النساء في رأيه إن هن
إلا استجابات عصيئة تطلق وترد .

إن لموجة الفسق في الغريزة الطاغية جزرا ومدا يقعان في تاريخ الفساق .
فهذا الطاغية قد جزرت فيه الموجة ، فأمر أن يمنع النساء من الخروج
ليلا ونهارا ، لا تطلأ أرض المدينة قدم امرأة ، وأمر الخفافين ألا يصنعوا
لمن الاخفاف والاحذية ؛ ولما علم أن بعض النساء خرجن إلى الحمامات
هدم الحمامات عليهن !

ولو مدت الموجة في تفشق الفاسق كقرض على النساء الخروج والاتصال
بالرجال والتعرض للإباحة .

إن الصلاح والفساد كلاهما فساد ما لم يكن الصلاح نفاقة في الروح
وسموا في القلب .

المجلد السابع

يزعم الطاغية أنه سيهدم كل قديم ؛ وإنى لأخشى واقه أن يأمر الناس
في بعض سطوات جنوه : أن كل من كان له أب أو أم بلغ الستين فليقتله ،
لتخلص الأمة من قديمها الإنسان ... !

كأنه لا يعرف أنه إنما يتسلط على أيام معاصريه لا على التاريخ ، ويحكم

على طاعة قومه وعصيانهم لا على قلوبهم وطباعهم وميراثهم من الأسلاف ؛
فأهو إلا أن يهلك حتى يبعث في الدنيا شيثان : نَتْنٌ رَمِيَتْهُ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ
وَنَتْنٌ أَعْمَالُهُ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ . إر هذا الرجل المسلط ، كالنَّبَارِ الْمُسْتَطَار :
لَا يُكَلِّسُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَقَعَ ...

ولقد رأى المأفون أن أكل الناس الملوخيا الخضراء والفُقَّاعَ والثُّرْمُسَ
والجِرْجِيرَ والزَيْبَ والعَنْبَ - هُوَ قَدِيمٌ فِي طَبَاخِ النَّاسِ ؛ فَهِيَ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ
لَا يُبَاعُ وَلَا يُؤْكَلُ ، وَظَهَرَ عَلَى أَنَّ جَمَاعَةً مَاعَوْا أَشْيَاءَ مِنْهَا فَضَرَمَهُمُ بِالْشَّيَاطِ
وَأَمَرَ فَطِيفَهُمْ فِي الْأَسْوَاقِ ، ثُمَّ ضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ ؛ كَأَنَّ الَّذِي يَحْمِلُ الْمُلُوكِيَا
الْخَضْرَاءَ عَلَى رَأْسِهِ لِيُدْعِيَهَا يَلْبَسُ عِمَامَةً خَضْرَاءَ ...
أَهَذَا - وَنَحْنُ - تَحْدِيدٌ فِي الْأَمَّةِ أَمْ تَحْدِيدٌ فِي الْمَعْدَةِ ... ؟

المجلد الثامن

لَا يَرْضَى الطَّاغِيَةُ إِلَّا أَنْ يَمَحَقَ رُوحَانِيَّةَ الْأَمَّةِ كُلَّهَا ، فَلَا يَبْرُكُ شَيْئًا رُوحَانِيَا
يَكُونُ لَهُ فِي أَعْصَابِ النَّاسِ أَثَرٌ مِنَ الْوَقَارِ ، وَمِنْ يَسْتَعْظِمُهُ - وَبَلَّهَ - إِذَا
يُحَقِّقُ رُوحَانِيَّةَ الْأَمَّةِ وَأَشْرَفَتْ تَرْعُوتُهَا الدِّيْبِيَّةُ عَلَى الْأَحْلَالِ ؛ كَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ
حَقِيقَةَ الْوَحْدِ لَأَمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ إِمَامًا تُسْتَمَدُّ مِنْ إِمَامِهَا بِالْمَثَلِ الْأَعْلَى الَّذِي يَدْمَعُهَا
فِي سِيلِهَا إِلَى الْحَيَاةِ بِقُوَّةٍ ، كَمَا يَدْمَعُهَا فِي حَرْبِهَا إِلَى الْمَوْتِ بِقُوَّةٍ ؛ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ
أَنَّ التَّارِيخَ كُلَّهُ تُقَرَّرُهُ فِي الْأَرْضِ بَضْعَةٌ مَبَادِي دِينِيَّةٍ .

هَذَا الْحَاكِمُ الْأَحْرَقُ هُوَ عِنْدِي كَالَّذِي يَقُولُ لِنَفْسِهِ : لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَفْتَحَ
دَوْلَةً ، فَلَا أَفْتَحُ دَوْلَةً فِي مَمْلَكَتِي ... لَقَدْ أَمَرَ هَدْمَ الْكُنَاسِ وَالْبَيْعِ ، حَتَّى بَلَغَ
مَا هَدَمَ مِنْهَا ثَلَاثِينَ أَلْفًا وَثَقَفًا .

أَيُّ مَحْرَبٍ أَحْمَقُ حَنَرًا مَرَّ هَذَا الَّذِي يَحْسِبُ النُّفُوسَ الْإِنْسَانِيَّةَ كَالْأَحْشَابِ ،

تَقْبِلُ كُلِّهَا بِعِيرِ اسْتِثْنَاءٍ أَلْ نُدُقُ فِيهَا الْمَسَامِيرُ . ؟
سَيَعْلَمُ إِذَا تَقَيَّيْتُ حَرْبَ بَيْنِهِ وَبَيْنَ دَوْلَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ كَسَرَ أَشَدَّ سَيُوفِهِ مَضَاءً
حِينَ كَسَرَ الدِّينَ !

المجلد التاسع

هَذِهِ هِيَ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى فَلَا أَدْرِي كَيْفَ أَكْتُبُ عَنْهَا : لَقَدْ تَطَاوَلُ الْمُجَنُّونُ
إِلَى الْأَلَوِيَّةِ مَاتَعَاهَا ، وَصَارَ يَكْتُبُ عَنْ نَفْسِهِ : نَاسِمُ الْحَاكِمِ الرَّحْمَنِ ! ؟
لَوْ كَانَ أُغْبِي الْأَعْيَاءَ فِي مَوْضِعِهِ لَا تَقَى شَيْئًا ، لَا أَقُولُ تَقْوَى الدِّينِ وَالضَّمِيرِ ،
وَلَكِنْ تَقْوَى التَّفَاقُقِ السِّيَامِيِّ ؛ وَكَانَ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى أَنْ يَقُولُوا عَنْهُ :
« أَمَّا الَّذِي فِي الْأَرْضَيْنِ ... ! »
وَالْأَمَّا يُجْهَلُ وَخَطِيءٌ ، وَأَيُّ مُخْمَرٍ وَتَهْوَرُ ، أَنْ يَكُونَ إِلَهُ عَلَى حِمَارٍ ،
وَإِنْ كَانَ اسْمُ حِمَارِهِ الْقَمَرُ !

المجلد العاشر

سَيَأْخُذُهُ اللَّهُ بِامْرَأَةٍ ؛ وَلِكُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ مِنْ جِلْسِهِ ، لَقَدْ بَاعَ مِنْ وَقَاحِهِ
غَرِيزَتَهُ أَنْ ائْتَمَكَ عَلَى أخته الْأَمِيرَةِ (سَتِّ الْمُلْكِ) وَرَمَاهَا بِالْفَاحِشَةِ ، وَهِيَ
مِنْ أَزْكَى النِّسَاءِ وَأَفْضَلِهِنَّ ، وَاتَّهَمَهَا بِالْأَمِيرِ (سَيْفِ الدِّينِ بْنِ الدُّوَّاسِ) ،
وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهَا تُدْرِكُ قَتْلَهُ ، وَأَنَّهَا اجْتَمَعَتْ لِذَلِكَ بِسَيْفِ الدِّينِ ؛ فَسَأَمْسِكُ عَنْ
الْكِتَابَةِ فِي هَذَا الْمَجْلَدِ ، وَأَدْعُ سَائِرَهُ بِيَاضًا حَتَّى أَذْهَبَ إِلَيْهِمَا فَأُعَيِّهُمَا بِمَا عِنْدِي
مِنَ الرَّأْيِ ، ثُمَّ أَعُودُ لِلدُّوَيْنِ مَا يَبْقَى مِنْ بَعْدِ ...

وَرَأَيْتُ أَيْ اجْتَمَعْتُ هُمَا وَاطْمَأْنَأَ إِلَى ، فَأَخَذْنَا يُدِيرُ الرَّأْيَ :
قَالَتِ الْأَمِيرَةُ لِسَيْفِ الدِّينِ فِيمَا قَالَتْهُ : « وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ تَقْبِلَهُ عَلَانًا

يقتلونه إذا خرج في غدي إلى جبل المقطم ، فإنه يتفرد بنفسه هناك ! ،

فقلت أنا : « ليس هذا بالرأى ولا بالتدبير ! ،

قالت : « فما الرأى والتدبيرُ عندك ؟ » ،

قلت : « إن لنا علماً يسمونه (علم النفس) لم يقع لعلباتكم ، وقد صح
عندى من هذا العلم أن الرجل طائش الغريزة بجنونها ، وأن الأشعة اللطيفة
الساحرة التي تلبعث من جسم المرأة هي التي تنفجر في مُحَنٍّ مرة بعد مرة ،
فإذا خَبَتْ هذه الأشعة وبطلت الغريزة بطلت دواعي أعماله الخبيثة كلها ،
وكَفَّ عن محاولته أن يجعل الآفة مملوءة من عرائز حسبه وشهواته ، لا من
فضائلها ودينها ؛ فلو أخذتم رأى وأمضيتُموه فإنه سينكِرُ أعماله إذا عرضها
على نفسه الحديدية ، وهذا يصلح ما أفسد ، وتكون حياته قد نطقت بكلماتها
الصحيحة كما نطقت بكلماتها العاسدة ؛ فإذا .. » ،

قال الأمير : « فإذا ماذا ؟ » ،

قلت : « فإذا أُخِصى ... » ،

فضحكتم ستُ الملك ضحكة رنت رنيناً .

قلت : « نعم إذا أُخِصى هذا الحاكم ،

ففلما الضحك أشد من الأول ، ورمتى تمديد لطيف كان في يدها

أصاب وجهى ، فانتهت وأنا أول :

« نعم إذا أُخِصى هذا الحاكم » .

كفر الذبابة... (*)

قال كَلِيلَة (**) (١) وهو يَعِظُ دِمْنَةً وَيَحْذَرُهُ وَيَقْضِي حَقَّ اللَّهِ فِيهِ ؛ وكان دِمْنَةً قد دَاخَلَهُ الغُرُورُ وزَهَاهُ النَّصْرُ ، وظَهَرَ مِنْهُ الجَفَاءُ والنِّفْلَةُ ، ولَقِيَ الثَّعَالِبُ مِنْ زَيْغِهِ وإِلْخَادِهِ عَنَّا شَدِيدًا :

... وَأَعْلَمُ يَادِمْنَةَ أَنْ مَازَعَمْتَهُ مِنْ رَأْيِكَ تَأْمَنًا لَا يَعْتَرِيهِ النِّقْصُ ، هو بَعِيْنُهُ النَّاقِصُ الَّذِي لَمْ يَتَمَّ ؛ والغُرُورُ الَّذِي تُثَبِّتُ بِهِ أَنْ رَأْيِكَ صَحِيحٌ دُونَ الْآرَاءِ ، لَعَلَّهُ هُوَ الَّذِي يُثَبِّتُ أَنْ غَيْرَ رَأْيِكَ فِي الْآرَاءِ هُوَ الصَّحِيحُ .

ولو كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا يَتَخَيَّلُ كُلُّ ذِي خِيَالٍ ، لَصَدَقَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ ، وَلَوْ صَدَقَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ لَكَذَبَ كُلُّ إِنْسَانٍ ؛ وَإِنَّمَا يَدْفَعُ اللَّهُ النَّاسَ لِبَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، لِيَجِيءَ حَقُّ الْجَمِيعِ مِنَ الْجَمِيعِ ، وَيَبْقَى الصَّغِيرُ مِنَ الْخَطَا صَغِيرًا فَلَا يَكْبُرُ ، وَيُثَبِّتُ الْكَبِيرُ مِنَ الصَّوَابِ عَلَى مَوْضِعِهِ فَلَا يُنْتَقِصُ ، وَيَصِحُّ الصَّحِيحُ مَا دَامَتِ الشَّهَادَةُ لَهُ ، وَيَهْتَدِ الْفَاسِدُ مَا دَامَتِ الشَّهَادَةُ عَلَيْهِ ، وَمَا مِثْلُ هَذَا إِلَّا مِثْلُ الْأَرْنَبِ وَالْعِلَاءِ .

قال دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قال : زَعَمُوا أَنْ أَرْنَبًا سَمِعَتْ الْعِلَاءَ يَتَكَلَّمُونَ فِي مَصِيرِ هَذِهِ الدُّنْيَا . وَمَتَى يَتَأَذَّنُ اللَّهُ بِانْفِرَاضِهَا ، وَكَيْفَ تَكُونُ الْقَارِعَةُ ؛ فَقَالُوا : إِنْ فِي النُّجُومِ مَحْوَمًا مُدَبَّنَةً ، لَوْ التَّفَّ ذَنْبُ أَحَدِهَا عَلَى جِرْمِ أَرْضِنَا هَذِهِ لَطَارَتْ هَوَاءً كَأَنَّهَا نَفْخَةُ الْبَافِخِ ، بَلْ أَضْعَفُ مِنْهَا كَأَنَّهَا زَفْرَةُ صَدْرِ مَرِيضٍ ، بَلْ أَوْهَى كَأَنَّهَا نَفْثَةُ مَنْ

(٥) انظر ص ٢٨٥ . حياة الرافعي ،

(٥٥) كلية ودمنة ها أسلوب من أساليب الأستاذ الرافعي ، يعتمد إليه حين

ريد تحرير المحاضرات والتفصيل والمحاورة

(١) وانظر معالة (طاسعه الطائفة) في الجرد الأول

شعيتين . فقالت الأرب : ما أجهلكم أيها العلماء ! قد والله خرفتم وتكذبتهم واستخفتم ؛ ولا تزال الأرض بخير مع ذوات الأذئاب ؛ والدليل على جهلكم هو هذا - قالوا : وأرثهم ذنبها ... !

قال كلية : وكم من مغرور يُبزل نفسه من الأنبياء منزلة هذه الأرب من أولئك العلماء ؛ فيقول : كذبوا وصدقتُ أما ، وأخطئوا جميعاً وأصبتُ ، والتبس عليهم وانكشف لي ، وهم زعموا وأما المستيقين ؛ ثم لا دليل له إلا مثل دليل الأرب الخرقاء من هبة تحرك في ذنبها .

وكان يُقال : إنه لا يُباهر بالكرم في قوم إلا رجلٌ هان عليهم فلم يعبأوا به فهو الأذل المستضعف ، أو رجلٌ هانوا عليه فلم يعبأ بهم فهو الأعز الطاغية ؛ ذاك لا يحشوه ويدعونه لعمه وعليه شهادةٌ حقة ، وهذا يخشونه فيتركون معارضةً وعليه شهادةٌ ظله ؛ وما شئ من هذا إلا هذا .

وقالت العلماء : إن كنت حاكماً تشق من يخالفك في الرأي ، فليس في رأسك إلا عقل اسمه الجبل ؛ وإن كنت تقتل من يُنكر عليك الخطأ ، فليس لك إلا عقل اسمه الحديد ؛ وإن كنت تحبس من يُعارضك بالنظر ، فليك عقل اسمه الحدار ؛ أما إن كنت تناظر وتجادل ، وتفتق وتفتق ، وتدعو الناس على نصيرة ولا تأخذهم بالعنى - فليك العقل الذي اسمه العقل .

قال كلية : وأما يادمتة هو كنت قائداً مطاعاً وأميراً متبعا ، لا يعصى لي أمر ، ولا يُرد عليّ رأي ، ولا ينكر مني ما ينكر من المخلوق إذا أخطأ ، ولا يقال لي دائماً إلا إحدى الكلمتين : أصبت ، ثم هي دائماً أصبت ، ولا يلتقي أحد من قومي بالكلمة الأخرى ، رهة من تتحلى رهة الجبناء ، أو رهة في رضائ رغبة المنافحين ، وزعموا أنهم على ذلك قد صححت نيائهم

وخلّص لي باطنهم جميعاً - فلو كنتُ وكانوا على هذا لاحالي نقصهم إلى نقص العقل بعد كاله ، وردّتي فُسرّلتهم إلى فُسولة الرأى بعد جودته ، فأخِلِقُ بي أن أعتَرَوْضَمهم إِبائى فى موضع الآلهة هو إِنْزالهم إِبائى فى منزلة الشياطين ؛ وإلا كنتُ حقيقاً أن يُصيبني ما أصاب العنَزَ الذى زعموا لها أنها أنثى الفيل .. قال دمنه : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أنه كان فى إحدى خرائب الهند جماعة من العظاء ، وكان فيها عَضْرُفُوطٌ كبير ^(١) ، فلُكِنَتِ الجماعةُ وذهبتْ تأمِرُ على أمره وتلتهى ؛ ففى هذه الحريرة فىلٌ حسيّمٌ من الفيلة الهندية العظيمة ، لم يُحسَّ بالعظاء ، ولم يميّزَ قرأبين هذه الأمة من الحشرات وبين الحصى منشوراً يلتصعُ فى الأرض هنا وهنا ؛ قالوا فغضب العَضْرُفُوطُ ، وكان قائداً عظيماً ، ثم تدرأمر الفيل ينظر كيف يصنعُ فى مداًفَعَتِهِ ، وكيف يحتمل فى هلاكه ؛ فرآه لا يتحرك إلا بأهدامه يَقلُّها واحدةً واحدةً ؛ فقدّرَ عد نفسه أنه لو أزالَ قدَمَ الفيل عن الأرض رال الفيلُ نفسه : لَجاها ما عَرَصَ الطريقَ ودبُّ ديبه ، فلما رفع الفيل قدَمَه اهْبَلَ هذه الغفلةَ مه .. واندسَ تحتها ، فاندسَ مقبوراً فى التراب ! ثم إن العظاءَ افقَدَتْ أميرَها ، فلما دضى الفيلُ لسبيله رأتْ ، أنزلَها ، فَرَّتْ إلى أجحارها واستكثتْ فيها ترقيقُ وتدرّصُ ؛ فدحاتْ إلى الحريرة عَنَزٌ جعلتْ تنقِمُ منها وترتّعُ فيها ، و- أنها العظاءُ فاحتمسَ يَأْمِرُنَ ...

فقال منها قائل : هذه أنثى الفيل فسألتْ عَظَاطَةَ مهن : وأين السانان العظيمان ؟ قالت الأولى : إن الإناثَ دون الذكورِ فى حُأَمِها ، والآنثى هى الذكُورُ

(١) العظاء جمع عظام وعطاية ، وهى هذه الدويبة التى يقال لها (السطحة) والمصرفوط . صرب من العظام يكون أكبر منها

مقلوباً أو مختصراً أو مشوهاً ، ولذلك هُنَّ يَقْلِبْنَ الحياة أو يختصرنها أو يشوهنها ، أفلا ترين التابئين العظميين البارزين في ذلك الفيل الجسيم ، كيف تَبَنَّتَا صغيرين منقلبين فوق رأس أُنثاه ... ؟

فقلت واحدة : إن جاز قولك في الرأي فأين الخُرطوم ؟
قالت الأخرى : هو هذه الزُيْمَةُ المتدلية من حلقها ، وذلك خرطوم على قدرِ أنوثة الاتى ... !

قال : تم آجتماع رأيهن على أن يُملَكْنَ أنثى الفيل هذه ؛ وأن يَهْنَ لها الحرية وأمتها . وسمعت الماسيرة كلامهن فقلت في نفسي : لا جرم أن تكون المنزلة في أمة من العطاء ، فقد قالت العلماء : إنه لا كبير إلا بصغير ، ولا قوي إلا بضعيف ، ولا طاغية إلا بذليل ؛ وإن العظمة إن هي إلا شهادة الحقارة على نفسها ، وإبه رُبَّ عظيمٍ طاغيةٍ متجبرٍ ما قام في الناس إلا كما تقوم الحيلة ، ولا عاش إلا كما يعيش الكذب ، ولا حكم إلا كما يحكم الخداع ؛ وهذه الدنيا للمحظوظ كلها دنيا له وحده ، فتي حانت إليه فقد جاءت ، ولو أنها أدبرت عنه من ناحية لرجعت من ناحية أخرى ، ليثبتَ الحظ أنه الحظ . وتقدم العطاء إلى المزهل لها : أيتها الفيلة العظيمة ! إن قرينك العظيم قد مس أميرنا العَظْرُ فوطاً يقدمه فنيه تحت سبع أَرْضِين ، وأنت أُنثاه وسيدته . فقد آحترباك مَلِكُكَ عليا ووهبا لك الحرية وما فيها .

قالت العر : فإني آتُهبُ ممكن هذه الهمة ، ونِعِمَّا صَنَعْتُ : غير أن يينكن ويبى ما بين العطاية والعيل ، وما بين الحصاة والجبل : فإذا أما قلت ، فأنا قلت : وإذا أنا أمرت ، فأما أترت : وإذا أما فعلت فأما فعلت إها في هذه الأمة كلها (أنا) واحدة أس معها غيرها : لأن ههما في هذا الرأس دماغ فيلة ، وفي هذا الجسم قوة فيلة ، وفي الحربة كلها فيلة واحدة : فلا أعرف من منكن

على الصواب والخطأ إلا الطاعة، طاعة الأعمى للبصير ! ألا وإن أول الحقائق أنى قبلة وأنكن عظام : ومتى بدأ اليربئ من هنا سقط الخلاف من بيننا وبطل الاعتراض منكن : وقوتى حق لأنها قوة وباطلى كذلك حق لأنه من قوتى : وقد قال أسلافنا حكماء القبيلة : إن القوى بين الضعفاء مَشِيئة مُطْلَقة، فهو مُصْلِحٌ حتى بالإفساد، حكيمٌ حتى بالحماسة، إمامٌ حتى بالخرافة، عالمٌ حتى بالجهالة، نبى حتى بالشعوذة .. !

قالوا : وتُكرِّرُ عليها عظمة صالحة عالمة كانت ذات رأيٍ ودينٍ فى قومها، وكن يُسمِّينها (العمامة) لياضها وصلاحتها وطهارتها ، فقالت : ولا كلُّ هذا أيتها القبيلة : لقد تخرَّصت غير الحق : فإنك تحكمتنا من أجلنا لا من أجلك، وما قولك إلا كلمات تُعَقِّقُها أعمالنا نحن : فلك الطاعة فيما يُصْلِحُنَا، وما كان من غيره فهو رَدٌّ عليك : ورأيك شئٌ يبغي أن تكون معه آراؤنا، لتتبيّن الأسبابُ المواقفة والمخالفة، فأخذ عن بينة وترك عن بينة : وقد كان يمال فى قديم الحكمة : إنه يجب على من يقدم رأياً للأمة الحازمة كي تأخذ به ، أو يضع لها شرعاً ليحملها عليه ، أو يسئ لها سنةً لتتبعها - إنه يجب على هذا المتقدم لتحويل الأمة أو تحريرها أن يتقدم لأهل الشورى وفى رأسه الرأى وفى عنقه حل : ثم يتكلم برأيه وينسبطه ويدفع عنه ، ويحادلهم ويحادلوه : فإن كان الرأى حقاً أخذوا الرأى ، وإن كان ماطلاً أخذوا الحل فشقوا فيه هذا المهور !

وفى ديننا أن الطاعة فى المعصية معصية أخرى ؛ ولقد كان لما عَضُرُقُوطُ حُجَّةٌ فى الأديان دَرَّاسةٌ لَكُسيها عَلامَةُ نَقابٍ، وكان مما عَلَّمنا : أن المخلوق مَبْنى على النقص إذ هو ماضٍ إلى العناء، فيجب ألا يتم منه شئٌ إلا بعداد، وألا تكون القوة فيه إلا بعداد ؛ ولهذا كان الأمة لُتَامٌ فى الأرض هو مجموع

العقول العظيمة كلها ، وكان أتم الآراء وأصحها ما أثبتت الآراء نفسها أنه أصحها وأتمها ؛ فلا الدين أتبع أيتها العيلة ، ولا أتبع فينا العقل ، وليس إلا هذا (التفلسف) الكاذب !

فلما سمعت العز ذلك تنفست وعصبت ، وقالت : إياكم وهذه الترهات من ألسنتكم ، وهذه الأباطيل في عقولكم ؛ لا أسمع منكم كلمة الدين ولا كلمة الأنبياء ولا العصافيط ... فذلك وحى وحى أما ؛ وإذا كان غير وحى أما فأنا لست فيه ، وإذا لم أكن أما فيه فهو لا يصلح للحكم الذى شرطه أن الدولة ليس فيها إلا (أما) واحدة . وذلك إن لم يجعلكم غرباء عنى جعلنى غريبة عنكم ، ما ندم من إحدى الغربتين ؛ فهو أول القطيعة ، والقطيعة أول الفساد . وما دام في الدين أمر غير أمرى ، ونهى غير نهى ، وتحليل وتحريم لا يتغيران على مشيئى - فأنا مجنونة إن رضيت لكم هذا ... !

فصاحت (العامّة) وقالت للباخرة : بل قولى : أما مجنونة بـ (أما) ؛ أفلا يجوز وأنت خلق من الخلق أن يعترى عقلك شيء مما يعترى العقول ؛ ولنا نسكر أنك قوة الرأى فى ناحيه القوة ، حسنة التدبير فى ناحية الشجاعة ، متجاوزة المقدار فى ناحية الخزم والحزم على مصالح الدولة ؛ ولكن ألم يقل الحكماء إن الزيادة المسرفة فى جهة من العقل ، تأتى من النقص المتحيّف لجهة أخرى ، وإله ربّ عقل كان تاماً عبقرياً فى أمورٍ لانه ضعيفٌ الله فى غيرها ، يُحسنُ فى تلك ما لا يُحسنه أحد ، ويُحكّم ما لا يُحكّمه أحد ؛ ثم يغلط فى الأخرى ما لا يغلط أحد فيه ؟

قالوا : لجاشت العز وفارت من العصب فورة الجسار ، وخيل إليها من غمى العيظ أنها ذهبت بين الأرض والسماء ، وأن زعمتها امتدّ بها خرطوم طويل ، وأن قرنّها انزعج منها نابان عظيمان ؛ وقالت : ونحكّم ! خذوا هذه

(العمامة) فاشفقوها ؛ فإياها كما قالت : تقدمت إلينا بالرأى والحيل ... ١ .
 وكان في العطاء ضعافٌ ومهازيلٌ وجُبْناءٌ . وما كولون لكلٍّ آكل ؛
 فَشَسَّحَ^(١) لهم أن أتى الفيل هذه ... سَسَتْخَأَقُهُمْ قَيْلَةً إن هم أطاعوها ؛ فإذا
 مَرَدُّوا عليها فإياها من صرامة البأس بحيث يجعل كلَّ ظُلْفٍ من أظلافها جَبَلًا
 فوقهم كأنه ظِلَّةٌ فَتَسُوخُ بهم الأرض ؛ ثم لهم احمِلُوا وتراجعوا ، وأُخِذَتِ
 (العمامة) الصالحة فَشَقَّتْ ، وخذت الرأى من بعدها ، وأَنْقَطَعَ الخلافُ والدينُ
 والعقلُ الحقُّ ... ؛ وأقبلت دولة العطاء على العنزِ نَجْرُ أذيالها .

قالوا : وأَعْتَرَّتِ الماخرةُ وأَحْسَتْ لها وجوداً لم يكن ، وعرفت لنفسها
 وهى ماعزة نَماةُ شأنِ الفيل القوي ، فليجئ في عَمَاتِها وكفرت بجملتها ،
 وقالت : لم يَخْلُقْنِي الله قَيْلَةً وخلقتُ نَفْسِي ؛ فأنا لاهر ...

وثبت عدها أنها ليست بعز وإن أشبهتها كلُّ عز في الدنيا ؛ وذهبت
 تَقْلَدُ وتعيش على مذاهب القَيْلَةِ بين العطاء ؛ فإذا مشيت أَرْتَجَّتْ وتَحَطَّرَتْ
 كأنها بناءٌ يقلقل ، وإذا اضطلعت أُنذرت الأرض أن تَتَمَسَّكَ
 لَأَنْدُكُهَا بجنبها ... ١

ومرَّ ذلك الفيل بهذا الحرابِ مرةً أخرى . فلاذت العطاء كلهن بالفيلة ...
 وتأهبت هذه للقتال ، وتَحَصَّفت في المازرة والماخرة ... (والمعايزة)
 فَتَصَبَّتْ قربها ، وحزكت زِمَمَتِها ، وطأطأت ، وشدَّتْ أظلافها في الأرض
 وثبَّتْ قوائمها ، وصلبت عظامها ، ونفشت شعرها ، وتشوكت كالقنفذ ،
 وأصرَّت بكل ذلك إصرارها ، وكانت عزراً تَطِيحُ منذ كانت تَنَحُّ أُمُها
 وتلوها ، فكيف بها وقد تَقَيَّلَتْ ... ؟

ثم إياها تبنت في طريق العيل ليرى عليه هذا الهول المائل ... فأقبلَ

(١) أى خيل إليهم وتمثل .

فَدَّ خَرَطُوهُ فَالْهَأَبَهُ ، فَلَفَّهَا فِيهِ ، فَصَبَّضَهُ ، وَرَفَعَهُ ، فَطَوَّحَهَا ، فَكَأَمَّا ذَهَبَتْ
فِي السَّمَاءِ ... !

وَتَهَارَبَتِ الْعِظَاءُ وَلُذَّنَ بِأَجْحَارِهِنَّ ، ثُمَّ غَدَوْنَ عَلَى رِزْقِهِنَّ فَإِذَا جِيفَةٌ
الْعِزْزِ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَدَتْنِ عَلِمَا وَارْتَعَيْنَ فِيهَا ، وَعَلِنَ أَنَّهَا كَانَتْ مَاعِزَةً فَبَلَّهَا
حَنُونُهَا ، وَأَدْرَكَ أَنَّ الْكَذْبَ عَلَى الْحَقَائِقِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِحَقَائِقٍ أُخْرَى تَقْتُلُهُ ، وَأَنَّ
مَنْ غَلَبَ أُمَّةَ الْعِظَاءِ عَلَى أَمْرِهَا فَلَيْسَتْ الْإَيَّامُ وَاللَّيَالِي عِظَاءً فِيْغْلِبُهَا ؛ وَأَنَّ
تَغْيِيرَ الْمَخْلُوقَاتِ إِمَّا يَكُونُ بِتَحْوِيلٍ بَاطِلٍ لَا تَحْوِيلَ ظَاهِرٍ ، وَأَنَّ الْإِنَاءَ
الْأَحْمَرَ يُرِيكُ الْمَاءَ سَحْرًا وَالْمَاءُ فِي نَفْسِهِ لَا تُحْمَرُهُ فِيهِ ، حَتَّى إِذَا انْكَسَرَ
الْإِنَاءُ ظَهَرَ كَأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ : وَكُلُّ مَا يُحْنِي الْحَقُّ هُوَ كَهَذَا الْإِنَاءِ : لَوْ أَنَّ عَلَى الْحَقِّ
لَا فِيهِ : ثُمَّ أَيقَنَ أَنَّ مُحَاوَلَةَ إِخْرَاجِ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ مِنْ زَعَاتٍ مَاعِزَةٍ مَأْفُورَةٍ ، هِيَ
كَمُحَاوَلَةِ اسْتِيلَادِ الْفِيلِ مِنَ الْمَاعِزَةِ ... !

قَالَ كُلُّهُ : وَاعْلَمْ يَا دِمْنَةُ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الْعِزَّ الْحَقَاءُ قَدْ كَفَرَتْ
كَفَرَ الذَّبَابَةِ لَمَّا أَخَذَهَا اللَّهُ أَخَذَ الذَّبَابَةَ .
قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ ذَبَابَةَ سُودَاءٍ كَانَتْ مِنْ نَحْقِ الذَّبَّانِ ، قُدِّرَتْ الْحَافَةُ عَلَيْهَا
أَبَدِيَّةً ، فَلَوْ انْهَلَبَتْ نَفْطَةً جَرِيًّا ، دَوَاوُ لَمَّا كُتِبَتْ بِهَا إِلَّا كُلُّهُ سُحْبٌ .
وَوَقَعَتْ هَذِهِ الذَّبَابَةُ عَلَى وَجْهِ امْرَأَةٍ زَعِيَّةٍ ضَخْمَةٍ : فَجَلَسَتْ تَقَابِلُ بَيْنِ
نَفْسِهَا وَبَيْنِ امْرَأَةٍ . زَعَمَتْ : إِنَّ هَذَا كَمَنْ أَدَلَّ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ قَوْضَى لِانْظَامِ
فِيهِ ، وَأَنَّهُ مُرْسَأٌ كَيْفَ يَتَوَقَّعُ عَلَى مَا يَتَقَوَّى ، عَشَاءٌ عِثَ : وَلَا رَبِّبَ أَنَّ
الْأَنْبِيَاءَ قَدْ كَدُّوا النَّاسَ . إِنْ كَيْفَ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ خَائِقِي (أَنَا) وَخُلُقُ
هَذِهِ الذَّبَابَةِ الضَّخْمَةِ الَّتِي أَنَا فَوْقَهَا ؟

ثم نظرت ليلة في السماء، فأبصرت نجومها يتلألأَن وبينها القمر؛ فقالت : وهذا دليل آخرُ على ما تحقق عندي من فرضي العالم ، وكذبِ الأديان ، وعبث المصادفات . فا الإيمانُ بعينه إلا الإلحادُ بعينه ؛ ووضع العقل في شيء هو إيجادُ الألوهية فيه ، وإلا فكيف يستوى في الحكمة وضعي (أنا) في الأرض ورفعُ هذا الذبان الأبيض ويسويهِ الكبير ^(١) إلى السماء ... ؟

ثم إنها وقعت في دار فلاح فجعلت تمور فيها ذهاباً وحيثاً ، حتى رجعت بقرة الفلاح من مرعاها ، فبهتت الذبابة وجمدت على غرْبها من أول النهار إلى آخره ، كأنها تراول عملاً ؛ فلما أُمست قالت : وهذا دليل أكبر الدليل على قوصي الأرزاق في الدنيا ، فهاتان ذبابتان قد قَبَّتا قُبَيْن في وجه هذه البقرة واكْتَنَتا فيهما تأكلان من تَحِيَّها فتعْظمان سِمتا ، والبأس من حهلهم بالعلم الذبَابِي يسويهما عيتين ... وأنا قصيتُ اليومَ كلَّه أنْخَشُ وأَعْضُ وأُسَّعُ لا تَقُبُّ لي ثقباً مثأهما فما انتزعتُ شجرة ؛ فهل يستوى في الحكمة رزقي (أنا) ورزقُ هاتين الذبابتين في وجه البقرة ... ؟

ثم إنها رأت خُنْفساء تُدْبُّ ديبها في الأرواث والأقذار ، فنظرت إليها وقالت : هذه لا تَصْلُحُ دليلاً على الكفر ، هاى (أنا) خيرُ منها ، (أنا) لى أحنهة وليس لها ، (وأنا) خفيفة وهى ثقيلة ، وما كأنها إلا ذبابة قديمة من ذباب القرون الأولى ، ذلك الذى كان ليلداً لا يتحرك فلم تجعل له الحركة جناحاً ^(٢) ثم إنها أَصَغَتْ فسمعت الخنفساء تقول لأخرى وهى تحاورها : إذا لم يحمد المخلوق أنه كما يشتهى فليَكْفُرْ كما يشتهى . ياويحاً ! لم تكن

(١) اليسوب . أمير النحل والذبان ومحوهما ؛ خيل للذبابة أن القمر أمير هذا الذباب الأبيض .

(٢) إشارة إلى أن الوظيفة تخلق العضو كما رعموا .

جاموساً كهذا الجاموس العظيم وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وَجَدَ من يَنْفَعُهُ ولم نجد ... ؟

فقالَت الذبابة : إن هذا دليلُ العقلِ في هذه العاقلة ، ولعمري إنها لا تَمشي مَشاقلَةً من أنها بطيئةٌ مُرهقةٌ بِمَجْزَها ، ولكن من أنها وَفُورٌ مثقلةٌ بِأفكارها ، وهي الدليلُ على أني (أنا) السابقةُ إلى كشف الحقيقة ... !

وجعلت الذبابة لا تُسمعُ من دَنَدَنَتِها إلا : أنا ، أنا ، أنا ... من كُفِرَ إلى كُفِرٍ غيرِه إلى كُفِرٍ غيرِهما ؛ حتى كَان السَّماواتِ كُلُّها أَصْبَحَتْ في معركةٍ مع ذبابة

ثم جاءت الحقيقةُ إلى هذا الإلحادِ الآسِفِ تَسْمِي سَعْيِها ؛ فبينما الذبابةُ على وجه حائطٍ وقد أَكَلَتْ بِعوضَةً أو بِعوضَتَيْنِ ، وأعْجَبَتْها نَفْسُها ، فوَقَّعتْ تَحَكَّ ذراعِها مَذراعِها - دَنَتْ بَطَّةٌ صغيرةٌ قد انفلَقتْ عنها البَيْضَةُ أَمْسَ ، فَدَنَتْ مِنْقارَها فَانْقَطَعَتْها .

ولما انطلقَ المِنْقارُ عليها قالت : آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا الَّذي خَلَقَ البَطَّةَ ... !

يا شباب العرب !^(*)

يقولون إن في شباب العرب شيخوخة الهِمِّ والعزائم ؛ فالشبانُ يَمْنُدُونَ
في حياة الأمم وهم ينكشون ...
وإن اللهو قد خَفَّ بهم حتى ثَقُلَتْ عليهم حياةُ الجَدِّ ، فأهملوا الممكِناتِ
فرجعتْ لهم كالمستحيلات ..
وإن الهولَ قد هَوَّنَ عليهم كلَّ صَعْبَةٍ فاختصروها ، وإذا هزوا بالعدو في
كلمة فكأنما هَزَمُوهُ في معركة ...
وإن الشبابَ منهم يكونُ رجلاً تاماً وروحاً جسيماً تحتجُّ على طفولةِ أعماله ...
ويقولون إن الأمرَ العظيمَ عند شبابِ العرب ألا يحملوا أبداً تبعَةَ
أمرٍ عظيم ..

° ° °

ويزعمون أن هذا الشبابَ قد تَمَّتْ الألفَةُ بينه وبين أغلاطه ، فغيابُهُ حياةُ
هذه الأغلاط فيه .
وأنه أَرْعُ مقلِّدٍ للعرب في الرذائلِ خاصة ، وبهذا حمَله الغربُ كالحَيوانِ
عصوراً في طعامِهِ وشرابه ولَدَاتِهِ ...
ويزعمون أن الزجاجةَ من الحر تَعْمَلُ في هذا الشرقِ المسكينِ عملَ جَدَى
أجنبي فاتح ..
ويتواصون بأن أولَ السِياسةِ في استعبادِ أمرِ الشرقِ ، أن يُتركَ لهم
الاستقلالُ التامُّ في حُرِّيَةِ الرذيلةِ ...

(*) أنتأها في إبان ثورة فلسطين لحقتها سنة ١٩٣٦

ويقولون إنه لابد في الشرق من آلتين للتخريب ، قوة أوروبا ، ورذائل أوروبا .

يا شباب العرب ، مَنْ غيركم يكذبُ ما يقولون ويزعمون على هذا الشرق المسكين ؟

مَنْ غيرُ الشباب يضع القوةَ يازاء هذا الضعيف الذي وصفوه لتكون جواباً عليه ؟

من غيركم يحمل النفوسَ قوانينَ صارمة ، تكون المادة الأولى فيها : قَدَرْنَا لَأَتْنَا أَرَدْنَا ؟

ألا إن المعركة بيننا وبين الاستعمار معركة نفسية ، إن لم يُقتلْ فيها المهزُلُ قتل فيها الواجب !

والحقائق التي بيننا وبين هذا الاستعمار إنما يكون فيكم أنتم بحسبها التحليل ، تكذيبُ أو تصديق .

الشبابُ هو القوة ؛ فالشمسُ لا تملأُ النهارَ في آخرِهِ كما تملؤه في أولِهِ .
وفي الشباب نوعٌ من الحياةِ تظهرُ كلُّهُ الموتِ عنده كأنها أختُ كلمةِ النوم .
والشباب طبيعةٌ أولُ إدراكِها النفقُ بالبقاء ، فأولُ صفاتها الإصرارُ على العزم .

وفي الشباب تصنعُ كلُّ شجرةٍ من أشجار الحياةِ أثمارَها ، وبعد ذلك لاتصنع إلا شجاراتٍ كلها إلا خشباً ...

يا شباب العرب ، أحلوا رسالتكم : إما أن يحيا الشرقُ عزيزاً ، وإما أن تموتوا !

أُتْقِدُوا فُضَائِلَنَا مِنْ رِذَائِلِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْأَوْرِيَّةِ ، تُتَقِنُوا اسْتِقْلَالَنَا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَتَتَقْنُوهُ بِذَلِكَ .

إِنْ هَذَا الشَّرْقُ حِينَ يَدْعُو إِلَيْهِ الْعَرَبُ ، « يَدْعُو لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ؛ لِبَيْتِ الْمَوْتِ وَلِبَيْتِ الْعَشِيرِ . »

كَبَيْتِ الْمَوْتِ إِذَا جَاءَ بِقُوَّةِ وَقَوَائِدِهِ ، وَلِبَيْتِ الْعَشِيرِ إِذَا جَاءَ بِرِذَائِلِهِ وَأَطْمَاعِهِ .
أَيُّهَا الشَّرْقُ ، إِنْ الدِّينَارَ الْأَجْنَبِيَّ فِيهِ رِصَاصَةٌ مَحْبُوءَةٌ ، وَحَقُوقُنَا مَقْتُولَةٌ بِهَذِهِ الدَّنَانِيرِ .

أَيُّهَا الشَّرْقُ ، لَا يَقُولُ لَكَ الْأَجْنَبِيُّ إِلَّا مَا قَالَ الشَّيْطَانُ : « وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ! »

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ، لَمْ يَكُنِ الْعَسِيرُ يُعَسِّرُ عَلَى أَسْلَاحِكُمُ الْأَوَّلِينَ ، كَانُوا فِي يَدِهِمْ مِفْتَاحُ مِنَ الْعُنَاصِرِ يَفْتَحُونَ بِهَا .

أَتُرِيدُونَ مَعْرِفَةَ السَّرِّ ؟ السَّرُّ أَهْمُ أَرْتَفَعُوا فَوْقَ ضَمِيمِ الْمَخْلُوقِ ، فَصَارُوا عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْخَالِقِ .

غَلَبُوا عَلَى الدُّنْيَا لَمَّا غَلَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَعْنَى الْعَقْرِ ، وَمَعْنَى الْخَوْفِ ، وَالْمَعْنَى الْأَرْضِي .

وَعَلَيْهِمُ الدِّينُ كَيْفَ يَعِيشُونَ بِالذَّاتِ السَّابِقَةِ الَّتِي وَضَعَتْ فِي كُلِّ قَلْبٍ عَظَمَتَهُ وَكِبْرِيَاءَهُ .

وَأَخْرَعَهُمُ الْإِيمَانُ أَخْرَاعًا تَضَسُّا ، عَلَامَتُهُ الْمَسْحُورَةُ عَلَى كُلِّ مِنْهُمْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ : لَا يَذِلُّ !

حِينَ يَكُونُ الْفَقْرُ قَلَّةَ الْمَالِ ، يَفْتَقِرُ أَكْثَرُ النَّاسِ ، وَتَتَخَدَّلُ الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَتَهْلِكُ الْمَوَاهِبُ .

ولكن حين يكونُ قَصْرُ العملِ الطيبِ ، يستطيع كل إنسان أن يفتنى ،
رتبعتُ القوةَ ، وتعملُ كلُّ موهبة .

وحين يكون الخوفُ من نقص هذه الحياةِ وآلامِها ، تفسرُ كلمةَ الخوفِ
ماتةً رذيلةً غيرِ الخوفِ .

ولكن حين يكونُ من نقص الحياةِ الآخرةِ وعذابِها ، تُصبح الكلمةُ
قانونَ الفضائلِ أجمع .

هكذا اخترعَ الدينُ إنسانَه الكبيرَ النفسِ الذي لا يقال فيه : انهزمتُ نفسه .

يا شبابَ العربِ ، كانت حكمةُ العربِ التي يعملون عليها : اطلبَ الموتَ
تَوَهَّبْ لك الحياةَ .

والنفسُ إذا لم تختنِ الموتَ كانت غريزةُ الكفاحِ أولَ غرائزها تعملُ .
والكفاحُ غريزةٌ تجعلُ الحياةَ كُلَّها نصراً ، إذ لا تكونُ العكسُ معها
إلا فكرةٌ مُقاتلة .

غريزةُ الكفاحِ يا شباب ، هي التي جعلت الأسدَ لا يُسمَنُ كما تسمُنُ
الشاءُ للذبح .

وإذا انكسرتُ يوماً ، فالحجرُ الصُّلْدُ إذا تَرَضَّرَ صُتْ منه قطعة كانت
دليلاً يكشفُ للعين أن جميعه حجرٌ صلد .

يا شبابَ العربِ ، إن كلمةَ (حَقِّ) لانتحيا في السياسةِ إلا إذا وضعَ قائلها
حياتهَ فيها .

فالقوةُ القوةُ يا شباب ! القوةُ التي تقتلُ أولَ ما تقتلُ فكرةَ التَّرفِ
والتخنُّث .

القوة الفاضلة المتسامية التي توضع للأنصار في كلمة (نعم) معنى نعم .
القوة الصارمة النفاذة التي توضع للأعداء في كلمة (لا) معنى لا .
يا شباب العرب ، اجعلوا رسالتكم : إما أن يحبس الشرق عزيزاً ،
وإما أن تموتوا !

لو...!

رأيتني جالساً في مسرح هزلي بمدينة اسكندرية ، كما يجلس القاضي في
جريمة يحمل أهلها بين يديه آثامهم وأعمالهم ، ويحمل هو عقله وحكمه ،
وقد ذهبت لأرى كيف يتسأخف أهل هذه الصناعة ؛ فكان حكماً أن السخافة
عندنا تخيفةٌ جداً ...

رأيتهم هناك ينفدون العيوب بما يُنشئ عيوباً جديدة ، ويسبّحون
بأيديهم سباحةً ماهرة ، ولكن على الأرض لا في البحر ؛ وتكاد نظرتهم
إلى الحقيقة الهزلية تكون عني ظاهراً عما هي به حقيقة هزلية ، ولا غاية لهم
من هذا التمثيل إلا الرقاعة والإسفاف والحلط والهديان ، إذ كان هذا هو
الاشم بمجودم الذي يحضرم ، وكان هو الأقرب إلى تلك الطباع العامة البلدية
التي اعتادت من تكلف المزل ما جعلها هي في ذات نفسها هزلاً يستخر منه .
ولا أحتف من تكلف السكة الباردة قد خلّت من المعنى ، إلا تكلف
الصنك المصوغ يأتي في عقبها كالرهان على أن في هذه السكة معنى .

والتي المصوغ عد هزلاً ، وإما من الخفة إلا يوافقون به الروح

العامية الضئيلة الكاذبة المكذوب عليها ، التي يبلغ من بلاهتها أحياناً أن تضحك للنكتة قبل إلقتها ، كقرط خمتها ورعوتها ، وطول ما تكلمت وأعدت . فاذك العن إلا ما ترى من التخليط في الألفاظ ، والتضريب بين المعاني ، وإيقاع الغلط في المعقولات ؛ ثم لا ثم بعد هذا . فلا دقة في التأليف ، ولا عمق في الفكرة ، ولا سياسة في جمع النقائص ، ولا نفاذ في أسرار النفس ، ولا جد يؤخذ من هزلة الحياة ، ولا عظمة تستخرج من صغائرها ، ولا فلسفة تُعرف من حماقاتها .

والفرق بعيد بين ضحك هو صناعة ذهني لتحريك العن ، ونحذ الطبع ، وتصوير الحقيقة صورة أخرى ؛ وبين ضحك هو صناعة البلاهة للهو والعيب ، والمجاجة لا غير .

وكان معي قريب من أدكياء الطلبة المتخصصين للآداب الإنجليزية ، فلم نلبث إلا يسيراً حتى جاء ثلاثة من ضباط الأسطول الإنجليزي ، جلسوا محدائنا صفّاً تلح عليهم محائل الظفر ، ولهم وقار البطولة . وفيهم أرواح الحرب ؛ وهم بدون في ثيابهم البيض المطرأة^(١) كأنهم ثلاثة نُسور هبطت من العمام إلى الأرض ، فلا عينا نظرات تدور ها وهاك تُسكّر وتعرف . وأعشى أن أراهم في هذا المكان الحرّ الممتلئ بالصعفاء ، كأنهم ثلاث حقائق بين الأغلاط ، أو ثلاث أعلاط كبيرة . . . وكانت أدع ما أراه على هيئة وجوههم وأسره له . تواضع هذا الاستعداد الحرّ ونحوه إلى استعداد السحرة . .

(١) أى المكوية ؛ والكلمة العربية التي استعملت قديماً في معنى (المكوي) من المولى (بتدريج الهم)

ثم تأملتُهم طويلاً ؛ فإذا صرامة وشهامة ، وسكينة ووداعة ، وحسن تمتّ وحلاوة هيئة ، في جلسة رزينة متوقّرة ، لا يشبهها في حسن النفس التي تعرف معاني القوة إلا وضع ثلاثة مدافع مصوّبة .

وجملتُ ألقاب عيني في الناس الموجودين وملاصحتهم وهيئاتهم ، ثم أرجع البصر إلى هؤلاء الثلاثة ، فأرى المصري كالمقتنع بأنه محدودٌ بمدينة أو قرية لا يعرف لنفسه مكاناً في غيرهما ، فهو من ثم لا يرحل ولا يُغامر ، ولا يتقاضيه الدنيا ؛ وأرى الإنجليزي كالمقتنع بأن كل مكان في العالم ينتظر الإنجليزي ...

وخيلٌ إلىّ والله أن رجلاً من هؤلاء الأنجليز الأقوياء المعتدّين بأنفسهم لا يُهاجر من بلاده إلا ومعه نفسه وأستقلّاله وتاريخه وروح دولته وطبيعته أرضه ؛ فهو مستيقن أن الله لا يرزقه رزقاً أيّ الرزق كان على ما يتفق ، بل رزقاً أنجليزياً ؛ أي فيه كفايته .

ورأيت شيئاً عجيباً من الفرق بين طابع السلم على وحوه ، وبين طابع الحرب على وحوه أخرى ؛ ففي تلك معاني السهولة والملاينة والحرص على مادة الحياة ، وفي هذه معاني العزم والمقاومة والحرص على مجد الحياة لا على مادتها . وتنبّئتُ أسلوبين من الأساليب الاجتماعية : أحدهما في فردٍ قد بنى أمره على أن أمة تحمله ، هو يعيش بأضعف ما فيه ؛ والآخر في فرد قد وضع الأمر على أنه هو يحمل أمة ، فلا يدعُ في نفسه قوة إلا ضاعفها

وعرفتُ وجهين من وجوه النظرية السياسية : أحدهما بالطنطنة ، والتحويل ، والضراح ، واستعارة العاطف غير الواقع للواقع ، وتحميل الألفاظ غير ما تحمل ؛ والآخر بالهدوء الذي يقهر الحوادث ، والصبر الذي يغلب الزمن ، والعقيدة التي تمرض أفعالها العظيمة على صاحبها وتحمل أعظم أجره عليها أن يفهم بها . وه يربّ بين أنرب من أمار الأرض في أهلها أحدهما في المصري السخّح

الواديّ الألوّفيّ الحيّ الذي هو كرم الطبيعة ، والآخر في الإنجليزيّ
العسير المغامر النور الملحّ على الدنيا كأنه تطفل الطبيعة ...

• • •

والتي أنّ العلم الذي كان معي سمعته إلى هؤلاء الضباط ، وهم من فلاسفة الرأي
على ما يظهر من حديثهم ، ثم نقل إلى عنهم ، فقال كبيرهم : لقد فرغت من
نحى الذي وضعته في فلسفة تحول الشرقيين ، وأفضيت منه إلى حقائق عجيبة ،
أظهرها وأخفاها معاً أنّ أمة من هذه الأمم لا يُمكن للأجنبي فيها ، ولا تتقلّ
وطائفة عليهم ، ولا يطول ثوابه في أرضهم ، ولا يحتلّها من يطمع فيها - مالم
يكن سادتها وأمرؤها وكبرائها كأنهم فيها دولة محنة .

وهؤلاء الكبراء هم آفة الشرق . فن أعظم واجباتنا أن نزيد في تعظيمهم ،
وأن نمدّ لهم في المال والمجاهة ، ونبسّط لهم العين والشمال ، ونوهمهم أن عظمهم
هكذا وليدتهمهم وهكذا ولدوا بها من أمهاتهم ، كما ولدوا بأيديهم وأرجلهم ...
وخاصّة عظماء رجال الأديان المفتوين بالدنيا ؛ فإيا فصنع بقُرور الجميع وخطاياتهم
وحرصهم وطمعهم أسياء اجتماعية ذات خطر لا يصنع لنا مثلاً إلا الشياطين ،
ومر لنا بالحكم على الشياطين ؟ وهذا ماتته له (غاندى) ذلك المهزول الهندي
الذي تُقوّم ديناه بأربعة شلنات ، ولا يزن أكثر من بصعة أرطال من الجلد
والعظم ، ولا بطش عنده ولا قوّة فيه ، وهو مع ذلك جبارٌ سماوى في يده
الرق والعد يرى ويسمع في أرجاء الدنيا .

قال صابط العين : وبصاعة الكبرياء هذه الصناعة يكون رجلُ الشعب
من هؤلاء الشرقيين رجل تقليد الطبيعة ، ورجل ذل بالحالة ، ورجل
حصوع بالجملة ؛ فليس في نفسه أنه سيّد نفسه ولا سيّد غيره ، بل أكبرُ معانيه
أن غره سيّد عليه فيكون معه دائماً خالٍ استعباده .

وتكلم ضابط اليسار ، ولكن المترجم لم يميز أقواله ، لأن ثلاث عشرة امرأة كنَّ يصرنَّحنَ في الرواية الهزلية بلحنٍ طويل يقتلن في أوله : « عاوزين رجالة تدلَّعنا » وكانت الموسيقى تصرخُ معهن وتُولولُ كأنها هي أيضاً امرأة محرومة .

* * *

ثم أرفف المترجم أذنه ، فقال كبيرهم : إن هؤلاء الشرقيين ست حواس : الجنس المعروفة ، وحاسة الخول الذي خدعهم عنه الطبيعة البليدة فسموه أرف والمزل واللهو ؛ والآلة الأوربية التي تحتلُّ بلاداً شرقية تحذفها لصغائر الحياة جيشاً أقوى من جيشها ؛ عشرة آلاف جندي بعتادهم وآلاتهم لا يصنعون شيئاً إلا الاستفزاز والتحدى وإثبات أهم غاضبون ؛ ولكن ما أنت قائلٌ في عشرة آلاف مكان كهذا المسرح راقصاته وموسماته وخموره ورواياته ، وهؤلاء الرجال المختشين الهزليين الرُقعاء الذين هم وحدهم معاهدةٌ سياسية ناجحةٌ بيننا وبين شباب الآلة ... ؟

قال ضابط البمين : نعم إن فنَّ الاحتلال فنٌّ عسكريٌّ في الأول . ولكنه فنٌّ أخلاقيٌّ في الآخر ؛ ولهذا يجب تعيينُ نقطة انحناء للشباب تكون مضيئةً لامةً جذابةً مغريةً ، ولكنها في ذات الوقت مُحركةٌ أيضاً ، وهذه هي صناعةُ إهلاك الشباب بالضوء الجميل ، وما على السياسي الحاذق في الترقق إلا أن يحمي الرذيلة . فإنَّ الرذيلةَ ستعرفُ له صليعه وتحميه ...

فتكلم ضابط اليسار ، ولكن صوته ذهب في عشرين صوتاً من رجال المسرح وساته يصيحون جميعاً : « يا حلوه يا حقاني ، يا بجنه الشبان ... »

* * *

ولما أملت محوار الضباط الثلاثة قلتُ لصاحبي : استأذن لي عليهم أكلهم

ف فعل وجزقني إليهم ، وترجم لهم مقالة (يا شباب العرب) وكان يحملها ؛ فكأنما رماهم منها بالجيش والأسطول .

ثم قلت لكبيرهم : لست أنكر أن الإنجليزي لو دخلَ جهنمَ لدخلها إنجليزيًا .. ولا أجد أن له في الحياة مثلَ هداية الحيوان ، لأنه رحلُ عملٍ ، دليلُ منفعة أنها منفعة وحسبُ ، ثم لا دليلَ غيرُ هذا ولا يقللُ إلا هذا ؛ فإذا قال الشرق : حق ، وقال الإنجليزي : منفعي ، بطلت الأدلة كلها ، ورأى الشرق أنه مع الإنجليزي كالذي يحاول أن يُقنع الذئبَ بقانون القضيلة والرحمة ؛ وقد عرفنا أن في السياسة عجائب ، منها ما يشبه أن يلقى إنسانُ إنسانًا فيقول له : يا سيدي العزيز ، بكل احترام أرجو أن تتلقى مني هذه الصفحة ... وفي السياسة مواعيدٌ عجيبية ، منها ما يشبه غرسَ شجرةٍ للفقراء والمساكين ، والتوكيدُ لهم بالآيمان أنها ستثمر رُغمانًا مخبوزة ... ثم بعد ذلك تُطعمُ فئسمرُ الرعافانَ المخبوزة حَشْوُها اللحمُ والإدام ؛

وفي الساسة محاربةُ المساجد بالمراقص ، ومحاربةُ الزوجات بالمومسات ، ومحاربة العقائد بأسائنة حزبة الفكر ، ومحاربة فنون القوة بفنون اللذة ؛ ولكن لو فهم الشبابُ أن أماكِنَ اللهو في كل معانيها ليست إلا غَدْرًا بالوطن في كل معانيه ١٠٠

ولو عرف الشبابُ أن محاربةَ اللهو هي أولُ المعركة السياسية الفاصلة ... ١
ولو أدرك الشبابُ أن أولَ حق الوطن عليه أن يحلَّ في نفسه معنى
أنشعب لا معنى نفسه ١٠٠

ولو رجع الدينُ الإسلامي كما هو في طبيعته آلهَ حرية تصنع من الشباب
رجال القوة ١٠

ولو علم الشبابُ أن روح هذا الدين ليست : أَعْتَقِدْ ولا تَعْتَقِدْ ؛ ولكن
افْعَلْ ولا تفعل... !

ولو أيقن الشبابُ أن فرائض هذا الدين ليست إلا وسائلَ عمليةَ لامتلاء
النفس بمعاني التقديس ... !

ولو فهم الشبابُ أن ليس في الكون إلا هذه المعاني تحمل النفس فوق
المساقاة وفوق الخوف وفوق الموت نفسه ... !

ولو بحث الشبابُ النفسَ الإنجليزيةَ القويةَ ليعرفَ بالبرهان أنها نصفُ
مسلية ، فكيف بها لو كانت مسلية ؟ ...

* * *

وكان المترجم ينقل إليهم كلامي ، فما بلغتُ إلى حيث بلغتُ حتى شدة الصابغ
على يدي وهزّها ؛ فنظرت ، فإذا أنا قد كنتُ نائماً بعد سهرة طويلة في ذلك
المسرح ، وإذا بدُّ المترجم نفسه هي التي تهزني لأنتبه ...

في محنة فلسطين

أيها المسلمون

نهضتْ فِلَسْطِينُ تَحِلُّ الْعَقْدَةَ الَّتِي عُقِدَتْ هَا بَيْنَ السَّيْفِ وَالْمَكْرِ وَالزَّهَبِ .
عَقْدَةٌ سِيَاسِيَّةٌ خَبِيثَةٌ ، فِيهَا لَذَلِكَ الشَّعْبُ الْحُرُّ قَتْلٌ وَتَغْرِيبٌ وَفَقْرٌ .
عَقْدَةُ الْحُكْمِ الَّتِي يَحْكُمُ بِثَلَاثَةِ أَسَالِيبَ : الْوَعْدِ الْكَذِبِ ، وَالْفَنَاءِ الْبَطِيءِ ،
وَمَطَامِعِ الْيَهُودِ الْمُتَوَحِّشَةِ .

أيها المسلمون ، ليست هذه محنة فلسطين ، ولكنها محنة الإسلام ؛ يريدون
أَلَّا يُثَبِّتَ شَخْصِيَّتَهُ الْعَزِيزَةَ الْحُرَّةَ .
كُلُّ قَرْمَشٍ يُدْفَعُ الْآنَ لِفِلَسْطِينِ ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيُجَاهِدَ هُوَ أَيْضاً !

أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمُجَاهِدُونَ ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ أَخْلَاقَنَا هِيَ حُلُفَاؤُهُمْ
فِي هَذَا الْجِهَادِ .

أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمُنْكَوَبُونَ ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ فِي كُتُبِهِمْ امْتِحَانٌ لِعِزَائِرِنَا
مَعَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً .

أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمُضْطَهَّدُونَ ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ السِّيَاسَةَ الَّتِي أَذَلَّتْهُمْ تَسْأَلُنَا
مَعْنَى : هَلْ عِنْدَنَا إِقْرَارٌ لِلذَّلِّ ؟

مَاذَا تَكُونُ نَكْبَةُ الْآخِرِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ اسْمًا آخَرَ لِمُرُوءَةٍ سَاطِرَةٍ لِإِخْوَانِهِ
أَوْ مَذَلَّتِهِمْ ؟

أيها المسلمون ، كل قرش يدفع لفلسطين ، يذهب إلى هناك ليفرض على السياسة احترام الشعور الإسلامى .

ابتَلَوْهُم بِالْيَهُودِ بِحَمَلُونِ فِي دِمَائِهِمْ حَقِيقَتَيْنِ ثَابِتَتَيْنِ مِنْ ذَلِكَ الْمَاضِي وَتَشْرِيدِ الْحَاضِرِ .

وَيَحْمِلُونَ فِي قُلُوبِهِمْ رَقَمَتَيْنِ طَاطِغَتَيْنِ ، إِحْدَاهُمَا مِنْ ذَهَبِهِم وَالْآخَرَى مِنْ رِذَائِلِهِمْ .

وَيَتَخَبَّثُونَ فِي أَعْمَقَتِهِمْ فِكْرَتَيْنِ خَبِيثَتَيْنِ : أَنْ يَكُونَ الْعَرَبُ أَقَلِيَّةً ، ثُمَّ أَنْ يَكُونُوا بَعْدَ ذَلِكَ خَدَمَ الْيَهُودِ !

فِي أَنْفُسِهِمُ الْحَقْدُ ، وَفِي خَيَالِهِمُ الْجَنُونُ ، وَفِي عَقُولِهِمُ الْمَكْرُ . وَفِي أَيْدِيهِمُ الذَّهَبُ الَّذِي أَصْحَحَ لِسِيئًا لِأَنَّهُ فِي أَيْدِيهِمْ ،

أيها المسلمون ، كل قرش يدفع لفلسطين ، يذهب إلى هناك ليتكلم كلمة تَرُدُّ إِلَى هَؤُلَاءِ الْعَقْلِ .

اِبْتَلَوْهُم بِالْيَهُودِ يَمْرُؤُونَ بِيَدِهِمْ مَرُورَ الدَّانِيَةِ بِالرَّامِثِ الْعَاجِزِ فِي أَيْدِي الْعُقَرَاءِ . كُلُّ مِائَةِ يَهُودَى عَلَى مَذْهَبِ الْقَوْمِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ مِائَةً وَسِمِينَ ...

حَسَابُ خَبِيثٍ يَبْدَأُ بِشَيْءٍ مِنَ الْعَقْلِ . وَلَا يَنْتَهِي أَدَاؤُهُ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعَقْلِ .
وَالسَّاسَةُ وَرَاءَ الْيَهُودِ ، وَالْيَهُودُ وَرَاءَ خَيَالِهِمُ الدِّينِي ، وَخَيَالُهُمُ الدِّينِيُّ
هُوَ طَرْدُ الْحَقِيقَةِ الْمُسْلِمَةِ .

أيها المسلمون ، كل قرش يدفع لفلسطين ، يذهب إلى هناك لِيُثَبَّتَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يَرِيدُونَ طَرْدَهَا .

يقول اليهود إنهم شعبٌ مضطهد في جميع بلاد العالم .
ويزعمون أن من حقهم أن يعيشوا أحراراً في فلسطين ، كأنها ليست
من جميع بلاد العالم ...

وقد صنعوا للإنجليز أسطولاً عظيماً لا يسبح في البحار ، ولكن في الخزائن ..
أراد الإنجليز أن يطمئنوا في فلسطين إلى شعبٍ لم يتعود قط أن
يقول أنا :

ولكن لماذا كُنتُم كلُّ أمةٍ من أرضها بمكسبةٍ أيها اليهود ؟

أجهلتم الإسلام ؟ الإسلام قوةٌ كذلك التي توجدُ الأنبياء والمخالب في
كل أسد .

قوةٌ تُخرج سلاحها بنفسها ، لأن مخلوقها عزيزٌ لم يوحده ليؤكل ، ولم
يُخلق لينذل .

قوةٌ تجعل الصوتَ نفسه حين يزجر ، كأنه يُعلن الأسديةَ العزيزة
إلى الجهات الأربع .

قوةٌ ورامها قلبٌ مشتمل كالبركان ، تتحول فيه كل قطرة دم إلى
شرارة دم .

ولئن كانت الحوافرُ تهيج مخلوقاتها ليركها الراكب ، إن المخالب والأنياب
تهيج مخلوقاتها لمعنى آخر .

لو سُئلتُ ما الإسلامُ في معناه الاجتماعي ؟ سألت : كم عدد المسلمين ؟
فإن قيل : ثلثمائة مليون . قلتُ : فالإسلامُ هو الفكرةُ التي يجب أن
يكونَ لها ثلثمائة مليون قوة .

أيجوع إخوانكم المسلمون وتشبعون؟ إن هذا الشَّبَع ذنبٌ يعاقب الله عليه .
والنَّعَى اليومَ في الأغنياء المُسَكِّين عن إخوانهم ، هو وصف الاغنياء
بالثوم لا بالنعى .
كل ما يبذله المسلمون لفلسطين ، يبدُّ دلالاتٍ كثيرة ، أفلها سياسةُ المقاومة .

كان أسلافكم أيها المسلمون يفتحون الممالك ، فافتحوا أنتم أيديكم ...
كانوا يرمون بأنفسهم في سبيل الله غيرَ مَكْتَرِثِينَ ، فارموا أنتم في سبيل
الحق بالدنانير والدرهم .
لماذا كانت القِلَّةُ في الإسلام إلا لتعتاد الوجوه كلها أن تتحول إلى
الجهة الواحدة ؟

لماذا آرتفعت المآذنُ إلا ليعتاد المسلمون رفع الصوت في الحق ؟
أيها المسلمون ، كونوا هناك ، كونوا هناك مع إخوانكم معي من المعاني .

لو صام العالم الإسلامي كله يوماً واحداً ومذَلَّ نفقاتِ هذا اليوم الواحد
لفلسطين ، لأغناها .

لو صام المسلمون كلهم يوماً واحداً لإعانة فلسطين ، لقال النبيُّ مفخرةً
الأنبياء : هذه أمتي .

لو صام المسلمون جميعاً يوماً واحداً لفلسطين ، لقال اليهودُ اليومَ ما قاله
آباؤهم من قبل : إن فيها قوماً جُبارين ...

أيها المسلمون ، هذا موطن يزيد فيه معنى المالِ المبذولِ فيكون شيئاً سماوياً .
كل قرش يبذله المسلم لفلسطين ، يتكلم يومَ الحساب يقول : ياربِّ ،
أنا إيمان فلان !

قصة الأيدي المتوضئة ...

قال راوى الخبر : ذهبتُ إلى المسجد لصلاة الجمعة ؛ والمسجدُ يجمعُ الناسُ بقلوبهم لُبْحَرَجَ كلِّ إنسانٍ من دنياه ، فلا يفكرُ أحدٌ أنه أسى من أحد ؛ ولقد يكون إلى جانبك الصانعُ أو الأجيرُ أو الفقيرُ أو الجاهلُ ، وأنت الرئيسُ أو العظيمُ أو الغنى أو العالمُ ، فتطُرُ إليه وإلى نفسك فتحسُّ كأن خواطرك متوضئةٌ متطهرةٌ ، وترى كلمةَ الكبرياء قد فقدت روحها ، وكلمةَ التواضع قد وجدت روحها ؛ وتشعرُ بالنفسِ المجتمعةِ قد نصبت الحربَ للنفسِ المنفردة ؛ ولو خطر لك شيءٌ بخلاف ذلك رأيتَ الفقيرَ إلى جانبك توبيخاً لك ، ونظرتَ إليه ساكناً وهو يتكلم في قلبك ، وشعرتَ بالله من فوقكما ، واستعلتَ لك روحُ المسجدِ كأنها تهَمُّ بطردك منه ، وخُيلَ إليك أن الأرضَ ستلطم وجهك إذا سجدتَ عليها ، وأيقنتَ من ذاتِ نفسك أن لستَ هناك في دنياك وليس صاحبُك في دنياه ، وإما أننا هناك في إنسانيةٍ ميزاًها بيد الله وحده : فلا تدرى أيكما الذى يَخِفُّ وأيكما الذى يثقلُ^(١)

قال : والعجيبُ أن هذا الذى لا يحمله أحدٌ من أهل الدين ، يعرفه بعضُ علماء الدين على وجهٍ آخر ، فراه في المسجد يمشى محتالاً ، قد تحلَّى بحليته ، وتكَلَّفَ لزمه ، فلبسَ الجبةَ تَسَعُ اثنين ، وتطوّلَ كَأَنَّهُ المِثْدَنَةُ ، وتَصَدَّرَ كَأَنَّهُ القَبْلَةُ ، وانتفخَ كَأَنَّهُ يمتلئُ بالفُروقِ بينه وبين الناسِ ؛ وهو بعد كل هذا لو كشفَ الله تمويهَهُ لَانْكَشَفَ عن تاجرٍ علمٍ بعضُ شروطِهِ على الفصيلهِ أن يأكلَها ، فلا يجدُ دنياه ذاتِهِ إلا في المسجد ، فهو نوعٌ من كذبِ العالمِ الدينى

(١) استوفيا الكلام عن فلسفة المسجد في مقالات كثيرة .

على دينه .

قال الراوى : وصعد الخطيب المنبر وفى يده سيفه الخشبي يتوكأ عليه ؛ فما استقر في الذروة حتى نُحِيلَ إلى أن الرجل قد دخل في سر هذه الخشبة ، فهو يبدو كالمرضى تُقيمه عصاه ، وكالمُحْرِمِ يُمسكه ما يتوكأ عليه ؛ ونظرتُ فإذا هو كذبتُ صريح على الإسلام والمسلمين ، كهية سيفه الخشبي في كذبها على السيوف ومعنيها وأعمالها .

وثاقه ما أدرى كيف يستحلُّ عالم من علماء الدين الإسلامي في هذا العصر أن يخطبَ المسلمين خطبةً بُجعتهم وفى يده هذا السيف علامة الدل والضعف والتراجع والانقلاب والإدبار والمزل والسخرية والفضيحة والإحناك ؛ ومتى كان الإسلام يأمرُ بتجريد السيوف من الخشب وتحتيتها وتسويتها وإرهاق حدها الذي لا يقطع شيئاً ، ثم وضعها في أيدي العلماء ، يغلون بها ذؤابة كل منر ، لتعلق بها العيون ، وتشهد فيها الرمز والعلامة ، وتسوحي منها المعنوية الدليية التي يجب أن تتجسم لى ترى ؟

أفى سيف من الخشب معنوية غير معنى المزل والسخافة ، وبلاهة العقل وذلة الحياة ، ومسخر التاريخ الفاتح المنتصر ، والرمز لحضوع الكلمة وصيانية الإرادة ؟

قال : وكان تمام المزمع هذا السيف الخشبي الذى صنعتته وزارة أوقاف المسلمين ، أنه فى طول صمصامة عمرو بن معديكرب الزيدى فارس الخاهلية والإسلام^(١) ، فكان إلى صدر الخطيب ، ولولا أنه فى يده لظهر مقيضه فى صدر الرجل كأنه وسام من الخشب ...

(١) كان طول الصمصامة سعة أشار وافه وعرضه سراً .

قال : وكان الخطيب إذا تكلف وتصنع وظهر منه أنه قد سحى وثار ثأرُهُ ،
أَرْتَجَّ وغَفَلَ عن يده ، فضطربُ فيها قبضَةُ السيف فتلكزَّهُ في صدره كأنما
تذكره أن في يده خشبة لا تصلح لهذه المحاسة ...^(١)

• • •

قال : وخطب العالمُ على الناس ، وكان سيفُهُ الخشبيُّ يخطبُ خطبةً أخرى
فأما الأولى فهي محفوظةٌ معروفةٌ ولا تلتهى حتى ينتهى أثرُها ، إذ هي كالقراءة
لإقامة الصلاة ؛ وكانت في عهدِها الأول كالدرس لإقامة شأنٍ من شئون
الاجتماع والسياسة ، فيها وبين حقيقتها الإسلامية مثل ما بين هذا السيف
من الخشب وبين حقيقته الأولى ؛ وأما الخطبة الثانية فقد عقلتُها أما عن
تلك الخشبة وكتبها ، وهذه هي عبارتها :

ونحکم أيها المسلمون ! لو كنتُ بقيةً من خشب سفينة نوح التي أنقذ فيها
الجنس البشرى ، لما كان لكم أن تضعوني هذا الموضع ؛ وما جعلكم الله
حيث أنتم إلا بعد أن جعلتموني حيث أنا ، تكاد شرارةٌ تذهب بي وبكم
معاً ، لأن فيّ وفيكم المادة الخشبية والمادة المتخشبة !

ونحکم ! لو أنه كان خطيبكم شيء من الكلام الناري المضطرم ؛ لما بقيت
الخشبة في يده خشبة ؛ وكيف يمتلئ الرجلُ إيماناً بإيمانه ، وكيف يصعدُ المبرر
ليقولَ كلمة الدين من الحق العالب ، وكلمة الحياة من الحق الواجب ، وهو
كما ترونه قد انتهى من الذل إلى أن فقد السيفَ روحه في يده ؟

أيها المسلمون ! لن تفلحوا وهذا خطيبكم المتكلم فيكم ، إلا إذا أفلحتم وأما

(١) القاعدة الشرعية . أن البلد الذي يفتح بالسيف يحطب فيه بالسيف . ولما
صنف المسلمون أقد السيف مهم وأطاعهم الخشب ... !

سيفكم المدافع عنكم ! أيها المسلمون ، غَيِّروهُ وَغَيِّرُونِي !

قال راوى الخبر : وَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ مَاجَ النَّاسُ ؛ إِذْ ابْعَثَ فِيهِمْ جَمَاعَةً مِنَ الشَّبَانِ يَصِيحُونَ بِهِمْ يَسْتَوْقِفُونَهُمْ لِيُخْطَبُوهُمْ ؛ ثُمَّ قَامَ أَحَدُهُمْ خُطْبًا ، فَذَكَرَ فِلَسْطِينَ وَمَا زَلَّ بِهَا ، وَتَغَيَّرَ أَحْوَالُ أَهْلِهَا ، وَنَكَبَتْهُمْ وَجِهَادُهُمْ وَأَحْتِلَالُ أَمْرِهِمْ ، ثُمَّ اسْتَجَدَّ وَاسْتَعَانَ ، وَدَعَا الْمُؤَسِّرَ وَالْمُنْخَفِ إِلَى الْبَذْلِ وَالتَّرَعِ وَإِقْرَاضِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَتَقَدَّمَ أَصْحَابُهُ بِصَادِقِ مَحْتَوَمَةٍ ، فَطَافُوا بِهَا إِلَى النَّاسِ يَجْمَعُونَ فِيهَا الْقَلِيلَ وَالْأَقْلَّ مِنْ دَرَاهِمٍ هِيَ فِي هَذِهِ الْحَالِ دَرَاهِمُ أَصْحَابِهَا وَضَمَائِرُهُمْ .

قال : وَكَانَ إِلَى حَانِي رَجُلٌ قَرَوِيٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَلَا حِينَ الَّذِينَ تَعْرِفُ الْحَيَرَ فِي وَجُوهِهِمْ ، وَالصَّرَى فِي أَحْسَامِهِمْ ، وَالْقَنَاعَةَ فِي نَفْسِهِمْ . وَالْفَضْلَ فِي بَيَاضِهِمْ ؛ إِذْ آمَتَزَجَتْ بِهِمْ رُوحُ الطَّبِيعَةِ الْخَصْبَةِ فُتَخْرِجُ مِنْ أَرْضِهِمْ زُرُوعًا وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ زُرُوعًا أُخْرَى ؛ فَقَالَ لِرَجُلٍ كَانَ مَعَهُ : إِنَّ هَذَا الْخُطِيبَ خُطِيبَ الْمَسْجِدِ قَدْ غَشَّيْنَا ، وَهَؤُلَاءِ الشَّبَانُ قَدْ فَضَحُوهُ ؛ فَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ خُطْبَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا فِي أَحْصَ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ .

قال : وَتَبَنَّى هَذَا الرَّجُلُ السَّادِجُ إِلَى مَعَى دَقِيقٍ فِي حِكْمَةِ هَذِهِ الْمَنَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ ؛ فَمَا يَرِيدُ الْإِسْلَامُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ كَمَحَطَاتِ الْإِذَاةِ : يَلْتَقِطُ كُلُّ مَنِيرٍ أَخْبَارَ الْجِهَاتِ الْآخَرَى وَيُذَيِّعُهَا فِي صِيغَةِ الْخُطَابِ إِلَى الرُّوحِ وَالْعَقْلِ وَالْقَلْبِ ، فَتَكُونُ خُطْبَةُ الْجُمُعَةِ الْكَلِمَةُ الْآسْبُوعِيَّةُ فِي سِيَاسَةِ الْآسْبُوعِ أَوْ مُسْتَلِةِ الْآسْبُوعِ ؛ وَهَذَا لَا يَجِيءُ الْكَلَامُ عَلَى الْمَنَارِ إِلَّا حَيًّا بِحَيَاةِ الْوَقْتِ ، فَبَصَحُ الْخُطِيبُ يَنْظُرُهُ النَّاسُ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ أَنْتَقَارَ الشَّيْءِ الْجَدِيدِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَسْتَطِيعُ الْمُنْبَرُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ عَمَلٌ .

قال : وَخُيِّلَ إِلَيَّ بَعْدَ هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ كُلَّ خُطِيبٍ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ نَاقِصٌ

إلى النصف، لأن السياسة تُكرهه أن يخلع إسلاميته الواسعة قبل صعوده المنير، وألا يصعد إلا في إسلاميته الضيقة المحدودة بمحدود الوعظ الذي هو مع ذلك نصف وعظ ... فالخطبة في الحقيقة نصف خطبة، أو كأها أثر خطبة معها أثر سيف .

قال : وأخرج الترمذى كيسه فمرك منه دراهم وقال : هذه لطعام أتبلغ به ولأوتى إلى البلد ، ثم أفرغ الباقي في صناديق الجماعة ؛ واقتديت أنا به لم أخرج من المسجد حتى وضعت في صناديقهم كل ماعى ؛ ولقد حسبت أنه لو بقى لى درهم واحد لمضى يَسْبُتْنى مادام معى إلى أن يخرج عى .

قال الراوى : ثم دخلت إلى ضريح صاحب المسجد أزوره وأقرأ فيه ما تيسر من القرآن ، فإذا هناك رجال من علماء المسلمين ، اثنان أو ثلاثة (الشك في ثالثهم لأنه حلق اللحية) . ثم تَوَأَى إليهم آخرون فتموا ساعة ؛ ورأيهم قد خلطوا بأفهامهم صاحب (اللحية) فعلمت أنه مهم على المذهب الشائع في بعض العصرين من العلماء والقضاة الشرعيين ، أحسبهم يحتجون بقوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » ، وكل امرئ فإيما بُصِّرَ مرآته كيف يظهر في أحسن تقويم . أبلحية أم بلاحية ... ؟

وأدرت عيني في وجوههم : فإذا وقارٌ وسمتٌ ونورٌ لم أر منها شيئاً في وجه صاحب (اللحية) ؛ وأما فابصرت قط لحية رجل عالم أو عابد أو لمسوف أو شاعر أو كاتب أو ذى فن عظيم ، إلا ذكرت هذا المعنى الشعرى البديع الذى ورد في بعض الأخبار ، من أن لله تعالى ملائكة يُقسِمون : والذى زين بنى آدم باللقى ...

وكان من السبعة رجل ترك لحيته عافية على طبيعتها ، فامتدت ، وعظمت

حتى نَشَرَتْ حولها جواروحا نيا من الهية تَشَعُرُ النفسُ الرقيقةُ بَتَيَّارِهِ
على بعد ، فكان هذا أبلغَ رد على ذلك .

قال : وأنصتَ الشيوخُ جميعاً إلى خطب الشبان ، وكانت أصواتُ هؤلاء
جافيةً صلبةً حتى كأنها صَعَبُ معركةٍ لا فنَّ خطابةٍ ، وعلى قدر ضعيفِ المعنى
في كلامهم قَوِيَّ الصوت ؛ فهم يصرخون كما يصرخُ المستغيثُ في صيحاتِ
هاربةٍ بين السماء والأرض .

فقال أحدُ الشيوخ الفضلاء : لاحول ولا قوة إلا بالله ! جاء في الخبرِ :
« تَعِسَ عَدُوُّ الدِّينَارِ ، تَعِسَ عَبْدُ الدَّرْهِمِ » ، ووالله ما تنسُ المسلمون إلا منذ
تَعَبَدُوا لِهَذَيْنِ حِرْصاً وَشُحّاً : وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .
ولو تعارفَتْ أهوالُ المسلمين في الحوادث لما أنكرتهم الحوادث .

فقال آخر : وفي الحديث : « إِنْ أَقْبَلَ إِلَهُ يَجِبُ إِغَاثَةُ الْإِلْهَانِ » ، ولكن
ما بالُ هؤلاء الشبان لا يُوردون في خطبهم أحاديثَ مع أنها هي كلماتُ
القلوب ؟ فلو أنهم شرحوا للعامة هذا الحديث : « إِنْ أَقْبَلَ إِلَهُ يَجِبُ إِغَاثَةُ الْإِلْهَانِ » ،
لأسرعَ العاقبة إلى ما يحبه الله .

قال الثالث : ولكن جامداً الأثر في وصف هذه الأمة : « إنها في أول
الزمان يتعلم صغارها من كبارها فإذا كان آخرُ الزمان تعلم كبارهم من صغارهم ،
فتحن في آخر الزمان ، وقد سُلِّطَ الصَّغَارُ عَلَى الْكِبَارِ يريدون أن يتقوهم
عن طباعهم إلى صيانةٍ جديدة .

قال الراوي : فقلت لصديق معي : قال لهذا الشيخ : ليس معنى الآر ما فهمت
بل تأويله أن آخرَ الزمان سيكون لهذه الأمة زمنٌ جهادٍ واقترامٍ ، وعزيمةٍ
ومعاليةٍ على استقلال الحياة : فلا يصاحُ لوقاية الأمة إلا بالبرِّ المتعلم الفؤلى الحرى .

كانرى فى أيامنا هذه ، فيزلون من الكبار تلك المنزلة ؛ إذ تكون الحاسة متممة لقوة العلم ؛ وفى الحديث : « أمتى كالطر : لا يدرى أوله خير أم آخره . »

* * *

قال الراوى : ولم يكذ الصديق بحفظ عنى هذا الكلام ويهم بتبليغه ، حتى وقعت الصيحة فى المكان ؛ فجاء أحد الخطباء ووقف يفعل ما يفعله الرعد : لا يكرر إلا زجيرة واحدة ؛ وكان الشيوخ الأجلاء قد سمعوا كل ما قيل ، فأطرقوا يسمعون مرة رابعة أو خامسة ؛ وفرغ الشاب من هديره فتحول إليهم وجلس بين أيديهم متأدباً متخشعاً ووضع الصندوق المختوم . فقال أحد الشيوخ : بمن أنت يا بنى ؟ قال : من جماعة الإخوان المسلمين . قال الشيخ : لم يحف علينا مكانك ، وقد بذلتم ما استطعتم ؛ فبارك الله فيك وفى أصحابك .

وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضاً ... ثم تحركت النفس بوحن الحالة ؛ فذأ أولم يده إلى جيبه ، ثم دسها فيه ، ثم عثك فيه قليلاً^(١) ؛ ثم ... ثم أخرج الساعة ينظر فيها . وانقلت العدوى إلى الراقين ، فأخرج أحدهم متديله يتمخط فيه ، وظهرت فى يد الثالث سبعة طويلة ، وأخرج الرابع سواكاً فرسه على أسنانه ، وجرّ الخامس كراسة كانت فى قبائه . ومدّ صاحب اللحية العريضة أصابعه إلى لحيته يملأها ؛ أما السابع صاحب (اللاحية) ، فثبت يده فى جيبه ولم تخرج ، كأب فيها شيئاً يستحي إذا هو أظهره ، أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة .

وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضاً ..

قال الراوى : ونظرت فإذا وجوههم قد لبست للشاب هيئة المدرس
الذى يقرر لتلميذه قاعدة قررها من قبل ألف مرة لألف تلميذ ؛ ففجل
الشاب وحمل صندوقه ومضى .

* * *

أقول أنا : فلما انتهى الراوى من (قصه الأيدى المتوضعة) قلت له :
لعلك أيها الراوى استيقظت من الحلم قبل أن يملأ الشيوخ الأجلاء هذا
الصندوق وما ختم عقلك هذه الرواية بهذا الفصل إلا بما كدّدت فيه
ذهنك من فلسفة تحول السيف إلى خشبة ؛ ولو قد أمتد بك النوم لسمعت
أحدهم يقول لسائرهم : بمن يهضّ إخواننا المجاهدون وعن يصولون ؟ لهذا
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جاهلٌ يخفى أحبُّ إلى الله من عالمٍ
يحيل ، ثم يملأون الصندوق ...

نجوى التمثال^(١)

أيها المفترشُ الصخرة يشدُّ ذراعيه أقوى الشدِّ كما يريد أن يقتلع الصخرةَ فبهما .

مُتَنَاهِضاً بصدرة ليدلَّ على أنه وإن ربضَ فإنَّ الوبة في يديه .
مُتَمَطِّياً نُصْلِيهِ ليشير من حسمه الهادئ إلى معانيه المفترسة .
مُقْعِياً على ذنبه ومتحفزاً بسائره كأه قوة الدقاعِ رَهْمٌ أن تَنْفَلِتَ من جاذبية الأرض .

وأنتِ أيها الهيماء تُمَثِّلُ الإنسانيةَ المتمدنة في حمايتها وهي كهذه الإنسانية ضاربة بذراعي أسد في غِلَظٍ مِدْهَمِينَ ...

حكيمة في النظر كما تَمُتدُّ في سرائر الأُمِّ نظرة التأمُّل ، ولكنَّ يدها كيد الحكمة السياسية على تركيب عمليٍّ تحتَه المخالب ...
ساكنةٌ كأنها تمثالُ السلام على أنها في جوار الأسدِ كالسلام بين الشعوب تَلْمَحُ فيه إنسانَ العالم ووحش العالم ...

يا أبا الهول !

أأنتَ جوابٌ عن ذلك اللعز القديم الذي هو كلام لا يتكلم وسكوت لا يسكت ؟

والذي أشار رأيَ الإنسانِ على جسم الليث أنه قوةٌ عمياء كالضرورة ولكنها مُبْصِرة كالآختيار .

(١) تمثال مصرة الذي صممه المثال مختار ومراً لهذه الهيمه ؛ وهو أبو الهول متحمراً تَهف إلى جابه امرأة

والذى أخرج من قُبَى الغريزة والعقل فَنَّا ثَالِثًا لَا يَزَالُ فِي الْأَرْضِ يَنْتَظِرُ
المرأة التى تلد إنسانًا عِظَامُهُ مِنَ الْحَجَرِ !
وأنت يا مصر ! ...

أواقفةٌ ثَمَّةٌ للشرح والتفسير ، تقولين للمصرى : إن أجدادك يسألونك
من آلاف السنين بهذا الرمز : أَلَا معجزةٌ من القوة تمظ عَصَلَاتِ الْحَجَرِ ؟
أَلَا بَسْطَةٌ من العلم تجعلك أيها المصرى وكأنك رأسُ لجسم الطبيعة ؟
أَلَا فنٌ جديدٌ ترفع به أبا الهولِ فى الحق فتزيده على قوة الوحش وذكاه
الإنسان خِفَّةَ الطير ؟

أم تقولين للمصرى : إن أجدادك يُوصونك بهذا الرمز أن تكون كالظهير
الأسدى لَا يُرْكَبُ مَطَاهُ ، وكالرايس الإنسانى لَا تُقَيَّدُ حُرِيَّتُهُ ، وكالربضة
الجبليَّة لَا تُسَهَّلُ إِزَاحَتُهَا ، وكالإنهام المركب من غامضين لَا يَتيسر به عِبَتُ
العابث ، وكالصراخِ المجتمعة من عنصرٍ واحد لَا يغلطُ فى حقيقتها أحد ؟
أم تقولين يا مصر : إن تفسير أبى الهولِ الاولِ أن النهضة المصرية
إنما تكون يوم تُخْرِجُ اللَّادُ من يصنع أبا الهولِ الثانى ؟

• • •

تمتالُ النهضة أم صفحةٌ من الحجر قد صَوَّرَ الشعبُ فكره عليها ، ودَوَّنَ
فيها إحساسه بتاريخه ، ووصف بها إدراكه حياة المعاني السامية ؟
أم هو كتابةٌ فصلٍ من التاريخ بقلم الحياةِ وعلى طريقه من الاغترابِ ،
خشيت عليه الفناء فدوتته فى أسلوب من أساليب البقاء الحجرى الصلْدُ ؟
أم ذاك يومٌ من أيام الأمة أحاله الفنُّ من زمنٍ إلى مادةٍ ، ومن معنى إلى
حسٍّ ، ومن حيزٍ إلى مَنْظَرٍ ، وكأوا يتكلمون عنه فجعله الفنُّ يتكلم عن نفسه ؟
أم هو تعبيرٌ عن تلك المعاني التى حلقها نفوسُ هذا الجيلِ تخاطبُ به

النفوس الآتية لتتم عليها وتُضيف فيه إلى المعنى سرَّ المعنى ، وتضع الكلمة الإنسانية على لسان الطبيعة تتكلم بالتمثال كما تتكلم بالجميل ؟
أم تركيبٌ سيامى إذا فسَّرته اللغة كان معناه أن الثابت إذا احتاج إلى من يثبتته ... فلن يمحوه من ينكره ، وأن الظاهر إن احتاج إلى من يدلُّ عليه ...
فلن يُخفِّيه من لا يراه ؟

بل أراك لا هولَ فيك يا أبا الهول الجديد !
أفذاكَ من رقةٍ داخلتك ورحمة جاءتك من مَسِّ يدِ المرأة ... ؟
أم الهولُ اليوم قد أصحح في العقل والعاطفة ومدَّ العينِ النسائية إلى بعيد ... ؟
أم لا يتم في هذه المدنية رأسُ رجلٍ وجسمٌ مُسَبَّحٌ إلا ... إلا بأنامل امرأة ؟
ألا من يُعَلِّني أهده المرأة منك هي تهديبُ للإنسان والوحش أم تكلمةٌ عليهما ؟
ألا من يأتي بالحقمة فيك من وضع الرجل القوى رأساً ولا جسم ،
والأسدِ المقترين حسماً ولا رأس ، ثم لا يكمل دونهما إلا المرأة وحدها !
إما كنت يا أبا الهول لعز الصمت ، فلما أضيفت المرأة إليك أصبحت
لعز النطق ... فيا للهول !

فاتح الجو المصرى^(١)

باطيرَ المثلِ الأعلى !

لقد انفلتت من رذيلة الخوف وتركتها في التراب موطنَ القدم ، وقلت لها : ويحك ، لقد آن للشبابِ المصرى ، فهو مُغامِسٌ في ماء الصواعق^(٢) ، متَطَوِّحٌ في اللجة الأزلية التي تغوصُ فيها الكواكب^(٣) . يطيرُ بروح الشرارة ، ويهبطُ بروح الغيث ، ويلجِمُ الجوَّ ويُسرِّجُه ، ويتعلم كيف يشوى عدوه في عين الشمس .

وكنتَ بطلاً مُعَايِراً لخطواتِ طريق الملائكة هذه الفضيلة وحملك الجو ؛ ولو أنك خفت وكنت على جناحي جبريل لا على طياره ، لحاف جبريل على جناحيه من حطمة هذا المعنى الترائى الطاغية الذى يحكم على الاحياء بالموْت بلاموت ، لانه الذلُّ والخضوعُ والرذيلة !

وحملك الجو إلى قبة السماء ، وهالك تَنظَرُ العالمُ فرأى لمصر الناهضة عَليها الإنسانُ يتنفسُ تحت الكواكب

وحملك الجو إلينا ، فلما رفعنا رءوسنا لنراك رفعها في الوقت بين شعوب الأرض .

* * *

وضربتَ يا جَنَاحَ مصرَ في الهواء ، وأغنانُ السماء^(٤) مملوءةٌ بالزعزَع

(١) كنت في أول طيار مصرى قدم إلى مصر من أوربا على طيارته ، في شهر فبراير سنة ١٩٣٠ ، وهو الطيار صدق وطيارته طائرة ، وكان مقدمه يوما مشهوداً .

(٢) كناية عن السحاب .

(٣) كناية عن أحواز الفضاء .

(٤) مواجها ، جمع عان (بالفتح) .

والهوجاء والعاصف ، والسما في فصلها المكفهر الذي تخلق فيه كل ساعة وتلبس وتمزق وتطوي^(١) ، فزدت بحجراتك في براهين القضية المصرية برهان قوة المخاطرة ، وأضفت إلى منطقها وضعا جديداً مفجها من روح التضحية . وطلعت بين حياة وموت فجعلتهما يستويان في اعتقادك ، إذ وصلت فكرة الموت بسر الإيمان ، والحياة بسر العزيمة .

وكنت رجل أمتك بابتكار ذات نفسك من أجلها .
وأتسمعت للتاريخ وضعك عمرتك المحدودة على الطيارة ، وقذفت بها وبه في مسبح الاجل .
ونجردت الأبدية لتعطى بلادك إما شهيداً مجد في الآخرة ، وإما شهادة غفر في الدنيا .

وكنت على طيارتك الصغيرة المتطاردة تحت الريح ، وحولك روح الحرم الأكبر القائم بإرادة مصر وكأنه مشاهد مدقوق في كرة الأرض بين القطب والمقطب .

وأنت « يافائزة » ، يا هذه الصغيرة الخارجة من مال صاحبها وجهده وعزيمته كما تخرج القوة من ضعف ، أعلت إذا أنت ترتفعين وتهبطين بين الشحب كما تتوالت القرائش على النوار في روضه مزهرة ؟
وإذا أنت تفتنن وتحوكين في ملأه السحاب كأنك بحركتك الدوار تلبسين في السماء بمغزل ؟

وإذا أنت بين صفق الرياح الهوج^(٢) تحت السماء المدججة^(٣) ؛

(١) كناية عن طبيعة الشتاء ، من النسيم والصحو وما بينهما .

(٢) اضطراب الرياح المتقلبة .

(٣) المتشبد

في كِتَابِ الشَّاءِ^(١)، كأنكِ مناظرةٌ تجري بين العزيمَةِ في الإنسان والعزيمَةِ في الطبيعة .

وإذ أنتِ بين ذنابِ الأعاصيرِ ، ونُجُورِ السحابِ^(٢) ، ومِباحِ النِّجمِ ذواتِ اللبدةِ الكثيفةِ المتشعِّعةِ كأنكِ بصوتكِ وأُزْرِكِ تُلْقِينَ على وحوشِ الجوِّ مدفعاً رشاشاً يتركها صرعى .

وإذ تراكِ الرِّيحُ فتقولُ عنكِ : رِيحٌ صُنِعَها الإنسانُ ؛ وبراكِ النِّجمِ فيقولُ : نِجْمٌ أَفْلَتَ من النظامِ الأرضي ؛ وتراكِ الملائكةُ فتقولُ : وَيَحْكُ يا ابنَ آدمَ ، كأنكِ بما خَلَقَهُ العقلُ تَطْمَعُ منا في تَحْدِيدِ أخرى كَالِي سِجِّدِها لآدمَ يَوْمَ خَلَقَهُ اللهُ ...

... أعليتِ إذ أنتِ كذلكِ يا «فائزة» ، أن التارِخَ المِصرى سَيَحُولُكِ من طيَّارةٍ إلى آيةِ كاتِبَةٍ بَدَأَ الخَلْقُ ، لأن فيكِ بَدَأَ الطيرِكانِ في مِصرَ ؟

• • •

سلاماً يا فاتِحَ الجوِّ المِصرى ؛ لقد أجالَتِ الأيامُ قِداحَها فخرَجَتِ القُرْعَةُ عليكِ ، وأوحى إليكِ الواجبُ آيَةً : بِسْمِ اللهِ مَصْعُودُها ومِجْراها .

وطرَتْ فإذا أنتِ بها عابِراً فوقِ الحاضرِ لتُجِيتَنا من جانبِ المستقبلِ . وهبَطَتْ عَلَيْنَا كألكِ في بَرْدِ السماءِ كتابٌ تُجَدِّحِيَّ للوطنيةِ الظافرةِ ،

بل كتابُ قصةِ رائِعةٍ أَلْقَناها المِصْرَ من فَنَيْنِ : ثُورَةَ الحُرِّ وتُورَةَ نَفْسِكَ المِصريةِ ؛ وَحَكَّتْها في صُوتَيْنِ : زَفِيفِ الطيَّارةِ وَصَرَخَةِ ضَمِيرِكَ الوطْني ، وجعلتَها

(١) كِتَابُ الشَّاءِ : شدته ودفِعه .

(٢) يُقالُ . رِيحٌ مُتَذَبَّةٌ : إذا كانت تَحِيءُ من هنا مرهً ومن هنا مرةً كما يساور الدُّبُّ ، فوصعنا من هنا كِلَةَ ذَنابِ الرِّيحِ . والنَّيرُ من السحابِ : قُطْعُ صِغارِ مُتَدانٍ بمِصْبا من لَعُضٍ تَتَسَبَّأُ بِجِلْدِ العِمرِ ، فوصعنا منها نُجُورِ السحابِ .

فصلين : أنت والمجهول ، ألا حسبك مجداً أن يحيا الشعب كله بضعة أيام
في قصتك !

فعلى مهدِ الجو ، وفي حرير الشعاع ، وتحت كِلَّة السحاب - ولَدَ لمصرَ
يومٌ تاريخي .

وخرحت التهاؤى التى طال احتسائها فى القلوب المصرية لا يُفرجُ عنها
لأن سماتها عُلِمَ السياسة .

وانجهت أفرأحُ شعبٍ كامل إلى الفتى الجريء الذى رَمَتْ به همته فوق
هاوية الموت فتخطاها .

وتلقى شعورُ الأمة رسوله المقدم الذى لم يكن له ملجأٌ فى خطايره
إلا شعوره بهذه الأمة .

وارتج الوادى كله كأنه غمدٌ يتقلقل حين يُسلُّ منه السيف .
ثم أهليت كلمة مصرَ لابلها الذى كَتَبَ فى جوها الكلمة السماوية
الاولى ، وكانت ساعة تلاشى عندها الزمنُ فارتفعت منه أربعة آلاف سنة
وهتف معا القراغة : بورككت يا صدق !

لله دُوك أَيْمَانِ عزيمة ! كأنما كشفت أهويلَ الوحى وهبطت فى صحابة
تجأجله إن لم تحمل كتاباً منزلاً فكأنما حملت شخصاً منزلاً .

ولعلك رسولُ النعيم العاسِر لهذا الجو المصرى الذى يضحك دائماً
ضحكة الفيلسوف الساحر فى حير أصبحت الحياة قوة لا فلسفة .

ولعلك مبعوثُ الرق والرعد لهذا السكونِ النائم الذى يطوى كل يوم
فى طيِّ النسان ما حَدَّثَ فى اليوم الذى قبله ...

ولعلك نبيُّ الجَدَّةِ والمرارة لهذه الحلاوة النيلية المُفْرِطَةِ التي كاد منها الشعبُ أن يكون سُكَّرَ أخلاقٍ يُذَابُ ويُشْرَبُ ...
ولعلك تفسيرٌ مصحَّحٌ لعقيدتنا المغلوطة في القضاء والقدر ، أن القضاء أن تُقدِّمَ بلا خوف ، وأن القدر أن تَتَّقَ بلا مبالاة .
أما واقعُ لقد غمَّرتَ الشعبَ بموجة هواءٍ جديدة جثت بها في جناحيك ، ونصختَ روحَ طيارتك المجيدة في القلوب فجعلتها كلها ترفرفُ كأن لك في ضلوع كلِّ مصريِّ طيارة

أجنحة المدافع المصرية^(١)

إِسْتَجِنِي^(٢) يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيْرِي ، إنَّ المجدَ يطلبُ منا إنسانَهُ البرقيَّ
لقد مدَّتْ لَعَةُ القُوَّةِ في هذا العصر مدَّها حتى أصبحَ الطَّيْرَانُ بعضَ معاني
المنشئ ، ولم يعد العالمُ يدرى كيف تكونُ الصَّوْرَةُ الأَخِيرَةُ التي يستقرُّ
فيها معنى إنسانِهِ ؟

فَلْتَمَيِّجْهُ مِصْرُ يَا نَسَائِمَا البرقيَّ الذي تَخرجُ النَّارُ منه من أغراضِ
السحاب ، وتُفْرِغُ في أصابعِهِ هَزَاتُ الرِّعْدِ ، ويحملُ في فَوْقِهِ السَّيَاءَ صَلَصلةً
ويَجَلَّجَلَّةً ، ويحملُ الاممَ المصريَّ إلى دُمَلَوِ النِّجْمِ . فيضَعُ له هناك التَّحْرِيفَ
النَّارِيَّ الذي وضعتهُ الدُّوَلُ العظْمَى لِأَسْمَائِهَا .

(١) كتبت في احتراق أول طيارة حربية مصرية في قنومها إلى مصر من أوروبا ،
وقد احترق فيها الشهيذان : (حجاج ودوس . وذلك في شهر ديسمبر سنة ١٩٢٣)
(٢) أى احمدي الأجنحة ، ولم تأت الكلمة في اللغة بهذا المعنى ، ولكننا استعملناها
فيه قياساً على كلامهم .

ولتتمجد مصرُ بإنسانها البرقِ الذى يُشعرها حقيقةَ العلوِّ العالى ، والعمقِ
العميق ، والسَّعةِ التى لا تُحصى ؛ ويزيدُ فى معانى أحيائها معنىً جديداً لأحياء
السُّحب ، وفى معانى أمواتها معنىً جديداً لموتى الكواكب .
إنسانٌ برقٌ يتمُّ بشجاعته فى السماءِ بطلونةٍ فلا حنا الإنسان الشمسى فى
الأرض ، ويعلو بكبرياء مصرَ فى ذروة العالم ، فتظهر طياراتها العظيمة
قدرة فى الجو كما ظهرت آثارها العظيمةُ قدرةً فى الترى
إنها مصر ، مصرُ القادرةُ التى تَحَرَّتْ القَدَمُ بقوتها وفنّها ، بَقِيََ بها على
حاله وجلاله ، واهزم الدهرُ عنه كأه قوةً على قوة الزمن نفسها .
هاسْتَجِنَحَى بِأَمْدافِ مصر وطيرى . إن المجد يطلب منا لإنسانه البرقِ .

ولما فُتِحَ السَّجَلُ ذات صباح لكتبَ مصرُ أسماءَ القَوَجِ الأول من
سُورِها الحريين ، صاح مجدها الحالدُ من أعماق الترخ :
« أَضْرِمِ الشَّعْلَةَ الأَدَمِيَّةَ الأولى يا مصر ، وافتحِ القَدْرَ الحوى الأول ،
والجدى فيه من عصرِ بك المسلمين والأقباط ، وضمي الحياة فى أساس الحياة ،
وَأَسْتَقْبَلِ عَصْرَكَ الجَدِيدَ بِأَذَانِ المسجِدِ ودقِّ ناقوسِ لِيبارِكُ اللهُ ، وَلِيَتَلَقَّ
الشَّعْبُ أولَ طيَّاريه بقلوب فيها رُوحُ المعركة ، وأكبادُ عرفت مَسَّ البار ،
ولا ينظرون إلى طياراته الأول إلا بعد أن ينظر العشيرون يرى مجد الموت
فى سبيل الوطن ، فتسطع نظراته ببريق الكبرياء ، ولمعة العزيمة ، وشُعاع
الإيمان ؛ وَيَأْتِلَقَّ فيها الور السماوى الذى يجعلُ الناسَ فى بمص ساعاتهم
كواكب ، ورُ صلاحِ الشعب على موته الشهداء . »

وَأَسْتَجَابَ القَدْرُ لصوت المجد ، فَالَجَّ الظلامُ فى وَضَحِ الصبح ، وَأَنْطَلَقَا
يسراجُ النهار فى قبة الملك ، وَأَطْبَقَتْ نواحي الجواطِ باقَ لَيْلَةٍ تَسَاقَطَتْ أركانها ،
(١٩ دسى لقم ج ٢)

وأقبل الضبابُ يَمَرِّضُ أَعْرَاضَ جَبَلٍ عَائمٍ يَتَذَبَذَبُ في بَحرٍ ، وآسَارَ ضِ
السحابِ فَتَحَلَّى عن طَبيعته السَّابِيةَ الرَقيقةَ ، وَتَدَامَرَتِ العَنَاصِرُ على القَتالِ
يَمُضُّ بَعْضُها بَعْضًا ، وَتَغَشَّتِ السَّيَاءُ بَوجهَ المَوتِ كَلَجًا فَارِدًا وَأَتَفَفَّخَ ،
وَتَكَسَّرَتِ فِيهِ الغُضُونُ كُلُّ غَضَنٍ كَسْفَةً ظَلامٍ ، وَعَادَ أَوْسَعُ شَيْءٍ ، أَضْيَقُ
شَيْءٍ ، فَكَانَ النِّضَاءُ كَصَدْرِ المَحْتَضِرِ : لَيسَ مَعَهُ إِلَّا عَمْرُ سَاعَةٍ وَأَنفَاسُهَا .
وَأَبْتَدَرَتْ إلى مَجدِ المَوتِ الطَّيَارَةُ المِصْرِيَّةُ الأُولَى ، وَكَانَ فِيهَا إِنْكَلِبَانِ
يَقُودَانِهَا فَأَبَاهَا المَوتُ ، فَذَهَبَتْ فَاتَحَرَّتْ أَسْفًا وَزِدَّتْ مُتَحَطِّمَةً ، وَاسْلُ
الرَّجُلَانِ مِنَ مَحَالِبِ الرَّدَى ، وَكَانَا فِي الطَّيَارَةِ كَوَرَقَتَيْنِ مِنَ النَّبْتِ فِي قَمِ
جَرَادَةٍ هَمَّتْ تَقْضِيصُهَا .

وَتَسْتَبْقِي الثَّانِيَةَ إِذَا فِيهَا وَدِيعَةُ الكَرَمِ مِنَ عُنْصَرَى مِصْرَ : هِ حَاجِاجٍ
وَدُوسٍ ^(١) ، وَكَانَ مَرًّا مِنْ أَسْرَارِ مِصْرٍ اجْتَمَعُهَا فِي مَدَاحِضِ النِّعَامِ وَمِزَاقِهِ
لِيَكُونَا هَدِيَّةَ مِصْرٍ الأُولَى إلى مَجْدِهَا الحُرِيِّ ، ثُمَّ لِيَكُونَا هَدِيَّةَ المَجْدِ إلى إِحْسَاسِ
هَذَا الشَّعْبِ يُحْيِي مِنْهُمَا العَالَمَ المُنْطَوِيَّ لَهُ فِي مُسْتَقْبَلِ النُّصْرِ .

وَاعْتَسَفَتْ طَيَارَةُ الشَّهِيدِينَ طَرِيقَ الفَنَاءِ وَمَتَاهَةَ الحَيَاةِ ، فَذَهَبَتْ عَنْهَا
مَعَارِفُ الأَرْضِ ، وَغُمِيَّتْ عَلَيْهَا مَعَالِمُ السَّمَاءِ ، وَخَرَجَتْ مِنْ تَصْرِيفِ أَيْدِي
البَطْلَانِ إلى تَصْرِيفِ أَجْلِهِمَا ، وَأَصْبَحَتْ كَأَنَّهَا تَطِيرُ فِي الأَنْفَاسِ البَاقِيَةِ لَهَا ؛
فَا تَتَقَدَّمُ وَلَا تَتَأَخَّرُ ؛ وَلَمْ تَكُنْ طَيَارَةً تَحْمِلُهَا ، بَلْ حَنَاحًا مَعْدُودًا لَهَا مِنْ
رَحْمَةِ اللَّهِ .

تَمَّ اجْتِرَافُهَا المَوتُ إلى غَوْرٍ ، فَاحْطَطَتْ مِنَ الهَوَاءِ حَانِئَةً كَالطَّائِرِ يَطْلُبُ

(١) هُما فُؤَادُ حَاجِاجٍ ، وَشَهِدَى دُوسٍ ، وَكَانَ فِي الطَّيَارَةِ الأُخْرَى الَّتِي تَحْطَمَتْ .
المُسْتَرْمِيكُ ، وَالمُسْتَرْمِيكُ .

ملجأً في العاصفة ، ثم انتهضت واثبة ، وتمطرت منقلبة ، فاشتعلت فاستعرت
فأنضجت راكبيها ، رحهما الله !

وكثيراً ما يكون منظرُ الحزن في الحياة هو انهماك الحياة في عمل جديد
تبدعُ منه السرور والقوة . احترق الطَّلان لتسَلَّم مصرُ في نعيمهما رَماداً لن
يُبقي تاريخُ العزَّة الوطنية إلا به .

فاستجِنحِي يا مدافعَ مصر وطيرى : إن المجدَ يطلب منا إنسانه البرقى .

صنعت النارُ الآدميةُ الحقيقة ، ووضعت لنا الإسمَ البديعَ الذى نُطلقه
على طيارينا الأبطال ، فلا تُسموهم سُورَ الجو ، ولكن شُموهم «جَمَرَاتِ الجو» ...
صنعت نارُ الحقيقة ، وأوحى لنا أن نستبدل من أنفسنا حالةً بحالة ،
وأن نفاجى شعورنا الحالم فنصدمه بالأم اليقظة المزة ، وأن نغيرَ قاعدةَ الحياة
في التربة المصرية ، فلا تكون العيشَ العيشَ ، ولكن القوةَ القوة .

صنعت النارُ الحقيقة ، وأثبتت لنا أن الحياة إن هي إلا أداةٌ للحى ، وليس
الحى أداةً للحياة ، فليتصرف بها على قوانين الروح وآمالها فيسمو وتسمو ،
ولا يدعها تتصرف على مذاهب أقدار المادّة وتصاريفها فيذلّها وتذلّه ؛ وفي
قانون الروح : لا قيمة لعالم الأشياء إلا كما تصلحُ لها ؛ وفي قانون المادّة
وضغطة الحياة : كما تصلحُ لنا وكما يصلح لها ...

تلى ، قد صنعت النارُ الآدميةُ الحقيقة ، وأعطتنا قصةَ الحريةَ كاملةً في معنى
واحد : وهو أن هذه الحريةَ لعاشقها كأجل الجميلات للتافسين عليها : جمالها
متوحش ؛ وخلعها مُفترسة ؛ وظرفها سفاكٌ للدم

فاستجِنحِي يا مدافعَ مصر وطيرى : إن المجدَ يطلب منا إنسانه البرقى .

وإلى السماء يا دجّرات الجو ، فإذا استوينا على السحاب فليست الطيارة ثم
طيارة ، بل حقيقة حياة عاملة للجد ، فلتحمل معها المصيرى من بطلها المصيرى .
وإذا سبّحتم فى مهبط القدر فليس الطيار ثم طياراً ، بل حياة عبقرية
أرسلتها مصر تستنزل للحياة أقداراً سعيدة

وإذا حُضمت فى المعرك الضنك تتبّع فيه الأجل على الرياح . فليس الحدم
المصيرى هالك من لحم ودم . بل ناموساً طسعياماضياً إلى غاية .

وإذا تغاذقتم فى بحر الشمس ، فأتم هناك على شبّاك طرحتوها لصيد
أيام مضيت تلتع فى تاريخ مصر .

وإذا نفذتم من أقطار السماوات ، فانظروها بأعينكم معالى مصر ، وافهموها
بقلوبكم ذاتية الوطن المصيرى ، تعلو وتعلو ولا تزال أبداً تعلو .

إنما الطيارة وسلاحها وطيارها تأليف من الإنسانية والعناصر ، معناه
فى العزيمة « لا بد » . ومتى هدّرت الطيارة هديرها فإما تقول للبطل منكم :
هلمّ من عالٍ إلى أعلى ، إلى أكثر علواً . إلى أقصى حدود الواجب على النفس
حين يأخذ الواجب الكلّ وحين تعطى النفس الكلّ .

فاستجنى يا مدافع مصر وطيرى : إن المجد يطلب منا إنسانه البرقى .

أحاديث الباشا

الطباطم السياسى...

كان (م) باشا (*) رحمه الله داهية من دهاة السياسة المصرية ، يلتوى مرة في يدها التواء الحل ، ويستوى في يدها مرة استواء السيف ، ولا يرى أبداً إلا منكشاً متحرزاً كأن له عدواً لا يدرى أين هو ولا متى يقتحم عليه ؛ ولكنه كعيره من الرؤساء الذين كانوا آلات للكذب بين طالب الحق وغاصب الحق - يعرف أن عدوه كامنٌ في أعماله .

وكان ذكياً أريباً ، غير أن مُلاستَه للسياسة الدائرة على محورها ، جعلت نصف ذكائه من الذكاء ونصفه من المكر ؛ فكان في مُراوغته كأن له ثلاثة عقول : أحدها مصرى ، والآخر إنجليزى ، والثالثُ خارجٌ من الحالين ؛ وهذا تقدّم وعاش أثيراً عند الرؤساء من الإنجليز ، واستمرت مجاريه مطردةً لديهم حتى بلغوا به إلى الوزارة ، إذ كان حسنَ الفهم عنهم ، سريعَ الأسحابة إليهم ، بفهم عى الداطهم ، ومعنى السية التى تكون وراء العاظمهم ، ومعنى آخرَ يترعُ هو به لأماطهم . فكان هو وأمثاله فى رأى تلك السياسة القديمة ، رجالاً كالأفكار : يوضع أحدهم فى مكانه من الحكم كما توضعُ صبيهُ التلك لإفساد اليقين ، أو صبعةُ الوم لتوليد الخيال ، أو صبةُ الهوى لإيجاد الفقة .

* * *

وكان صدق (فلان) رحمه الله صاحب سرّه (السكرتير) ، وقد وثق به

(٥) انظر ص ٣٠٠ من «حياة الراضى» .

الباشا حتى إنه كان يعالنه بما في نفسه . وبثه همومه وأحزانه ، ويرى فيه دنيا حرّة يخرج إليها كلما ضاقت به دنيا وظيفته ، ويستعير منه اليقين أحيانا بأنه لا يزال مصريا لم يتمّ بعد تحويله في الكرسي . .

لحدثني الصديق بعد موت هذا الباشا قال : إنه دعاه يوما ليفاتحه الرأي في أمر من أموره ، ثم قال له : إن الرئيس الإنجليزي غير مطمئن إليك لأن حقيقة من الحقائق الصريحة ظاهرة على وجهك ، فأنت تنظر إليه وكأنك تقول له بعينيك : إنك مصري مستقل .

قال صاحب السر : لئن كان ذلك ما ينضيه إن الخطب لهن ، فلست أنظر إليه بعد اليوم إلا من وراء نظارة سوداء ...

فضحك الباشا وقال : يا بني ، هذا الإنجليزي عندنا كالشيطان : «إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم» ، ووالله يا بني إني لأشد ألفة منك ، وإن صدرى لتسجى مما أنا فيه من هذا الكرب ، ولكنتا نحن الشريكين قد ضعنا منذ فقدنا الشخصية الاجتماعية .

أتراك تفهم شيئا لو قلت لك : رجل ، أسد ، جبل ، مدينة ، أسطول ؟ إن تركيبنا الاجتماعي شيء كهذا الكلام ، فيه من ضخامة اللفظ بقدر ما فيه من انحلال المعنى وأضمحلاله ؛ ولكل كلمة إذا أفردت معنى صحيح يقوم بها وتقوم به ، غير أنه يتحول في الجملة إلى معنى كلاً معنى .

أصبح الشرق يعيش في أمته على قاعدة أنه مفرد لا صلة بينه وبين الأطراف ، لا في الزمان ولا في المكان ؛ ونسى معنى الحديث الشريف : «أعمل لديناك كأنك تعيش أبداً ، فإذا كان يريد أعظم المصلحين الاجتماعيين . . .» . فإنه : «أنك تعيش أبداً» ؟ إلا أن يفرد لامته أن الفرد ينبوع الأجيال المعلة كلها ، ويعمل لها وانحصر تأملها موقوفة عليه وكأنه مستمر فيها .

هذه حكمة إسلامية دقيقة، عندنا نحن لفظها ولسنا نعرف معناها، وعند الانجليز معناها ولا يعرفون لفظها ؛ أم المسلمون أم نحن ؟

وعلى قاعدة الانفراد انفراد كل شيء : فآثر الشرقي حياته على وطنه ، وقدم لذه على واجبه ، وتعامل بالمال في مواضع المعاملة بالأخلاق ؛ وكان طبيعياً مع هذا أن يختصر الدين اختصاراً يجعله مقداراً بين مقدارين ، فلا هو دين ولا هو غير دين ؛ وذلك بأسبُ فرديته ويقعد تحت حكمه وهو خارج عليه فترى الرجل من هذه الملايين يؤمن بالله وهو يحلف به كذباً على درهم ، ويسلّي ويهجر في يوم واحد ، ويتعب في نفسه ويخون سواء في وقت مما . ومتى كانت الحالة النفسية للأمة هي هذه الفردية ومصالحها ودواعيها ، كان الكذب أظهر خلال هذه الأمة ، إذ هو انفراد الكاذب بحظه ومصالحته وداعيته ؛ ولا يكذب عليك إلا من يرجو أن تكون مغفلاً ، أو من قدر في نفسه أن المعاملة العامة في الأمة هي على قاعدة المغفلين .. ويكذبون في هذا أيضاً فيسمونه حذقاً وبراعة (وشطارة) .

وإذا عم الكذب فشا منه الهرل ، فكل كاذب هازل ، وهل يحذ الكاذب وهو يكذب إلا إذا كان مجنوناً ؟ ومن الهرل ضرب هو المباشطة بالكذب ، ومنه ضرب من كذب الحقائق ، ومنه من كذب الخيال ، وكيفما دارت الحال لا تحده إلا كذباً .

ومتى صار الكذب أصلاً يُعمل عليه ، تقرر عند الناس أن الكلام إنما يقال ليقال فقط . أفلمست ترى الرجلين إذا أخبر أحدهما صاحبه بالخبر فيه شيء من الغرامة أو البعد ، لا يكلمه الآخر أول ما يتكلم إلا أن يسأله : صحيح ؟ صدق ؟

ولا أصر على الأمة من هذه العقيدة - عقيدة أن الكلام قال ليقال -

فقط - فإنها هي طائعُ المزل على أخلاقِ الأمة ، وعلى كل أحوالها ، وعلى حكومتها أيضاً .

ومن المزل والكذب ترانا مبالغين في كل شيء ، حتى ليكون لنا الواحد كالأحاد في غير ما فتحله مائة بصفرين ، نجيء بأحدهما من اعتيادِ الكذب على الحقيقة ، ونجى بالآخر من حقيقة إفلاسنا .

هذه مبالغة خطيرة ، وأخطر ما فيها أننا نريدُها المبالغة في الدلالة على الأشياء ، فتقلب مبالغة في الدلالة علينا نحن ، وعلى كذب طباعا ، وعلى قوضى العقل فينا . نعم وحتى تثبت أننا لا عزم لنا ، من كونها مبالغة لا تدقيق في معناها ؛ وأن لا صرنا لنا ، من أنها لا ثبات لحقيقتها المهزومة ؛ وأن لا شدة لنا في طلب الحق ، لأننا بها من أهل الغفلة في وصف الحق ؛ وأننا لا نتمثل العواقب إذ نرسل الكلام لإرسالنا ، ولا نخشى ما يكون من عاقبته .

وأيسر ما يفهم من هذه المبالغات التي أصبحت طريقة من طرق الشعب في التعبير ، أن هذا الشعب لا يصلح في شيء إلا بالحكومة ، فهو نفسه كالمالعة ، والحكومة له كالتصحيح ؛ وهذه هي العلة في أن الشعب الكذوب يلجأ إلى حكومته في كل كبيرة وصغيرة في العمل ، كما أنها هي العلة في أن حكومته تكذب عليه بكل صغيرة وكبيرة في السياسة .

ومن أثر الكذب الشعبي والمالعة الشعبية ، ما زاه من اهتمام كل فرد بما يقول الناس عن أعماله ، فيديرها على ذلك وإن قلت مفعنها ، وإن فسدت حقيقتها ، وإن تجلبت عليه من الضر في ماله ونفسه ما هي جالبة ، فقاعدتهم هي هذه : ليس الشأن في الحياة للعمل في نفسه ، ولكن فيما يقال عنه ؛ فإن لم يُقال شيء فلا تعمل شيئاً ...

هذه يا بنى أمة لا يكون حُكَّامُها إلا مبالغاتٍ أيضاً ..

قال صاحب السر : وارفع من الطريق صوتُ بائعٍ ينادى على سلعته :
أحسن من التفاح يا طهاطم ...

فضحك الباشا وقال : هكذا يقولون لنا عن الطهاطم السياسى العَفِين : إنه
ليس تقاحا وحَسْبُ ، بل هو أحسنُ من التفاح ...

إن الأمة لن تكونَ فى موضعها إلا إذا وضعت الكلمةَ فى موضعها ، وإن
أولَ ما يدلُّ على صحَّةِ الاخلاقِ و أمةٍ كُلمةُ الصدقِ فيها ، والأمةُ التى لا يحكمها
الصدقُ لا تكونُ معها كلُّ مظاهر الحكم إلا كذِباً وهزلاً ومبالغةً .

البك والباشا

وحدثنى صاحبُ سرِّ (م) باشا قال : جاء يوماً إلى زيارة الباشا رجلٌ
دخل على مهلاً مُشْرِيقَ الوجه كأنه مُصلحٌ من داخله بشمعة .. وبتَرَّخٍ عِطْفاه
كأعما تهزُّه أسرارُ عِظَمِيته ، ويمسى منخاماً كالمرأه الحيلة التى أتعلمها لحمها وأفعلتها
المعاني الكثيرة من أعينِ الناظرين إليها ، وعلى شفتيه خيالٌ من فكرة هؤلاء
الكبراء المغرورين الذين لا يأمرُ أحدهم رجلاً صغيراً إلا ليعلمه أنه هو كبير ،
فيكونُ فى الأمرِ شيئان : الأمرُ واللوم : وأقبل علىَّ فى هيئةٍ شاحجةٍ لو نطقت
لقلت : سَبَّح اسمُ ربِّك الأعلى ، سبح الله الذى خلق فى الأسدِ شجرةَ جَبَّارةٍ
حرج منها الأسدُ كله ...

سُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ! هذا (فلان باشا) الذى قرأتُ فى الصحف
أُمس أنهم أنعموا عليه برتبة الباشوية ؛ خلقه الله من راب وحوّلت الرتبةُ هذا
التراب الذى فيه إلى ذهب خالص ... ينظرُ إلىَّ وبرغمه أن يَقِفَ عيناه علىَّ
وعلى الحائط ؛ ولا يَجِدُ نفسه المزهوَّةُ سبيلا إلى التعبير عن الرتبة إلا هذا
الأزدراء المتبعث من شخصه العظيم لمن لم يكن كشخصه . ما بين أميس واليوم زاد
هذه الزيادة الأدمية ، أو كما كانت صورُهُ خطوطاً فقط فوضعت فيها الألوان . .
(باشا) ! هذه الباء وهذه الألف وهذه الشينُ الممدودة ليست حروفا
خارجة من الأبجدية العاقبة ؛ فإن الأبجدية قد تجعلُ الباء فى بليد مثلاً ، والألف
فى أبله ، والشينُ الممدودة فى شاهد زور مثلاً مثلاً ... بل تلك حروفٌ من
حروف الدولة ، منتزعة من قوه قادرة على أن تحملَ الحياة صاحبها من الشكل
ما يُسبِّعه الفنُّ على الحجر من شكل يتمال يُنصبُّ للعظيم .

قال : وكنت أعرف هذا الرجل ، وهو رجلٌ أُمى لا يُحسن إلا كتابة اسمه
كما نكتبُ الدجاجة فى الأرض ... فكانت الرتبةُ علاه كإطلاق لفظ الحقيقة
على صخرة من الصخور الصلدة ؛ وهذا مما يحتمله المجاز بعلاقة ما ؛ ولكن
الذى لا يَسُوغُ فى المجاز ، ولا فى مآلات الاستمارة ، ولا فى خرافات المستحيل ،
أن زعمَ الصخرة للناس أن لفظَ الحقيقة الذى أطلق عليها قد أنبتَ فيها
أشجار الحقيقة ...

* * *

قال صاحبُ السر : واستأذنتُ له على الباشا فسئل له الإذن وقال : هذا
رجل أصبح كالورقة المصومة بخاتم الدولة ، فلتكن ماهى كائنه فإن لها أعارها .
ثم تلقاه تلقى المازل المتهمك وقال له : أهنتك ما الذى جوى ... هـ . اركون يا باشا ...
وأمل عليه وبسطَ له وجهه .

وكان في الباشا دعابةٌ ظريفةٌ يُعرفُ بها ، وهو كثير النواذر والملح ، وله
خصيصةٌ عجيبَةٌ ، فيكونُ بين يديه كُذْسٌ من الأوراق التي تُعرض عليه ينظرُ
فيها ويقرؤها ويتدبرُها ، وهو في ذلك يستمعُ إلى محدثه ويُراجعهُ ويردُّ عليه ،
فَيُصرفُ الناس والأوراق في وقتٍ واحدٍ ؛ ويستعملُ ناحيتين من فكره
استعمالاً واحداً ، لا يُجِلُّ بالإصابة في شيء من هذه ولا من تلك .

ثم قال للباشا الحديث وعينه إلى مابين يديه : هذه أوراق سرقة ثورٍ
عظيم ، فكم يساوى الثور العظيم الآن ... ؟

قال صاحبنا الذكي الفطس : إذا كان من الثيران التي تُعرض في المعارض
وتنال المداليات الذهبية ، فقد يَبْعُدُ سعرُهُ ويُغَالَى به .

قال الباشا : نعم نعم ؛ إن من الثيران ثيراناً يُنَمُّ عليها بالأوسمة ، ولكن
هذا الثور الذي سألتك عنه يا باشا هو ثورٌ محراث لا تورُ معرض ...

قال الآخر : إذا كان تورَ محراث فتلَّهُ كثيرٌ فلا يكون ثوراً عظيماً كما
قلتَ وليست له إلا قيمةٌ مثله .

قال الباشا : أراي أخطأت ، ولعن الله العَجَلَةَ ، فهذه أوراق سرقة حمارٍ

• • •

قال صاحب السر : وأنصرفتُ عنهما بأوراق ، وقد رأيتُ يدَ الباشا مملوءةً
لصاحبنا بتعجيات كلها صفعات : فلم يكن إلا يسيرٌ حتى خرج منهجماً يُمِيدُ
السرورُ بعطفه ؛ ثم دعاني الباشا ودفع إلي بطاقةً بالحاجة التي جاء فيها
الرجل ، ثم قال :

يا ليت لنا في ألقاب النبوة لعب (رحمه الله) ... يُنَمُّ به على مثل هذا
أُتدري ما بي أن هذه الرتبة وهذه الألقاب لم تكن في القديم إلا كوضع

علامة الشرّ على أهل الشرّ ليهابهم الناس ؟ حتى كأنما يُكتب على أحدهم من لقب بك أو باشا : مُلحق بالدولة ...

وكان الشعبُ أمياً جاهلاً لا يستطيع الإدراك ولا يُحسن التمييز ، فكانت الألقابُ كالقوانين الشخصية الموضوعة في سيفة موجزة مفهومة متعينة الدلالة ، وكان كلُّ من يحملُ لقباً من الحكومة يستطيع أن يقول للناس : لقد وضعت الحكومة كلمة الأمر في شفتي ...

وكان اللقبُ إعلان من الحكومة المستندة لشعبها الجاهل : إن هذا البك ولباشا عن يميني له أن يحترم .

من المزل أن يشتري اسمُ النصر الحرقى أو يُوهب أو يُعار ؛ وأقبحُ منه في باب المزل أن يُنعم على مثل هذا الأحمى بلقب باشا ؛ وأنا أعرف أنه قد بذل في سبيله مائذ ، وأضاع ما أضاع ؛ فكان الذين منحوه إياه لم يفعلوا شيئاً إلا وضع توقيعهم على أخذِ الثمن ...

ولقد أصبح الرجلُ تحت تأثير الكلمة العظيمة مجبوراً لئلا يسحرها الوهمي ، فحسبَ ذلك إدخالاً له في وظيفة كل حاكم ، وإشراكاً له في الحكم متى اقتضته مجاري أموره وأحواله ، أو حاجاتُ أسائه وأتباعه ، وها هو ذا قد جاء يطلبُ حقّه ، فإن مثله لا يفهم من لقب (باشا) إلا أن الحكيم قد سوّغت ساطته الظهور والعمل ، فذتْ رآته وقوتْ أمره وبرّته باسمه لصالحها وعمّالها ؛ فهو عند نفسه قد التّخّم منذ اليوم بالنسب الحكومي ، وفي كلمة واحدة ، هو قد وُلد من بطن الحكومة .

ألا ترى أن الشعبَ لو استردَّ سلطته الكاملة ، وأن الناس لو أيقنوا أن الألقابَ ألفاظُ فارعة من الأمرِ والهي والوسيلة والشفاعة ، لما بقي من يعبأ بها ، ولكان حاملها هو أول من يسخر منها ؟

فهى إذن شَعْبَةٌ^(١) من الحكومة وتضليلٌ في مثل هذا الرجل الأعمى ،
وهى ضربٌ من التهويل والمبالغة فى سواء من الكبراء والمعلماء كأن الوزير
الذى يلقب بالباشا يجعلُ فيه لقبه وريسين ، وكأن مثلَ هذا الأعمى المغفل
يجعلُ فيه لقبه شخصاً آخر غير الأعمى المغفل ...

أنا قلباً رأيتُ رجلاً يحتاج إلى ألقاب يتعظم بها إلا وهو لا يستحقها ؛
وقلباً رأيتُ رجلاً يستحقها إلا وهو لا يحتاج إليها ؛ فأين يكون موضعُ هذه
الرتب والألقاب ؟

ساكنو الثياب ...

قال صاحبُ سرِّ (م) باشا ، وجاءنى يوماً اثنان من شبوخ الدين من
ذوى هياتهم وأصحابِ المذلة فيهم وكلاهما هاتمة وقامة ، وجُنةٌ وعمامة ،
ودرجةٌ من الإمامة ؛ ولهما نسيمٌ ينفخُ عِطراً حبيبته من ترويح أجنحة
الملائكة . وعليهما من الوقار كظل الشجرة الخضراء فى لَهَبِ الشمس تقي
به يمنةً ويسرةً . فتوجهتُ إليهما بنظري ، وأقبلتُ عليهما بنفسى ، ووضعتُ
حراستى كلها فى خدمتهما . وقلتُ : هؤلاء هم رجالُ القانونِ الذى مادتهُ
الأولى : القلب .

ما أحسَفَ الحياةَ لولا أنها تدلُّ على شرفها وقدرها ببعض الأحياء الذين
نراهم فى عالمِ الراب كأن ما دتْهم من السُّحُب ، فيها لغيرهم الظلُّ والماءُ والسميمُ ،
وفىها لأنفسهم الطهارةُ والعلوُّ والجمالُ ؛ يُثبتون للصغفاء أن غيرَ الممكنِ ممكنٌ

(١) الشعبذة والتعبدة بمعنى واحد .

بالفعل ، إذ لا يرى الناس في تركيب طباعهم إلا الإخلاص وإن كان حرماناً ،
وإلا المروءة وإن كانت مَشَقَّة ، وإلا محبة الإنسانية وإن كانت ألمّاً ، وإلا الجِدُّ
وإن كان قتلاً ، وإلا القناعة وإن كانت فقراً .

هؤلاء قومٌ يؤثفون بيد القدرة ، فهم كالكتب قد انطوت على حقائقها
وُخِّمَتْ كما وُضِعَتْ ، لا تستطيع أن تُخرج للناس من حقيقة نصف حقيقة
ولا شبه حقيقة ولا تزويراً على الحقيقة .

وما أعجب أمرَ هذه الحياة الإنسانية القائمة على النواميس الاقتصادية !
فالسماة قسماً تحتاج فيها إلى سمسرةٍ لعرض الجنة على الناس بالناس الذي
يملكه كلُّ إنسان وهو العملُ الطيب .

قال : ونظرتُ إلى الشيخين على اعتبار أنهما من بقية النبوة العاملة فيها شريعةُ
نفسها ، تلك الشريعة التي لا تتغير ولا تتبدل كيلا يتغير الناس ولا يتبدلوا ؛
ثم سألتها عن حاجتهما ، فإذا أحدهما قد عملَ أياتاً من الشعر جاء بمدح
بها الباشا ليزدلفَ إليه ؛ فقلت في نفسي : « ما أشبه حَجَلَ الجبالِ »^(١) بالوانِ
صخرها ! ، هذا عالمُ دنيا يحدها من الشرق الرغيفُ ، ومن الغرب الديار ،
ومن الشمال الجاه ، ومن الجنوب الشيطان .

ثم نَشَر ورقةً في يده وأخذ يَسْرُدُ على القصيدة ، وهي على رَوِي الهاء ،
تنتهى أياتها : ها . ها . ها . فكان يقرؤها شعراً - أو كما يسميه هو شعراً -
وكنت أسمعها أنا قهقهةً من الشيطان الذي رَكِبَ أكتاف هذا العالم الديني :
ها . ها . ها ...

(١) هذا مثل عربي ؛ والحجل : الطائر المعروف ، يكون في الجبل من لون صخره ،
العمة المقررة في التاريخ الطبيعي .

قال صاحب السر : وأدخلتهما على الباشا ، فوقف المدّاح يمدح بقصيدته وأخذتُ لحيتَه الوافرة تهتزّ في إنشاده كأنها منقطةٌ ينفضُ بها المللُ عن عواطف الباشا .. وكان للآخر صمتٌ عاملٌ في نفسه كصمت الطبيعة حين تنفطرُ البذرةُ في داخلها ، إذ كانت الحاجةُ حاجته هو ، وإمّا جاء بصاحبه رافداً وظهوراً يحملُ الشمسَ والعمرَ والليثَ والغيثَ ، لتقلّب الأشياء حول الممدوح فيأخذهُ السحرُ ، فيكونَ جوابُ الشمس على هذه اللغة أن تعضى يومَ الشبخ ، وجوابُ القمر أن يملأ ظلامه ، وجوابُ الليث أن يفتّرَس عدوّه ، وجوابُ الغيث أن يهطلَ على أرضه .

والباشا لا يدعُ ظرْفَه ودُعابته ، وكان قد لمح في أشدّاق العالم المتشاعِر أستاذنا صناعية ، فلما فرغ من نظمه الركيك قال له : يا أستاذ ، أحسبني لا أكون إلا كادباً إذا قلت لك : لا فُضُّ فوقك ...
ثم ذكر الآخر حاجته . وهى رجاؤه أن يكونَ عمدة القرية من ذوى قرابته لا من ذوى عدوانه ؛ فقال له الباشا : ولقربتكم أيضاً أبوجهل ... ؟

• • •

ولما أصرهما قال لى الباشا . لأمّ ما جعل هؤلاء القوم لأنفسهم زينا خاصاً يتميرون به في الناس ، كأن الدين بابٌ من التحرفِ والتصرفِ ببعض آليته في ثيابه ؛ فهؤلاء يسكنون الجُلبَ والقفاطينَ وكأنها دواوينهم لا ثيابهم ...

قد أفهم لهذا معنى صحيحاً إذا كان كل رجل منهم محصوراً في واجباتِ عمله الخندى في معاني سلاحه ، فيكون التعظيمُ والتوقيرُ لثوب العالم الدينى كأداء التحية للثوب العسكرى ، معناه أن في هذا الثوب عملاً سامياً أوله بيعُ الروح وبذلُ النفس وتركُ الدنيا في سبيل المجتمع ؛ هذا ثوبُ الموتِ

يُفَرِّضُ عَلَى الْحَيَاةِ أَنْ تَعْظُمَ وَتَجَلَّ ، وَتُوبُ الدِّفَاعِ تَجِبُ لَهُ الطَّاعَةُ وَالْآتِقْيَادُ ،
وَتُوبُ الْقُوَّةِ لَيْسَ لَهُ إِلَّا الْمَهَابَةُ وَالْإِعْزَازُ فِي الْوَطَنِ .

ولكن ماذا تصنع الجبة اليوم ؟ إنها تُطْعَمُ صاحبها ...

أثرُ الجيشِ معروفٌ في دفاعِ الأممِ المدوّةِ عن البلادِ . فأين أثرُ جيشِ
العلماءِ في دفاعِ المعاني المدوّةِ عن أهلِ البلادِ ، وقد آخَلْتَ هذه المعاني
وَضَرَبْتَ وَتَمَلَّكَتْ وَتَرَكْتَ هَذَا الْعَالَمَ الدِّينِيَّ فِي ثَوْبِهِ كَالْجُنْدَى الْمُنْهَزِمِ : يَحْمِلُ
مِنْ هَزِيمَتِهِ فَضِيحَةً وَمِنْ ثَوْبِهِ فَضِيحَةً أُخْرَى ؟

أنت يا بنيّ قد رأيتَ (الشيخ محمد عبده) وعرفته ؛ فرحم الله هذا الرجل ،
ما كان أعجبَ شأناً ! لساكاه والله سبحانه مطوية على صاعقة . ولو قلتُ إنه قد
كان بين قلبه ورأسه طريقٌ لبعضِ الملائكة ، لأشئتُ أن يكونَ هذا قولاً .
كان يزورني أحياناً فأراني مُرغماً على أن أقدّمَ له مجلسين أحدهما قلبي ؛
وكان له وجهٌ يأمرُ أمراً إذا لآتراه إلا شعرتُ به يرفعك إلى حقيقة سامية ^(١) .

رجلٌ نَبَتَ عَلَى أَعْرَاقٍ فِيهَا إِدَاعُ الْمَدْعِ الْعَظِيمِ الَّذِي هَيَّاهُ لِرِسَالَتِهِ ،
فمواظفُهُ كَالْعِطْرِ فِي شَجَرَةِ الْعِطْرِ الشَّدِيَّةِ ، وَتَمَاتِلُهُ بِجَمَالِ السَّمَاءِ فِي زُرْقَةِ
السَّمَاءِ الصَّافِيَةِ ، وَعَظَمَتُهُ كَرَوْعَةِ الْبَحْرِ فِي مَنْظَرِ الْبَحْرِ الصَّاحِبِ . وكثيراً
ما كان يتعجبُ من هذا أسنادهُ (السيد جمال الدين الأفغاني) فيسأله مندهشاً :
بالله قل لي : ابنُ أيِّ ملكٍ أنت ؟

لم يكن ابنَ ملكٍ ولا ابنَ أميرٍ ، ولكنه ابنُ القُوَّاتِ الرُّوحِيَّةِ الْعَامِلَةِ فِي
هَذَا الْكَوْنِ : فَهِيَ أَعْدَتُهُ ، وَهِيَ أَلَمَتُهُ ، وَهِيَ أَنْطَقَتُهُ ، وَهِيَ أَخْرَجَتُهُ فِي قَوْمِهِ
إِعْلَاناً غَيْرَ كِتَابٍ ، وَمُصَارَحَةً غَيْرَ مُحَادَّةٍ ، وَهِيَ جَعَلَتْ فِيهِ أَسَدِيَّةَ الْأَسَدِ
(٢) وَصَفَا الشَّيْخَ (رحمه الله) فِي كِتَابِهَا (السحاب الآخر) وَاسْتَطَعْنَا رُوحَهُ
فَصَلَا طَوِيلًا تَجِدُهُ هُنَاكَ .

وهي ألقت في كلامه تلك الشهوة الروحية التي تُدّاق وتُحَبُّ ، كالحلاوة في الحلوى .

هذا هو العالم الديني ، لابد أن يكون ابنُ القَوَاتِ الروحية ، لا ابنُ الكُتُبِ وحدها ؛ ولابد أن يُخْرِجَ بعمله إلى الدنيا ، لا أن يُدْخِلَ الدنيا تحت سَقْفِ الجامع ..

وأنا فإني نقضُ عَجَبِي من هؤلاء العلماء الذين هم بَقَايا تَضَاعَلُ بجانب الأصل ؛ يبحثون في سننِ النبي صلى الله عليه وسلم : كيف كان يأكلُ ويشربُ ويلبسُ ويمشي ويتحدثُ ؟ كانهم من الدنيا في قانونِ المائدة وآدابِ الولائم ورُسومِ المجتمعات ؛ أما تلك الحقيقة الكبرى ، وهي كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يقاتل ويحارب لهداية الخلق ؛ وكيف كان يسمو على الدنيا وشهواتها ، وكيف كان لطباعه القوية الصريحة تعديلاً فعالاً في هذه الإنسانية للنواميس الجائرة ، وكيف كان يحملُ الفقرَ ليُكسِرَ به شِرَّةَ النواميس الاقتصادية التي تَقْضِي بحملِ الأخلاق أثراً من آثار السَّعَةِ والضيق فتُخْرِجُ من الغنى متعقفاً ومن الفقرِ لصاً ، وكيف استطاع صلى الله عليه وسلم بفقره السامى أن يُحوِّلَ معنى الغنى في نفوس أصحابه ، فيجعله ما استغنى عنه الإنسانُ من شهوات الدنيا وتَرَكْ ، لا ما نال منها وجمَعَ ؛ أما هذا ونحوه من حقائق النبوة العاملة في تنظيم الحياة فقد أمهلوه ؛ إذ هو لا يوجد في الكتب وشروحها وحواشيها ، ولكن في الحياة وأفعالها وأكدارها ؛ وبذلك أصبح شيوُخُنَا من الأمة في مواضع لم يضمهم فيها الدينُ ولكن وضعتهم فيها الوظيفة ...

ألا ليتهم يكتبون على أبواب الأزهر هذه الحكمة : سُئِلَ بعضُ العرب :
يَمَّ ساد فلانُ فيكم ؟ قالوا : احتجنا إلى علمه واستغنى عن دينانا ...

الأخلاق المحاربة

وحديثي صاحب سرّ (م) ناشأ هذا الحديث ، قال : كنا في تورة سنة ١٩١٩
سنة الهزّاهز والفنّ ، وقد تفاقمت الثورة ، وأخذ الشابُ يعملُ ، ويفكر
فيما يستطيع أن يعمل ، وما يجب أن يعمل ؛ وكان السخطُ العامُّ هو مراث
الوقت ، فكانت قلوب الشعب تُلهِمُ واجباتها إلهاماً ، إذ لم يكن في هذه
القلوب كلها إلا لَذعةُ الدم تعين اتحاة أعمالهم وتحذده .

كانت الثورة زلزلة وقعت في التاريخ ، فجاءت تحت زمز راكيد لا يغير
إلا بأن يُنْسَف ، ولا يُلِسْفُهُ إلا مادة إلهية كالحركة الكونية التي تُفْرَجُ
اليوم الجديد من اليوم القديم ؛ فكان القَدَرُ يعمل بأيدي الإنجليز عملاً
مصرياً ، ويعملُ بأيدي المصريين عملاً آخر .

وتعلم الشعبُ من دفن شهدائه كيف يَسْتَنْبِتُ الدمَ فُلِبَتْ به الحرية ،
وكيف يزرع الدمعُ فيُخْرِجُ منه العرم ، وكيف يَسْتَنْمِرُ الحزنُ فيشمر له المجد ؟
وكان رصاصُ الإنجليز يُصِيبُ هَذَفَيْنَ معاً : فيصرعُ شهداءنا ، ويقتلُ
الموت السياسي الذي احتلَّ معهم هذه البلاد ؛ وقد أدموا على الشعب بالصدمة
الأولى اِفْلَشَبَتِ المعركة التي تُقاتلُ فيها الأخلاقُ القومية لتلتصر . وشعرت
مصر في جهادها بأنها مصرُ ، فالتمس رُوحها التاريخي رمزَ العظيم في الأمة
ليظهر عاتياً جباراً ، فكان هذا الرمزُ الحليل العظيم هو سعد زغلول .

قال صاحب السر : وكان الطلبة قد غَدَّوا من أول النهار يتظاهرون ، وقد

جعلتهم الثورة كالأرواح تخلصت من الموت بالموت فلا تخشاه ولا تنال به . واستقلت عن العقل تحولتها إلى شعورٍ مخض ، وخرجت عن القوانين كلها إلا القانون الحقي الذي لا يُعلم ما هو .

كانوا في معاني قلوبهم لا في غيرها ، فلست ترام إلا عظمة في عظمة المبدأ الذي ينتصرون له ، أقوياء في قوة الإيمان الذي يعملون به ، أجلاء في جلال الوطن الذي يحيون ويموتون في سبيله .

وكانوا في الشعب هم خيال الأمة العامل المدرك ، وشعورها الحي المتوذب وقواها البارزة من أعماقها ، وأملها الزاحف ليقهر الصعوبة .

يفادون بأنفسهم الغالية ويؤثرون عليها ، وليس في أحد منهم ذاته ولا أغراض شخصيه ، فما أجل وما أعظم ! وما أروع وما أسمى ! . أيتها الحياة ! هل فيك أشرف من هذه الحقيقة إلا حقيقة النبوة ؟

* * *

قال : وكان أخى هو زعيم هؤلاء الطلبة في مدينتنا : قوى على الزعامة وفى ثباتها : يحمل قلباً كالجرة الملتمة ، وله صوتٌ بعيدٌ تحسبُ الرعدُ يُقعقع به ، إذا منى في جهاده كان كلُّ ما على الأرض تراباً تحت قدميه ، فلا يمشى إلا محترقاً هذه الدنيا وما فيها ، غير مقدس منها لإدنيته ووطنه ، وسلاحه أن كلَّ شيء فيه هو سلاحٌ على الظلم وضدَّ الظلم .

وكان في ذلك اليوم يقود المظاهرة ، وحوله جماعة من حالته وصفة إخوته ، يمشون في الطليعة تحت حق متقد كأن فيه غضب الشباب ، غنير كأنما امتزج به السخط الذي يفورون به ، رهيب كأنه مُهيئ لينفجر : قلباً بلغوا موضعاً من الطريق يتعطفون عنهم انصب عليهم المدفع الرشاش ... قال : فإني الجالس بعد ذلك في الديوان إذ دخل على أخى هذا يلتفض

غضباً كأن المعاني قلبعتُ من جسده لتقاتل . ورأيتُ له عَيْنين ينظر الباطرُ
فيهما إلى النار التي في قلبه ؛ غشيتُ أن يكونَ القومُ أطلقوا عليهم الجنونَ
والرصاصَ معاً .

واستنبأته خيرَ أسماءٍ فقال : إن الذين كانوا حوله وقعوا يتشعّطون في
دمائهم ، فوقفَ هو شاخصاً إليهم كأنه ميتٌ معهم ، وقد أحسَّ كأنما خلَعَ
عن جسده نواويسَ الطبيعة ، فلا يَعرف ما هي الحياةُ ولا ما هو الموت ؛
وكان الرصاصُ يتطاير من حوله كأن أرواحَ الشهداء تلتفاه وتُبعِره لا يناله
بسوء . قال : وما أنسَ لا أنسَ ما رأيته في تلك الساعة بين الدنيا والآخرة ؛ فلقد
رأيتُ بعيني رأسي الدمِ المصريَّ يسلمُ على الدمِ المصريِّ ويسعى إليه فيعانقه
عناق الأجاب .

ثم قال : أين هذا الدأب ؟ وما ناله لم يصنع شيئاً في الاحتياط لهذه
الفورة ؟ يكادُ الحزى واللهِ يكونُ في هذه الوظائف على مدار المرتب ...

قال صاحب السرِّ : ولم يمْ كلته حتى خرج عليا الباشا متكسراً الوجه
من الحزن قد تفرغرت عيناه ، فأخذ بيد أخى إلى عرفة وتعتما ، ثم قال :
هوناً ما يابنى ، إن العلةَ فيكم أنتم يا شباب الأمة ، فكل ما ابليساً أو سُلّى به
هو ما يستدعيه خمولكم وتسوجه أفعالكم المتعاذلة : إننا من نبركم نالنا دفع
الشارعة من ذخيرتها : لا تصلح إلا شكلاً ، وهذه العلة كان عندنا شكلُ
الحكومة لا الحكومة .

أندرى يا قى ما هي الحكومة الصحيحة في مثل حالنا ؟ هي أن يحكموا
أسم في الشعب حكومة أخلاقية نافذة الفاتن ، وضبطوا أخلاق الداء والرجال

وتردوها كلها أخلاقاً عارية لا تعرف إلا الجِدَّ والكرامةَ وصرامةَ الحق ؛
وإلا فكما تكونون يُولَّى عليكم...

هذا وحده هو الذى يُعيد الأحاب إلى رشدهم وإلى الحقيقة ، فإِ أرام
يعاملوننا إلا كأننا ثيابٌ معلقةٌ ليس فيها لانسرها...

كيف يتصعّبُك المصرىُّ للأجنبي لو أن فى المصرى حقيقةَ القوةِ النفسية ؟
أترى مارجةً حربيةً تصعّبُك لزورقٍ صيدٍ حاءٍ يرتزق ؟

إن فى بلادنا المسكينَةَ الأجانب ، وأموالَ الأجانب ، وغطرسةَ الأجانب ؛
لا لأن فيها الاحتلال ، كلا ؛ بل لأن فيها ضعفَ أهلها ، وغفلةَ أهلها ، وكرمَ
أهلها ... بعضُ هذا يا بنى شبيهٌ ببعض ، وإلا فما هو كرمُ الشاةِ الضعيفةِ
إلا لذةُ لحمها ... ؟

نريد لهذا الشعب طبيعةَ حدية صارمة ، ينظر من خلالها إلى الحياة فيستشعرُ
ذاته التاريخيةَ المجيدةَ فيعملُ فى الحياة بقوانينها ؛ وهذا شعورٌ لا تحدُّه إلا طبيعةُ
الأحلاقِ الاجتماعيةِ القويةِ التى لا تتساهل من ضعف ، ولا تسمح من كذب ،
ولا ترخص من عفة . والحقيقة فى الحياة كالحقيقة فى المنطق : إذا لم يصدّق
البرهانُ على كل حالاتها لم يصدّق على حالةٍ من حالاتها ؛ فإذا كنا ضعفاءَ
كُرماء ، أحرّاء ، سادةً على التاريخ القديم ؛ فنحن ضعفاءُ فقط ...

إن الكرماء فى الشروع كله لا يصلحون إلا للرأى ، فلا تسوموهم غيرَ هذا ،
فيم قر تاتّموا الدرسَ من أغلاطهم الكثيرة ؛ وبهذا لن تُقلعَ حكومةُ سياسيةٍ
فى الشروع الهض ما لم يكن شأبها حكومة أخلاقية يُمدّها من نفسه ومن الشعبِ
فى كل حادثةٍ بالأخلاقِ المحاربة .

يا بنى ، إن القى لو انفق مع الضعيف على كلمةٍ واحدة لا تعبير ، لكان
مناها للآدم أكرمها الأكرم : فإن هذا القوى الذى يعمل مع الضعيف

يكون فيه دائماً شخص آخرٌ خفيف ، هو القوى الذى يعمل مع نفسه .
هكذا هى السياسة ، أما فى الإنسانية فلا ؛ إذ يكون الحق دائماً بين الاثنين
أقوى من الاثنين .

خضع يخضع ...

وقال صاحب سر (م) باشا فيما حدثنى به : جاء ذات يوم قنصلُ (الدولة
الفلانية) من هذه الدول الصغيرة التى لو علم الدبابُ فى بلادها أن فى مصرَ
امتيازاتٍ أجنبيةٍ لطمعت كلُّ ذبابة أن يكون لها فى بلادنا اسمُ الطيارة الحربية ...
ورأيتُه قد دخل على شاعراً باذخاً متجبراً ، كأنه فل أن يجرى إلى هذا الديوان
لمقابلة الحاكم المصرى - قد تكلم فى (التلفون) مع إسرائيلَ بأمره أن يكون
مستعداً للنفخ فى الصور ...

جئى صُعلوك من رعايا دولته على مصرى ، فأخذ كما يؤخذ أمثاله ، وقضى
ساعة أو ساعتين بين أيدى المحققين يسأله الأسئلة الهينة اللينة التى تُحيط
تعريفه من ظاهره ، ولا يُشبهها فى سخافة المعنى إلا أن يسأله عن ثيابه من
أى مصعٍ هى فى أوروبا . فرغم القنصل أنه كان يجب أن يكون حاضراً
يشهد التحقيق ، لأن جايةً أجنبيةً على مصرى تقع تحت أجنبية ... فلها شأنٌ
ورعايةٌ وامتياز ؛ وأدعى أن المحققين صابقوا المجرم وعاسروه وتجهّموه بالكلام ،
ولهذا جاء يحتاج !

ورأيتَه جالس متوقفاً كأنما يشعرُ في نفسه أنه أثقلُ من يدفعه ضخمٌ ،
لأن في نفسه وثَمَّ القوة ، وخيلَ إلىَّ أنه يرى موضعه بين السقف والأرض ؛
إذ يحملُ في رأسه فكرةً أنه الأعلى ، وكانت له هيئةٌ صريحةٌ في أن الاجنئُ
المقيمَ هنا ليس هو كلُّ الاجنئِ ، بل لا تزالُ منه بقيةٌ تتممها دولته ؛ وفي
الجملة كان الرجلُ كلمةً واضحةً مفسرةً تنطقُ بأن للقانون المصري قانوناً
يحكمه في بلاده !

وأنا قد درستُ القانون الدولي ، وعرفت ما هي الامتيازات وما أصلها ،
وهي لا تعدو كرمَ الأرنب التي زعموا أنها كانت تملك حماراً تركبه وترتفقُ
به ، فسألها أرنبٌ أخرى أن تُردِّفها خلفها ، فلما أدفع بهما الحمار أستوطانه ،
فقلت لصاحبه : يا أختي . ما أفره حمارك ! ثم سكنت مدةً وأعجبها الحمار
فعلت : يا أختي . ما أفره حمارنا ..

وكما نحن الشرقيين من الضعف والغفلة بحيث لم نبلغ مبلغَ الأرنب في
حكمتها وتديبِها وحذرِها ، فإنها أسرعَتْ ودفعتْ صاحبها وقالت لما :
أزلى - ويلك - قل أن نقول : ما أفره حماري !

قال : غير أن في تلك الساعة نسيتُ القانونَ الدولي وكنت في إلهام
مصريتي وحدها ، فظهر لي ظهوراً نبياً أن لاشيء اسمه القانون الحق في
هذه الدنيا ، ولكن هالك اتفاقاً بين كل خضوع وكل تسلط ، هو قانونُ
هاتين الحالتين بخصوصهما .

وأسرعتُ إلى الداشا فأنبأته ، وأسرع الباشا فغير وجهه ، وتبسَّط ، وتهلل ،
ونهاه هذا لاستقبال القادم العزيز ، كأنه أخضُ محبٍ يتطلعُ إلى مؤانسته
وقد جاء بزوره في داره . ثم دخا القمصل ، ولم أسمع مما دار بينهما

إلا الكلمة الأولى ، وهى قول الباشا : لنبدأ يا سيدى من الآخر ...

• • •

وكانت فى الباشا موهبةٌ مجيئة فى آخترلاب الاجانب خاصة ، يذُبرم بلباقة كالحافى فى إصبعة ؛ حتى قال لى أحدم : إن لهذا الباشا حاسةً زائدة ، لو مُنبت حاسة الإرضاء لكان هذا آسمها الطيى ، وإنه يعمل بها كما يعمل المفكر بتفكيره ؛ فهو يبتكر الأساليب الغريبة التى يصعدُ ويهبطُ بها ميزان الحرارة النفسية ، وإن جليسه يكاد يشعر من مهارته فى التثليل أن فى جو المكان ستاراً يُرفع وستاراً يُسدل بين الفصول .

قال لى الفصل أن خرج بغير الوجه الذى دخل به ، ولكنه عَبَس فى وجهى أنا وتكره لى كآبه أصغر شأى ، فازدرتى عينه فوثبت لى رأسه فكرةً الامتيازات .

وهذه القوة الظالة (الامتيازات) ؛ لو أنها كانت قوةً قاهرةً نافذة ، وأعينُ بها ، طفيلٌ ليقتم دورَ الناسِ آمنًا مطمئنًا - لأستحي هذا الطفيلُ أن يأكلَها ، إذ تجمع عليه التطفلُ والمقتَ معاً ؛ ولو قيل لحسام بتار : إن لك امتيازاً على بعض السيوف ألا تقارعك ، وإنك عهى أن تناك سَطوُها إذا قارعتها - لأبغ أن يسمي سيفاً بهذا أو بمثل هذا ، فإن القوة الظالة التى يُعبرونه إياها ، ليست إلا مهانة لشرف القوة العادلة التى هى فيه .

• • •

قال صاحب السر : ووصفت للباشا هيئة الفصل التى أنصرف بها ، وتقطيعه فى وجهى . وقلت له : إن الذمات وقعت فى صحفى أنا من هذه الوثيقة . . فحكك بملء فيه ، ثم قال :

منبطل هذه الامتيازات ، وليس يلبس وبين هاتين إلا أن يلتهم الشعب

إلى حقيقته القومية ، فـا تركها في مكانها إلا نزول الشعب عن مكانه ،
 والله لكان هؤلاء الأجانب يسألوننا بهذه الامتيازات : أين مكانكم
 في بلادكم ؟ . .

أندرى ما قاله هذا القنصل حين تجاذبنا الحديث فيها ، بعد أن وضعتُ
 نفسى منه في موضع الحامى الذى يخذله الدلسُ فيحاول أن يستنزل كرمَ
 القضاة يعرض نؤس المتهم على شفقتهم ، ليستعطى القانون الذى في أيديهم
 بالقانون الذى في أنفسهم .

إنه قال : لا يلومَنُ الشرقيون إلا أنفسهم ، فهم علّوا الأجانب أن تنف
 ريش الطير أولُ أكله ... وهذه الامتيازات إن هى إلا معاملةً بيننا وبين
 طبيعة الخضوع فى الشعب .. نعم إنها مَصْرَّةٌ ومَمَرَّةٌ ، وظلمٌ وقسوة ؛ ولكنها
 على ذلك طبيعةٌ فى الطبيعة ؛ فـا دام هذا الشعبُ لينَ المأخذِ ، فإن هذا يُوجدُ
 له من يأخذ ؛ وما دامت الكلمة الأولى فى مُعْجَم لغته السياسية هى مادة
 (حَضَعَ يَحْضَعُ) ، فهذه الكلمة تحمل فى معناها الواحد ألف معنى ، منها :
 ظلمَ يظلم ، وركب يركب ، ومَلَك يملك ، واستبدَّ يستبدُّ ، ودجَّل يدجِّل ،
 وخَدَعَ يخدع ؛ فهل يكثر أن يكونَ منها للأجانب : امتياز يمتاز ؟

قال صاحب السر : ثم زَمَ الباشا فهُ وسكت : ففهمتَ الكلمات التى
 انطبق فمُه عليها وإن لم يتكلم بها ، ثم غلغ الضحك فقال : والله يا بى لو أن
 رُغوثاً طَمَر من ثوب صعلوكٍ أجنبيٍّ ، فوقع فى ثوب صعلوكٍ وطنى ،
 فقَاتَلَا ، فقبض عليهما ، فأخذا - لما رضى رُغوثُ الأجنبيُّ أن يحاكم
 إلا فى الحاكم المختلطة . .

ثم سكت الباشا مرة أخرى كله بقول كلاما آخر لا يجوز نشره . ثم قال :

يأبى أن الأجانب لا يضعون الحِملَ إلا على من يحمل ، فإذا نحن توخينا مرادهم أرادوا لأنفسهم لائناً ، وإذا واقفناهم غرضاً جعلوه كالدينار فيه مائة قرش ، وأبوا إلا أن نُصارَهم عليه بمائة ، هم - ويحك - يمتازون في معاملتنا لافى سطور القوانين والمعاهدات ، فلنُسطل هذه المعاملة يَطلُ هذا الامتياز .

إن الحق يابى استحقاقاً لادعوى ؛ وهذا التنازع على الحياة يجعل وسائله الطبيعية الاتزاع والمطالبة والتجرد له والدأب فيه والإصرار عليه ، وكل الأقوياء يعلمون أن موضع الاعتدال بين غُصْبِ الحق وبين استرداده موضع لا مكان له فى الطبيعة ؛ والأجنبي يعتمد علينا نحن فى جعله أكبر منا وأوفر حُرمة ؛ فإذا أسقط الشعب هذه الامتيازات من فكره وروحِه وأعصابه وثارت فيه كبرياء الوطنية فاستنكف من الاستخذاء ، ونهر من الاخضاع ، وأبى إلا أن يُعلل كرامته ، وصرق اهتمامه إلى حقوق هذه الكرامة ، وأصر ألا يعامل أجنبياً يرى لنفسه امتيازاً على وطني ، وقرر ذلك فى نفسه ، ومكثته فى رُوعه ، وأجمع عليه إجماعه على الدين - إذا جاءت (إذا) هذه بشرطها من الشعب ، حاه جوارب الشرط من الأجانب بنزولهم عن الامتيازات واحتلت المشكلة ؛ إنا يابى لامتلاك ضغط السياسة ، ولكنا مملك ما هو أقوى ، مملك ضغط الحياة .

لهم الامتياز بأهم أجنابُ عما ، فليكن لنا الامتياز الآخر بأننا أجنابُ عنهم فى المعاملة ، منلاً بمنل ، وما يفل الحديد إلا الحديد .

يقولون : النظام الاقتصادى ، والمال الاجنبى ؛ ولكنك أرايت المال فى يد الاجنبى إلا مالاً وتديراً وسلطه وسيادة ، من أنه فى يد الوطنى دين وإسراف ، ورق ودل ؟

لم يطره لى إلا الساعة أن من حكمه تحريم الرأى شريعتنا الإسلامية ،

وَقَايَةَ الْأَمَةِ كُلِّهَا فِي ثُرُوتِهَا وَحِثَائِهَا وَمُسْتَغْلَاتِهَا ، وَحَايَةَ الشَّعْبِ وَمُلُوكِهِ مِنْ
الْإِسْرَافِ وَالتَّخَرُّقِ وَالكَرَمِ الْكَاذِبِ ، وَرَدَّ الْأَسْتِمَارَ الْأَقْتَصَادِي ، وَشَلَّ
النَّفُوذَ الْأَجْنَبِي .

أَمَّا لَوْ أَنَّا كَتَبْنَا مِنَ الْأَوَّلِ عَلَى أَبْوَابِ « الْبَنْكِ الْعَقَارِيِّ » وَأَبْوَابِ ذَرِيَّتِهِ :
« يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَّ » ، فَهَلْ كَانَتْ تُقْرَأُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الثَّلَاثُ عَلَى أَبْوَابِ تِلْكَ
الْبَنْكِ الْأَجْنَبِيِّ إِلَّا هَكَذَا : « عَالٌ غَالِيَةٌ لِلْإِيْجَار » ، ؟

فلنتعصب . . . !

وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) نَاشَا : جَاءَنِي يَوْمًا مَحَقُّنٌ إِنْجِلِيزِيٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُتَّابِ
الْمُتَعَصِّبِينَ الَّذِينَ تُطْلَقُهُمْ أَيْجَلْتَرَا كَمَا تُطْلَقُ مَدَافِعُهَا ؛ غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ لِلْبَارُودِ
وَالرَّصَاصِ وَالْقَنَابِلِ ، وَأَوَّلُكَ لِلْكَذِبِ وَالتَّهْمِ وَالْمُغَالَطَاتِ .
وَهُوَ أَذُنٌ وَعَيْنٌ وَلِسَانٌ وَقَلَمٌ لِجَرِيدَةٍ إِنْجِلِيزِيَّةٍ كَبِيرَةٍ ، مَعْرُوفَةٍ بِثَقَلِهَا وَطَائِفَتِهَا
عَلَى الشَّرْقِ وَالْإِسْلَامِ ؛ تُصْلِحُ يَأْفَسِدُ ، وَتُدَاوِي الْحُمَى بِالطَّاعُونِ ، وَتَعْمَلُ
فِي نَهْضَةِ الشَّرْقِيِّينَ وَأَسْتِقْلَالِهِمْ مَا يَشِئُهُ قَطْعُ تَنْدِي الْأَمِّ وَهُوَ فِي شَقَقِ
رَضِيْعِيهَا الْمُسْكِينِ !

وَدَخَلَ عَلَيَّ هَذَا الْكَاتِبُ فِي السَّاعَةِ الَّتِي حَرَجَ فِيهَا مِنْ غُرْفَتِي صَاحِبُ
جَرِيدَةِ أُسْبُوعِيَّةٍ فِي مَدِينَتِنَا . كَانَ قَدْ نَفَحَ الضُّفْدَعَ لِيَجْعَلَهَا ثَوْرًا ، فَحَوَّلَ حَقِيقَتَهُ
إِلَى جَرِيدَةٍ يَوْمِيَّةٍ ، وَهُوَ لَا يَجِدُ مَادَتَهَا وَلَا يَسْتَطِيعُ أَسَاسَهَا ، إِلَّا أَنَّهُ كَذَّابٌ
الْأَمْسَ عِنْدَمَا كَانَ بِحَسَبِ الْكَذِبِ فِي الْعَمَلِ مَهْلًا مَهْلًا ^(١) كَالْكَذِبِ فِي

(١) هَذَا الِاسْتِعْمَالُ بِمَا وَضَعَاهُ مُحَمَّدٌ وَلَيْسَ فِي الْعِلْمِ ، وَهُوَ مِنْ مَابِ الْإِتْبَاعِ كَقَوْلِهِمْ :
حَسْبِي نَسٌّ ، وَسَطْلَانُ لِبَطَانِ الْحِ .

القول ، فلم يَتمَاضمه الأمرُ العظيم ، واقترض لعمله كلَّ ألفاظِ النجاح من اللغة ...

وظنَّ عند نفسه أنه سيُخَوَّفُ بجريدة الكبراء والأعيان والمياسير حتى يغلبَ على جميعهم ، ويشركَ أصابعه مع أصابعهم في استخراح ما يحتاج إليه من جيوبهم ؛ فلم تعش جريدته إلا أياماً وأتلف ما جمع ، ورهن فيها داره التي لا يملك غيرها ؛ وعلم آخرأ أن الذي يكذبُ فيسئُ الحروفَ جملاً ، لا يُقبل منه أن يكذبَ على الكذبِ نفسه فيزعمَ أن الباقية هي التي تتجت هذا الحروف . ولما أُنقِضت هذه الجريدةُ يومية كان الباشا هو ملجأ الرجل ووزره ، كان لكل يوم في الجريدة أخبارٌ عن الباشا لا تقعُ في الدنيا ولا يُجمع من الحوادث ولكن تقع في ذهن الكاتب وتُجمع من صناديق الخراف ؛ حتى قال لي الباشا مرة : إن اسمي قد أصبح موطئاً في هذه الجريدة لجمع الأشرار ... وتحزى هذا الصحفي أن يستأذن يوماً على الباشا ويجلسه حشدٌ عظيم من السراة والأعيان والعُمد ، وكان يجمعهم لأمر ، فما هو إلا أن دخل الصحفي حتى أبتدره الباشا بهذا السؤال : يا أستاذ ماهي تلهزات أوريا عن الحوادث التي ستقع غداً ... ؟

فضجَّ المجلس بالضحك ، وفقد المسكينُ بهذه السكتة أربعة دنانير كان يؤمل أن يخرج بها ، وأعلن الباشا في أطراف إعلانه وأبلّغه كذبت الرجل ونفاقه وإسفافه ، وأنه من رجال الصحافة المدوّرة تدوير الرغيف ...

قال : ونظرتُ إلى الصحفي الإنجليزي نظرة أكتشفه بها ، فإذا أولُ الفرق بينه وبين أمثاله عندنا - تنعوره أن بلاده قد ربّته (للحارج) ؛ فهو عند نفسه كأنه إنجليزي مرتين ؛ ويأتي من ذلك إحساسه بمزة المالك ، وقوة المسعمر ،

فلا يكون حيث يكون إلا في صراحة الأمر النافذ ، أو غموض الحيلة المبهمة ؛
ويستحكم هذا وذلك طمعه العملي . فهو بعريته مُقاتِلٌ مرّ مقاتلة الفكر ، يلتمسُ
مَيدانه بين القوى المتضاربة لا يبالى أن يكون فيه الموت ما دام فيه العمل ؛
وهذا كله تراه نافذ البصيرة قائما على سواء الطريق ، لأنّ الإنجليزي الباطن
فيه بوجه الإنجليزي الظاهر منه ويساعده ؛ وفي أعماق الاثنين تجد الجملة ،
وليس غير انجلترا .

ثم فتزست في الرجل أريد كُنْته وحقيقته ، فإذا له نفس مفتوحة مقفلة
معاً ، كغرف الدار الواحدة : يُفتح بعضها لما فيه كيما يرى ، ويُقفل بعضها
على ما فيه كيلا يرى .

وله وجه عملي يكاد يحايبك على نظراتك إليه ، تدور في هذا الوجه عينان
قد اعتادتنا وزن الأشياء والمعاني ، يتلألا في هاتين العينين شعاع النفس القوية
المدرة قد تفت الثقة بها نصف هموم الحياة عن صاحبها ، تُمدّ هذه النفس
طبيعة مؤمنة بأن أكبر سرورها في أعمالها ، فواجبها في الحياة أن تعمل كل
ما يحسنُها وكل ما يحسنُ منها .

لقد حيل إلى ، وأما أنظر إلى نفسه هذا الإنجليزي أن كلمة الحبيبة عند
هؤلاء الانجليز غير كلمة الحية عندما يحس الشرقيين ، فإن خيبة النفس لا تتم
معانها أبدأ في النفس العاملة الدائبة التي يشعرها الواجب أنه شيء إلى
لا ينبغي ، وأن ما يرفض على هذه الأرض من العمل الطيب لا يرفض
في السماء .

وكان الرجل قد أدرك غرضي بملكته الصحافية الدقيقة ، فأجابني عن
السؤال الذي لم أسأله وقال لي مبتدئاً : إن أساسا الشخصية وحاسة الواجب ،
وإن فيكم أنتم كل شيء إلا هذين ؛ فأحلاقنا تظهر دائماً في العمل ، وأخلاقكم

تظهر دائماً في الكلام الفارغ ؛ ونحن نطلب الحقيقة وأنتم تطلبون الألفاظ ،
حتى إنه لو خسر المصري ألف دينار ثم أعلن أنها مائة فقط وصدق الناس
أنها مائة ، لكان عند نفسه كأنه ربح تسعة

قال صاحب السر : واستأذنتُ له على الباشا فسُئل ورحب ؛ ثم هممتُ
بالانصراف عنهما ، ولكن الإنجليزي قال : يا باشا ! إنه قد تمكن في رُوعي
أن صاحب سرّك هذا متعصبٌ ديني ، وقد علمتُ أنه ابن فلان القاضي الشرعي ،
فطربوشه ابنُ العمامة : ولقد كان ينظر إليّ وكأنه يتأملُ من أين يذبحني ؟ ...
فضحك الباشا وقال لي : يا فلان ! إن هذا الكاتب من تلاميذ برنارد شو ؛
فهو كأستاذة يحمل لكل حقيقة ذنباً كدليلِ الحق ، ثم يسكها منه فإذا هي
تعضّ وتلوي ...

والفتت بعد ذلك إلى الإنجليزي ثم قال له : حامد كتابك ، فإذا كنت
تريد رأيي فيما تسميه التعصب الديني عند المسلمين ، فعجيبٌ أن تضعوا أنتم
الذلمة ثم تسألونا نحن فيها ! إنك تعلم أن هذا التعصب الكذب الذي أكثرتم
الكلام فيه ، إنما هو لفظٌ من ألفاظ السياسة الأوربية ، أرسلتموه إلينا
ليقاتلَ لفظَ التعصب الحقيقي ؛ ومن قبلِ هذا احترمتُ لفظه (الأقليات)
وأجريتوها في لغتكم السياسية ، لتجعلوا لها لتعصبنا الوطني شكلاً آخر غير
شكله ففسدوه عليها بهذه المادة المفسدة ؛ وبذلك تضررون اليدَ اليمنى من غير
أن تلبسوها ؛ إذ تضررونها بشلّ اليد اليسرى .

إن الإسلام في نفسه عدوٌّ شديدٌ على التعصب الذي تفهمونه ، فهو يقول
لأهله في كتابه العزيز : « كُتِبَ قَوْمًا مِّنَ الْبَشَرِ شُهَدَاءُ لِّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ
أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ » .

فإذا كان العدلُ في هذا الدين عدلاً صارماً ، وحققاً محضاً لا يميّز شيء .
البيئة ، لا ذات النفس التي فيها آسَتهاد الدم ، ولا أصلها من الابوين اللذين
جاءت منهما وراثَةُ الدم . ولا أطرافها من الأقربين الذين يلتفون حول
نسب الدم - إذا كان هذا . فآين في هذا العدلِ محلُّ الظلم ؟

لعلك تشير إلى الرُعوة التي تعرفها في الأغمار والأغفال من العامة ،
فهذه ليست من أثر الدين ، بل هي أثر الجهل بالدين ؛ إن هذا ليس تعصباً ،
بل هو معنى من معاني الحَيَيةِ العسيةِ الخرقاء لم تحذوا أنتم له لفظاً ، وكان
أقرب : الإلتفات إلىه عندكم هو التعصُّب ، وأطلقتموه عليه للمعنى الذي في
نفسه والمعنى الذي في أنفسكم . ألا تعلم أن إسلامَ العامة اليوم هو كالدعوى
المقبولة شكلاً والمرحوضة بعد ذلك .

قال الآخري : ولكن هؤلاء العامة علماء دينيين بدّروهم من وراثتهم ،
وهم عندكم ورةُ النبي صلى الله عليه وسلم ، أى منبعُ الفكرة وقوتها .

قال الشاشا : غير أن هؤلاء قد أصبحوا كلهم أو أكثرهم لا يندش فيهم
عرق من تلك الوراثة ، وذلك هو الذى بلغ بنا مآزى : فالقوم إلا قليلاً
منهم كالأسلاك الكهربائية المعطلة : لا فيها سَلْبٌ ولا إيجاب ؛ ولو أن هؤلاء
العلماء كانت فيهم كهرباء النوة ، لكهربوا الأمم الإسلامية في أقطارها
المختلطة : إذن لقام في وجه الاستعمار الأوربي أربعائة مليون مسلم جَلْدٍ
صارمٍ شديد ، متظاهرين متعاونين ، قد أعدوا كل ما استطاعوا من قوة
العلم ، وقوة النفس . وهم لو قدَفَ كلُّ منهم بحجرين لردموا البحر ...

أريد معنى التعصب في الإسلام ؟ إنه بعينه كتعصب كل إنجليزي للأستطول ،
فهو تشابكُ المسلمين في أرحاء الأرض قاطبةً ، وأحذهم بأسباب القوة إلى
آخر الاستطاعة لدفع ظلم القوة بآخر ما في الاستطاعة .

وهو بذلك يعملُ عملين : استكمالُ الوجودِ الإسلاميّ ، والدفاعُ عن كماله .
وإذا أنت ترجمتَ هذا إلى معناه السياسيّ ، كان معناه إصرارَ جميع المسلمين
على نوع الحياة وكرامتها ، لا على استمرار الحياة ووجودها فقط . وذلك
هو مبدؤكم أنتم أيها الإنجليز : لا تعملون إلا حياة السيادة والحكم والحرية ،
فأنتم مسلمون في هذا المبدأ لو عدّلتُم .

أليس من البلاء أن المسلمين اليوم لا يدرُسُ بعضهم بلاد بعض إلا على
الخريطة ... مع أن الحجّ لم يشرعْ في دينهم إلا لتعويدهم دراسة الأرض
في الأرض نفسها لا في الورق ، ثم ليكونَ من مبادئهم العملية أن العالم
مفتوحٌ لا مقفل ؟

إن التعصّب في حقيقته هو إعلانُ الأمةِ أنها في طاعة الشريعة الكاملة ،
وأن لها الروحَ الحادة لا البليدة ، وأن أساسها في السياسة الاحترام الذاتي
لا تقبلَ غيره ، وأن أفكارها الاجتماعية حقائقُ ثابتة لا أشكالٌ نظرية ،
وأن مبدأها هو الحق ولا شيء غير الحق ، وأن قاعدتها ولا يضركم من
ضلَّ إذا أهدبتم ، فالهداية أولاً والهداية آخراً : الهداية في القوة ، والهداية
في السياسة ، والهداية في الاجتماع ، فقل لي محباتك وحياة آمحلترا : أيعابُ
ذلك على المسلمين إلا بالالفاظ التي يعيب اللص بها أهل الدار لأنهم يُحكَمونَ
في وجهه إقبالَ الباب ... ؟

قال : فوجم الإنجليزى حتى ذهل عن نفسه وصاح :

إذا كان هذا فلتتعصّب ! فلتتعصّب !

وزن الماضي

وقال صاحب سر (م) باشا : إني لجالسٌ ذات يوم وفي يدي كتابٌ لبعض المتفلسفة من مَلَاحِدَة أوربا الذين يريدون أن يفهموا مالا يفهم ؛ وكان الباشا قد رأى مرةً أنظرُ فيه وأندرتُ مسائله المامضة ، فقال لي : يا بني ، إن أحد الكلاب كان شاعراً فيلسوفاً . فنظر ليلةً في النجوم فراعته وحيرته ؛ قال أن يفهمها بعقله ، وتفرغَ لدرسها مدةً طويلةً ، ثم وضع فيها كتاباً نفيساً ضخماً ، كان أعظمَ كتبِ الفلسفة وأشدّها غموضاً عند الكلاب ، وكان اسمه : العظام المبعثرة فوقاً ... (١)

قال : فأما حالسٌ أقرأ هذا الكلام الذي لا يحصى فيه إلا أنه غير صحيح ... إذ دخل على كاتبٍ متعلِّفٍ مُلِحِدٌ من هؤلاء المدخولين في عقولهم ، المتعثرين بأوربا ومذاهبها وعلويّاتها وسُفليّاتها ... وهو يكتبُ في الصحف ويؤلف الرسائل ، وقد جاء يستعْزِخُ الناسَ على فلاحٍ شاركه في زراعة أرضه ، فزرعه العلاحُ فيها وحَصَّده ، ودَهاه بكَيْدِه ، وأبتلاه بِفَلْظَتِه ، ونهَدَّده بالنقمة .

وكان هذا الفلاحُ الساذجُ العريزُ قد سَقَّه إلى وعرفه لي تعريفاً قاموسياً محيطاً من مادة : كَفَر يَكْفُر ... ثم قال بعد ذلك : إنه (بياع كلام) يَصْدُقُ ويَكْذِبُ حسب الطلب ... والذمةُ نفسها ليست عنده إلا (عملية حسائية) : وهر في أقوى جهته لا ينفع الدنيا بما تنفعها به الهيمة من أضعف جهاتها .

(١) لا ريب أن المؤلف .. قد بحث في كتاب (الوسائل العملية) للامتاع بهذه العظام المبعثرة ..

أما الكاتبُ فيقول عن هذا الفلاح : إنه لا يدري أهو يُنم بهائم أم بهائمته هي التي تُنمُّه ، وإن الذي يرفعُ القصيةَ على مثل هذا المخلوق إلى المحكمة لا يكون إلا كالذي يُقَفِّعُ بالعصا على جُحْرِ فيه الحيةُ السامةُ السامةُ .
ورأى المتفلسفُ الكتابَ على يدي ، فهَلَّلَ وأستبشر وقال لي : هذا نَسَبٌ بيننا .. فأدركتُ من كلمته هذه جملته وتفصيله ، وخيلَ إليَّ أني أرى فيه نفسه الشرقية كالمرأة المطلقة ... فقلت له : أما أشرتُ هذا الكتاب من أورما ، ولكي لم أشتري منها دماغى ...
وكلمته أستخرجُ ما عنده : فإذا هو في قومه وتاريخِ قومه كالسائح في بلادٍ أجنبية : يفتَحُ لها عينه ولا يفتحُ لها قلبه .

* * *

وكان جريئاً في كلامه مع الباشا : يَطْرُدُ القولَ حيث شاء حقاً وباطلاً ، ثم لا يَسْتَدِرُّ رأيه ولا تثبتَ لحجته إلا قولُ فلان ورأى فلان ، كأن في رأسه عقلاً شجاعاً ... ثم ذكر آخرَ الأمر ما جاء له ، فغَجَّلَهُ الانشا وقال : هذه مسألة كمثل مسائلك : تحتاج إلى رأى فيلسوفٍ أوردى ... وأعرض عنه ولم يدخُلْ في شيء من أمره .

ولما أنصرف قال الباشا : يحسبُ هذا نفسه عالماً ، وهو صُعلوكٌ عُلْيَى ... وإما يكون دماغه وأدمغة أمثاله عند الفلاسفة والعلماء الذين يذكروهم ، كما تكون سلةُ المهملاتِ عند الصحافيين .

إن هذا الرجل يتم ضعفُ عقله في الرأى بقوة عناده فيه ، ليجعل له ثبات الحقيقة فيظنُّ حقيقة : كأن حَصَصَةَ الماء باليد في وعاءٍ صغير ينقلُ إلى هذا الوعاء طبيعة الموج ؛ وعد أمثالِ هذا المقتون من الصعاليك العلبين ، أنك إذا تنازلت مسألة فأخطأت فيها خطأ جريئاً ، فقد جعلتها مخطئتك الحرة . مسألة

من العلم... وأنتك إذا عادتَ قَبِيتَ الخطأَ في وجهِ الناقدينِ سنة ، كان حقيقة
مدةَ سنة ...

هم مفتونون زائفون ، ومن قتلهم أهم برون البعد بينهم وبين أهل
الفضائل الشرقية كالبعد بين العالم والجاهل ، ولو حققوا لرأوه بُعداً في
الفرائز لا في العقل ، أى كالبعد بين الفُجور وما أشبه الفُجور ، وبين التقوى
وما أشبه التقوى .

زعم الاحمق أن خصمه العلاج رجل راسخ في الماضي ، كأنه باق في أمس
لم يلتفتل منه ، مع أن أمس قد انقطع من الزمن ؛ ثم خرج من ذلك إلى أن
الآمة يجب أن تبدل ماضيها ، ثم ادعى أن الإسلام يتعصب للماضي ، هذه ثلاث
كلمات تخرج منها الرابعة التي سكنتَ عنها ... ^(١)

وأما لو شئتُ أن أختارَ من مثل هذا الصلوكِ العلمي ، لما وجدتُ في
أصاليب السحرية أبلغ من أن أبحثَ إليه بقارورةِ فارعة وأقول له : املاها لي
من آراء العلاسفة ...

يُفَعِّلُ هذا وأمثاله عن أن الدينَ الإسلامي لا يعرف الماضيَ بمعنى ما مضى
على إطلاقه ؛ بل هو يشترط فيه ألا يخالفَ العقلَ ولا العلمَ ، وألا يناقضَ
الهداية « قالوا : بل نَتَّبِعُ ما أَلْفِينَا عليه آباءنا . أَوْ لو كان آباؤهم لا يَعْلَمُونَ
شيئاً ولا يَهْتَدُونَ ؟ » وفي الآية الأخرى : « قالوا : حَسْبُنَا ما وَجَدنا عليه آباءنا .
أَوْ لو كان آباؤهم لا يَعْلَمُونَ شيئاً ولا يَهْتَدُونَ ؟ » وفي الثالثة : « قالوا : بل نَتَّبِعُ
ما وَجَدنا عليه آباءنا . أَوْ لو كان الشيطانُ يدعوهم إلى عذاب السَّعِير ؟ » وفي
الرابعة : « إِمَّا وَجَدنا آباءنا على أُمَّةٍ وَإِمَّا على آبائهم مُقْتَدُونَ . قال : أَوْ لو
جَسَمْتُمْ بأَهْدَى ما وَجَدْتُمْ عليه آباءكم ؟ »

(١) الرامة التي يستلزمها هذا الساق المطبق هي تحزود الآمة من الدين ، وذلك
ما يعمل له بعض الصعاليك العليين

فانظر كيف صَوَّرَ ما نسميه اليوم بالوجود في قوله (حسبنا) ، وكيف صور ما نسميه بالرجعية في قوله (تَتَّبِعْ) ، وتأمل كيف رفض الوجود والرجعية معاً في العلم والعقل والهداية ، أى في آثارها من العلوم والمخترعات والفضائل الإنسانية ، وكيف أطل في تلك الثلاث الاحتجاج بالماضى بهذا الأسلوب الدقيق العالى ؛ وهو قوله في كل آية : أَوَّلُوْ ، أَوَّلُوْ ؛ لم يعبرها ؛ بل كثرها بلفظها أربع مرات .

فالمعجز هنا بحجى : الآيات هذه الصورة المطلقة لإسقاط حججهم ، ونفى معنى التأسيس عن الماصى فيهن ؛ إذ كان العلم دائماً النعير . وكان العقل دائماً التجديد والإبداع ، وكانت الهداية شديدة على الطبيعة الحيوانية التى هى ماضى النفس ؛ فكانها جديدة على النفس عند كل شهوة .

إن الإنسان ماضيه وحاضره كأنه مفسوم قسمين ، يقول أحدهما : أريد أن أكون : ويقول الآخر : أما قد كنت . بالإسلام هذه الآيات قد أوجب وزن الكلمتين في كل زمن بما هو الأصح ، وبما هو الأنفع ، وبما هو الأهدى ، وباشتراطه الهداية في جميعها أشار إلى أن الكمال النفسى للعرد يجب أن يكون مرتبطاً بالكمال الإنسانى للجنس

وهذا معنى عجيب ، وأعجب منه ما ترى من أن الإسلام قد أصلح فكرة الماضى وفعلها من معنى الآباء والأجداد للناس ، إلى المعانى التى هى كالأبناء والأجداد لإنسانية الناس : والأخذ (بالأهدى) فى اجتماع أُمَّة من الأمم إنما هو بعينه ناموسُ الترقى والتطور

ومن أدق الأسرار قوله : « إنا وجدنا آباءنا على أمة . » فكلمة (أمة) هذه لم يعبرها أحدٌ على حقيقتها . ولم تفسرها إلا علومُ هذا الزمن ، وهى المشاعرُ النفسية التى يتكون منها مزاج الشعب ، وفيها يستقر الماضى ؛ كأن

الآية قد عُرِّت بآخر ما انتهى إليه علماء النفس : من أن الإنسان ابنُ أويهِ وابنُ شعبه أيضاً .

فالتعصبُ في الإسلام هو للعلم البافع ، وللجد الصحيح ، وللهداية الباعثة على الكمال : وتعصبُ الجيلِ لمثلِ هذا في ماضيه ، هو في اسمه تعصب ، غير أنه في معناه إمعان هو العقلُ لتسليم مجد الأمة إلى الجيلِ التالي .

المعجم السياسي

وحدثني صاحبُ سر (م) ماثا قال : كما في سنة ١٩٢٠ ، وهي تلك سنة ١٩١٩ ^(١) ، وقد اجتمعت الأمة على مقاطعة لجنة (ملار) لا تكلمها . فجعلت السكوتَ تورة ، وأعلن الشعبُ أن كلمته في لسان الوفد ينطق الوعدُ بها نطق النبي عما يُوحى إليه ، فما يكونُ لأحدٍ غيره أن يقولها ولا أن يقول أوحى إليّ ؛ وأنى للورد ملر أن يصدق أن المصريين إجماعاً يُعتدُّ به ، وأنهم دخلوا في السياسة دخولاً ثابتاً فَرَخَّخُوا فيها ، وأنهم أصبحوا مع الإنجليز كالإنجليز الذين يقولون عن أنفسهم في مثلهم السائر : يلبني أن نكونَ أحراراً مثلَ أعمالنا .

وزعم اللورد لنفسه ، أن هذه الأحزاب المصرية لا يتفق منها اثنان أداً إلا كان بينهما ثالثٌ يختلفان عاياه ، وهو الطمعُ في مناصب الحكم : واستخرج من ذلك أن المصريَّ والمصريَّ كشيقي المقرص : لا يتحركان في عملٍ إلا على تمزيق

(١) سنة النورة المصرية ، وقد مر . صفها في مقالة (الأحلاق المخادعة) .

شيء بينهما ؛ فإن لم يكن بينهما (الشيء) لم يكن منهما شيء .

وذهب الرجل يَتَطَيَّرُ وَيَحْدِسُ عَلَى مَا يُحْيِلُ لَهُ الظَّن ، وقد حسب أن انجلترا يحق لها أن تقول في المصريين ما يقول الله في خلقه كما ورد في الآثار ؛ «إنما يتقلبون في قبضتي» . وكما تقول اليوم لأهل فلسطين من العرب : «إن شيئاً يذهبكم ويأت بخلتي حديد» ... وكان اللورد هذا رجلاً ممارساً لمشاكل السياسة ، دَخَلَ فيها ، ذاهيةً من دُعاة القوم ، له في قلبه عيتان وأذنان غير ما في وجهه ، كخذاق السياسيين ؛ وهو يعرف أن سياسة قومه لا تدخل في شيء إلا دخول الإبرة بخيطها في الثوب ؛ إن خرجت هي تركت الخيط وقد جمع وشد ... فأراد أن يمتحن مذهب المصريين في إجماعهم على الاستقلال ، وقدّر أنه واجدٌ من الفلاحين عوناً له ومادةً لمكرهه السياسي ، وحسب الوفد صورةً جديدةً من طبقة (الانسوات) القديمة ، ينزلون من الشعب منزلةً اليد التي تُمسك القيد ، من الرجل التي فيها القيد ، ويضعون معنى كلمة الحاجة في كلمة السياسة ، ويقولون : الوطن ، وهم يريدون الجاه ، وقيمون الشعب كالسلم ينتصب قائماً بأيديهم ليحمل أرحلهم الصاعدة عليه .

فجاء اللورد إلى مصر ، فوجد الأمة كلها قد حذرت منه وتيقظت له ، حتى نصحه رشدي باتسا بأنه لن يجد في مصر هرّةً تفاوضه ؛ ولكنه كان مستيقناً أن أذن السياسة الانجليزية (كالراديو) لصوتين : صوت الدنانير وصوت الجماهير ، فرّ في البلاد يرسم على الهواء علامات استفهام ؛ وانصفق عنه الناس وأهملوه ، وكان يسير في دائرة الصمت إلى مركزها أوالهول ، فبدأ وظلّ يبدأ حتى انتهى ومارال يبدأ ... وساح في البلاد سياحةً طويلة ، وكأنه لم يسافر إلا من سَفّة أنى الهول السفلى إلى شفته العليا !

قال صاحب السر : وجاء اللورد لمقابلة الباشا ، فمرَّ على مرورٍ كتابٍ مقفَلٍ : لا أعرفُ منه إلا العنوان : غير أنه رجل بمقدار الرجل الذى يخالف أمةً كاملة ، تكاد تحسبه مطويًا على زوبعة ، وترى له قوتين مُحِشَّ من أثرهما الرهبة والإعجاب ، وإذا تأملته قلت إن اللطفَ والطرفَ أضعفَ شمائله ، وإن الدهاءَ والحيلةَ أقوى مواهبه .

فلما لقيتُ الباشا من الغد ، سألتى : كيف رأيت اللورد ملتر ؟ فقلت : واقفة يا باشا إنه كالضرورة : ما يتهامها أحدٌ ولكنها تجيى . . .

فضحك الباشا وقال : يالبت لنا نحن الشرقيين كل يوم ضرورة تصنع ما صنع اللورد : إنه كشف لنا فى ذات أنفسنا عن حقيقة من أسمى الحقائق السياسية : وهى أن الشعبَ الذى يُصِرُّ ولا يزال يُصِرُّ ، يجعل الإغراء لا يُغري والخوف لا يخيف .

وبالتَّ الأمم الترقيةَ تعلم هذا الصمتَ السياسى عن مجاوبة الكلمة الاستعمارية أحياناً ؛ فإن صمتَ الأمة المصرية عن جواب (ملتر) ، كان معناه أن قدرة الأمة هى المتكلمةُ كلامها هذا الصمتُ تعلن للعالم أن الواجبَ الشعبى قد وضع قُفْلَه على كل فم .

وقد مر اللورد هذا السكوت بتفسيره السياسى ، فأدرك منه أن فى الشعب ألفةً وحيَّةً وقوة ، وأن حسابَ الضمير الوطنى أصبح لهذه الائمة لحساب الإلهى للنفوس المؤمنة : كلاهما مُستَعِلٌ يخاف ويُتَّقى ، وكلاهما له كلمة محرمة . أية معجزة هذه التى جعلت كلمة الأحنى تتخذُ فى أذهان أمةٍ كاملة شكلَ قائلها ، فاجتمعت لها البلادُ على معنى الرض ، وأصبح كلُّ فردٍ يعرف محله من الكل ، وخضعت الطوائفُ لمحملتها لقانون العزة القومية الذى يلزمها ألا تخضع للأجنى ؟

إن الأمم بعض مسائل نفسية كهذه المسئلة : فلو أن لنا خمسة دروس
سياسية مختلفة كدرس (ملنر) لكأنت لنا في الإيمان الوطني كالصلوات الخمس .
والآن تعلت الأمة أن الشعب العزيز هو الذي ينظر في قصر مشاكله
إلى الحل وإلى طريقة الحل أيضاً ، وقد كان (ملنر) هو أول أساتذتنا في
تعليمنا الطريقة .

وهذا الدرس يجب أن يكون درساً للشرق كله ، فإن السياسة الاستعمارية
قائمة فيه على خداع الطريقة في حل مشاكله ، فيطونها ويعقدونها في نص
واحد ؛ ويثبت الكلام الذي يتفقون عليه أن المراد منه زوال الخلاف ،
ويثبت العمل بعد ذلك أن المراد كان زوال المقاومة .

وفي السياسة الأوروبية موافقات دميمة كاللساء المشهورات ، فإذا عرضوا
واحدة منها على من يريدون أن يزوجوه فأبأها وفتح لها عليه بكل ما فيها
من قوة الإبصار ، أعفوه منها وقالوا له : سنأتيك بالجلية ، ثم يذهبون بها
إلى معهد التجميل اللعوى ، فيصقلونها ويصغونها ، ويصنعون لها أحمر
السياسة وأيضا . ثم يعرضونها جديدة على صاحبهم ذاك ، وما صنعوا
ما به صارت الدميمة غير دميمة ؛ ولكن ما به رجع غير الأحمى كالأعمى .

ولهم عقول عجيبة في اختراع الألفاظ . حتى نكون شدة الوصوح في
عبارة هي بمبها الطريقة لإخفاء العموض في عبارة أخرى ؛ وكثيرا ما يأتون
بألفاظ متفتحة تُحسب جزلة باذة قد ملأها معناها ، وهي في السياسة
ألفاظ حبال تستكمل حملها مدة ثم تلد .

ولهم من بعض الكلمات السياسية كما لهم من بعض الرجال السياسيين ؛
فكأن الرجل من دعاتهم رجلا كالناس ، وهو عديم شأن ذقوه في أرض كذا
أو تلك كذا . وبين الله ظاهراً ، وهو بارد دموي ، فيه أومه اهددة

ثم صحك الباشا وقال : إن أرضنا تخرج القطن ، وسياستنا تخرج أفاطاً كالقطن : لا توضع في المِغزَل إلا مَدَّت وتَحُولت ؛ وإذا ذهبنا نخالفهم في التأويل والتفسير لم نجد عندنا المعجمَ السياسي الذي يُبلي النص . أتدري يا بني ماهو المعجم السياسي ؟

أما إنه لو كان كتاباً يتألف من مليون كلمة ، لذهبت كلها عبثاً وباطلاً وهُراء ، ولكنه ذلك المعجمُ الحَيُّ ، ذلك المعجمُ الذي يتألف من مليون جندي

اللسان المرقع ..

وقال صاحب سر (م) باشا : جاء د حُضرة صاحب السعادة فلان ، لزيارة الباشا : وهو رجل مصريٌّ ولَد في بصر القري ، مانعِم أن الله (تعالى) ميزه بحوهر غير الحوهر ، ولا طع غير الطع ، ولا تركيب غير التركيب ، ولا زاد في دمه نقيته زهو ، ولا وضعه موضع الوسط بين قَتْن من الحليّة . غير أنه زار فرنسا ، وطاف باجلترا ، وساح في إيطاليا ، وعاج على ألمانيا ، ولَوْن نفسه ألوانا ، فهو مصريٌّ ملَوْن ؛ ومن ثم كان لا يرى في بلاده وقومه إلا الفروق بين ماهنا وبين ماهناك ، فما يظهر له دين قومه إلا متابلاً لشهوات أحبا وغامر فيها ، ولا لعة قرمه إلا مقروبة بلغة أخرى ودُّ لو كان من أهائها ، ولا تاريخ قومه إلا معنى عليه ... كالميت بين تواريح الأمم .

هو كعبد من هؤلاء المترنّمين المعتمدين : مصريُّ المال فقط ، إذ كانت أ. ا. هم وسبب حياتهم في مصر عرقى الاسم لا غير ، إذ كانت أسماءهم من

حناية أهلهم بالطبيعة : مُسلمٌ ما مضى دون ما هو حاضر ، إذ كان لاحيلة في أنسابهم التي انحدروا منها .

هو كبيره من هؤلاء المترفين المنعمين المفتونين بالمدينة : لكل منهم جلسته المصرى وامكره جلس آخر .

قال : وكان حضرة صاحب السعادة يكلم الباشا بالعربية التي تلعنها العربية ، مرتفعاً بها عن لغة الفصيح ارتفاعاً منقطعاً ... نازلاً بها عن لغة السوق نزولاً عالياً .. فكان يرتضخ لكثرة أعجمية ، يباهى في بعض الانماط جرس عال يطن ، إذا هي في لفظ آخر صوت مريض يئن ، إذا هي في كلمة ثالثة نغم موسيقى برن ؛ ورأيتُه يتكلف نسان بعض الجمل العربية ليولوى لسانه نغيرها من الفرنسية ، لا نظراً ولا تملحاً ولا إظهاراً لقدرة أو علم ، ولكن استجابة للشعور الأجني الخفي المتمكن في نفسه ؛ فكانت وطنية عقله تأبى إلا أن تكذبَ وطنية لسانه . وهو بإحداهما زائفٌ على قومه ، وبالأخرى زائفٌ على غير قومه .

فلما آنصرف الرجل قال الباشا : أفَ لهذا وأمثال هذا ! أفَ لهم ولما يصنعون ! إن هذا الكبير يلقبوه « حضرة صاحب السعادة » ، ولا شرف منه والله رجل قروى ساذج يكون لقه « حضرة صاحب الجامعة » ... نعم إن الفلاح عندنا جاهلٌ علم ، ولكن هذا أقبح منه جهلاً ، فإنه جاهلٌ وطنية . ثم إن الجامعة وصاحبها عاملان دائبان مخلصان للوطن ، فما هو عمل حضرة (صاحب اللسان المرقع) هذا ؟ إن عمله أن يعلن برطانيته الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مهينة ، وأنه مُتجرد من الروح السياسي للغة قومه : إذ لا يظهر الروح السياسي للغة ما إلا في الحرص عليها وتقديمها على سواها .

كان الواجب على مثل هذا ألا يتكلم في بلاده إلا بلغته ، وكان الذى هو أوجب أن يتعصب لها على كل لغة تزاوجها في أرضها ؛ فترك هذا وهذا وكان هو المزاحم بنفسه ؛ فهو على أنه « حضرة صاحب سعادة » لا يُنزل نفسه من اللغة القومية إلا منزلة خادم أجنبي في حانة .

أتدري ما هو سر هؤلاء الكبراء وهؤلاء السراة الذى يطمطمون إذا تكلموا فيما بينهم ؟ لهم عندنا طبقات :

أما واحدة ، فإنهم يصنعون هذا الصنيع منجذيين إلى أصل راسخ في طباعهم مما تركه الظلم والاستبداد والحق في زمن الحكم التركي ؛ فهم يُبدون جوهر نفوسهم لأعينهم وأعين الناس ، كأن اللغة الأجنبية فيما بينهم علامة الحكم والسلطة وأحتفار الشعب واستمرار ذلك الحق في الدم ... وهم بها يتنبّلون . وأما طبقة ، فإنهم يتكفون هذا مما في نفوسهم من طباع أحدتها النفاق والخضوع والذلّ السياسى في عهد الاحتلال الإنجليزي ؛ فاللغة الأجنبية بينهم تشريف واعتبار ، كأنهم بها من غير الشعب المحكوم الذى فقد السلطة ، وهم بها يتمجدون .

وأما جماعة ، فإنهم يتعمدون هذا ؛ يريدون بهيب اللغة العربية وتهجيها ، إذ اتخذوا من عداوة هذه اللغة طريقة انحلوها ومذهباً انتسبوا إليه ؛ وهم العالم بعالم أوروبا ، والأديب بأدب أوروبا ؛ وذلك من عداوتهم للدين الإسلامى ؛ إذ جعل هذه اللغة حكومة باقية في بلادهم مع كل حكومة وفوق كل حكومة ؛ وهم يزدرون هذا الدين ويُسقطون عن أنفسهم كل واجباته . وهؤلاء قد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، إذ يفلون في مصريتهم غلوا قبيحاً ينتهى بهم إلى سفه الآراء وخفة الأحلام وطيش النزعات فيما يتصل بالدين الإسلامى وآدابه ولغته . وما أرى الواحد منهم إلا قد عطل وصفه من حيث هو رقيق على وصفه

من حيث هو عالم أو أديب أو ماشاء؛ إن هذا لمقتد كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا.

ومن أثر تلك الفئات الثلاث نشأت فئة رابعة، تحول فيهم ذلك الخلط من الكلام إلى طريقة نفسية في النفس؛ فهم يُقحمون في كتابتهم وحديثهم الكلمات الأجنبية، ويحسون عملهم هذا نظرفاً ومعايشةً ويحسبوا، على أنه هو الذي يظهر لعين الصير مواضع القلع التاريخي في نفوسهم، وأما كفن الفساد القومي في طبيعتهم، وجهات التحلل الديني في اعدقادهم. هؤلاء يكتب أحدهم: (الزفرة) وهو قادر أن يقول الغضب، (والفلير) وهو مستطيع أن يحمل في مكانها المغازلة، (وسكالس) وهو يعرف لفظة أنواع وألوان، وهكذا؛ ولا والله أن تكون المسافة بين اللفظين إلا المسافة بعينها بين قلوبهم ورشد قلوبهم.

وما برح التقليد السخيف لا يعرف له بابا يبلغ منه إلى السخفاء إلا باب التهاون والتساح؛ ونحن قومٌ ابتلينا بتزوير العيوب، على أنفسنا وعدّها في المحاسن والفصائل؛ من قلة ما فينا من الفضائل والمحاسن. وهذه الطبيعة المعكوسة نحاول أن نقبس من مزاج الأوربيين؛ فلا نأخذ أكثر ما نأخذ إلا عيوبهم؛ إذ كانت هي الأسهل علينا، وهي الأشكل بطبعنا الضعيف المتساح التهاون.

ومن هذا نجد مشاكلنا الأخعاعية - على أنها أهون وأيسرُ من مشاكل الأوربيين؛ وعلى أن في ديننا وآدابنا لكل مشكلة حلها - نجدّها هي علينا أصعب وأشد؛ لأننا ضعفاء ومتخاذلون ومقلدون ومعتنونون؛ وكل ذلك من شيء واحد؛ وهو أن أكثر كراتنا هم أكثر بلائنا.

• • •

قال صاحب السر: ثم ضحك الباشا ضحكة الساخرة وقال: كيف تصنع أمة يكون أكثر العاملين [فيها] هم أكثر المعاملين؛ إذ يعملون ولكن بروح غير عاملة.

سر القبعة

وحدثني صاحب سر (م) باشا ، قال : نَحَمْتُ في مصر حركةً بِعَقِبِ أيام البدعة التركية . حين لم تبقَ لشيءٍ هناك قاعدةٌ إلا القاعدةُ الواحدةُ التي تقوِّرها المشائق .. فرأيتُ أن يخلع العمامة عن رأسه خلعوا رأسه ؛ ومن قال (لا) انقلبت (ك) هذه مشقةٌ فَعَلْتُ فيها .

وكانت فكرة اتخاذ القبعة في تركيا غطاءً للرأس قد حامت بعد نزغاتٍ من مثلها كما يجيء الخِذاء في آخر ما يلبس اللابس ، فلم يشكُّ أحدٌ أنها ليست قبعةً على الرأس أكثر مما هي طريقةٌ لتربة الرأس المسلم تربةً جديدةً ليس فيها رَكعةٌ ولا تَحْدَةٌ ؛ وإلا فحرى هذه القبعة على رأس الزمعيِّ والهمجعيِّ ، وعلى رأس الأبله والمجنون . فصاريناها جماعات الأسود أبيض ، ولا عرفناها نقلت ممحياً عن طمعه ، ولا زعم أحدٌ أنها أكملت العقلَ الناقص أو ردت العقلَ الذاهب ، أو انقلبت آلةٌ لحل مشكلات الرأس البليد ، أو غصبت الطبيعة شيئاً وقالت : هذا لحاملي دون حامل الطربوش والعمامة .

وقد احتجوا يومئذ لصاحب تلك البدعة أنه لا يرى الوجه إلا المدينة ، ولا يعرف المدينة إلا مدينةً أوربا ، فهو يمتثلها كما هي في حسانتها وسيئاتها ، وما يحلُّ وما يحرِّمُ ؛ وما يكون في حاجة إليه وما يكون في غنى عنه ؛ حتى لو أن الأوربيين كانوا عوراً بالطبع . لجعل هو قومه عوراً بالصاعدة ليشبها الأوربيين .. نعم إنها حجة تامة لولا قصر قليل في البرهان يمكن تلافيه بإخراج طبعة جديدة من كتب الدُّوح العثمانية يظهر فيها الخلفاء العظامُ والأصاال المعاور الذين قهروا الأوربيين لابسير قُبَعَاتٍ ، ليشبها الأوربيين ...

قال صاحب السر : وتهور في هذه الضلالة زَهْطُ من قوما ، وأخذوا يدعون إلى التَّمَيُّع في مصر احتذاء لتركيا ، وذهب بعضهم إلى سعد باشا (رحمه الله) يطلب رأيه ، فكان رأيه (لا) بِمَدِّ الألف .. وعهد إلى بعضهم أن أسأل الباشا ، فقال :

وَيُجِيبُهم ! أَلَا يَخْلُون أن نكون نحن المصريين مقلِّدين للتقليد نفسه ؟ إن هذه بدعةٌ تنحطُّ عندنا درجةً عن الأصل ، فكأنها بدعتان ^(١) . ثم ضحك الباشا وقال : كان في القديم رجل سمع أن الصل بالخل مافع للصغراء ، فذهب إلى بستان يملكه وقال لوكيله : ازرع لي بصلًا بخل .. هكذا يريدون من القبعات : أن تُخرج لهم تُركا بأوربيين !

ليست هذه القبة في تركيا هي القبة ، بل هي كلمة سبَّ العرب ورذَّ على الإسلام ، ضاقت بها كلُّ الأساليب أن تُظهرها واضحةً بيَّنةً ، فلم يف بها إلا هذا الأسلوبُ وحده ، وهي إعلانُ سياسيٍّ المناوأة والمخالفة والآنحراف عنا واطراحنا ، فإن الذي يخرج من أمته لا يخرج منها وهو في ثيابها وشعارها ؛ فهذا انفتح لهم بابُ الخروج في القبة دون غيرها بما يحرق فيه التقليدُ أو يُبدِّعُه الابتكار ؛ وإلا فأى سرٍّ في هذه القبعات ، ومتى كانت الأمم تقاس بمقاييس الخياطين... ؟ !

هنا سيفُ أراد أن يكون مِقْصًا ، ففعل أولًا ما يعمل الحسامُ البتار ، فأجاد وأبدع وأكره الناس وأعظموه ؛ ثم صنع ما يصنع المِقْصُ ، فإذا عساه يأتي به إلا ما ينكره الأبطالُ والخياطون جميعا ؟

(١) الأصل تهديد تركيا لأوربا ، وهذه بدعة ، فتقليدًا لتركيا بدعة أصحف من الأولى .

أَكْتَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَظْلَّ دَهْرَنَا نَبْحُثَ فِي التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى ، وَالْأَيْحْيَا الشَّرْقِي
إِلَّا مُسْتَعْبِدًا يَنْتَظِرُ فِي كُلِّ أَمْرِهِ مَنْ يَقُولُ لَهُ : أَشْرَعُ لِي .. ؟ إِنْ بَحَثْنَا
فَلَنَبْحُثَ فِي زِيٍّ جَدِيدٍ تَمَيَّزَ بِهِ ، فَتَكُونُ الْقَوَى الْكَامِنَةُ فِينَا وَفِي طَبِيعَةِ
أَرْضِنَا وَجَوَارِنَا هِيَ الَّتِي اخْتَرَعَتْ لظَاهِرِهَا مَا يَجْعَلُهُ ظَاهِرَهَا ، كَمَا يُخْرِجُ زَوْرُ
الْأَسَدِ لِبَدَّةِ الْأَسَدِ غَايَةً فِي الْمُنْفَعَةِ وَالْجَلَالِ وَالْمَلَامَةِ .

أَمَا أَلْبَسَ مَا شِئْتُ . وَلَكِنِّي عِنْدَ الْقَبْعَةِ أَجِدُ حَذًّا تَقَفُّ إِلَيْهِ ذَاتَيْنِ
الْفَرْدِيَّةُ ، فَلَا أَرَى ثَمَّةَ مَوْضِعٍ أَنْفَرَادٍ وَلَكِنْ مَوْضِعَ مَشَاكِلَةٍ ، وَلَا أَعْرِفُ
صِفَةً مُنْفَعَةٍ لِي بَلْ صِفَةً حَقِيقَةٍ مَنَى ، وَيَعْتَرِضُنِي مِنْ هُنَاكَ الْمَعْنَى الَّذِي يَصِيرُ
بِهِ النُّوعُ إِلَى الْجُلُوسِ ، وَالوَاحِدُ إِلَى الْجَمَاعَةِ ، وَمَا دُمْتُ مُسَلِّبًا أَصْلَى وَأَرْكِعُ
وَأُجِجِدُ فَالْقَبْعَةُ نَفْسُهَا تَقُولُ لِي : دَعْنِي فَلَسْتُ لَكَ .

وهؤلاء الرجال الذين لبسوها في مصر ، إنما آتَشَقُّوْهَا مِنَ الْمَصْدَرِ نَفِيسٍ
الْمَصْدَرِ الَّذِي يُخْرِجُ مِنْهُ التَّهْنُكُ فِي الدَّسَاءِ . وَكِلَاهُمَا مَزْجٌ مِنَ الْمَخَالِفَةِ ، وَكِلَاهُمَا
ضِدٌّ مِنْ صِفَةٍ أَجْتِمَاعِيَّةٍ تَقُومُ بِهَا فَصِيلَةٌ شَرْقِيَّةٌ عَامَّةٌ . وَلَيْسَ يَعْذَرُ قَاتِلُ
وَجْهًا مِنَ الْقَوْلِ فِي تَزْيِينِ الْقَبْعَةِ ، وَلَا مَذْهَبًا مِنَ الرَّأْيِ فِي الْإِحْتِجَاجِ لَهَا ،
عِوَاذَ أَنْ الْمَذَاهِبَ الْعِلْمِيَّةَ لَا يُعْجِزُهَا أَنْ تَقِيْمَ لَكَ الْبُرْهَانَ حَدَلًا مُحَصَّنًا عَلَى
أَنْ حَيَاءَ الْمَرْأَةِ وَعَفَّتْهَا إِنْ هُمَا إِلَّا رَذِيلَتَانِ فِي الْفَنِّ ... وَإِنْ هُمَا إِلَّا مَرَصٌّ
وَضَعْفٌ ، وَإِنْ هُمَا إِلَّا كَيْتٌ وَكَيْتٌ ، تَمُتُّنِي الْفَلَسَفَةُ إِلَى عَدَمِهِمَا مِنَ الْبَلَاهَةِ
وَالْعَمَلَةِ ، وَمَا الْغَفْلَةُ وَالْبَلَاهَةُ إِلَّا أَنْ تَرِيدَ فِلَسَفَةً مِنْ فِلَسَفَاتِ الدُّنْيَا أَنْ
تُقَسِّمَ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ مِتْلًا فَضْلًا فِي ... وَفِي ... فِي الدَّعَاةِ ١

لَا يَهْلُوكُ مَا أَقْرَرْتُ لَكَ مِنْ أَنَّ الْقَبْعَةَ الْأَوْرِيَّةَ عَلَى رَأْسِ الْمُسْلِمِ الْمِصْرِيِّ ،
تَهْتِكُ أَخْلَاقَ أُوسِيَّاسِيٍّ أَوْ دِينِيٍّ أَوْ مِنْ هَذِهِ كُلِّهَا مَعًا ، فَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ الَّذِينَ
لَبَسُوهَا لَمْ يَلْبَسُوهَا إِلَّا مَذْقِرِينَ ، بَعْدَ أَنْ تَهْتَكْتَ الْأَخْلَاقَ الشَّرْقِيَّةَ الْكَرِيمَةَ

وتحمل أكثر عقديها ، وبعد أن قاربت الحرية المعصرية بين التناقض حتى كادت تختلط الحدود اللغوية ؛ غربة المنفعة متلاً تحمل الصادق والكاذب بمعنى واحد ، فلا يقال إلا أنه وجد منفعته فصدق ، ووجد منفعته فكذب ؛ وعند الحرية المعصرية أنه ما فرق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدوداً لإجهل القدماء ، وفضيلة القدماء ، ودين القدماء . وهذه الثلاثة : الجهل والفضيلة والدين ، هي أيضاً في المعجم اللغوي الفلسفي الجديد مترادفات لمعنى واحد ، هو الاستعباد أو الوم أو الخرافة .

ومنى أزيلت الحدود بين المعاني ، كان طبيعياً أن يلتبس شيء بشيء ، وأن يحمل معنى في موضع معنى غيره ، وأصبح الباطل باطلاً بسبب وحقاً بسبب آخر ، فلا يحكم الناس إلا بمجموعة من الأخلاق المنافرة ، تحمل كل حقيقة في الأرض شبه مزورة عند من لا تكون من أهوائه وزعاته ، وبحاج الناس بالضرورة إلى قوة تفصل بينهم فصلاً مسلحاً ، فيكسور القارون بمدنيتهم قوة همجية تططره أن يُعدَّ للوحشية الإنسانية ، وتدفع هذه الوحشية أن تُعدَّ له . ومن احتلاط الحدود تحي القبة على رأس المسلم ، وماهى إلا حد يطمس حداً ، وفكرة تهزم فكرة ، ورذيله تقول لفضيلة هأذى قد جئت فاذهبي ! ما هو الأكبر من شيتين لاحداً بينهما لتعين الصغر ؟ وما هو الأصغر من شيتين لاحداً بينهما لتعين الكبير ؟ إنها القوضى كما يرى مادام الحد لا موضع له في التمييز ولا مقر له في العرف ولا فصل به في العادة ، ومن هنا كان الدين عند أقوام أكثر كلمات الإنسانية في عامة لغاتها وأملها بالمعنى ، وكان عند آخرين أصغرها وأفرغها من المعنى ، وما كثر عند أولئك إلا من أنه يسع الاجتماع الإنساني وهو محدود بغاية العليا ، وما صغر عند هؤلاء إلا بأن الاجتماع لا يسعه فلا حد له ، وكأنه معنى متوهم لا وجود له إلا في أحرف كلمته .

الجماعة القصة لا يرون لأنفسهم حدا يحذونها به من أخلاقنا أو ديننا
أو شريقتنا ، وقد مرّ قوام كل ذلك وأصبحوا لا يرون في زينا الوطنى ما فيه
من قوة السر الخفى الذى يلهمنا ما أودعه التاريخ من قوميتنا ومعاني أسلافنا .
وأنا أعرف أن منا قوما يرى أحدهم في ظن نفسه أنه قانون من قوانين
التطور ؛ فهو فيما يلايسه لا ينظر إلى أنه واحد من الناس ، بل واحد من
النواميس .. ومن هنا الثقل والدعوى الفارغة ، وما هو أكبر من الثقل وفراغ
الدعوى ؛ وإنه لحق أن يكون بعض الناس أنبياء ، ولكن أقيح ما في الباطل
أن يظن كل إنسان نفسه نبيا .

واعلم أن كثيرا من بزينونه للشرقى من رذائل المدنية الاوربية ، إن هو
إلا منطلق شهوات في جملته ، ولقد تسمع الجائع يتكلم عن الطعام ، فترى
كلاما تحته معان ومعان لا يعدها غير الجائع إلا حماقة ساعها ...

سعد زغلول

وقال صاحب سر^(م) باشا : ألقى إلى الباشا ذات يوم أن (سعداً) مُصِيبُنا زائراً^(١) وكانت بين الرجلين غاصّة وأسبابٌ وطيدة ؛ وللباشا موقعٌ أعرفه من نفس سعد كما أعرف الشّعلة في بركانها ؛ أما سعدٌ فكان قد انتهى إلى النهاية التي جعلته رجلاً ، في إحدى يديه السّحرُ وفي الأخرى المعجزة ، فهو من عظماء هذه البلاد كقاموس اللغة من كلمات اللغة : رُذُّ كُلِّ مُفَرِّدٍ إليه في تعريفه ، ولا تصح الكلمة عند أحدٍ إلا إذا كانت فيه الشّهادة على صحتها . وجاءنا سعدٌ غُدُوَّةً ، فأسرعتُ إلى تقبيل يده قبلّة لا تشبهها القُبَلات ، إذ مُثِّلْتُ لى من فرحها كأنها كانت منفية ورجعت إلى وطها العزيز حين وُضِعَتْ على تلك اليد .

إن الرجل العظيم إذا كان ماراً بأبيه عارفاً قدره مُدركاً عظمه ، يشعر حين يقبل يدَ أبيه كأنه يسجدُ بروحه بحمدِ الله على تلك اليد التي يقلها ، ويحد في نفسه اتصالاً كهراثيا بين قلبه وبين سرِّ وجوده ، ويخصّه العالمُ بلبسةٍ كأن قبْلته نبضت في الكون ؛ وكل هذا قد أحسسته أنا في تقبيل يدِ سعد ، وزدت عليه شعورى بمثل المعنى الذي يكون في نفس البطل حين يقبل سيفه المنتصر . وضحك لى سعد باشا ضحكته المعروفة ، التي يبدأها فمُه ، وتتمها عيناه ، ويشرحها وجهه كُلُّه ، فتجد جواربها في روحك كأنه في روحك ألقاها

والرجلُ من الناس إذا نظر إلى سعد وهو يتبسّم ، رأى له انتسامه كأنها

(١) يقال صحه (بقتديد الباء) . أى جاءه صباحاً .

كأن يتواضع ، فيُحس كأن شيئاً غير طبيعي يتصل منه بشئ طبيعي ، فيلتعش ويثبُ في وجوده الروحي وبئةً عالية تكون فرحاً أو طرباً أو إعجاباً أو خشوعاً أو كلها معاً ؛ غير أن الرجل من الحكاء إذا تأمل وحة سعد وهو يضحك ضحكته المطمئنة المتمكنة من معناها المقر أو المنكر أو الساخر أو أى المعاني - حسب نفسه يرى شكلاً من القول لا من الضحك ، وظهرت له تلك الآتسامة الفلسفية متكلمة ، كأنها مرة تقول : هذا حقيقى ، ومرة تقول : هذا غير حقيقى .

إن سعداً العظيم كان رجلاً ما نظر إليه وطنى إلا بعين فيها دلائل أحلامها ، كأنما هو شخص فكرة لا شخص إنسان ؛ فإذا أنت رأيتَه كان فى فكرك قبل أن يكون فى نظرك . فانت تشهده سظرين : أحدهما هذا الذى تُبصرُ به ، والآخر ذاك الذى تؤمنُ به

عقرى كالحرة الملتبة لا تحسه يعيش بل يحترق ويحرق ؛ نثر كالزلزلة هو أبداً يرمج وهو أبداً يُرج ما حوله : صريح كصراحة الرسل ، تلك التى معناها أن الاخلاق تتول كلمتها .

رجلُ الشعب الذى يُحس كل مصرى أنه يملك فيه ملكاً من المجد ؛ وقد بلغ فى بعض مواضعه مبلغ الشرعة ، فاستطاع أن يقول للناس : ضعوا هذا المعنى فى الحياة ، وانزعوا هذا المعنى من الحياة .

قال صاحب السر : وافقضت الزبارة وخرج سعد والباشا إلى يساره ، فلما رجع من وداعه قال لى : والله يا بى لكأما راد هذا الرجل فى ألقاب الدولة لقماً جديداً ؛ ثم ضحك وقال : أندرى ما هو هذا اللقب ؟ قلت : فها هو يا باشا ؟ قال : والله يا بى مام (شام) فى هذه الدولة يكون إلى جانب سعد إلا وهو يشعر أن رتبته (نصف باشا) ...

هذا رجل قد بلغ من العظمة مبلغاً تصاغر معه الكبير ، وتضائل العظيم وتقاصر الشاخص ؛ نعم وحتى ترك قوماً من خصومه العظام ، كفلان وفلان ، وإن الواحد منهم ليلوح للشعب من فراغه وضعفه وتطرحه كأنه ظل رجل لا رجل .

وقد أصبح قوة عاملة لا بد من فعلها في كل حيّ تحت هذا الأفق ، حتى كأن معاني نفسه الكبيرة تنتشر في الهواء على الناس ، فهو قوة مرسلّة لا تمسك ، ماضية لا تُردّ ، مقدورة لا يُحتال لها بحيلة .

هذا وضع إلهي خاص لا يشبهه أحد في هذه الأمة ، كبدان الحرب لا تشبهه الأمكنة الأخرى ؛ فقد عاصر سعد في الثورة العربية ، وخرج منها ولكنها هي لم تخرج منه ، بل بقيت فيه ؛ بقيت فيه تتعلم القانون والسياسة ، وتُصلح أغلاطها ، ثم ظهرت منه في شكلها القانوني الدقيق ؛ وهذا تراه يغمّر الرحال مهما كانوا أذكى ، لأن فيه ما ليس فيهم ؛ وتراهم يظهرون إلى حانه أشياء ثائرة في معانيها ، أما هو فتراهم من جمع نواحيه يتلاطم كالأمواج العاتية . وتلك الثورة هي التي تتكلم في فم أحياناً فتجعل لبعض كلماته قوة كقوة النصر ، وشهرة كشهرة موقعة حربية مدكوره .

ولما كان هو المختار ليكون أباً للثورة ، حرمة القدرة الإلهية للنسل . وصرفت زعّة الأنوة فيه إلا أعماله التاريخية ، ففيها عابته وقلبه وهوموه ، وهي نسل حتى من روحه العظيمة ، ويكاد معها يكون أسداً يزأر حول أتباله . ولما يذكر السياسيون المصريون مع سعد ، ولم يذكر سعد نفسه إذا انقلب سياسياً ، فإن المكان الحالي في الطبيعة الآن هو مكان رجل المقاومة لا رجل السياسة ، وهذا هو السبب في أن سعداً يشعر الأمة بوجوده لذة كلفة الغور والآتصار ، وإن لم يبرز شيء ولم يتصر على شيء ؛ فاطمئنان الشعب إلى

زعيم المقاومة ، هو بطبيعته كاطمئنان حامل السلاح إلى سلاحه .
وسعد وحده هو الذى أفلح فى أن يكون أستاذ المقاومة لهذه الأمة ؛
فنسخ قوانينه ، وأوجد قوانينه ، وحل الشعب على الإعجاب بأعماله العظيمة ،
فتبّه فيه قوة الإحساس بالعظمة ، فجعله عظيماً ؛ وصرفه بالمعاني الكبيرة عن
الصغار ، فدفعه إلى طريق مستقبله يُبدع إبداعه فيه .

إن هذا الشرق لا يحيا بالسياسة ولكن بالمقاومة ، مادام ذلك الغرب
بإزائه ؛ والفريسة لا تتخلص من الحلق الوحش إلا باعتراض عظامها الصلبة
القوية فى هذا الحلق .

وكم فى الشرق من سياسى كبير يحملوه وزيراً فتكون الوظيفة هى الوزير
لأنفس الوزير ، حتى لو جعلوا ثيابه على خشبة ونصبوها فى كرسیه ، لكانت
أكثر نفعاً منه للأمة ، بأنها أقل شراً منه ...

بابنى ، كل الناس يرضون أن يتمتعوا بالمال والجاه والسيادة والحكم .
فليست هذه هى مشكلة الشرق ، ولكن المسئلة : مَنْ هو النبی السياسى الذى
يرضى أن يُصلب ؟ ..

حماسة الشعب

وحدثني صاحبُ سر (م) باشا قال : لما رجع سعد باشا من أوروبا في سنة ١٩٢١ ، كانت الأمة في استقباله كأنها طائر مدّ جناحيه ، لا خلافَ شيء منه على شيء منه ، بل كلّهُ هو كلّهُ ؛ وكانت المعارضةُ في الاستقباله يومئذٍ كاستحالة وجود رُقعة في ريش الطائر .

على أن توبّ السياسة المصرية كبرُ الرُّقع دائماً الجديد والخلو ، فرقة من المعارضين ، وأخرى من المتعنتين ، وتآله من المحاذلين ، ورابعة من المعادين ، وخامسة وسادسة وسابعة من الحاسدين والمتافسين والمختلفين لشهوة الخلاف ؛ ورقاعٌ بعد ذلك مما لم وما لا نعلم . فإن من العجيب أن هذا الجوال الذي لا يتقلب إلا بطيئاً يتقلب أهله بسرعة ؛ وهذه الطبيعة التي لا تكاد تختلف ، لا يكاد أهلها يتفقون .

ولكن سعداً (رحمه الله) رجع من أوروبا رجعة الكرامة لأمة كامله ، فجاز بأنه لم يخسر شيئاً من الحق ، وانصر بأنه لم يُهزم ، ودل على بآته بأنه لم يترعرع ، وذهب صولةً ورجع صولةً وعزيمة ، فكان إيمانُ الشعب هو الذي يتلناه ؛ وكانت الثورةُ هي التي تحتفل به ، وبطلت العللُ كلها لم يجدوا إلا غراضُ شيئاً يعترض عليه واتفقت الأسبابُ واجتمعت الكلمة ، وظهر سعد كأنه روحُ الأمة متمثلاً في قدرة ؛ حاكماً بقوة ؛ متسلطاً بيقين .

نعم لم يتنصر البطلُ ، ولكن الأمة اجمعت به لأنه يمثلُ فيها كلاً من روحٍ آخر هو سرُّ الاتصاف ؛ وكانت حماة الشعب في ذلك اليوم حماة المبدأ

المتمكن : يُظهر شجاعة الحياة ، وقوة العزائم ، وفضيلة الإخلاص ، وشدة الصولة ، وعناد التصميم ؛ ويثبت بقوة ظاهريه قوة باطنه ، وكان فرح الأمة عناداً سياسياً يفرح بأنه لا يزال قويا لم يضعف ، وكان ابتهاجها مجداً يشعر بأنه لا يزال واهراً لم يُدْتَقَصْ . وكان الإجماع رداً على اليأس ، وكانت الحاسة رداً على الضعف

انبعثت صولة الحياة في الشعب كله ، وابتدأ المستقبل من يومئذ ، فلوزلت الملائكة من السماء في سحابة مُجَلِّجَةٍ يُسْمَعُ تسييحهم ليؤيدوا سعداً . لما زادوه شيئاً ؛ فقد كان محله من القلوب كأنه العقيدة ، وكان التصديق مبدولاً له كأنه الكلمة الأخيرة ، وكانت الطاعة موقوفة عليه كأنه الباحث الطبيعي ، وكان البطل في كل ذلك يشبه نبيا من قِل أن كلا منهما صورة كاملة للسمو في أفكار أمة .

قال صاحب السر : ورجع الباشا من القاهرة وقد رأى ما رأى من مساحنة النفوس . وصحة العهد ، واجتماع الكلمة وإعداد الشعب للبراس والمعاناة ، فقال : تافقه لقد أثبت (سعد) للديا كلها أن مصر الجارة متى شامت بلى الرجال على طريقة الحرم الأكبر في العظمة والتهرة والمزلة والقوة ؛ ولقد صنع هذا الرجل العظيم ما صنع حرب كبيرة : فجعم الأمة كلها على معنى واحد لا يتناقص ، ودفعها روح هوية واحدة لا تختلف ، وحل عرق السياسة يفور كما يفور العرق المجروح بالدم .

إن هذه الأمة خير شيتين لا ثالث لهما : إما الخزم إلى الآخر وإما الإضاعة . ولا حرم إلا أن يبقى الشعب كما ظهر اليرم : طوطا حيا ، مُسْتَوِي الطبيعة ، مندمع الحركة ، غامراً أكلى ما به ترضه . إلى أن يُعْطَى الأمر ويهول أعداؤه : ناسما أقلعي !

هكذا يعمل الوطنُ مع أهله كأنه شخصٌ حيٌّ بينهم ، حين يستوى الجميع في الثقة ، ويتآزر الجميع في الأمل ، ويشترك الجميع في العطف الروحي ، ولا يبقِ لجماعة منهم حظٌّ في رغبة غير الرغبة الواحدة للجميع ؛ وهكذا يعمل الوطن بأهله حين يعمل مع أهله .

كان أعداؤنا يحسبونا ذباباً سياسياً لا شأنَ له إلا بفَصَلات السياسة ، ولا عملَ له في أزهارها وأثمارها وعِطْرها وحُلُوها ؛ فأسمعهم الشعبُ اليوم طنينَ الحبل ، وأراهم إمرَ النحل ، ليعلموا أن الأزهارَ والأثمارَ والعطرَ والحلوى هي له بالطبيعة .

وكأنا يتخزون أن مذهبنا في الحياة لمصلحة المعاش فقط ، وأن المصريَّ حاكماً أو محكوماً لا يمدُّ آماله الوطنية إلى أبعدَ من مدة عمره سبعين أو ثمانين سنة ، فإذا أطلقوا أيدياً في حاصر الآلة أطلقنا أيديهم في مستقبلها ، ومن ثم طمعوا أن يكون الحقُّ الناقصُ في نفسه حقاً تاماً في أنفسنا لهذه العلة ؛ وحسبوا أن السياسيَّ المصريَّ لا يتجرأ أن يقول ما يقوله السياسيُّ الأوربي : من أنه لا يخشى الموتَ ولكنه يخشى العار ، فإنه إذا مات مات وحده ، وإذا جلب العار جلبه على نفسه وعلى أمته وعلى تاريخ أمته ؛ بيدَ أن سعداً قالها ، وفي مثل هذا قد يكون قول (لا) معركة .

وها هي ذى معركة اليوم التاريخية ، فإن الدِّزاتِ الحية التي تُنْخَلَق من دماننا نحن المصريين قد ثارت في هذه السماء ، في هذا النهار ، تعلن أنها لا ترضى أن تولدَ مقيّدة بقيود .

أتدري ماذا عرضوا على سعد ؟ لهم عرضوا عليه ما يشبه في السحرية طاحونة تامة الأدوات والآلات من آخر طرار ، ثم لا تُفَدِّم لها إلا حبة قمح واحدة اطحنتها .. نتيجة دمر من أربابها ، وأصابع هزأ بالنتيجة .

إن أوروبا لا تحترم إلا من يحملها على احترامه ، فما أرى للسياسيين في هذا الشرق عملاً أفضل ولا أقوى ولا أَرْدُ بالفائدة من إحياء الحماسة في كل شعب شرقي ، ثم حياتها وحسن توجيهها ؛ فهذه الحماسة الشعبية الدائمة القوية البصيرة ، هي قوة الرفض لما يجب أن يرفض ، وقوة التأيد لما يجب أن يُقبل ، وهي بعد ذلك وسيلة جمع الأمر ، وإحكام الشان ، وإقرار العزيمة في الاخلاق ، وتربية الثقة بالنفس ، وبها يكون إذكاء الحس وتمويده إدراك الأعمال العظيمة ، والتحمس لها ، والبذل فيها .

وماعلة الملل فينا إلا ضعف الحماسة الشعبية في الشرق وسوء تديرها وقبح سياستها ؛ ولما لناخذ عن الأوروبيين من نظامهم وأساليبهم وسياستهم وعلومهم وفوسهم ؛ فنأخذ كل ذلك بروحنا العاترة في خمول وإهمال وتواكل وتفرّد بالمصلحة وأسبّداد بالرأى ، فإذا دينارهم في أيدينا درهم ، وإذا نحن وإياهم في الشيء الواحد كالنحلة والذبابة على زهرة ..

ليست لنا حماسة الحياة ، وهذا تختلف أعمالنا وأعمالهم ، وذلك هو السرُّ أيضاً في أن أكثر حماسنا كلامية مخمّنة ، إذ يكون الصراخ والصياح والتشدّد ونحوها من هذه المظاهر الفارعة - تنقيحاً للطبيعة الساكنة فينا ، وتنويعاً منها بغير أن نجهّد في التنقيح والتنويع ؛ ومن هذا كانت لنا أنواع من الكلام ينطلق اللسان فيها للخروج من الصمت لا غير .. ومنه كثير من هذا الهراء السياسي الذي يدور في المجالس والأحزاب والصحف .

إن حماسة الشعب لا تكون على أعدائه فقط ؛ بل على معاييه أيضاً وعلى ضعفه محاسبة ، والشعبُ الغائر في حماسه لو نال حقين منصوبين لعاد مخير أحدهما أو كليهما . أما الشعب المتحمس القوي في حماسه ، فلو غُصّبَ حقين وبال أحدهما لعاد فابتر الآخر .

الجمهور

وقال صاحب سر (م) باشا : كان من بعض على في الحكومة سنة ١٩٢٢ أن أراقب الحركات والسكنات ، وأنت العيون والأرصاد ، وأعرف المضطرب والمنقلب في أيام الفن ونوازل المحبة ، محافظة على الأمن ، ومبادرة لما يتوقع ، فكنت كالمُرصد المهيأ بالآلة لتدوين حركات الزلازل .

وانتهى إلينا يوماً أن واجفة من هذه الزلازل سترجف بفلان من أهل الرأي الحر؛ الذي يستقل ولا يتابع ، ويتقد ولا يحاى ، ويصرح ولا يُختمج . وأن قوماً ثوروا عليه القبار الأدمى من العاقبة وأشياء العاقبة ، وأهم يتحينون الوقت لتوجيه المكيدة له في شكلها المفترس من هذا الجمهور الناقم . أما فلان هذا فرجلٌ سياسىٌ عنيد أضاع الحق كله لأنه لا يرمى بنصف الحق ... وكلته في السياسة كأعما تُلقي على لسانه سر الغيب ؛ فلا يتحول عنها ولا يملك أن يتكلم إلا بما يتكلم ؛ وقد ذهب بصونه أنه في قوم لا يسمعون إلا ما أرادوا ، فهو بينهم كالخفق المغلوب : لا يموت لأنه غير ماطل ، ثم لا يحيا لأنه لا ينتصر . وقد كان رجلاً كالمصاح الوهاج ألقوا عليه الغطاء ، فإذا هو في طبيعته ويدو لباس بغير طعمه ، وتركه رأيه الحر الصريح كالنبي المكذب برؤ عليه صدقه ؛ لا لأنه غير صدق ، ولكن لأنه غير مستطاع ، أو غير ملائم .

ومن آفاتنا نحن الشرقيين أننا نستمرى العداوة ، وننادى لأسبابها ، وتطاول لها تطاول الصغار بأنفسهم لما في أنفسهم : كأن المستبدن الذين كانوا في تاريخنا قد انتقلوا إلى طائفتنا ؛ مرّذ الفكر تجلي الفكر في منافسة

تجرى - لا يكون من دَفَع الحقيقة للحقيقة . ولكن من رد الاستبداد على الاستبداد ، ومن توثب الطغيان على الطغيان ؛ فهو التَّلَبُّ والطنُّ والنَّجِيعُ ، وهو الجَفْوَةُ والخصومةُ واللَّدَدُ ، وهو المنازعةُ والعنفُ والتحاملُ ؛ وهو بهذه وتلك شرٌّ وفسادٌ وسقوط . والجدالُ بين العقلاء يبحثُ الفكرَ فينتهى إلى الحقِّ ، ولكنه فينا يحسَّ يهيجُ الخُلُقَ فينتهى إلى الشرِّ ، والرُّدُّ على عظيمٍ ما كُله يردُّ على مرلته في الناس لا على مرلته في الرأى ، وكشفُ الخطأ عندنا تعبيرٌ بالخطأ لا تبصيرٌ بالصواب ، واستيلاءُ الحقِّ من صاحبها وإفسادها عليه كاستيلاء الملك من مالكه وطرده منه ..

ومن تَمَّ كن الدِّفاع بالمكابرة أصلاً من أصول الطبيعة فينا ، وكان الاضطهادُ حجةً للحجة الماحزة ، وكان الإعتاتُ دليلاً للدليل الذى لا ينهضُ بنفسه . ومتى اعتدركلُّ إنسانٍ نفسه إمبراطوراً على الحقِّ ... فلا جرمَ لآرثُ كلمةً على كلمة إلا يحرب

قال صاحبُ السرِّ : رَكُزْ الأمرُ على الباشا ، لجمع رموس المؤمنين بذلك الرجلِ الحرِّ وأخذ يقلِّبهم تعليليه بين التودُّد والملاطفة : وقال لم فيما قال : إن فضيلة الجمهورى التى تضمن تربية الفضيلة وحفظها وغلبتها على الرذائل ، وإن كلُّ صحيح يكون فاسداً إذا لم يكن الجمهورُ صحيحاً ، وإن غيرَ العقلاء هم الذين يقبلون الحقيقة فى يرم تم يرفضونها هى ذاتها فى يوم آخر ، فإن ذهبت تجداهم وتحتجُّ عليهم بأبهم قولوها ، قالوا : هذا كان أمس ... فكأما العاصِلُ بين زمنين يجعل الشيء الواحدَ ضدَّين .

ثم سألهم ما هو دُبُّ الرجل ؟ فقال منهم قائل : إنه خارجٌ علينا فى الرأى . وقال الباشا : إن الممىء ، أنه يخالفكم هو أنكم أنتم تخالفونه ، فقد تكافأت

التاجيتان وخلافٌ بخلاف؛ فما الذى جعل لكم حقَّ رده عن رأى دون أن يكون له مثلُ هذا الحق في ردكم أنتم ؟

قالوا : إنا الكثرة . قال الباشا : يا أصدقائي ، إن خوفَ الكثرة من رأى فرد أو أفراد هو أسوأُ المغنَّين في تفسير رأيا هي ؛ وعشرةُ جنهات لا تعباً بالجنيه الواحد ، فإنها تستغفره ؛ يَبْدَ أن هذه ليست حالَ عشرة قروش يا أصدقائي ...

نعم إن قطعَ الخلاف ضرورةً من ضرورات الوطنية ، ولكن إذا كان الأمر في ظاهره وباطنه كالخلاف في أيهما أطولُ : العصا أو المِثدنة ... ؟ فذلك جدال محسومٌ من نفسه بلا جدال .

إن أساسَ اخذنا عن الشرقيين في قلوبنا ، إذ لا نعتبر المعاني العامة إلا من جهة أنها قائمةٌ بالرجال ، ثم لا نعتبر الرجالَ إلا من ناحية ما في أنفسنا منهم ، ثم لا نعتبر أنفسنا إلا من جهة ما يُرضينا أو يفضبنا ، وقد لا يفضبنا إلا الحقُّ والجِدُّ ، وقد لا يرضينا إلا الباطلُ والهاوِسُ ، ولكننا لا نبالي إلا ما نرضى وما نفضب .

لستم أحراراً في أن تعملوا غيركم غيرَ حر ، فإن يكن الرأى الذى يعارضكم رأياً حقاً وتركتم مُنابذته فقد نصرتم الحق ؛ وإن يكن باطلاً فإظهاره باطلاً هو برهانُ الحق الذى أنتم عليه ؛ ولن تجرّدوا أحداً من اختيار الرأى إلا إذا تجرّدتم أنتم من اختيار العدل ، فإن فعلتم فهذه كبرياء ظالمة ، تدعى أنها الحق ، ثم تدعى لنفسها حكمة ، فقد كذبت مرتين .

اسمعوا أيها السادة : قامت بين اثنين من فلاسفة الرأى مناظرة في صحيفة من الصحف ، وتساجلان في مقالات عدّة ، فلما عجزا ضعفهما حجةً وكّعهما الجدال ، كتب مقالته الأخيرة فجاءت سقيمةً ، فلم ترضه ، فبيّنها ونام عنها على أن يرسلها

من الغداة بعد أن يُردد نظره فيها ويصحح آراءه بالحجج التي يُفتح بها عليه . قالوا : فلما نام تمثّلت له المقالة في أحلامه جسماً حياً موهوباً مترصداً مخلوعاً من هنا مكسوراً من هناك مجروحاً مما بينهما ؛ ثم كَلَمَتْه فقالت له : ويحك أيها الأبله ! إن أردت أن تغلب صاحبك وتُسكّته عنك ، فاحلّ مقاتلك إلى رأسه في العصا لافي الجريدة ...

قال صاحب السر : وضحك القوم جميعاً ، وأذعنوا وأقصر فوا مقتعين ، قد خَلَصَتْ دِخْلَتُهُمْ لذلك الرجل الحر ، وتصلّوا من جريمة كانت في أيديهم ؛ وما جاء الباشا مُعْجِزٍ من القول ، ولكنَّ تصوّره للسألة كان حلاً لها في نفوسهم ، فلما أدبروا تنفّس الباشا كأما خرج من البحر وكان يتعاطى إنقاذ غريق ويُمانى فيه حتى يحيا ؛ ثم قال لي : إن هذا كان جواباً عن شيء في أنفسهم ، ولكنه هو سؤال عن شيء في أنفسنا : ما الذي يجعل الناس عندنا يخشون المعارضة في الرأي الوطنى حتى إنهم ليجازون عليها بهذه العقوبة الشعبية المنكرة ؟ وما بالهم لا يعطون الرأي حكمه وحقيقته ، بل يعطونه من حكم أنفسهم وحقائقها وشبهاتها المتقلبة ، حتى لترجع الفروق الضعيفة المتجانسة في أثناء الوطن الواحد وكأهم الخلاف والمباينة فروقٌ حسيّةٌ كالتى تكون بين إنسان من أمة ، وإنسان من أمة أخرى تعادياها ؟ قلت : إن رأى السكرة قانون يا باشا .

قال : هذا صحيح ، ولكن بشرطين لا شرط واحد ، الأول : ألا يخرج الرأي على القانون ، والثاني : ألا تكون الحقيقة في الرأي الذى يناقضه ؛ ومحاولة إكراه المعارضة نقض الشرطين معاً ؛ ثم إن أساس الوطنية سلامة القلوب وصفاء النيات ، وأستواء المواقف والمخالف في هذا الحكم ، ومعنى وقع

الخلاف بين آئينين وكانت النية صادقة مُخْلِصَةً ، لم يكن اختلافاً فهما إلا من تنوع الرأي ، وأنتهيا إلى الاتفاق بغلبة أقوى الرأيين ، ما من ذلك بد .

الحقيقة يابى أن الجماهير الشرقية ليست في تريبتها من الجماهير السياسية التي يُعتدُّ بها ، إذ لا تزال في أول عمرها السياسي ، وبهذا السبب وحده كان اختلاف الكبراء في السياسة لا يشبه إلا نزاع الخصمين بغير شهود ولا قاصٍ نافذ الحكم ، فهو نزاع قوة تفوز بوسائلها ، لا نزاع حقٍ تستلبي بأدلة .

وهذه المجالس النيابية الشرقية كلها صورٌ ممثلة حاقّة ، منقطعة النماء من أسباطها كالفرع المقطوع من الشجرة ، وإما ينفضرُ الفرعُ ويُثيرُ أمثاله إذا قام بشجرته لا نفسه ، وما شجرةُ الفرع السياسي إلا الجمهورُ السياسي .

فسييلُ الإصلاح في كل مملكة شرقية أن يهض أهلُ الرأي من كل مدينة فيها بين عالم وأديب وحمام وسرّي ، ومن كان سبيل من هؤلاء ، فيحملوا لمدينتهم دَارَ نذوة للأجتماع والبحث والمشورة ، وقول (نعم) بالحلجة وقول (لا) بالحلجة ؛ ثم يملنون ذلك في جمهورهم ويزلون منه منزلة الأسناذ والآب والصديق في تعليمه وهدايته وإرشاده ؛ وتتصل هذه الدورُ في كل مملكة بعضها ببعض ، وتنتهي بالمجالس النيابية ؛ وبغير ذلك لا يُملأ الفراغ الذي زاه حاوياً بين الشعب والحكومة ، وبين الكبراء والجماهير ؛ وإما أكثرُ مصائبنا من هذا الفراغ ؛ فهو الذي يَضِيع فيه ما يَضِيع فيه ، ويخفى ما يخفى .

منا قومٌ موظفون في الحكومة ؛ ولكن ابن القوم الذين تكون الحكومة نفسها موظفةً عندهم ؟

• • •

(اعتذار) : هذا المقال أنتهت أحاديث الباشا ، فقد أنأنا صاحب السر أنه سيكتبكم السر

المجنون

جاء يمشى هادئاً يتخيل في مشيته ، يرتجف بين الخطوة والخطوة كأنه من
كبره يشعر أن الأرض مُدركة أنه يمشى فوقها ... ولا يتقلُّ قدمه إذا خطاً
حتى ينهض رأسه يُحرّكه إلى أعلى . فما تدرى أهو يريد أن يطمئن إلى أن
رأسه معه ... أم يُخيّل إليه أن هذا الرأس العظيم قد وُضع على جسمه في
موضع راية الدولة . فهو يهزُّه هزَّ الراية ؟ ...

وأخذته عيني وليس بيني وبينه إلا طولُ غرفةٍ وعرضها ، فإذا هو زائغُ
البصر كأنما وقع في صحراءٍ يقلُّبُ عينه في جهاتها متحيراً متردداً ، ثم كأنما
رُفِعَ له في أنصافها جبلٌ فأخذ إلى ماحيته ...

ورحّلتُ به ، وأحلسته إلى جانبي ، فأخذ يستعرِفُ إلى بذكر اسمه
وجماعيته وبلده ، لا يزيد على ذلك شيئاً ، كأنه عنتره بنى عيسى : لأرضه من
طبيعتها جغرافياً ، ومن اسمه جغرافياً على حدة ... فلما رآني لا أنبئه معرفةً
قال : إن بك نسياناً .

قلت : وكثيراً ما أنسى ، غير أن اسمك ليس من هذه الأسماء التي
تذكرُ بتاريخ .

قال : هذه علقةُ الجرائد ... ومهما تلس من شيء فلا تلس أنك أستاذُ
« نامة القرن العشرين »^(١) ...

مسرّحتُ فيه نظري ، فإذا أما مجنون ظريف أمرّد أهيّف ، يكاد وعاءه

(*) انظر حديث هذا المخنون وخبره ص ٢٩٩ - ٣٠٠ . حياة الرافعي ،

(١) هذا الساب المخنون من الأدكياء ، وكان قد انتهى إلى مدرسة المعلمين الأولية
ثم حوّل في عقله فتركها ، وكل ما يمر في هذا المقال بين قوسين فهو بنصه من كلامه .

وتفككه لا يكون رجلاً ، ويكاد يبدو امرأةً بجمال عييه وفنورهما .
وتوسمتُ فإذا وجهٌ ساكنٌ منبسطٌ الأساريرِ ممسوحُ المعاني ، يلبّي بانقطاع
صاحبه بما حوله ، كأن دنياه ليست دنيا الناس ، ولكنها دنيا رأيه ...
وتأملتُ فإذا طفولةٌ متبلّدةٌ قد ثبتت في هذا الوجه لتُخرِجَ من بين الرجلِ
والطفلِ مجنوناً لاهو طفلٌ ولا رجل .
وتفرستُ فإذا آثارُ معركةٍ باديةٍ في هذه الصّفحة ، قتلاها أفكارُ
المسكينِ وعواطفه .

وتبيّنتُ فإذا رجلٌ مُستزخ ، مُتفترُّ البدن ، خائرُ النفس ، كأنه قائم
لِتَوْهٍ من النوم فلا تزال في عينه سِنَةٌ ، وكأنه يتكلم من بقايا حُلُمٍ كان يراه ...
وُحِيلَ إلى من هذا الحُمولِ في هذا الشاب ، أن عليه جوراً من تناوذه ،
وأن المكانَ كلّه يتأهبُ ، فتأهب . .

فلما رأى ذلك مني ضحك وقال : إن « بابتة القرن العشرين » رجل مفناطيسي
عظيم ؛ فهاهو ذا قد ألقي عليك النوم .. وحسبك شقراً أن تكون أستاذَه
وأعاه وثقتَه ، « فليس على ظهرها اليوم أدبٌ غيري وغيرك ... »
قلتُ في نفسي : إنّا لله ! ما يعتقد الرجلُ أن على ظهرها مجنوناً غيره وغيري ؛
وكأنما أُلِّمَ بذلك فقال : لستُ مجنوناً ؛ ولكني كنتُ في البيارستان ...
قلت : أهو البيارستان الذي يسمّى مستشفى المجاذيب ؟
قال : لا ؛ إن هذا الذي تسميه أنت ، هو هو مستشفى المجاذيب ؛ أما الذي
سميته أنا هو مستشفى فقط .

وذكرتُ عندئذٍ أن من المجانين قوما ظرفاء يدخلهم الفساد في عقولهم من
ناحية فِكْرةٍ ملازمة لا تَنَرَحُ ، فلا يكون جنونهم جنوناً إلا من هذا الوجه ،

وسائر أحوالهم كأحوال العقلاء ، غير أنهم بذلك طيَّاشون متقلِّبون ، إذا ازدَّجَّ أحدهم لم يُعطِّفه النَّاسُ من زَهْوِهِ وكُريَانِهِ وتَنَطُّعِهِ ، كأنَّهُ واحدٌ الدُّنيا في هذه الصِّكْرَةِ ، وكأنَّ بينَهُ وبينَ الله أسراراً ؛ ويظنُّ عندَ نفسه أَنَّهُ أعقلُ النَّاسِ في أرقِّ طبقاتِ عقله ؛ وما جنونه إلَّا في هذه الطبقة وحدها .

ومثُلُ هذا لا بدَّ لَهُ من يستجيبُ لهُذْيَانِهِ كَمَا يَحْزُكُ فِيهِ خَفَّتَهُ وطِيشَهُ وزَهْوَهُ ، وليَكُونَ عنده الشَّاهدُ على هذا الوجود الخيالي المُبَدَّع الَّذِي لَا يَوجِدُ إلَّا في عقله المختلِّ ، فإذا هرَّ ظمِرُ من يُحَاسِنُهُ ، أو يَصَانِعُهُ ، أو يَجَارِيهِ ، حَسِبَهُ مُذْعِنًا مؤمناً مصدِّقاً ؛ فَلَا يَدَّعُهُ من بعدها ويتعلَّقُ بِهِ أَشَدَّ التَّعَلُّقِ ، ويرَاهُ كأنَّهُ في ملكِهِ ... فيَنخِذُهُ صَيًّا وهرَّ يَعْنِدُ أَنَّهُ رقيقٌ ؛ وقد يَزْعُمُهُ أَسَاذُهُ لِيُفْهِمَهُ من ذلك بحسبِ عَقْلِهِ ... أَنَّهُ تَلِيدُهُ .

وخشيتُ أن يكونَ (نَابِغَةُ النَّوْرِ العَشْرِينَ) لم يُسَمِّ أستاذَهُ إلَّا بحسَابٍ من هذا الحِسَابِ ، فهو سَيُعْطِي الأستاذِيَّةَ حَقَّهَا ، ولكن كما هو حَقُّهَا في لغة جنونه . فَأَصْبَحَ في رَأْيِهِ تَلِيدُهُ وصَلْبَتُهُ ، وعَدَتْ هُذْيَانُهُ ، وثَقَّتْهُ وملْجَأُهُ والمَحَامِي من ورائِهِ .

قلت في نفسي : إذا أَنَا زَكَّيْتُ حَالاً كَانَ هذا المجلسُ مَثَابَتَهُ من بَعْدُ فلا يَعْرِفُ لَهُ عَلاَ غَيْرِهِ . وَيَصْبَحُ كَمَا يَقَالُ في تَعْمِيرِ القَانُونِ «مَحَلُّهُ المَخْتَارُ» ، فَيَسْطَرُّ إلَى لِسْبٍ وَلَعِيرٍ سَبَبٍ ، وَيَقَعُ في أَرْقَانِي وَقَوَعَ السَّهْوُ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ ، وَيَضِيعُ فِيهِ مَا يَضِيعُ ؛ فَاجْمَعْتُ أَنِ أَصْرِفَهُ رَاضِياً بِالْيَأْسِ وَقَدِ انْتَهتْ نَفْسُهُ من مَعْرِفَتِي ، وَانْتَهَى عَقْلُهُ إلَى الرَّأْيِ أَنِّي لَا أَصْلَحُ لَهُ أَسْتَاداً ، لَا بحِسَابِهِ هُوَ وَلَا بحِسَابِ النَّاسِ .

فقلت لَهُ : ظَنِّي بِكَ أَنَّكَ أستاذُ نَفْسِكَ وَلَا يَحْسُ بُنَابِغَةُ القَرْنِ العَشْرِينَ أَن يَكُونَ لَهُ في القَرْنِ العَشْرِينَ أستاذٌ ؛ وَأَرَاكَ قَدْ فَرَّغْتَ لِلْأَدَبِ أَمَامَا (٣٣) وَنَسِيَ القَلَمَ (٢)

لفعلول بأعمال وظيفتي ، وقد جاء من العمل ما تراه ، وتكاد لا تقي به الساعاتُ
الباقية من الوقت و ...

فقطع عليّ وقال : إن الوقت ليس في الساعة ؛ والدليل أني أعطيتها فيتعطلُ
الوقت ، ولا يكون فيها يومٌ ولا ساعة ولا ثانية ولا دقيقة .

فقلت : ولكنك إذا عطلتها لم تتعطل الشمسُ التي تعينُ منازلَ النهار ،
فسيمرُّ الظهرُ ويحينُ العصرُ و ...

قال : ويأتى غد ، وإما أنا معك اليوم فقط ... ويجب أن تغتبط بأنك
أستاذ (نايبة القرن العشرين) ، فقد قرأتُ الكثير في الأدب وقرأتك ، فما
كان لي رأيٌ إلا رأيته لك ... ولا صحّت عندي نظرية إلا رأيتك قد أبديتها ،
وأنا لا أعتقد أدبا في مصر إلا ما توافينا عليه معاً « ولا أسلم جدلاً ، ولا جدلاً
أسلم أن في مصرَ أدباء يتلون مني شيئاً ، فهو أنا وأما هو » ^(١) ، ولئن لم يدعينا
(نايبة القرن العشرين) فليحملنَّ أحمهم « وقعوا مني موقعَ غمّة على صخرة ...
هذا من جهة ، ومن جهة أريد سحائر وليس معي ثمنها » ...

فهلتُ واستبشرتُ ، وملت له : هذا فرشُ فهُلمْ فاشتره دعائتك ، وفي
رعاية الله . ثم استويتُ للقيام ، ولكنه لم يقم ، بل تمكّن في مجلسه ...

وكرهتُ أن أتعير له وما أشك أنه في هذا صحيحُ التمييز ؛ فأسرّع ما قال :
إن (نايبة القرن العشرين) قتي قوئُ الإرادة ؛ فإذا هو لم يصبر عن التدخين
ساعاتٍ فما هو بصبور .. وإذا لم يُثبت لك هذا الأمر عن مُعاينة ... فما
أعطيته حقّه .

(١) ما بين القوسين هو كلامه بنصه كما بهنا إلى ذلك ، والباقي ترجمناه نحن عن
معاينه ، وأكثر ما يأتي بهذا سيده .

قلت في نفسي : لقد غرست الرجل من حيث أردتُ اقتلاعه ، وأيقنتُ أنه من عقلاء المجانين الذين تتغير فيهم العاطفة أحياناً فتلهمهم آيات من الذكاء لا يتفق مثلها إلا لتواضع المنطق ؛ وذكرت (هلول) المجنون الذي حكوا عنه أن إبراهيم الشيباني مرَّ به وهو يأكل خبيصاً^(١) فقال له : أطمعني . قال : ليس هولي ، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة بعثته إلى لا كله لها ...

وقالوا : إنه مر بسوق البزازين فرأى قوماً مجتمعين على باب دكان قد نُقِب ، فنظر فيه وقال : أتعلمون من عمل هذا ؟ قالوا : لا . قال : فأنا أعلم . فقالوا : هذا مجنون يراهم بالليل ولا يتحاشونه ، فالطفوا به لعله يخبركم ، ثم قالوا : أخبرنا قال : أنا جائع . فجاءوه بطعام سنيّ وحلواء ، فلما شبع قام فنظر في النُقْب وقال : هذا عملُ اللصوص ...

وكانت مجلة (الرسالة) في يد (نابغة القرن العشرين) ، فوصل الكلامُ إليها وقال : إنه يقرأ كل مقالتي ، وإنه وإنه ، وإنها وإنها . قلت : فما استحدثت منها ؟ قال : (مقالة السيا) ..

قلت : متى كان آخر عهدك رؤية السيا ؟ قال : أمس . قلت : فأنا لم أكتب مقالاً عن السيا ، ولكنك أعجبت بما رأيتَ أميس فتحوّل ما رأيته حلاً في مقالة .

فأعجبه هذا التأويل وقال : يمثل هذا أما (نابغة القرن العشرين) ، فأقرأ مقالاتك في الغيب من قبل أن تكتبها ...

قلت : إنك تكثر أن تقولَ عن نفسك (نابغة القرن العشرين) ، وهذا يحصر نبوغك في قرن بعينه ، فلو قطعت الكلمة وقلت : (نابغة القرن) ، لصحَّ أن تكون نابغة القرن التاسع عشر والثامن عشر ، وما قبلهما وما بعدهما

(١) طعام كانوا يتحدثونه من التمر والسمن

فرايتُ به شذّهَ كأنه يفكر في جنونه ، ثم أفاق وقال : لا لا ؛ وإن
ها هنا موضع نظر ، فلورضيتُ بنابذة القرن فقط ، لجاء من يقول إنى نابذة
قرن خروف ...

فقلت في نفسي : حاةٌ مُدَّتْ بِمَاءٍ ^(١) ، وإن هذه الوسواس لا تنفك تعرفو
هذا المسكين ما وجد من يكلمه ؛ والأفكار في ذهنه مجتمعة مختلطة مسترسلة
كأها ثورة من الكلام لانظام لها . فلاسكتُ عنه ولا تشاغلُ بما بين يدي .
وسكتُ وأعرضتُ عنه ؛ فجعل طائفه يعتريه ، وكأن السكوت قد سلط
أفكاره عليه ، وكأنها أخذت تصيح به في رأسه كما يصيح غلبانُ الطريق بالجنون ؛
لا يزالون به حتى يُجريدوه ويُفقدوه البقية من صبره وعقله معاً ، فتغضب
(نابذة القرن العشرين) ، ونقله الغضبُ إلى حالة زَمهرتُ فيها عيناه ^(٢) ،
وكلح وجهه حتى خفتُ أن يثور به الجنون ، فأقبلتُ عليه وتعللتُ بسؤاله :
ألك إخوة ؟ ألم يبلغ فيهم نابذة ... ؟

قال : إن له أخا يعذبه ، ويوقع به ضرباً ، ويغلله بالسلاسل ، ويشدّه
بأمراسٍ كَثانٍ إلى صُمّ جَنْدَلٍ ، ، وأنه أزل به من العذاب ما لو أزلّه
بصخر لتألم .

قلت : فأنت في حاجة إلى راحة ، ويمحسّن بك أن تأوى إلى مكان
تتمدّد فيه .

قال : إنى منصرف وسأجلس في ندى كذا ^(٣) « هذا من جهه ، ومن
جهة ليس معي ثمن القهوة » .

(١) هذا مثل معنى زاد الطين بلة ، والحاة إذا مدّها الماء زادت واتسعت ...

(٢) أى لمحت غضباً

(٣) نحن نستخدم الندى لمكان القهوة .

قلت : فهذا قرش تدفعه ثمنًا لها ، فاذهب فاستمتع بها وبالتدخين وبالراحة في ذلك الندى ، فالمكان هاهنا كثير الضجيج والحركة واستوفرت للقيام ؛ ولكنه لم يتحلل من مجلسه .

ثم قال : أراك الآن مُستبصرًا أنى (نابغة القرن العشرين) بعينه .

قلت : هل بعينه البنى واليسرى معاً ...

قال : لا لا : إنك نسيت أن العرب تقول في التوكيد : عينه ونفسه وذاته ، أى أنا نابغة القرن العشرين بعينه ونفسه وذاته ، فليس غيرى نابغة القرن العشرين .

وكادت نفسى تخرج غيظًا ، ولكنى رأيت الحلم على مثل هذا يجرى مجرى الصدقة ؛ وقلت إن أدباء المجانين كثيراً ما يتفق لهم الإبداع الطريف إذا عللوا شيئاً ، كذلك القاص الذى كان يقصُّ على العامة سيرة يوسف عليه السلام ، فقال لم فيما قال : إن الذئب الذى أكل يوسف كان اسمه كذا ، فردوا عليه : إن يوسف لم يأكله الذئب ! قال : فهذا هو اسمُ الذئب الذى لم يأكل يوسف ! فقلت للجنون : فما العلة عندك فى أن العرب لم يقولوا فى التوكيد : عينه وأذنه وأفقه وفه ويده ورجله ؟

فطر نظرة فى الفضاء ثم قال : ليسوا مجانين فيخطئوا هذا الخلط ، وإلا رجب أن يقولوا مع ذلك : وعمامته وثوبه ونعله وبميره وشأنه ودراهمه . « هذا من جهة ، ومن جهة ليس معنى أجرة السيارة إلى بلدى وهى قرشان . » قلت : هذه هى أجرة السيارة وتحييتك السلامة ! ونهضت واقفاً ؛ ولكنه لم يتحرك .

ثم قال : إنك لم تعرف بعد ، أى أقول الشعر فى النزول والسيب والمدح
والهجاء والفخر ، وأى فى الخطابة قس بن ساعدة أو أكم بن صبي ، وأى
صخر لا ينفجر ... يا بس لا يتعصر ، لست كالحجاج بل كعمر .

قلت : هذا شئ يطول بيننا ولا حاجة لك بهذه البراهين كلها ، فقد
أمنت أنك مابنة القرن العشرين فى الأدب والشعر والخطابة والترسل .

قال : والفلسفة !

قلت : والفلسفة وكل معقول ومنقول ؛ وقد آتينا على ذلك .

قال : ولكنك تحسبى مجنونا أو عمورا ، كما حسبتى الجرائد التى زعمت
أن أختفانى فى البيارستان كان الجنونى الفكرى أو لذكائى الطبيعى وهو
الأصح .. فبين هذه الجرائد أى خرجت ، وأنى سأطع الأدب بطابع جديد .

قلت : ولكى لست مراسل جرائد . قال : « فاجعلى رسالة وأرسلها
عنى أو أكتب لك أنا ما ترسله ، وما جئتك إلا لهذا ؛ ويجب أن تلحقنى
بحريدة كبيرة ، وهذه الجرائد تعرفنى كلها ، وقد تناولتى من جميع النواحي
الأدبية : فضلا عن أى كاتب قد ، وخطيب قد ، وشاعر قد ؛ وهذا قليل
من كثير ، فهل أعول عليك فى صلتى بالجرائد أو لا ؟ »

قلت : إنك تعرفهم ويعرفونك ، وقد بلوتهم وبلوتوا منك ؛ فلست فى
حاجة إلى عدم .

قال : « إنهم يخشون بأسمى ، وقد حسبوني مجنونا أستهوته الشياطين ؛
وما علموا أن شيطان الشعر هو الذى أستهوانى ؛ كما أن شيطان الحب هو
الذى أستهوأك ... هذا من جهة ؛ ومن جهة ليس مئى نمن الغداء ، ولا
أكملك شيئا ... »

قلت : « هذا نمرش الغداء . مطعم الشعب ، هم الآن ينفذهن ويؤشيك إذا

أبْطَأَتْ أَنْ تُوَافِقَهُمْ وَقَدْ اسْتَنْفَذُوا الطَّعَامَ ، وَأَنْتَ لَا تَجْهَلُ أَنَّ الْقَرْشَ فِي
مَطْعَمِ الشَّعْبِ هُوَ قَرْشَانِ فِي الْقِيَمَةِ .

قَالَ : صَدَقْتَ ؛ يُوشِكُ أَنْ أُوَافِقَهُمْ وَقَدْ فَرَّغُوا مِنْ طَعَامِهِمْ وَغَسَلُوا
الْأَيَّامَ ؛ فَلَأُبْقِيَ هَذَا لِلْمَشَاءِ وَسَأَطُورِي إِلَى اللَّيْلِ ...

قُلْتُ : فَعَمَكَ الْآنَ ثَمَنُ الدِّخَانِ ، وَالْقَهْوَةِ ، وَالْغَدَاءِ ، وَأَجْرَةُ السَّيَارَةِ إِلَى
بَلَدِكَ ؛ وَقَدْ كَانَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الثَّالِثِ لِلْهَجْرَةِ وَأَسْمَهُ (طَائِقُ الْبَصْلِ) ^(١) يَفْنَى
بِقِرَاطٍ وَلَا يَسْكُتُ إِلَّا بِدَائِقٍ ؛ هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ غَدَّ هَذَا الْقَرْشُ
ثَمَنًا لِسُكُوتِكَ وَانْصَرِفْ .

* * *

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَقَامَ مُغْضَبًا ، وَتَنَفَّسَتْ بَعْدَهُ الصُّعَدَاءُ الطَّوِيلَةُ ...
وَفَتَحَتْ النَّاظِفَةُ وَأَسْتَقْبَلَتْ الْهَوَاءَ النَّقْيَ وَأَخَذَتْ فِي رِيَاضَةِ التَّنَفُّسِ الْعَمِيقِ ،
تَمَّ زَاغَتْ عَيْنِي إِلَى الْبَابِ ؛ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) مُقْبِلَةٌ مَعَ نَابِغَةِ قَرْنٍ
آخَرَ

(١) هذا مضمون من معاني السكوة في القرن الثالث

المجنون

٢

ورأيتُ المجنونين يدخلان معاً ، فكأما سدَّ البابَ وسوَّاه بالبناء ، وتركاً
الفرقة حائطاً مُصمَّماً لا بابَ فيه ، بما أعتراني من الضيق والحرج ؛ وقلت
في نفسي : إنه لامذهبٌ للعقل بين هذين إلا أن يُعينَ كلاهما على صاحبه ،
فأرى أن أدعُهما وأكونَ أنا أصرُّهما ؛ وباربما جاء من الوادر في اجتماع
مجنونين ما لا يأتي سله من عندنا يجتمعان على أبناكاره ؛ غير أني خشيتُ أن
أكونَ أنا المجنونَ بينهما ، ثم لا آمن أن يثبَّ أحدهما بالآخر إذا حطرتُ
به الخطرة من شيطانه ، فرأيتُ أن يكون لي ظهيرٌ عليهما ، إن لم يحقِّ به العونُ
فلا أقلُّ من أن يطولَ به الصبر ... وكان إلى قريبٍ مني الصديقُ (١٠ ش)
فأرسلتُ في طلبه .

أما هذا المجنون الثاني الذي جاءه (نابغةُ القرن العشرين) فقد رأيتُه من
قبل ، وهو كالكتاب الذي خُلطتْ مُحمَّد بعضها في بعض فداحلتُ وفسد
ترتيبُها ، وانقلبَ بذلك العلمُ الذي كان فيها جهلاً وتعليلًا ، يثبُّ الكلام
بعد كل صفحة إلى صفحة غريبة لاصلة لها بما قبلها ، لا ما بعدها .

وهو طالبٌ أدهى كان أكبرَ همه أن يصيرَ حافظاً كالحفاظ الأقدمين
من الرواة والفقهاء ، فجعلَ يستظهرُ كتاباً بعد كتاب ومثمتاً بعد متن ؛ وكانت
له أذنٌ واعيةٌ ، فكلُّ ما أهرعَ فيها من درس أو حديث أو سر ، ذلَّ منها
كأمر على آلة كانه . مبطلُ في ذه انطباع الكتاب : حى ولا ناسى .

ثم الثاثة هذه اللوثة وهو يحفظ متناً في فقه الشافعي رضى الله عنه ،
فقر سنين يتحفظه . كلما انتهى إلى آخره نسيه من أوله ؛ فيعود في حفظه وربما
أثبت منه الشيء بعد الشيء ، ولكنه إذا بلغ الآخر لم يجد معه الأول ؛ فلا يزال
هذا دأبه لا يمل ولا يجد لهذا الغناء معنى ، ولا يزال مقبلاً على الكتاب
يجمعه ، ثم لا يزال الكتاب يتبدد في ذاكرته .

وترك المعهد الذى هو فيه وتحلى في داره الحفظ ، وأجمع الأيدع هذا
المتن أو يحفظه ، كأن فيه الموضع الذى فارقه عقله عنده وبذلك رجع
المسكين آلة حفظ ليس لها مساك ، وأصبح كالذى يرفع الماء من البحر ثم
يلقيه في البحر ، لينزح البحر ...

وجاء (ا. ش) (*) فقلت له ، وأومات إلى المجنون الأول : هذا نابتة
القرن العشرين .

قال : وهل انتهى القرن العشرون فيعرف من نابتته ؟
فقلت للمجنون : أجه أنت . فسأله : وهل بدأ القرن الواحد والعشرون ؟
قال : لا .

قال : فإن هذا الذى إلى جابى نابتة القرن الواحد والعشرين ... فكما
جاز أن يكون هو نابتة قرن لم يبدأ ، حاز أن أكون أما نابتة قرن لم ينته .
قلت : ولكنك زدت المشكلة تعقيداً من حيث توهمت حلها ؛ فكيف
يكون معك في آن وبينك وبينه خمس وستون سنة ؟

فتظر نظرة في الفضاء ، وهو كلما أراد شيئاً عسيراً نظر إلى اللاشيء ...
ثم قال : هذه الأمور لا تشبه إلا على غير العاقل .. وكيف لا يكون ينبغي

وبينه خمسٌ وستون سنة وأنا أتقدّمه في النبوغ بأكثر من علم العلماء في

خمسٍ وستين سنة ... ؟

قلت للآخر : أكذلك ؟

قال : بما حفظناه عن الحسن : أدركنا قوماً لو رأيتهم لقلتم مجانين ،
ولو أدركوكم لقالوا شياطين .

فضحك الأول وقال : إنه تليذى .

قال الثانى : لقد صدق فهو أستاذى ، ولكنه حين يلسى لا يذكركه

غيرى ...

قلت : لا تَعْرَوْ : « فما حفظناه » عن الزهرى : إذا أنكرت عقلك
فأقدّحه بما قل ..

فغضب نابغة القرن العشرين وقال : ويح لهذا الجاهل ، الأحمق ، الجاحد
للفضل مع جنونه وخَبَله ، أيد كرى وهو منذ كذا وكذا سنة يحفظ متناً
واحداً لا يُمسكه عقله إلا كما يُمسك الماء الغرايل ؟ صدق واقع من قال :
عدوٌ عاقل خيرٌ ... خير ... خير ... فقال الثانى : خيرٌ من صديق جاهل !
هأذا قد ذكّرتك من نسيان ، وهأنت ذا رأيت .

فضحك النابغة وقال : ولكنى لم أريد أن أهولَ هذا . بل أريد أن أولفَ
كلاماً آخر عدوٌ عاقل خيرٌ ، خيرٌ ، خيرٌ ، خيرٌ من
جاهل

ورأيتُ أن في التقاء مجنوبين شيئاً طريفاً غيرَ جنونهما ، وصحَّ عندي أن
المجنونَ الواحد هو المجنون ؛ أما الاثنان فقد يكون من اجتماعهما وتجاوزهما
فنظرنا من التمثيل ، إذاً أحداً من يُصَرّفهما في الحديث . ويسنخرُجُ ما عندهما

ويستكشفُ منهما قصتهما العقلية

ولم أكن أعرف أن (نافذة القرن العشرين) من المجانين الذين لم أذنُ في غير الأذن، وعينٌ في غير العين، وأنفٌ بغير الأنف؛ إذ تلقى أدمعُتهم أصواتاً وأشباحاً وروائحٌ من ذات نفيها لا من الوجود، وتدركها بالتوهم لا بالحاسة، فتخلقُ هواجسُهم خلقاً بعد خلق، وتخطر الكلمة من الكلام في ذهنٍ أحدهم فيخرجُ منها معناها يتكلمُ في دماغه أو يمشی أو يلاطفه أو يؤذيه أو يفعلُ أفعالا أخرى.

وبينا أنا أديرُ الرأي في إحراج فصلٍ تمثيليٍّ من الحوار بين هذين المجنونين^(١) إذ قال (نافذة القرن العشرين): صة، إن جرس «التلفون» يدقُّ

قال (أ. ش.): لا أسمع صوتاً، وليس ههنا «تلفون».

فاغتاض المجنون الآخر وقال: إليك تنقحُ على النواوغ ولست من قدم؛ وما عمك إلا أن تنكر، والإنكار، وبلك، أيسرُ شيء على المجانين وأشباه المجانين، والعامية وأشباه العامية، وقد أسكرت نبوغه آنفاً، وأراك الآن تنكر «تلفونه» ...

قال (أ. ش.): وأين «التلفون» وهذه هي الفرقة بأعيننا؟

فضحك (نافذة القرن العشرين) وقال: صة ويحك لقد خلطت على إن الجرس يدقُّ مرة أخرى، وأما لا أريد أن أكلها حتى يطولَ انتظارها، وحتى تدقُّ ثلاث مرات، وأخشى أن تكون قد دقت الثالثة وذهب رنينها في صوتك وتقطك ..

قال المجنون الآخر: هي صاحبتُه التي يهواها وتهواه، وقد استأماها وتبماها وجبرها وخملها، حتى لا صبر لها عنه، فوضعت له تلفوناً في رأسه ...

(١) ساد هذا المصا التمثيل في مقال آخر

قال « النابغة » : وهذا التلفون لا يُسمِعني صوتها فقط ، بل هو يُشَقِّقني
عطرها أيضاً وقد تكلمني فيه الملائكة أحياناً ، وأنا ساخط على هذه الحبيبة ،
فإنها غيورٌ تُخشي سَطَوَاتُهَا على اللآلئ تنار مني ، ولولا ذلك لكلمتني في
هذا التلفون إحدى الحور العين

قلنا : أو تنار منها الحور العين ؟

قال المجنون الثاني : بل الأمر فوق ذلك ، فإن الحور العين يشتمنها ويلعنها ،
« فما حفظناه » ، هذا الحديث : لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجها
من الحور العين : لا تؤذي قاتلك الله ! فإنما هو عندك دُخيلٌ يُوشك أن
يفارقك إلينا .

قال (نابغة القرن العشرين) : وبلى على المجنون ! إنه يريد أن يخلو له
موضي فهو يتمنى هلاكي وانتقال شيكا من هذه الدنيا ؛ وهو يقول بغير علم
لأنه أحقُّ ليس له عُقْدَةٌ من العمل ، فيزعم أنها تؤذي ، ولو هي أذنت لنضبت
قبل ذلك ، ولو غضبت لرفعت التلفون . صَـةُ إن الجرس يدق !

قال ا . ش : إن للتوابغ لشأناً عجيباً ، ففي مديرية الشرفية رجلٌ نابغةٌ ماتت
زوجته وتركته غلاماً ، فزوج أخرى وهو يعيش في دار أبيه ، فلما كان
عيدُ الأصحى سأل أباه مالاً يبتاع به الأصحية فلم يُعطه ، وهو رجل يحفظ
القرآن : فذكر قصة إبراهيم عليه السلام ورؤياه في المنام أنه يذبح ابنه ، فخيل
إليه أن هذا بابٌ إلى النبوة . وأن الله قد أوحى إليه ، فأخذ الغلام في صبيحة
العيد وهم يذبحه ، ولولا أن صرخ الغلام فأدركه الناس فاستقذوه . .

قال (نابغة القرن العشرين) : هذا مجنون وليس بنابغة ؛ بل هذا من
جهلاء المجانين ؛ بل هو مجنون على حدته ، وقد رأيتُه في السيارستان في حين

كنت أنا في المستشفى .. فكان يزعم أنه أتمم في ذبح غلامه بإرادة الله ؛ ولو كانت إرادة الله لتفدت بالدبح ، ولو كان الأمر وحياً لنزل عليه من السماء كبشٌ يذبحه ... وهكذا أنا في المناطق (نابغة القرن العشرين) .
ثم إنه أشار إلى المجنون الثاني وقال : وأنا أتقدم هذا في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمسين وستين سنة كاملة .

قلت : ولكنك ذكرتَ هذا من قبل فلمَ عدتَ فيه الآن ؟

قال : إن السبب قد تغير فتغير معنى الكلام ؛ وقد بدا لي أنه يتمنى هلاكي ليكون هو نابغة القرن العشرين ؛ فعنى الكلام الآن : أنه لو عاش خمسا وستين سنة ، يحفظ المتن ، لما بلغ مبلغى من العلم ؛ هذا رجل نصفه ميتٌ جنوناً وموتاً حقيقياً ، ونصفه الآخر ميتٌ جهلاً بالموت المعنوى .

قال ا . ش : حسبُ أن يقلدك تقليدُ المائى لإماميه في الصلاة ؛ وعسى ألا تستكثر عليه هذا فإنه تليذك .

قال المجنون الثانى « بما حفظناه » : لو صُورَ العقلُ لأضاء معه الليل ، ولو صور الجهلُ لأظلم معه النهار .. ونابغة القرن العشرين هذا لا يعرف كيف يصلى ، فقد وقف منذ أيام يصلى بالشعر . ولما رأيته ناسياً قدكرته ونهته أن الصلاة لا تجوز بالشعر ، التفث إلى وهو راكع فستنى وشتى وصرخ فى وقال : ماشأنك بي ؟ هل أنا أصلى لك أنت .. ؟

فغضب « النابغة » ، وقال : واقع إن تحسبوني إلا مجنوناً فتريدون أن يقلدنى هذا الأحقُّ الذى ليس له رأى يحسكه ؛ ولولا ذلك لما اعتقدتم أن تقليدى من السهل الممكن ، ولعرقم أن نابغة القرن العشرين نفسه لم يستطع تقليدَ نابغة القرن العشرين !

قلنا : هذا عجيب . وكيف كان ذلك ؟

فضحك وقال : لأعدكم من الأذكياء إلا إذا عقلتم كيف كان ذلك ؟
قال ا . ش : هذا لم يُعرَف مثله فكيف نعرفه ؟ ولم يتوممه أحد
فكيف تتوممه ؟

وقلت أنا : لملك رأيت نفسك في الرؤيا .

قال : لولم تكن أستاذة نايبة القرن العشرين لما عرفتها : وهذا نصف
الصواب ؛ وما دمت أستاذي ، فلو أننا اختلفنا في رأى لكنا خلافاً لك لى
صواباً لأنه منك ، وكان خلافاً لك صواباً لأنه مني ؛ فأنت (غير مخطئ) وأنا
مصيب ، وإذا أسقطنا كلمة (غير) أظن أنا مصيباً وتكون أنت مخطئاً ...
أنا لم أر (نايبة القرن العشرين) في الرؤيا ، ولكنى رأيته في المرأة عند
الحلاق ... ورأيتُه يقلدني في كل شيء ، حتى في الإشارة والقومة والمعدة ،
ولكني صرختُ فيه وسببته ففتح فمه ، ثم عاقني ولم يتكلم ..
وأومأ إلى المجنون الآخر وقال : وأنا أتقدم هذا في النسخ بأكثر من
علم العلماء في خمس وستين سنة .

قال ا . ش : لقد قلتهما مرتين كلناهما بمعنى واحد ، فإمداك في هذه الثالثة ؟
قال : هذا الغر يزعم أنى لا أعرف كيف أصلى ، ويستدلُّ لذلك بأنى
صليتُ بالشعر وأنى شتمته وأنا راكم : ولو كان عاقلاً لعلم أن شتى إياه
وأنا راكم ثواب له .. ولو كان نايبة لعلم أن الشعر كان في مدح دولة
النحاس باشا ، وأولى النهى .

قلنا : ولكن الشعر على كل حال لايجوز به الصلاة ولو في مدح دولة
النحاس باشا .

قال : لم أصلِّ به ، ولكن خطر لى وأنا أصلى أنى نسيتُ القصيدة فأردت
أن أتحمق أنى لم أنسها .. فإذا أنا نايبة القرن العشرين في الحفظ ، وهى ستة

آيات . لا كهذا المعنوه الذى صر على المتن صبرَ الغريب على الغربة الطويلة
ومع ذلك لم يحفظه .

قال ا. ش : فأملِ علينا هذا الشعر . فأملِ عليه ^(١) :

يا حليف الشُّهد قل لى أين مَنْ فى الدهر حالٌ
إن تكن تهوى غزالا أَكَلَّ العينين مالٌ
أنا أهواها ولمكن لا سبيل إلى الوصال
مند ولَّتْ قلتُ مهلا منذ غابت فى خيال
أما مجنونٌ بليلى ليلَ ياليلى ! تمال

قلنا ؛ ولكن ليس هذا مدحاً ! فضحك وقال : أردت أن تعرفوا أى
أقول فى المزل ، أما المدح فهو :

شُغِفَ الورى بمناصب وأمانى وشغفتَ يا محاسن بالأوطان
حبسوا الحياةَ تفاخراً وتنماً وحسبها لله والأوطان
ثم أرتج عليه فسكت . قال المجنون الآخر : إنها ستة آيات ، وقد نسيت
أربعة ، ولست أريد أن أذكرك !

فقال (الباقية) : أظنه قد حان وقت الصلاة وأريد أن أصلى ... ونظر
إلى اللاشئ فى الفضاء ، ثم قال : واليت الأخير :

لا أبغى فى المدح غيرَ أولى النهى أو صادقٍ ^(٢) أو شوقٍ أو مطران
ثم أمر ا. ش . أن يقرأ عليه الشعر فقرأه ، فقال : أحسنت ! انظر
إلى فوق . فنظر ، ثم قال : انظر إلى تحت . فنظر ثم سكت .

(١) هذا شعره بحروفه كما أملاه !

(٢) فمر (صادق) بأنه أستاذ مائة القرن العشرين .

قال ا. ش : وبعد ؟ قال : وبعد فإن الناس ينظرون إما إلى فوق وإما إلى تحت ...

وكان الضجر قد مال مى ، فرجوت ا. ش أن يلبثَ معها وأذنت لئابة القرن العشرين أن يلقاني في الندى وأنصرفت .

قال ا. ش وهو يُنبئني : فاجبتَ عنا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع ويقول : لقد حاق بي الظلم ، وإن (الرافى) رجل عسوف ظالم ، لآنى أكتب له كل مقالة التى ينشرها فى (الرسالة) ... وأجمع نفسى لها ، وأجهد فى بيانها ، وأذيب عقلى فيها ، وهو مستريحٌ وادعٌ ، وليس إلا أن يتجملها ويضع توقيعَه عليها ويبحثَ بها إلى المجلة ، ثم هو يقبض فيها الذهب وينال الشهرة ، ولا يدفع لى عن كل مقالة إلا قرشين ^(١) ...

قال ا. ش : فما يمنعك أن ترسل أنت هذه المقالات إلى المجلة فتقبضَ فيها الذهب ؟ قال : إن هاك أسراراً أما تحصنها وكنمها ، ولا يبنى أن يعلّمها أحد فإنها أسرار ... قال له : فدع (الرافى) وأكتب لى أنا هذه المقالات وأما أعطيك فى كل مقالة ذهبن لا قرشين .

قال : هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتب إلا للرافى ، لأن (نابغة القرن العشرين) لا يجوز أن يدعى كلامه إلا أستاذ نابغة القرن العشرين ، ولو ادّعاء غيره لكان هذا خطأ من قدر نابغة القرن العشرين ، وهذا بعض الأسرار لا كل الأسرار ..

قلت : ثم جاء المجنونان فى العشيّة إلى الندى .

(١) لا يزال هكذا المسكين منذ تسعة أشهر يدعى أنه هو الذى يكتب لنا هذه المقالات ، غير أنه رفع القيمة أحياناً ، فجعلها عشرين قرشاً . . .

المجنون

٣

وكنّا في الندى ثلاثة : أنا ، و (أ.ش) ، و (س.ع) (*) ؛ وقد ميّأتُ
تدبيراً توافقنا عليه لتحريك هذين المجنّوبين وتدوين مايجي منهما ؛ فلما أقبلنا
تحقيّنا بهما والطفناهما ، وقما ثلاثنا بنسبهما وإكرامهما ، حتى حسبنا أن في
كلمة « مجنون » معنى كلمة أمير أو أميرة ... ورأيتُ في عيني « نابغة القرن
العشرين » - وهو أعين أحمل^(١) - ما لوزجته لما كانت العبارة عنه إلا أنه
يعتقد أن له نفساً أثني أعشقها أنا ... فكان مُسدّداً فيكّ اللسان ، تُستَمَلحُ
له النادرة وتُستظَرَفُ منه الحركة .

ولما تمكّن منه الغرورُ ، واحتاج المجنونُ كما يحتاج الجالُ إلى كبريائه
إذا حاطته الأعين - أدار بصره في المكاتب ، ثم قال : أفَ لكم ولما
تصرون عليه من هذا الندى في ضَوْضائه ورعايه وغوغائه ؛ إن هؤلاء -
إلا أحلاطٌ وأوشابٌ وحُثالة ، هذا الجالسُ هناك ، هذا الواقفُ هنالك ، هذا
المستوفز ، هذان المتقابلان ، هؤلاء المتجمعون ؛ هذا كله خيالٌ حقيقة في
رأسي ؛ ماهي ؟ ماهي ؟

هذا التصاُحُ المنكر ، هذا الضربُ بحجارة الترد ، هذه الزحمة التي
أقمسنا فيها ، هذا المكانُ الهائجُ من حولنا ؛ هذا كله خيالٌ حقيقة في رأسي
هي ، هي ، هي ...

(٥) سبق التعريف بـ (أ.ش) ، أما (س.ع) فيعرفه قراء هذا الكتاب .

(١) أي واسع العين أجمّلها ، وقد مر وصفه في المقالة الأولى .

فانزعج المجنون الآخر ووقع في تهاويل خياله ، ونظر إلينا تدور عيناه ،
وتوجّس شراً ، ثم زاع بصره إلى الباب ، واستوفز وجمع نفسه للقيام ؛ فلما
رأى صاحبه مازل به ، قهقهة وأمنن في الضحك وقال : إنما خوفته الصيانه
والضربَ لبثتَ لكم أنه مجنون ...

فجرد الآخر وأغناظ وجعل يُتمم بينه وبين نفسه .

قال « النابغة » ما كلامُ تَطِينٍ به طنين الذبابة أيها الخبيث ؟
قال : « بما حفظناه » : أن من علامات الاحق أنه إذا استنطق تحلف ،
وإذا بكى غار ، وإذا ضحك نَهَق ... كما فعلت أنت الساعة ، تقول : هاهُ ،
هوهُ ، هيهُ ...

فتغير وجه « النابغة » ، ونظر إليه نظرة منكرة ، وهم أن يقتجم عليه ،
وقال : أيها المجنون ، لماذا تضطربني إلى أن أحيبك جوابَ مجنون ... لانجوت
إن نجوت مني !

فأسرع ا. ش وأمسك به ، وأعرض من دونه س. ع ، وقال له : أنت
بدائه والبادي أظلم .

قال : ولكن - ويحه - كيف قال هذا ؟ كيف لم يقل إلا هذا ؟ كذب
لم يجد إلا هذا يقوله ؟ أنابغة القرن العشرين أحق ، وقد أوحده الله في
القرن العشرين ؟ لمَ ممتُ والله أن أكسر الذي فيه عيناه : فإ يقول إلا أن
أحق القرن العشرين ... !

قلتُ : إن كان هذا هو الذي أغضبك منه ، ففي الحديث الشريف : « ليس
من أحد إلا وفيه حكمةٌ ، بها يعيش . » والحياة نفسها حماقةٌ منظمّة تنظيماً عاقلاً ؛
وما يُقبلُ الإنسانُ على شيء من لذاتها إلا وهو مقبلٌ على شيء من حماقاته ؛ وأمتعُ

اللذة ما طاش فيه العقلُ وخرج من قانونه ، ولولا هذا الحقُّ في طبيعة الإنسان لما احتمل طبيعة الحياة ؛ أليس يُخَيَّلُ إليك أن أكثرَكَ غائبٌ عن الدنيا وأقلُّكَ حاضرٌ فيها ، وأن يَقْظَكَ الحقيقةُ إنما هي في الحلمِ وما يُشبه الحلمَ ، كأنك تُخَلِّقَت في كوكبٍ وهبطت منه إلى كوكبنا هذا ، فما فيكَ للأرض ولا فيها لك إلا القليلُ يلتئمُ بعضُه ببعضه ، وأكثرُ كما مُتَافِرٌ أو مُتَاقِضٌ أو مُتَراجِعٌ ؟ قال ؛ بلى .

قلتُ : بهذا القليلِ هو لحقُّه تى ، تعيش ربه أرضه الأرض فيك ؛ أما سماوية السبا . بعيدة لا تحتملها طبيعة الأرض ؛ ولهذا يعيش أهلُ الحقيقة عيشَ المجانين في رأى المنزورين الذين عرَّتهم الحياة الفانية ، أو المخدوعين الذين خدعتهم الطواهر الكاذبة ؛ فكما أتوا عملا من الأعمال السامية انتهى إلى الحَقِّ مَكْشُوعاً أو مُخَوَّلاً أو مُعْدُولاً به ؛ ولعل هذا أصحُّ تفسير للحديث الشريف : « أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَه » .

قال المجنون الآخر : « بما حفظناه » : أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَه .

فقال (الباقية) : المصيبةُ فيك أنك أنت هو أنت ؛ ألا فلتعلم أنك من بُلَهَاءِ السَّيَّارِسْتَانِ لا من بُلَهَاءِ الْجَنَّةِ ...

قلتُ : ثم إن الموتَ لا بدَّ أن يَلْبَسَ على الناس جميعاً ، فيسلبُهم كلَّ ما مالوه من الدنيا ، ويُبْلِغُهم من نال من لم ينل ؛ فمن ذا الذى يُبَدِّلُ أن ينال ما لا يبقى له ، إلا أن يكونَ سروره من حماقة ؟ ومن ذا الذى يحزنُ على أن يفوته ما لا يبقى له ، إلا أن يكونَ حزنه حماقةً أخرى ؟ وأى شيء في الحب بعد أن ينقضى الحبُّ إلا أنه كان حماقةً صرَّبت في الحواس كلها حتى ملأت النفس . ثم ملأت النفس حتى فاضت على الزمن . ثم فاضت على الزمن حتى خَبَلَتِ العاشقَ تخيلاً لذيذاً تصعر فيه الأشياء وتكبر ، ويحملُ الواقعُ في النفس غيرَ الواقع في دنياها ؟ يُشَبِّهُ كلُّ

عاشق حبيبته بالقمر : فَهَبِ الْقَمَرَ سَمِعَ هَذَا وَفَهَمَهُ وَعَنَاهُ أَنْ يَحِيبَ عَنْهُ ،
فَإِذَا عَسَاهُ يَقُولُ إِلَّا أَنْ يَعْجَبَ مِنْ هَذَا الْحَقِّ فِي هَذَا التَّشْبِيهِ ؟

* * *

فَهَذَا (النَّائِقَةُ) وَكَانَ غَضَبُهُ وَقَالَ : صَدَقْتَ ، وَلِهَذَا أَنَا لَا أَشْبَهُ
حَبِيبَتِي بِالْقَمَرِ .

قلت : فَمَاذَا تَشَبَّهَ ؟

قال : لَا أَقُولُ لَكَ حَتَّى أَعْلَمَ بِمَاذَا تَشَبَّهَ أَنْتَ حَبِيبَتَكَ ؟ قلت : وَأَنَا كَذَلِكَ
لَا أَشَبَّهُهَا بِالْقَمَرِ .

قال : فَمَاذَا تَشَبَّهَ ؟ قلت : حَتَّى أَعْلَمَ بِمَاذَا تَشَبَّهَ أَنْتَ ...

قال : هَذَا لَا يُرْضَى مِنْكَ وَأَنْتَ أَسَاطِيزُ (نَائِقَةُ الْقُرُونِ الْعَشْرِينَ) ،
وَلَاكَ حَائِبَاتٌ كَثِيرَاتٌ عَدَدُ كَتَبِكَ ، وَقَدْ أَعْجَبَتْنِي مِنْ تِلْكَ الَّتِي فِي (أَوْرَاقِ الْوَرْدِ)
وَأَظُنُّكَ أَحَبَّيْتَهَا فِي شَهْرِ مَآيٍ مِنْ سَنَةٍ .. مِنْ سَنَةٍ ...
قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ : مِنْ سَنَةِ ١٩٣٥ : هَذَا قَدْ نَهَيْتُكَ .

قال : يَا وَيْلَكَ إِنْ (أَوْرَاقِ الْوَرْدِ) ظَهَرَتْ مِنْ بَضْعِ سَتِينٍ . إِمَّا أَنْتَ مِنْ
نُهَاةِ الْبِيَارِستان لَا مِنْ بُلُوهِ أَوْرَاقِ الْوَرْدِ ... مَاذَا كُنْتُ أَقُولُ ؟
قال ا. ش : كُنْتُ تَقُولُ : هَذَا لَا يُرْضَى مِنْكَ وَلَا حَائِبَاتٌ كَثِيرَاتٌ .

قال : بَعْدَ ، لِأَنَّكَ إِذَا شَبَّهْتَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ بِالْقَمَرِ ، أَنْتَهَى الْقَمَرُ وَفَرَعَ التَّشْبِيهِ
فَيُظَلُّ الْآخِرَاتُ مَلَا قَر ... نَحْمُ إِنَّ كَلِمَةَ الْقَمَرِ لَا تَعْجِبُنِي ، فَلَوْهَا أَدَكُنَّ مُغْبِرَةً^(١)
يَضْرِبُ أَحْيَانًا إِلَى السَّوَادِ .. فَإِذَا عَشَقْتَ زَوْجِيَّةً فَهِيَ نَحْلُ التَّشْبِيهِ بِالْقَمَرِ ..
أَمَا الْبَيْضُ الرَّعَائِبُ فَتَشْبِيهُنَّ بِالْقَمَرِ مِنْ فُسَادِ الذَّوْقِ .

قال م. ع : وَلِلْأَلْفَاظِ أَلْوَانٌ عِنْدَكَ ؟

(١) الذِّكَّةُ : لَوْنٌ بَيْنَ الْحُمْرِ وَالسَّوَادِ

قال : لو كنت نابعةً لأبصرتَ في داخلكَ أخيلةً من الجنة ؛ ألم يقل أستاذنا
 آنفاً عن (نابغة القرن العشرين) : إنه هبط من كوكب إلى كوكب ؟ ففى
 كوكبنا الأول يكون لنا سَمْعٌ ملوّنٌ ، وحسٌ ملوّنٌ ؛ نسمع قرعَ الطبلِ أزرق ،
 ونفخَ البوقِ أحمر ، ورنينَ النغمِ الخُلُوِ أخضر ^(١) ، والوجودُ كله صُوْرٌ
 ملوّنٌ ، سواءٌ منه ما يرى وما يُحسُّ ، وما هو مُسْتَحْفٍ وما هو ظاهر .
 ثم أوماً إلى المحنون الآخر وقال : واسمُ هذا الأبله كلفِظِ الجبر :
 لا اسمُهُ إلا أسود ...

وسكت « النابغة » وسكتنا ؛ فقال له س . ع : مالك لا تتكلم ؟ قال : لأنى
 أريد السكوت . قال : فلماذا تريد السكوت ؟ قال : لأنى لأريد أن أتكلّم ..
 ونحوك فى نفسه الغيظُ من المحنون الآخر ، فرمى بعينه الفضاء ينظر
 اللامثى . وقال : إذا أصبح كلُّ النساء ذواتٍ لِحى أصبح هذا عاقلاً ... فدقَّ
 الآخر رجله دقاتٍ معدودة ؛ فثار (النابغة) وقال : مَنْ هذا يشتُمى ؟
 قال س . ع : لم يشتبك أحد ، هذا خَفَقَ رجل على الأرض .
 قال : بل شتمى هذا الحديثُ ، وسمّى لا يَكْذُبُنِي أدا ، وأنا رجلٌ
 ظَنُونٌ ، أسمى الظنَّ بكلِّ أحد ، وعلامةُ الحازم « العاقل » ، سوء ظنه
 بالناس . فهبه كما قلتَ قد خَفَقَ نعله ، أو خَبَطَ رجله ؛ فهو يعلم مايعنى
 من ذلك . وأنا أسمع مايعنيه ؛ لقد طَفَحَ الشعرُ على قلبي فلا بدلى من
 هجائه ، ولا بدلى أن أذبحه ولو بالكلام ، فإنى إذا هجَّوهُ رأيتُ دمه فى
 كلباتى ، وأريد أن أجعله كالعَبْرِ التى كانت عندنا وذبحناها .

(١) هذا واقع وليس من الخيال ؛ فبعض الناس يسمعون الأصوات ويحسون
 الأشياء ملوِّنة ؛ وعلماء الأمراض العصبية يعرفون هذا ويعلمونه بأنه صور ذهنية
 قد لساها مؤثر من المؤثرات . فهم يصنعها بل ..

ثم انزع قلم من . ع ، وقال : هذه هي السكين ؛ ولكن أسألك يا أستاذي أن تدبجه أنت بكلمتين وتصف له جنونه ، فقد عزب عني الشعر . إن خفة رجل على الأرض تستطير الأراب فزعاً فيفترن إلى أجارهن ويهزبن ، وما كانت بنات الشعر في ذهني إلا أراب ...

أنتم لاتعرفون أن من كان حسيفاً ثيباً مثلي ، كان دقيق الحس ؛ ومن كان قدماً غيباً مثل هذا ، كان بليد الحس غليظاً كئيفاً ؛ فإذا أنا استشعرت البرد رأيتني قد سافرت إلى القطب الشمالي ؛ أما هذا المجنون فهو إذا استشعر برداً سافر إلى عبامته أو لحافه ... إذ هو لا يعرف جغرافيا ، ولا يدري ما طحاها . قلت : هذا منك أظرف من نادرة أبي الحارث . قال : وما نادرة أبي الحارث ؟ وهل هو نابعة ؟

قلت : جلس يتغدى مع الرشيد وعيسى بن جعفر ، فأني بخوان عليه ثلاثة أرغفة ، فأكل أبو الحارث رغيته قلها ، والرشيد ملك عظيم : لا يأكل أكل الجائع ، وإما هو التشميت من هنا وهناك : فكان رغيته لا يزال باقيا ؛ فصاح أبو الحارث بجأه : يا غلام ، فرمى . فزع الرشيد وقال : وبلك مالك ؟ قال : أريد أن أركب إلى هذا الرغيف الذي بين يديك ...

قال (الباقية) : ولكن فرقا بين أبي الحارث وبين (باقية القرن العشرين) ؛ فإن من العجائب أني ربما نظرت إلى الرجل وهو يأكل فأجد الشبع ، حتى كأنه يأكل يبطي لا يبطنه ، ولكن من العجائب أن هذا لا يتفق لي أبداً حين أكون جائعاً ...

أما هذا المجنون الذي أماننا ، فرما أنصر الحار عل ظهره الحمل ، ويشعر كأن الحمل على ظهره هو لعل ظهر الحار ..

قال الآخر : « ما حفظناه » : آه برق لأعراف حمد ، فقبل له : أوبرق

حمارك ؟ قال : نعم وأحمد الله ! فقيل له : على ماذا تحمده ؟ قال : على أن لم أكن عليه حين سُرق . فأنا إذا رأيتُ حماراً مثقلَ الظهر ، حدثُ الله على أن الحمل لم يكن على ، لا كما يقول هذا . ثم دق برجله دقات ...

فاستشاط (النايفة) وقال : أسمعتم كيف يقول إني مجنون ، ثم لا يكتفي بهذا بل يقول إني حمار على ظهره الحمل ؟

قلت : ينبغي أن تتكافأ ، وهذا لا يعيبك منه ولا يعيبه منك ، فإن من تواضع «النوايع» أن يشعروا بؤس الحيوان ، فإذا شعروا بيؤسه دخلتهم الرقة له ، فإذا دخلتهم الرقة صار خيالُ الحمل يحلّ على قلوبهم الرقيقة ؛ وقد يصنعون أكثر من ذلك : حكى الجاحظ عن ثمامة قال : كان (نايفة) يأتي ساقيةً لنا تَحْرَأُ : فلا يزال يمشي مع دابتها ذاهباً وراجعاً في شدة الحر أيامَ الحر ، وفي البرد أيامَ البرد ، فإذا أمسى توضعُ وقال : اللهم اجعل لنا من هذا الممّ قرَجاً ونَحْرَجاً ! فكان كذلك إلى أن مات !

قال المجنون الآخر : «ما حفظناه» . ثمرةُ الدنيا السرور ، ولا سرورَ للعقلاء ؛ فلولم يكن هذا عقلُ العقلاء لما مُحِقَّ سروره في الدنيا هذا المحقّ إلى أن مات غمّاً ، رحمه الله !

• • •

قال س . ع : فاعفُ الآن عن صاحك ولا تدبّجه بالهجم .
قال : لقد ذكّرتني من نسيان . وهذا المجنون يرى نسيان من مرض عقله ، وكان الوجه - لو تهدي إلى الحقيقة - أن يراه شذوذاً في العقل ، أي نبوغاً عظيماً كنبوع ذلك الفيلسوف الذي أراد أن يتثبت في كم من الزم تسلق البيضة ؟ فأخذ يده الساعة ويده الأخرى بيضة ، ثم نسيَ نسيانَ النبوع ، فألقى الساعة في الماء على النار ، وثبتت عنه على البيضة ينظر فيها على أنها عي

الساعة . ولو قد رآه هذا الأبله لوعه مجنوناً كما يزعمى ، فإن المجانين يرون العقلاء مرضى عواهم وأعمالهم التى يعملونها .

وأنا فليس يهيجنى شيء ما يهيجنى كلبات ثلاث : أن يقال لى مجنون ، أو أبله ، أو أحمق ؛ فمن رغب فى صحبى فليتنجب هذه الثلاث كما يتجنب الكفر والكفر والكفر ...

قال ا . ش : فإذا قيل لك مثلاً ، مثلاً ، أى على التمثيل : مغفل ...

حكاً رأسه قليلاً وقال : لا ، هذه ليست من قدرى ^(١) ...

قلت : فبعض الكلمات إذا قطعت عندك غيرت الحقائق ، كذلك القرن الذى قطع فرقة البقرة فرساً ؟

قال : وكيف كان ذلك ؟

قلت : زعموا أن أعرابياً خرج إخوته يشترون خيلاً ، فخرج معهم لجام بعجل يقوده ؛ فقبل له : ما هذا ؟ قال : فرسٌ اشتريته . قالوا : يا مائق ! هذه بقرة ، أما ترى قرنبا ؟

فرجع إلى منزله فقطع قرنبا ، ثم قادها إليهم وقال لهم : قد أعدتها فرساً كما تريدون ...

قال (التابئة) : هذا غير بعيد ، فقد رأيتنا حين ذبحنا العنز وكسرنا قرنبا أعدناها كلبه سوداء ، فتقذرتُها وعفنت لحمها ولم أطعم منها .

ثم أوماً إلى الآخر وقال : هذا لا يدرى ما طحاها ، وهو مثل العنز : تحسبُ قرنبا للقتال والطاح ، ومنهما تمسكُ للذبح ؛ فقل فى هذا يا أستاذ (نابغة القرن العشرين) .

(١) قص عبارة ، دى منى اتقى .

قلت للآخر : أيرضيك أن أقولَ في المعنى لا فيك أنت ... ؟ قال :
نعم . فكتبتُ هذه الآيات على ما يريد النابتة :

قل لَعَنَ نَاطِحَاهَا لِقَتَالِ سَلَحَاهَا
مالها قد طَرَحَاهَا فِي يَدَيْنِ ذَبَحَاهَا ؟

شيمةٌ مني عَمَاهَا عَقْلُ غَيْرِ فَلَحَاهَا
ليس يدري ما طَحَاهَا بل يرى شمسَ نُحَاهَا
حَرًّا مِثْلَ رَحَاهَا ويرى الليلَ عَمَاهَا
ظُلُمًا طَالَتْ لِحَاهَا ...

وسرُّ (النابتة) وآزدهي ، وجعل يقول : طالت لِحَاهَا ، طالت لحاها !
وما كان هذا إلا السورَ الأصغر : أما سروره الأكبر فجاء ساعى (البريد
المستعجل) إلى الندي ، وفي يده رسالة عنوانها : نابتة القرن العشرين فلان ،
بندي كذا .

وجعل الرجل يهتفُ بالعنوان يسأل عن صاحبه : فتناولت أعماق
الباس ورفعوا أبصارهم ينظرون إلى (نابتة القرن العشرين) وقد مدَّ يده
يتناول الرسالة وكأنه ملكٌ من القدماء أُسْقِطَ له كتابٌ بالفتح العظيم وبعض
دولة إلى دولته .

ثم ترك الرسالة بين أصابعه يقلبها ولا يفضها وبحس في دهشة من أمره :
منظر فيها الجنون الآخر وقال له : هذا عجيبٌ يا أخى ، كيف هذا ؟ إن هذا
لا يُصدِّق ، إنك لم تُلقها في صندوق البريد إلا منذ ساعة !

المجنون

٤

وضاق « نابتة القرن العشرين » بحقوق المجنون الآخر ، ورآه داهيةً دَوَاهٍ ، كلما تَعَاقَلَ أو تَحَاذَقَ لم يأت له ذلك إلا بأن يكشفَ عن جنونه هو ؛ فلا يَبْرَحُ يُخْرِجُهُ الغيظَ مرةً بعد مرة ، ولا يزال كأنه يَسْبُه في عقله ؛ فأراد أن يحتالَ لصرفه عن المجلس ، فدفع إليه الرسالة التي جاء بها (البريد المستمجل) وقال له : خذ هذه فاذهبْ فألقها في دار البريد ، فيسجى بها الساعي مرة أخرى ، ثم تذهبُ الثانيةً فتلقها ، ويعود هو فيجى بها ، وتكون أنت تذهب ويكون هو يجى ، فتضحكُ منه ويضحكون

قال س . ع : ولكن كم يذهب هذا وكَم يجى ذلك ؟
فتمزحه (النابتة) بعينه أن أسكتْ ؛ فتعافَل س . ع ، وقال : كم تريد أن يجىء الساعي ليهتَفَ بنابتة القرن العشرين ؟

قال المجنون الآخر : هذا هو الرأى ، فلستُ قائماً حتى أعرفَ كم مرة أذهب ؛ فإن الساعي لا يجىء إلا راكباً ، وأنا لا أذهب إلا راحلاً ، وإن لي رجلىً لإنسان لا رجلىً دابة ...

قال (النابتة) : سبحان الله ! بقليلٍ من الجنون يخرجُ من الإنسان مجنون كاملٌ مُسْتَلَبُ العقل ، يَبْدُ أنه لا يأتي النابتة إلا من كثيرٍ وكثير ومن النبوغ كله بجميع وسائله وأسبابه على تعددها وتمزقها وصعوبة اجتماعها لإنسان واحد (كتابفة القرن العشرين) ، فهو الذى نوافقتُ إليه كلُّ هذه

الاسباب ، وتوازنت فيه كل تلك الحلال ؛ إنه ليس الشأن في العلم ولا في التعليم ؛ ولكننا الشأن في الموهبة التي تُبدعُ الابتكار ، كوهبة (نافذة القرن العشرين) ؛ فيها نجيء أعماله منسجمة دالة بنفسها على نفسها ؛ ومتميزة مع كونها منسجمة دالة بنفسها على نفسها ...

هذا س . ع ، كان الأول بين خريجي مدرسة دار العلوم ، مدرسة الادب والعربية ، والمنطق والتحليل ، وبلاغة اللسان وصحة النظر ؛ وهو يعرف أن الكتاب يُلقى في البريد وعليه طابع واحد ، فيصل إلى غايته بهذا الطابع ، ثم يرى بعين رأسه أربعة طوابع على هذه الرسالة المَعنونة باسم (نافذة القرن العشرين) ، فلا يُدرك بعقله أن معنى ذلك أن من حق هذه الرسالة أن تصل إلى أنا أربع مرات ...

فطرب المجنون الآخر ، وأهتز في مجلسه ، وصفق يديه ، وقال : « بما حفظناه ، هذا الحديث : « يُحَاسِبُ الله الناس على قدر عقولهم . » فلا تَوَاضَعْ س . ع ، فإن مدرسة دار العلوم تعلمهم : « فيها قولان » ، وفيها ثلاثة أقوال وفيها أربعة أوجه ، ولكنها لا تعلمهم فيها أربعة طوابع ...
ثم التفت إلى س . ع ، وقال له : لا عليك ، فأنا صاحبُه وخَلِيطُه ، وحامِلُ عليه وراويةُ أدبه ، وأكرُ دُعَايَه وَرَقَايَه ، وما علمتُ هذه الحكمة منه إلا في هذه الساعة .

قال ا . ش : فإذا كان هذا ، فإن لقائل أن يقول : لماذا لم يضع على كتابه عشرة من الطوابع ، فيجىء به الساعي عشر مرات .

قال (البابعة) : وهذا أيضاً ...

« وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمرو • صاحبك الذي لا تصحون »

إن الشمعة في يد العاقل تكون للضوء فقط ، ولكنها في يد المجنون للضوء وإلحراق أصابعه ... كم الساعة الآن ؟
قلنا : هي الساعة .

قال : ومنى يتصرف أهل هذا الندي ؟
قلنا : لنسائم الثانية عشرة .

قال : فإذا كان الساعي يتردد في كل ساعة مرة ، فهي أربع مرات إلى أن ينقضى المجتمعون هنا ، وبين ذلك يكون قد ذهب قومٌ عرفوا (نابتة القرن العشرين) ، وجاء قومٌ غيرهم فيعرفونه . وأما بعد ذلك فلا يجد الساعي هنا أحداً ، فلا تكون فائدة من يجيئه ...

فصق المجنون الآخر وقال : هذا وأيك هو التهدي إلى وجه الرأي وسداده ، وهذا هو الكلام الرصين الذي يقوم على أصول الحساب والجغرافيا ... « وما حفظناه » هذا الحديث : « لا مال أعوذ من العقل . » فأربعة طوايح ، لأربع مرات ، في أربع ساعات ؛ وما عدا هذا فإسراف وتبذير ؛ ولا مال أعوذ من العقل ...

ورضى (النابتة) عن صاحبه وقال له : لأن كانت فيك ضعف إن فيك لبقية تعقل بها ... ثم أخذ منه الرسالة ودسها في ثوبه . قلنا : ولكن ألا تقضها لنعرف ما فيها ؟

فضحك وقال : أين جازيتكم في باب المطاوعة والبادرة ، وجاريت هذا الأبله في باب جنونه وحمقه . تحسبون أن الأمر على ذلك : وأن الرسالة فارغة إلا من عنوانها وأن نابتة القرن العشرين هو أرسلها إل مائة المليون العشرين ، كما قال سعد باشا : « جورج الخامس ، نقاوض ، حوح الخامس » ... ؟

لحق وأقبح أن العقل الكبير الذى يأبى الصغائر ، هو الذى تأتى منه الصغائر
أحيانا لتثبت أنه عقل كبير ، وهكذا تسخر الحقيقة من كبار العقول (كتابنة
القرن العشرين) ...

فغضب المحنون الآخر وهم أن يتكلم : فقال له (النابغة) : أنت كاذب
فما ستقوله ...

قلنا : ولكنه لم يقل شيئا بعد ، فكما يجوز أن يكون كاذبا يجوز أن
يكون صادقا .

قال : وسينطوى فى رأيه الذى يُبديه !

قلنا : ولم يُبدِ شيئا من رأيه .

قال : ولا يعرف الحقيقة التى سيتكلم عنها !

قلنا : ويحك ، أدخلت فى عقلى الرجل أم تعلم الغيب ؟

قال : لا هذا ولا ذاك ، ولكنه قياس منطقي يتوهم اطراذه ، إنه سيقول :
إلى مجنون !

فأخرج الآخر لسانه ، قال (النابغة) : قبا لك ، لقد رأيت الكلمة فى
لسانك كأنها مكتوبة بحروف المطبعة ، ويحك ياتر قمان ^(١) ، ألا تعرف أن
لك دماغا مخروفا تسقط منه أفكارك قبل أن تتكلم بها ، ولولا أنه مخروئ
لحفظت المتن ! إن كل تخطئة لى منك هى اعتراف لى منك بصواب .

فظر الآخر إليه نظرة كان تفسيرها فى حواجه ، إذ مطَّ حواجه ^(٢)
ورقصها ، فقال (النابغة) . ونظراته خبيثة ملحة الطعم ، مزعومة كداء البحر

(١) المرقمان والمرقع الاحق الذى يتمزق عليه رأيه فلا يجتمع له .

(٢) هما حاجبان ، ولكن هذا الأسلوب هو الأوضح هنا ، وهو كثير
فى العربية

المُوأخَذَ من البحر وأضيف إلى ملحهِ الطبيعي ملح ، أكاد أتوهجُ من هذه النظرة فأقْبِه .

الآن فهمتُ معنى قولهم « مِلْحَةٌ في عين الحسود » ، فإن الملح لا يغلبه إلا الملح ، كالحديد بالحديد يُفْلَح ، هاتوا كأساً من مُعْتَقَةِ الخمر ، ثم لينظرُ فيها الخبيثُ هذه النظرة ، فإن الخمر لاند مستحيلة « شربة ملح إجمليزى » ، هذا الأبلهُ ثقيلُ الدم كأن دمه مأخوذ من مستنقع ، أهذا الذى لا يستطيع أن يقول لشيء في الدنيا : هو لى ، إلا الفقرَ والجنونَ والخرافة .. يكذب ما في الرسالة التى جاء بها البريد المستعجل ، ولا يُصدّق أنها مرسلة إلى تابعة القرن العشرين من صاحب السمو الأمير ؟

هذا الذهابُ العقلِ هو كالجان المنقطع في وَحْشَةِ الْفَقْرِ في ظلام الليل ، إذا توجَّس حركةً ضعيفةً انقلبت في وهمه قصة جريمة ملؤها الرعب وفيها القتلُ والذبح ؛ ولهذا يخشى ما في الرسالة التى جاءت من صديق صاحب السمو : هاؤُمُ آقروا الرسالة .

وفضضنا الغلاف ، فإذا ورقتان بمهورتان بتوقيع أمير معروف ، إحداهما صك بألف جنيه تُدْفَع (لتابعة القرن العشرين) ، والثانية أمرٌ بالقبض على المجنون الآخر وإرساله إلى المارستان .

* * *

وذهبتُ أصْلَحُ بينهما صلحا فقلت : إن في الحديث الشريف : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه إذ مرَّ به رجلٌ » ، فقال بمضُ القوم : هذا مجنون ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا مُصاب ، إنما المجنون المقيمُ على معصية الله .

فقال صاحب المتن : « بما حفظناه » . إنما المجنونُ المقيمُ على معصية الله !

قلت : وليس فيكما مقيمٌ على معصية الله ...

قال المجنون : « بما حفظناه » : وليس فيكما مقيمٌ على معصية الله ..

قلت : هذا ليس من الحديث ولكنه من كلامي .

قال (النايفة) : أنا تكم أن هذا الأبلهَ يَفضِلُ في داره كما يفضِلُ الأعرابي في الصحراء ؛ وأن الأسطولَ الإنجليزي لو استقر في ساقية يدورُ فيها نور كان ذلك أقربَ إلى التصديق من استقرارِ العقلِ في رأس هذا الأبله ؟ ...

فاحتدَمَ الآخرَ وهم أن يقول : « بما حفظناه » ، ولكني أسكتُه وقلت

(لِلنايفة) : إنك دائماً في ذروة العالم ، فلا غرَوَ أن ترى المحيطَ الأعظمَ

ساقية ؛ « والنوايع ، هم في أنفُسِهِم نوايع ، ولكنهم في رأى الناس مُرضى

بمرض الصعورِ الخياليِّ إلى ذروة العالم ، ومن هذا يكونُ المجانينُ هم المرضى

بمرض الزولِ الحقيقيِّ إلى حضيضِ الأدمية ؛ فهناك يعملون فتكونُ أفكارُهم

من أعمالهم ، ثم تكون عقولُهم من أفكارهم ، فيكونُ هذا هو الجنونُ

في عقولهم ، وذلك معنى الحديث : « إنما المجنونُ المقيمُ على معصية الله » .

قال (النايفة) : لَعَمْرِي إن هذا هو الحق ؛ فنبوغُ العقلِ مرضٌ من

أمراضِ السمَوِّ فيه ؛ فالشاعرُ العظيمُ مجنونٌ بالكونِ الذي يتخيَّله في فكره ،

والعاشقُ مجنونٌ بكونِ آخر له عيتان مكحولتان ؛ والفيلسوفُ مجنونٌ

بالكونِ الذي يَدَّأبُ في معرفته ؛ ونايفةُ القرنِ العشرينِ مجنونٌ ... لا . لا .

قد نسينا ا . ش . فهو مجنون ، و س . ع فهو مجنون .

وكلُّ الناسِ مجنونٌ بِلَيْلى ولَيْلى لا يُغيِّرُ لهم بِذلكَ

ومن حق لى ألا تَقَرُّ لهم ، إذ هي لا تَقَرُّ إلا لنايفة القرنِ العشرينِ وحده ؛

وما أعجَبَ بِحَرِّ المرأةِ في الكونِ الفسائى للرجال ؛ أما في الكونِ الحقيقي

فهى أنثى كإناثِ البهائمِ ليس غير ، وأعقلُ الرجالِ من كان كالخمار أو الثور

أو غيرهما من ذكور البهائم ، فالخمار لا يعرف الحارة إلا أنها حارة ، والثور لا يعرف البقرة إلا أنها بقرة ؛ ولا ينظّمون شعرا ، ولا يكتبون « أوراق الورد » ... وإناث البهائم أمات^(١) لاغير . ولكن العجيب أن ذكورها ليست آباء ؛ فهذه الذكورة طفيلية في الدنيا ، والطفيل لا يأكل إلا بحيلة يحتال بها ، فيكون صاحب نوادر وأصاحيك وأكاذيب ؛ ولهذا كان عشق الرجال للنساء ضروبا من الخداع والأكاذيب والأصاحيك والحيل والنفلة والبلاهة ؛ وإذا نظرنا إليه من أوله فهو عشق ، أما آخره فهو آخر الحيلة والأكدومة ، وهو قول الطفيلي : قد شيعت وقد رويت ... ويحكم ، أين أول الكلام ؟ قلنا : أوله : ما أعجب يحرم المرأة في الكون النفساني للرجال .

قال : نعم ، هذا هو ، إنه يحرم لأعجب منه في هذا الكون النفساني إلا يحرم الذهب ؛ فلو ميّخت المرأة الجميلة سياتا من الاشياء لكانت سبيكة ذهبية تلعب ؛ ولهذا يوجد الذهب للصوفى في الدنيا ، وتوجد المرأة الجميلة لصوفا آخرين ، فيجب أن يُصان الذهب وأن تُصان المرأة .

قلت : ولكن أليس من المال فصة ، وهي توجد للصوفى كالذهب ؟ قال : نعم ، وفي النساء كذلك فصة ، وفيهن النحاس ؛ ولو أنت ألقىت ريالاً في الطريق لأحدثت معركة يحتصم فيها رجلان ، ثم لا يذهب بالريال إلا الأقوى ، ولو تركت قرشاً لتضارب عليه طفلان ، ثم لا يفوز به إلا من عَضَّ الآخر ...

ولكن (فورد) الغني الأمريكي العظيم الذي يجمع يده على أربعمائة مليون جنيه ، لا يتكلم عن القرش ؛ و (نابغة القرن العشرين) الذي يملك (ليلي) ، لا يتكلم عن غيرها من قروش النساء ..

(١) يقال في غير العاقل : أمات ، وفي العاقل : أمهات .

قلت : فإن أحسبك أعطيت أن اسمها : فاطمة لا ليلي .

قال : هل يستقيم الشعر إذا قلت : « وكل الناس مجنونون بفاطمة ، وفاطمة لا تقر لهم ، ؟ قلت : لا .

قال : إذن هي (ليلي) ليستقيم الشعر ... أما حين أقول : « فاطمة مهلاً بعض هذا التدلُّل » ، فهي فاطمة ليصبح الوزن ...

قلت : يُشبهه والله ألا يكون اسمها ليلي ولا فاطمة ؛ وإنما هي تسمى حسب الوزن والبحر ، فاسمها فقولُن أو مُفاعِلَتُن ...

* * *

ثم قلنا له : فما رأيك في الحب ، فإنه ليقال إنك أعشقُ الناس وأغزلُ الناس ؟

قال : إن ذلك ليقال (وهو الأصح) أتم أطرق يفكر ، وبدأ عليه أنه مدهوش ذاهبُ العقل ، كأنه من قلبه على مسافة أبعد من المسافة التي بينه وبين عقله ، وخيَّل إلى أن النساء قد حُشرن جميعاً في رأسه ومرت كل واحدة تعرض مفاتيحها وغزلها ، وتُلاثم هذياناً بهذيان من جمالها ، فهو يرى ويسمع ويُعْرِض ويتخيَّر ؛ ثم اضطرب كالذي يحاول أن يمسك بشيء أفلت منه ؛ فلم يَبْهَ إلا قولُ المجنون الآخر : « بما حفظناه ، أن أعراية سلت عن العشق فقالت : إنه دالة وجنون ...

قال : اسكت يا ويلك ! لقد أطمعت الأنوار بكلمتك المجنونة : كان في رأسي مرقصٌ عظيم تُسطع الأنوارُ فيه بين الأحمر والأخضر والأبيض ؛ وترقص فيه الجميلات من الطويلة والقصيرة والمشوقة والبادية ، تجتث بالداء والجنون قبضتك الله فأخرجتنني عنك ! أحسب أنك لو انتحرت لصلح العالم أو صلحت أنا على الأقل .. فإذا أردت أن تشق نفسك فأما آتيك بالحبلي

الذى كنتُ مقيداً فيه ، أى الحبلى الذى عندى فى الدار ... على أن رأسك
الفارغ مشنوق فيك وأنت لا تدري !

قال الآخر : ما أنت منذُ اليوم إلا فى شنى وتعذيبى أو فى شنى عقل
(على الأصح) ، «وما حفظناه» قولُ الأحف بن قيس : (إلى لأجالسُ الأحق
ساعةً فأَتَيْنُ ذلك فى «عقل» ...

فلم يَرعنا إلا قيامُ المجنون مسلحاً بحذائه فى يده ... وهو حذاء عتيقٌ غليظ
يقتلُ بضربةٍ واحدة ؛ فحلنا بينهما وأثبتناه فى مكانه ، وقتلنا : هذا رجلٌ قد
عُلِبَ على عقله فلا يدري ما يقول ؛ فإذا هو دلٌّ على أنه مجنون أفلا ندلُّ
أنت على أنك عاقل ؟ ما سألناك فى انتحاره وجنونه ، بل سألناك رأيك فى
الحب ؟ وما تشك أنك قد أطلتَ التفكيرَ ليكونَ الجوابُ دقيقاً ، فإنك
(نابغة القرن العشرين) ؛ فانظر أن يكونَ الجوابُ كذلك .

قال : نعم ، إن العاقلَ إذا ورد عليه السؤالُ أطالَ الصكرَ فى الجواب ،
فاكتب يا فلان (س ، ع) :

(جلس نابغة القرن العشرين مجلسَ الإملاء مُرتجلاً فقال : «قصةُ الحب
هى قصةُ آدم ، خلق الله المرأةَ من ضلعه ، فأولُ علاماتِ الحب أن يشمرَّ
الرجلُ بالآلم كأن المرأةَ التى أحبا كسرت له ضلعاً ... وكل قديم فى الحب هو
قديمٌ بمعنى غير معقول ، وكلٌ جديد فيه هو جديدٌ بمعنى غير مفهوم ؛ فغيرُ
المعقولِ وغير المفهوم هو الحب ...

والجرةُ الحمراء إذا قيل إنها انطلقت وبصيت جرةً فذلك أقربُ إلى الصدق
من بقاء الحب حياً بمعناه الأول إذا انطلقاً أو برد .

والعاشقُ مجنون ، وجنونه مجنونٌ أيضاً ، فهو كالذى يرى الجرةَ منطقتةً

(١) هذا نص عبارته حين يريد التخاطب .

ويرى مع ذلك أنها لا تزال حرام ، ثم يُعِينُ في خياله فيراها ورده من الورد .. وإذا سأله أن يصفَ الجمالَ الذي يهواه كان في ذلك أيضاً مجنونَ الجنون ، كالذى يرى قرَّ السماء أنه قد تَفَتَّت وتناثر ووَقَعَ في الروضة ، فكان يثاره هو الياسمين الأبيضَ الجميلَ الذكى .

والمجنونُ يرى الدنيا مجنونه والمائلُ يراها بعقله ؛ ولكنَّ العاشقَ المخبولَ لا ينظر من يهواه إلا ببقيةٍ من هذا وبقيةٍ من ذلك ، فلا يخلُصُ مع حبيبه إلى جنون ولا عقل .

والمجهولُ إذا أراد أن يظهرَ في دماغِ بشرى لم يسمعه إلا أحدُ رأسين : رأسِ المجنون ورأسِ العاشق .

ولا صعوبةٌ في الحكم على شيء بأنه خيرٌ أو شرٌّ إلا حين يكونُ الخيرُ والشرُّ امرأةً معشوقة ، أما أوصافُ الشعراء والكتابِ للجمالِ والحب فهي كلها تقليدٌ قد توسَّعوا فيه . والأصلُ أن تورا أحب بقرةً فكان يقول لها : يا نجمةَ القطب التي نزلت من السماء لتدورَ في الساقية كما دارت في الفلك ... قال (الناطقة) : هذا رأيي في حب العاشقين ؛ أما حبي أنا (ناطقة القرن

العشرين) فيجمعه قولك : قل ، ورد ، زهر ...

قلنا : ما هذه الألغاز ؟ وهل للحب مثنٌ كقولهم : حروفُ القَلَقلة يجمعها قولك (قَطْبُ جِد) ، وحروفُ الزيادة يجمعها قولك (سألتونيها) ؟

فتضاحك (الناطقة) وقال : تكاثرت الظباء على خراش ، فلكيلا تسمى ... إن كل حرف هو بدء اسم ، الفاء طاطمة ، واللام ليلي ، والواو وردة ، والراء رباب ، والداد دلال ، والزاي زكية ، والهاء هند ، والراء رباب ...

قلنا : رباب قد مضت في (ورد) !

قال : كنا نهاجرنا مدة ثم أصطلحنا بعد هند .

قلت : هكذا « النوايع » ؛ فإن رجلاً أديباً كانت كنيته (أبا العباس) ،
 لها « نغ » صيرها (أبا العير) ^(١) وفتح له نبوغه أن يجعلها تاريخاً يعرف
 منها عمره . قالوا : فكان يزيد فيها كل سنة حرفاً حتى مات وهي هكذا :
 أبو العير طرد طيل طليري بك بك بك
 —————

المجنون

٥

ثم إن (نابغة القرن العشرين) استخف الطربُ لذكر صواحبه وجميلائه
 من فاطمة إلى دباب ، ومن طبع المجنون أنه إذا كذب صدق نفسه ، فإن قوة
 الضبط في عقله إما معدومة وإما مختلة ؛ وكل وجه تخيل منه خيالاً فهو وجه
 من وحوه العلم عنده ، إذ كان عالمه أكثره في داخله لا في العالم ، فإذا توهم
 أو أحس أو شعر ، فإنما يكون ذلك بطريقته هو لا بطريقة الناس العقلاء ؛
 فليس يحتمل عقله إلا فكرة واحدة تضي منفردة بنفسها مستقلة معناها كأنها
 قدّر غالباً على جميع أفكاره الأخرى ، فلا شأن لها بالواقع ، ولا شأن للواقع
 بها ، وإعما هي تحقق معناها كما تخطر له ، لا كما تتمثل فيها حوله .

فبين كل مجنون وبين ما حوله دماغه المتدجى بالنعيم العقلية ، لا تزال

(١) العير : الحمار ويكنى بعض الحقي (أبو البقر) قياساً على (أبو العير) .

تعرّض له النّيمة بعد النّيمة من آختلال بعض المراكز العصبية فيه ، وفساد أعمالها بهذا الاختلال ، وقيام الطبيعة فيها على هذا الفساد .

ومن ذلك تنقلب الكلمة من الكلام وإنها لحادثة تامّة في عقل المجنون ، كالقصّة الواقعة ، لها زمانٌ ومكانٌ وبَدْءٌ ونهاية ، لا يُخامِرُه فيها الشك ، ولا يمتريها التكذيب ؛ وكيف وهي قائمةٌ في ذهنه من وراء سمعه وبصره قيام الحقيقة في الأبصار والاسماع ؟

ولحواس المجنون جهتان في العمل ، لأنها بين كَوْنَيْنِ : أحدهما الكون الحَرَبُ الذي في دماغه ؛ وفي هذا يقول (نابغة القرن العشرين) : إن في داخل عييه منظاراً يرى به الأشياء في حقائقها ، أى في غير حقائقها ... وحدثنا الدكتور محمد الرافعي قال : إن في دار المجانين بمدينة ليون بفرنسا نابغة كتابفة القرن العشرين ، ذُكِرتُ أمامه قيصرُ روسيا وخبرُ مقتلها ، فأحفظه هذا وأرَمَصَه وقال : يا ويجهم ! كَذَبُوا عليها وعلى ... فسأله الدكتور : وكيف ذلك ؟

قال : كان من خبر القيصر أنها رأتني فأجبتني ، وعلت من كل وجه يمكن أن يعلم منه قلبها أني أنا رجلها لا القيصر ؛ فزالَتْ بعدها تُناكذُ القيصرَ وتلتوى عليه ولا تصلح له في شيء حتى ينس منها فطلقها ، فحملت كنوزها وحلّاهما ولجأت إلى حبيبها ، ثم تبعها نفس القيصر ولم يُطق العيش بعدها فاتحراً ... ثم طلبها الشيوعيون لما معها من كنوز ، فأخذاها هو في مكان حَرِيذٍ لا يعمله إلا هو ؛ ثم إنه هو لا يصلُ إلى هذا المكان الذي أحرزها فيه إلا إذا نام ... كيلا يراه أحدٌ من الشيوعيين فيتعقبه فيعلم مقرّها ؛ ولهذا كان من الحكمة أن ينسِي المكان إذا استيقظ ... فقد يزل مرةً فيخبرُ به أو يغلبه

الشوق مرة على « عقله » ... فيذهبُ إليه ؛ فعسى أن يراه من يَمِّمُ بذلك ،
فتفضعُ الحبيبة وتوخذُ منه .

قال : وإن القصيرة هي تحتاط أيضاً مثل ذلك قتراسه كل يوم باللاسلكي
رسائل تقع من الجو في دماغه فيقرؤها وحده ، وإن أخواف ما يخافه أن
يغلبها جنون الحب يوماً فتطيش طيش المرأة ، تزوره في هذا المارستان ...
فقد تقتل إذا رآها الشيوعيون .

قال الدكتور : وهاك (نابتة) آخر ثبت في ذهنه أن امرأة من أجل
النساء قد آسَته به وأنها مبتلاة في حبها إياه بجنون الغيرة ، وقد تناهت فيه
حتى إنها لتقتل نفسها إذا علمت أن لصاحبها هو في امرأة أخرى ؛ وخيلته
هذه العكرة ، فاعتقد أن حبيته من جنون غيرتها واقعة بين السلامة والتلف ،
ثم توهم ذات يوم أن واشياً قد أعلنها أن النساء اثنان به ؛ فطار صوابها ،
فهي آتية إليه في المارستان لتوبخه وتشفي غيظها منه ، ثم تتحرر أمام
عييه ... وأدار (النابتة) الفكر في إقناعها لتعلم أنه لم يخونها بالغيث ...
فلم يهتد إلى مَقْنَع تستيقن به المرأة أن لا أرب للنساء فيه إلا أن ...
فعل وجب خصيته بيده ليقدمها برهاناً أنه لها وحدها ...

* * *

قلنا : وطرب (نابتة القرن العشرين) لذكر صواحيبه وجيلانه ،
لجعل يترنم بهذا الشعر :

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوى قُلتُ لهم ما لنة الميش إلا للجانين !
فقال المجنون الآخر : « ما حفظناه ، مائدة الخبز ، إلا للجانين .
فضحك (النابتة) وقال : ما أسخفك مِن أَحَق ! إذا كان هذا هو المعنى
فقل مائدة (الكعك) ! ألم أقل لكم إن هذا الأبله لوتجأ كلمة خبز لقال إنها

ل.ح.م. ولوتها كلمة لحم لقال: ف.و.ل. ...

إنه طفلٌ همُّه ثلاثون سنة، وفيه دائماً غصبُ الطفل وتزكُّه وحماقته، وفيه كذلك سرورُ الطفل وطيشه وأحلامه؛ غير أنه ليس فيه عقلُ الطفل... وهو من الضعف وشدة الحاجة إلى العناية في حياته وسياسة والبر به كطفل صغير - بحيث يُخَيَّل إلى أحياناً أنني أمه !

قلنا : ونسى في هذه الحالة أنك رجل ؟

قال : وأنتم كذلك تهملون بالسيان ، وهو شرعا جهة مُلزمة للحكم بالجنون ، فالسيان إلا الكلمة الأخرى لمعنى ضعف العقل : وضعف العقل هو اللفظ الآخر لمعنى جنون ؛ وقد أعلتكم ما أكره من الكلام .

قلت : لا ، السيان لا يكون منك نسياناً بمعناه في المجانين ، بل بمعناه فيك أنت من توائب الأفكار النابتة وتزائجها في تواردها على العقل ، فإذا توائبت وتزاحمت كان أمرها إلى أن يُلبى بعضها بعضاً ، فلا ينطلق منها إلا القوى النابت حق نبوغه ، فيجىء كالمنقطع مما قبله ؛ فيحسب ذلك نسياناً وما هو به ، وقد تصطلح الأفكار في هذه المرحلة الذهنية إذا كان النابتة مسروراً محبوراً برقص طرباً ... فيكون أمرها إلى أن تنجى كلها معاً على اختلاف معانيها وتناقضها ؛ فيحسب ذلك ضرباً من الانهول عند من يجهل العلة « التبوغيه » : وعذره جهل هذه العلة ، وهي في دلالة العقل ليست نسياناً ولا ذهولاً .

قال : فأعلمنى كيف نسيان المجانين ، فقد خفى على أن أدرك هذا الأمر العجيب فيهم ، ولست أدري كيف يفوتهم ما استدنى لهم من الفكر بعد أن يكون قد استقر وحصل في عضولهم ؟

ومحكنا جميعا ؛ فقال النابتة : أبعذك الله يا س . ع ! إن من اتهم
المجنون على سِرِّ وقال له : اكتمه . فكأنما قال له انشره !

ثم قال : وَدِدْتُ والله أن يكون س . ع هذا « نابتة » ، ولكنى سأجعله
نابتة ، فقد صار له على حَقِّ الصديق ، وهو حَقٌّ لا أضيِّعه ولا أُخلُّ به ، فإذا
احتجت يا س . ع إلى خطابٍ رنانٍ تلقيه في حفلٍ عظيم ، أو قصيدةٍ تمدح
بها وزير المعارف ، فالجأ إلى فاني ملجأ لك ، ومتى انتحلت شعري كنت
عند الناس المتلبى أو البحترى أو ابن الرومي ؛ فإن هؤلاء القُداسى لم ينفعهم إلا
أننى لم أكن فيهم ، ولما لم أكن فيهم أعجبوا الناس إذ أننى لم أكن فيهم ...
قلنا فما حكك عليهم في الأدب ؟

قال : إذا حكمتُ عليهم فقد جعلتُ نفسى بينهم ، فن الطبيعى ألا يعجبني
منهم أحد ، إن « نابتة القرن العشرين » لا يقول لمعنى هذا أحسن ، فإنه هو
فوق الأحسن ، ولا يقول عن نابتة هذا أشهر ، فإنه هو فوق الأشهر .
قلت : كأن الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهد العظيم الذى لا يقول
فى حُسن : هذا أحسن ، لأنه فوق الشهوة ؛ ولا فى نعيم : هذا أطيب ، لأنه
فوق الطمع ؛ ولا فى مال : هذا أكثر ، لأنه فوق الحرص ؛ وأحسبك لو كنت
ترعى غنماً لكنت الحقيق فى عصرنا بقول تلك الراعية الزاهدة : أصلحت
شأى بينى وبينه ، فأصلح بين الذئب والغنم .

قال : وكيف ذلك ؟

قلت : حكى عن بعض الصالحين أنه فكر ذات ليلة فقال فى نفسه : يارب ،
مَنْ زوجنى فى الجنة ؟ فأرى فى منامه ثلاثَ ليال أنها جارية سوداء فى أرض
كذا ؛ فجاء تلك الأرض فسأل عن الجارية ، فقال له رجل : ما هذا ؟ تسأل عن

جارية سوداء مجنونة كانت لي فأعقتها ؟ قال : وماذا رأيتم من جنونها ؟ قال : كانت تصوم النهار فإذا أعطيناها فطورها تصدقت به ؛ وكانت لاتهدأ الليل ولا تنام ، فضجرتا منها .

قال : فأين هي ؟ قال : زعمى غنيا للقوم في الصحراء .

فذهب إلى الصحراء فإذا هي قائمة في صلاتها ، ونظر إلى الغنم فإذا ذئبٌ يدلها على المرعى وذئبٌ يسوقها ؛ فلما فرغت من صلاتها سلم عليها ، فأبأنه أنه زوجها في الجنة ، وأبأنها أنه بُشريا ؛ ثم سألتها : ماهذه الذئبان مع الأغنام ؟ قالت : نعم ، أصلحتُ شأنى بينى وبينه ، فأصلح بين الذئب والغنم ؛ قال (النابغة) : هذا كذب لأنه عجيب ، وهو عجيب لأنه كذب .

قلت : وأى عجيب في هذا ؟ إن الذئب والشاة ، والأسد والغزال ، والثيمان والعصفور ، وكل آكل وماكول من الأحياء - لو هي دخلت في دائرة الصلاة الحقيقية لاتنظمت كلها صفاً واحداً يركع ويسجد ؛ فهذه الجارية نشرت رُوح الصلاة والتقوى على كل ماحولها من قلبها الطاهر المطمئن بالإيمان ، فوقع الذئب منها في دائرة مغناطيسية ، فُسلب وحشيتة ورجع مُسخرأ لفكرة الصلاح والخير ؛ إذ تجاسست فيه الحياة بما حولها ، وأنجم النوع والنوع في حركة متجاوبة انسجام الرجل المغناطيسى هو ومن ينومه في إرادة واحدة وفكرة واحدة .

قال (النابغة) : فإذا دخل الذئب مسجداً يرتجئ بالمصلين ، أترأه يصفُ أربعته ويقف بينهم للصلاة ، أم يصلى صلاته الذاتية في لحومهم ؟

قلت : وأين هم الذين يصلون بحقيقة الصلاة ، فيخرجون بها من النفس إلى الكون ، ومن الزمن إلى الأبد ، ومن الأسباب إلى مُسيبها ، وما في القلب إلى ما فوق القلب ؟ إن هؤلاء جميعاً يصلون بحرارهم ويبيهم وبين أرواحهم طول

الدنيا وعرضها ؛ وما منهم إلا من يتصل فكره بما يغلب عليه ، كما يتصل فكر الصبيده ، وفكر العاشق بعينه ، وفكر الطفلى بمعدته ... فاسمها عديم الصلاة ، وحقيقتها عند الله كما ترى .

قال (النابغة) : ولكنه ذئبٌ من طبيعته أن يأكل الشاةَ لا أن يرعاها ، فلا أفهم شيئاً .

قال الآخر : « بما حفظناه » : رتّع الذئب في الغنم ، ولم يقولوا : صلى الذئب في الغنم ، فلا أفهم شيئاً !

قلت : سأزيدكم عَدَمَ فهم ... إن قلب تلك المرأة العظيمة الطاهرة متصل بالله ، وليس فيه شيء من طباعها الإنسانية ولا ظلٌ من ظلال الدنيا ؛ وقد نجى فيه سر الحياة ، وهو السر الذى لا يطعم ولا يشرب ولا يلبس ولا يشهى ولا يطعم في شيء ولا يبرز شيئاً ، وإنما طبيعته وأشواقه الكونية ، وانصاله بنفحات القوة الأذلية المستخرة للوجود كله ، فانتشرت هذه الموجة الكهربائية الأثرية حول الجارية من قلبها ، وجاء الذئب فالتجّ فيها وغمرته الروحانية الغالبة ، فإذا هو يفتح عينه على كونٍ غريب فدنجلى السلام عليه ، فليس فيه إلا قوةُ امرأةٍ أمرها بائتلاف كل شيء مع كل شيء ، واجتماع المسافرين في حالة معروقة لا في حالة إنكار ، فصار الذئب مستيقظاً ولكنه في رُوح النوم ، وشلت فيه الدتية الطبيعية فإذا هو يحمل الأنياب والاذافر وقد أنبى استمالها ، وبقيت حركته الحيوانية ولكن تعطلت بواعثها فبطل معناها .

ومن كل ذلك آخنى الذئب الذى هو فى الذئب ، وبقي الحيوان حياً ككل الأحياء ، فناسب الشاة وفزع إليها ؛ إذ لم تكن العلاقة بينهما علاقة

جسم الآكل بحسب الآكلة ، بل علاقة الروح الحى بروح حى مثله ^(١)

قال (الناطقة) : أما أنا فقد فهمتُ ولكن هذا المجنون لم يفهم . اكتب يا س . ح : جلس نابغة القرن العشرين مجلسه للفلسفة على غير إعداد ولا تمكن ، وبدون كُتب ألبة ... وكان هذا أجمع رأيه وأذهن له وأدعى لأن يتوفر على الإملاء بكل « مواهب العقلية » ؛ ولما أن فكر النابغة وأعطى النظر حقه وجمع في عقله الفذ جزالة الرأي إلى قوة التخيل والابتكار ، قال مرئبلا : إن فلسفة الذئب والشاة حين لم يأكلها ولم تتطعمه ، هى بالنص وبالخراف كذا قال أستاذ نابغة القرن العشرين ...

حاشية : وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة .

(١) روت الصحف فى هذه الأيام قصة حاكم إنجليزى كان اقتصر ذنباً هنغاريا وشده فى سلسلة وحمله فى حديقة داره إلى أن يرى فيه رأيا ؛ وكان للحاكم طفل صغير أعجب الذئب ومنظره الوحش ، فترى إلى الليل ، فلما استقل أهله نوما ، اسل من حجرته وهبط الحديقة وجاء إلى الذئب ، فوثب هذا يتحزلا قتراسه ؛ ولكن الطفل لم يدرك شيئا من معنى هذه الوحشية : ولم يكن فى نفسه إلا أن الذئب كالكلب ، فلم يضطرب ولم يخف ولم يداخله الشك ، ومضى إلى الوحش مسرورا مطمئا ، فتناوله من شعره وجعل يمسحه يديه الصغيرتين ويعيث به . والذئب مدهوش ذاهل ، ثم سكن واستأنس إليه كأنه مع جرو من أجرائه لا مع طفل آدمى ، وجذبه الطفل من رقبته حتى أصبحه ، ثم اتخذته وسادة ووضع رأسه على ظهره ونام ... وافترقت الطفل مربيته فلم تحده فى فراشه ، فنهت أهله ودهبوا يبحثون عنه فى غرف الدار ، ثم نزلوا إلى الحديقة فبصروا به نائما ورأسه على الذئب . وعافوا إزعاج الوحش ، فرموه بالرصاص فقتلوه وقام الطفل يكي على صديقه الوفى ...

هذا هو أثر الروح المطمئة الماضية على يقينها ، ولكن أين مثل هذا اليقين فى مثل هذه الحالة ؟ وكل مروض الوحش يعلنون أن أول وآخر ما يحيفونها به هو زرع الخوف من أنفسهم ، وأن هذا هو وحده سلاح النفس فى النفس .

فامتعض الآخر وقال : « بما حفظناه » :

وبات يَندحُ طولَ الليلِ فكرتهُ وفَسَّرَ الماءَ بعدَ الجهدِ بالماءِ .
فقال (الناطقة) : وبلك يا أبه ! أما واقعهُ لو كنتَ قَطَرِيهِ أو سَبِيوِيهِ لما
كنتَ عندى إلا جَحْشَوِيهِ أو بَنَلَوِيهِ ...

لقد كنتُ أرى الكلامَ فى تلكَ الفلسفةِ طريقاً نزهاً جميلاً حَفَّتْهُ الأشجارُ
والأزهارُ عن جانبيه ، واندفعتُ فى سَوَاتِهِ « تُمَيَّلَاتُ » الأفكارِ غاطفةً كالبرقِ ؛
فلما تكلمتُ أنتَ انتهيتا من سَخَافِكَ إلى طريقِ حجرى تُفَقِّعُ فيه عِراتُ
النفلِ تَجْرُها البغالُ البطيئةُ .

فقال الآخر وهو يعتذر إليه : ما أردتُ واقعهُ مَسَاءَ تَك : ولو أردتُها لقلتُ :
وفسر الماءَ بعدَ الجهدِ بالسبوتِ ... فهذا هو الخطأ ، أما تفسيرُ الماءِ بعدَ
الجهدِ بالماءِ : فهو صحيح .

قال «الناطقة» : ولكنه تفسيرٌ مُفْرِطُ السقوطِ كتفسيرِ المجانين ، فهو
يقول إني مجنون .

قلت : كلا ، إن تفسيرَ المجانين يكون على غير هذا الوجه ، كالذى حكاه
الجاحظ قال : سمعتُ رجلاً يقول لآخر : ضربنا الساعةَ زنديقا . قال الآخر :
وأى شئٍ الزنديقا ؟ قال الذى يُقَطِّعُ المزيقا ! قال : وكيف علبتُ أنه
يُقَطِّعُ المزيقا ؟

قال : رأيته يأكل التين بالخل ...

المجنون

تمة

وطال المجلسُ بنا وبالمجنونين والكلامُ على أمحائه يندفعُ من وجهٍ إلى وجه ، ويمرُّ في معنى إلى معنى ؛ فأردتُ أن أبلغَ به إلى العاية التي جمعتُ من أحلها بين هذين المجنونين بعد ما انطلقا في القول وانفتح القفلُ الموضوع على عقل كل منهما .

وكان قد مرَّ في التديُّ بائع روايات مترجمة «وليسية وغرامية ولصوصية» ، يحمل الرجلُ منها مَرَبَّةً أخلاقٍ أوربية كاملة لينفَعَتْها في نفوس الأحداث من فتياننا وفتياتنا ، فقلتُ (لنا بئحة القرن العشرين) : «اقرأ الروايات» ؛ قال : لا ، إلا مرة واحدة ثم لم أعاد ، إذ جعلتني الروايةُ روايةً مثلها !

قلنا : هذا أعجبُ مامرٍّ بنا منذ اليوم ، فكيف صرتَ رواية ؟

قال : أنتم لا تعرفون طبيعة النوايح ؛ إذ ليس لكم حِسُّهم المرفف ، ولا طبعهم المستحكم ، ولا خصائصهم الغيبية ، ولا خواطرهم المتعلقة بما فوق الطبيعة !

قلتُ : نعم أعرف ذلك «وما من (نايحة) إلا وهو بين عالمين على طرفٍ مما هنا وطرفٍ مما هناك ، فهو خراجٌ ولّاج بين العالمين «وله نفسٌ مركبةٌ تركيبها على نواميس معروفةٍ وأخرى مجهولة ؛ فهي تأخذ من الظاهر والباطن معاً ، ويحصرها المكان مرة ويُفلتها مرة ، وتكون أحياناً في زمانٍ الأرض وأحياناً في زمن الكواكب من القمر فصاعداً ... ولكن ...

فقطع على وقال : أضف إلى ذلك أن هذه العقول التي تنحصر من يسونهم العقلاء في الزمان والمكان ، لا توجد أهلها إلا المموم والآحزان ، والمطامع السافلة ، والأفعال الدنيئة ، فإنهم يعيشون فوق التراب .

قلت : نعم ، وإذا عاشوا فوق التراب فباضطراب أن تكون معاني التراب فوقهم وتحتمهم ومن حولهم وبين أيديهم ، فليسوا يقطعون على هذه الأرض إلا عمراً تريباً في كل معانيه ، ولكن ...

قال : وزد على ذلك أنهم مقيدون بقييد المجانين ، غير أن جبالهم وسلاسلهم عقاية غير منظورة ؛ وبثليلهم تغليل المجانين يسئون أنفسهم عقلاء ، وأعقلهم أثقلهم قيوداً ، وهذا من الغرابة كما ترى .

قلت : نعم ، أما العقلاء بحقيقة العقل فهم الذين يضحكون على هؤلاء ويسخرون منهم ؛ إذ كانوا في حال كحال المنطلق من المفيد ، وفي موضع كموضع المعاني من المبتلى ، ولكن ...

قال : وفوق هذا وذاك ، لهم لا يملكون السعادة ؛ إذ ليس لهم العقل الضاحك الساخر العايب الذي خص به النوانغ وكان الاوحد فيه (نائبة القرن العشرين) !

قلت : نعم ، وإذا ملكوا السعادة لم يشعروا بها : أما (النوانغ) فقد لا يملكونها ولكن لا يفوتهم الشعور بها أبداً ، فيجيتهم الفرح من أسبابه ومن غير أسبابه ، ما دام لهم العقل الضاحك الساخر العايب الذي دأبه أبداً أن يلس ليضحك ، ولا قانون له إلا إرادة صاحبه ، على مشيئة صاحبه ، لمنفعة صاحبه ، ولكن ...

قال : والذي هو أهم من كل ما سبق أن أعظم خصائص هذا العقل الضاحك الساخر العايب أن يطرد عن صاحبه ما لا يحب ، ويحب أن يحصر شيئاً

من نفسه ؛ فهو لذلك يحمل حساباً مع الأشياء حساباً يهودياً : لا بد فيه من ربح خمسين في المائة

قلت : نعم ، وهو دائماً كالطفل ؛ وما أظرفَ بلاهةَ الطفلِ وما أجداهما عليه ؛ إذ يضع بلاهته دائماً في أرواح الأشياء وأسرارِها ، فتخرجُ بلهائه مثله وتقلبُ له الدنيا كأنها أمٌ تُضاحكُ أبناً وتلاعبه ؛ ولكن ...

قال : ولكن هذا مبلغٌ لا تبلغه الإنسانيةُ إلا شذوذاً في أفرادها من جباورة العقول (كتابنة القرن العشرين) .

قلت : نعم (ولكن) كيف صار (نابنة القرن العشرين) روايةً حين قرأ الرواية ؟

قال : هذه نكتةُ النبوغ ؛ فلو أن مؤلفها كان نابنةً مثلها يتلقى في نفسه وحىً الآتير وإشاراتِ الروح الأعظم ؛ لعم من النيب أن (نابنة القرن العشرين) سيقراً روايته ، فكان يتحرى معاني غيرَ معانيه ، ويتوخى بهذه القصة وضماً آخر لا تكونُ فيه حبيبة خائنة ، ولا لصرُ عارم ، ولا قاتلٌ سفاح ، ولا مجنُنٌ مظالم ، ولا محكمةٌ تقول : حيث وحيث ...

قلت : وما عليك من حبيبة خائنة في الورق ، ولصرٍ بين الحروف المطبعية ، وقاتلٍ لا يقتل إلا كلاماً ، ومجنُنٍ ومحكمة على الصحيفة لا على الأرض ؟

قال : هذه نكتةُ النبوغ ، فما استوعبتُ القصةَ حتى غمرتني أشخاصها وأقبحمتُ منها على هولِ هائل ، تخافتني الخائنة لعمنا الله ... ولولا خوفُ السجن والمحكمة لقتلتها أشنع قتلة ، ومثلتُ بها أقبح تمثيلٍ ووحَّ الخائنة كيف آسنالها ذلك الهميم الطويلُ المِلاقُ ، والمشبوحُ العظام ، المفتولُ المضل ؟ ولكني لستُ عملاقاً ولا متيناً بناءً الخاطئ ، ثم كان مجنوناً شهواته جنونَ الفيل الهائج (٢٦ و ٢٧ من المجلد ٢)

وكنْتُ في شهواتي عاقلاً عقلَ الإنسان ، ثم كان غنياً غنى الجُهَّال ، وكنْتُ فقيراً فقراً العُلماء . والنساء : قبح الله النساء ، إهن زينةً تطلبُ زينةً مثلها ؛ وإن المرأةَ لتمتحن وجهها للقرد يقبله إذا كان الذهبُ يتساقط من قُبَلاته ؛ أما من كان مثلي ، أمواله الشبابُ والجمالُ والعقلُ والنبوغُ ، فهو مُفلس عندهن إفلاسَ القرد في الغابة ، فهو عندهن قردٌ لهذه المشابهة . قلت : هذا ليس عجيباً ، فإن اللعويين يُجرون على الشيء أسمَ ما يقاربه في المعنى .

قال المجنون الآخر : « ما حفظناه » أن اللعويين يُجرون على الشيء أسمَ ما يقاربه في المعنى ...

قربد وجهه « النابغة » غضباً وقال : أبى يلعبُ هذا المجنون ؟ إنه يزعم أن اللعويين يسمونني قرداً ؛ فهاتوا التواويس كلها وأرجعوا إلى مادة « قرد » ومادة « نابغة » ... سؤأة عليك أيها الصبيُّ المعمر ... ألا فدعوني أؤدبه أدب الصبيان ، فإن اللطامةَ القويةَ على وجه الطفل المسكين في حقيقة تُلْسِهُ الحقيقةَ التي يكابر فيها ، إذ تدخلها إلى عقله من أقربِ طريق ...

قال ا. ش : أنت قلت ، لا هو ؛ على أنك لست قرداً أبداً إلا عند امرأة جميلة فاتنة متخيلة متباحة ، قد تضع البرذعة على ظهر الأمير وتجعله حمارها فيعجب الأمير أن يكون حمارها ؛ ولست فرداً مع قرادٍ إلى جانب عنز وكلب . قال : الآن علمت السبب ، فإن الحاتنة كانت متخيلة مؤلفة كُتب وروايات ، والمرأة التي تولف الكتب غير بعيد أن تولف الرجل أيضاً وتجعله قصةً هو فيها قرد . وهذا إن كانت جميلة كامرأة الرواية ، أما إن كانت دميةً مجموعةً من المناقضات ، أو مجموعةً من السنين : فهذه كل أياها

كيوم الأحد عند النصارى ... يومُ اللُّطلة لا يبيع فيه ولا شراء ولا مساومة ؛
هذه وهذه كلتاها تجعل الرجلَ كالماء في سيل التجمد ... لا يشتعل ، فضلا
عن أن يَسْتَحِرَّ ، فضلا عن أن يحترق .

ومؤلفة الكتب لا يكون وجهها إلا إحدى وثيقتين : فإما جميلة ، فوجهها
وثيقة بأن لها ديواناً على الرجال ؛ وإما غيرُ جميلة ، فوجهها (مختلصة) من
كل الديون

قلنا : هذا في الحاتنة ؛ فكيف سرّك الله ولست غنيا ؟
قال : هذه هي نكتة النبوغ ؛ وفي النبوغ أشياء لا ينكشف تفسيرها ،
وليس في جهلها مضرة على أحد ، وجهل لا يضّرّ هو علم لا ينفع ، لكنه علم ،
والبحث في بعض أعمال (النابغة) هو كالبحث عن سر الحياة فيه ، إذ يمثل
أعماله تلك سر الحياة لا بسر العقل ، أى بالعقل النافع الخاص به وحده
لا بالعقل الطبيعي المشترك بين الناس .

قلت : ومن عجائبك أنك لا تقرأ الروايات ، ولكنك مع ذلك تؤلفها ...
قال : إن ذلك ليكون : وإن لم أولفها أما تألفت هي لي ؛ فإذا تقدم
الليل ونام الناس جميعاً انتهت أنا وحدي لرواية العالم ، فأرى ماشئت أن
أرى ؛ وفي ضوء النهار أجدُ النَّاسَ عقلاء ؛ ولكي في ظلة الليل أبصرهم
مجانين ، فهذا الليل برهان الطبيعة على جنون الناس وضعف عقولهم ؛ إذ هو
يثبت حاجة هذه العقول إلى ضَرْبٍ من السَّيان الأبله التام لولاء ما عقلت
في نهارها ولا استقام لها أمر .

يُضَرِّعُ النَّاسُ في الليل صرعة المجانين ، فينفضون أعينهم ولا يرون شيئاً ،
أما أنا فأرى العالم في الليل مسرحاً هزلياً يصنُّج بالضحك من الإنسان الاحق

الذى يقطع سَرَاةَ نهارِهِ وهو معتقِدُ أنه قابض على الوجود بالاعين والاذان والآفاق... أَتَيْنَ رَأَيْتَ الْأَسَدَ بِعَيْنِكَ أَيُّهَا الْآخِيقُ وَسَمِعْتَ فِي أَذُنِكَ زَيْتِرَهُ اِدْمِيتَ الدَّعْوَى الْعَرِيضَةَ ، وَزَعَمْتَ أَنَّكَ مَلَكَتَهُ وَقَبَضْتَ عَلَيْهِ ، وَلَا تَنْدِرِي فِي هَذَا أَنَّكَ كَالْمَعْتَرَةِ إِذَا قَبِضَ عَلَى الظَّلِّ بِيَدِهِ وَصَاحَ : هَاتُوا الْحَبْلَ لِأَقْيَدَهُ لَا يُفْلِتُ ... ؟

قلت : فإذا كان العالم كله رِوَايَتَكَ فَأُخْرِجْ لَنَا فِصْلًا مِنَ الرِّوَايَةِ .

قال : أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ : أَنْ أَكْتُبَ أَوْ أُمَثِّلَ ؟

قلنا : بَلِ التَّمَثِيلُ أَحَبُّ إِلَيْنَا . فَتَنْظُرُ إِلَى الْمَجْنُونِ الْآخَرِ وَقَالَ : إِنَّ الْمَجْنُونَ فِي طَبِيعَتِهِ يَبْذُوعُ مِنَ الْأَشْخَاصِ بَيْضَ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، كَيَبْذُوعِ الْمَاءِ يَسُحُّ الدَّفْعَةَ بَعْدَ الدَّفْعَةِ ، فَهَذَا الْمَرْحُحُ ، وَالرِّوَايَةُ الْآنَ : رِوَايَةُ الطَّبِيبِ وَالْمَجْنُونِ ...

أَنْتِ يَا س . ع ، عَمُّ هَذَا الْمَجْنُونِ ؛ فَإِذَا قَالَ لَكَ يَا عَمُّ ، قُلْ لَهُ : أَنَا لَسْتُ [عَمَّكَ] وَلَكِنِّي أَخُو أَخِيكَ .. لَتَنْظُرُ أَيْتَقْنَبُهُ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الصَّيْغَتَيْنِ أَمْ لَا ؟ فَإِنَّهُ فَرَّقَ عَقْلِي دَقِيقٌ مُتَمَحِّنٌ بِهِ الْعُقُولُ ...

تَعَالَى أَيُّهَا الْمَرِيضُ ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ شِفَاؤُكَ عَلَى يَدَيَّ ، وَفِي يَدَيَّ هَذِهِ لِمَسَّةٍ مِنَ لِمَسَّاتِ الْمَسِيحِ ، لِأَنَّ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) هُوَ الْآنَ طَبِيبُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ .

اتَّقُوا أَنْ تُغَضِبُوهُ أَوْ تُخَيِّفُوهُ ، وَأَقِيمُوا لَهُ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَتَحَرَّوْا سِرَّتَهُ دَائِمًا ، فَإِنَّ إِدْخَالَ بَعْضِ السَّرُورِ إِلَى نَفْسِ الْمَجْنُونِ هُوَ إِدْخَالُ بَعْضِ الْعَقْلِ إِلَى رَأْسِهِ .

مَتَى أَنْكَرْتَ يَا س ، ع عَقْلَ ابْنِ أَخِيكَ ؟ وَمَا كَانَ السَّبَبُ ؟ وَكَيْفَ خُلِبَ عَلَى عَقْلِهِ ؟ وَهَلِ الْا . شِ هُوَ خَالُهُ أَوْ أَخُو أُمِّهِ ؟ ..

لَطَفَ اللهُ لَكَ أَيُّهَا الْمَسْكِينُ ! قل لى : أتتذكر أميس ؟ أتتذكر غداً ؟ ... إن
الامس والغد ساقطان جميعاً من حساب المجانين ؛ ومن الرحمة بهم أن الدنيا
تبدأ لهم كل يوم ؛ فقد استراحوا من ثلثي هموم الزمن في العقلاء ؛ وهم لا يصلحون
أن ينفعوا الناس كالعقلاء ، غير أنهم صالحون أكثر من العقلاء . للاكتفاع
بأنفسهم في الضحك والمرح والطرب ، وهذا حسبيهم من النعمة عليهم .
قل لى أيها المجنون : أتحس أن الدنيا تصنع لك نفسك ، أم نفسك هي
تصنع لك الدنيا ؟ إن هذه مسألة يحلها كل مجنون على طريقته الخاصة به ،
فما هي طريقتك في حلها ؟

مالك لا تُجيب أيها الأبله ؟ (هذا من جهة ؛ ومن جهة) أعطوه قرشاً
لينطلق لسأته ، وآتوا الطبيب أجره وإفياً وهو لا يقل عن قرشين ...
ثم مال (النابغة) على مجنون المتن وسأره بشيء ، قلنا : ما أمر المال
يسر ، هذا قرش للريض وهذان قرشان للطبيب !
فقال المجنون : « بما حفظناه » : كفى بالسلامة داء .

قال « الطبيب » : هذا مريض بنوع من الجنون أسمه « بما حفظناه » ،
وهو جنون اللسيان الذى يضع فى مكان العقل كلمة ثابتة لا يتذكر المجنون
إلا بها ؛ ومن أعراضه جنون الشك ، فكل ماحول المريض مشكوك فيه ،
وقد يترامى إلى جنون اللبس ، فلو لمسته ياصبعك توهمها عقرباً يخاف من
الإصبع تلبسه خوفاً من العقرب تلذغه ، ولكن بقيت أشياء لا بد من التدقيق
فى فحصها ، فليس هذا من مجانين العبقرية التى انحرفت عن طريقها أو شذت
فى قوتها ؛ ولا هو عن يتجان ويتحاطق التماساً للرزق والعيش كما قال بعضهم :
« ما تَعُولُنِي خَيْرٌ مِنْ عَقْلٍ أَمْرُهُ » !

فقال المجنون : « ما حفظناه » حاقةً تقولى ...

فضحك (النايفة) وقال : هو كما يَبْنَتْ لَكُمْ : مصابٌ مجنونٍ (ما حفظناه) وهو أقل الجنون وأهونهُ ، وعلاجه البَسْطُ والسُرورُ والقرش : والضربُ أحياناً ؛ فإذا ثابَرَ عليه الداءُ تحوَّلَ إلى جنونٍ (ما ضَرَبناه) ... فيعتدى المصابُ على كل من يراه أو يُوقِعُ به ضَرْباً ؛ وعلاجه حينئذ القَيْصُ المرقوم ^(١) ؛ فإذا فَدَحَتِ العلةُ انقلبَ المرضُ إلى جنونٍ (ما قتلناه) ، وعلاجه يومئذ السلاسِل والأغلال .

والحق أقول لكم إن آخرَ ما آتَتْ إليه فلسفةُ الطب في القرن العشرين ، أن الناسَ جميعاً مجانِبُ ، ولكنَّ بعضهم أوفرُ قِسْطاً من بعض ، كأنَّ سَلْبَ العقلِ هو أيضاً حظوظٌ كحظوظِ موهبةِ العقل ؛ وأهلُ المريخِ من أجل ذلك يسمون الأرضَ بـ « بيارستان الفلك » ...

ولكن بقيتْ أشياء لا بد من التدقيق في فحصها ؛ وعدى في الدار عا طوس إذا أشمته هذا المَجُونُ عَطَسَ به عطسةً قويةً تفرجُ حنونه من أنفه . فلِى أيها المسكين : اتخاف إذا سرتَ وحدك في مَيدانٍ واسعٍ كأنَّ الميدانَ سَيلَتْفُ عليك ؟ أتضطربُ إذا مشيتَ في مَضِيقٍ كأنَّ المكانَ سَينَطْبُقُ عليك ؟ وإذا كنتَ في عربةِ القِطارِ فهل يَخِيلُ إليك أن البيارستانَ قد جرهُ القِطارُ وانطلقَ به هارباً ؟ وهل شعرتَ مرةً أنه أوحىَ إليك أن تلتجِرَ ؟

أَرِنِ هذا القرشَ الذى في يدك . قد إليه المجنون يَدُهُ بالقرش .
قال (النايفة) : انظر الآن ، هل تُحدثك نفسك أن تُفَصِّبْنِ هذا القرشَ أو تُصْرِقُهُ مِنى ؟ قال : نعم .

(١) القَيْصُ المرقوم : قَيْصُ السجى يليه المسجون ويرقم عليه العدد الذى يَمْنَى اليوم (المرم) ، وقد كان هذا ... وطاف في القرون الإلام .

قال (النابغة) : إذن يجب أن أحرّزه في جيبي ... وأسرع فأخفاه في جيبه .

• • •

فصاح الآخر وشغب ، وقال : سلتني ونهتني ! قلنا : لا يلغى أن يتصل بينكما شرٌّ في تمثيل الرواية ، فهذا قرش آخر ، ولكن أفي الفلسفة عند (النابغة) إباحة السرقة والنصب ؟

قال : فالرواية الآن هي : رواية الفيلسوف العظيم ، أفلاطون وتلميذه أرسطو .

قل لي ويحك يا أرسطو : أعلمت أن في المجانين أغنياء يسرقون الشيء القليل لا قيمة له وهم أغنياء وليست بهم حاجة إليه ؟ فاعلة ذلك عندك وما وجهه في مقولة الجنون ؟

أعجزت عن الجواب ؟ إذن فاعلم يا أرسطو أن المصاب بهذا الضرب من الجنون إذا اشترى هذا الشيء بدرهم كانت قيمته من الدرهم وحده ، وهو غني لا قيمة للدرهم في ماله فلا يحفل بالشراء ، يئد أنه إذا سرقه كانت قيمته عنده من عقله وحيلته ، فيجيئه بلذّة لا تشتريها كل أمواله ولا كل أموال الدنيا ؛ فهذا جنون باللذّة لا بالسرقة ، وهو بذلك ضرب من العشق يحمل الشيء إذا لم يُسرق كأنه المرأة المعشوقة الممتعة على عاشقها .

والجبايع إذا سرقوا ليأكلوا ويمسكوا الرمح على أنفسهم ، لا يقال في لغة الفلسفة إنهم سرقوا ، بل أخذوا .. فاضطراب جاعوا واضطراب مثله أكلوا ، والداءة ها هو الغنى الذي تمنعهم الإحسان والموتة ! ...

فالدنيا معكوسة منقابه أو ضاعها يا أرسطو ، ولو استفامت هذه الأوضاع لوحدت ، السعادة في الأرض لاهل الأرض جمعاً ، كيف لك بالسعادة والانس

مخلوقون بعبوبهم ، وباليتمهم مخلوقون بعبوبهم فقط ، ولكن الطائفة الكبرى أن عبوبهم تعمل دائما على أن ترى في الآخرين عيوباً مثلها .

كلُّ حمارٍ فهو يريد أن يملأ جوفه تبنًا وفولا وشعيرًا ، غير أنى لم أر حماراً قط يريد أن يملأ لنفسه الإصعبل ؛ فإذا وجِدَ حمارٌ هذه همته وهذا عمله فاسمه إنسانٌ لا حمار ...

يا أرسطو ! إن معضلة المضلات أن يحاول إنسانٌ حلَّ مشكلةٍ داخليةٍ محضةٍ قائمة في نفس حمار أو ثابته في ذهنه الحمارى ... ومثلُ هذا أن يحاول حمارٌ حلَّ مشكلةٍ نفسيةٍ في ذهن إنسانٍ أو في قلبه ، فلا حلَّ لمشاكل العالم أبداً ، مادام كلُّ إنسانٍ مع غيره كحمار مع إنسان ...

والمعضلاتُ النفسيةُ من عمل الشياطين ، فكان ينبغي أن تسمى الملائكة لتجارب الشياطين بالبرق والرعد دفاعاً عن الإنسانية ؛ ولكن الله تعالى منعها وأرسل للإنسان ملائكةً أخرى ، إن شاء هذا الإنسان عملت وإن شاء عجزت ؛ وهى فضائلُ الأديانِ المنزلة ، فإذا مسحها الإنسان إرادته وقوته ، فعملت عملها ، كان الإنسانُ هو المَلَكُ ، بل فوق المَلَك ؛ وإذا أضعفها وتحققها كان الإنسانُ هو الشيطان وأسفل من الشيطان .

يا أرسطو ^(١) . هذا العالمُ عندى كتلةٌ من العدم اتفقت على الظهور وستختفى ، والعالمُ عندى ضعفٌ ركب وقوةٌ ركب ، والعالمُ عندى لا شيء ، والعالمُ بينَ بينَ ، والعالمُ قسيانٌ : منهم الفلاح الزراعى ، وذلك أفضل فلسفة طبيعية ... والعالمُ فى حاجة إلى الموت والموت فى حاجة إليه ؛ والادبُ هو

(١) هذه الأسطر التى وضعناها بين العوسين هى من كلام المحزون بالص ، وكنا سألناه أن يكتب رأيه فى العالم والحياة فكتب على الدنبة مقالة كلها مخلبط ، وتندر يا طائفات كأعشى ما أعشى ، به مداها ب الما مه

الحياة، ولا حياة بلا أدب؛ والأدب ضربان: أدبُ تكماني وأدبُ مكسب ،
وقد يكون طبعيا كما هو عند نابغة القرن العشرين ، ومن هو نابغة القرن
العشرين ؟ هو شخص مات بلا موت ، وبجيا بلا حياة ،

أتريد يا أرسطو أن تعرف سرَّ تركيب العالم ؟ الأمر يسيرٌ غيرُ عسير ،
فإن سرَّ تركيبه كسر تركيب القرش الذى فى يدك ؛ قدضى أظهُرك على هذه
الحقيقة ، ومُدَّ يدك بالقرش لأَيِّين لك سرَّ التركيب فيه ...

ولكن المجنون الآخر أسرع فغيب القرش فى جيبه ، فقال (النابغة) :
هذا سياسىٌ داهية خبيث ، والرواية الآن رواية سياسى القرن العشرين .

ليس فى حقيقة السياسة إلا الرُّذُلُ من أفعال السياسيين ، والألفاظ
السياسية التى تحملُ أكثر من معنى هى التى لا تعملُ معنى ، فليحذر الشرقُ
من كل لفظ سياسىٍ يحتمل معنيين ، أو معنى ونصف معنى ، أو معنى وشبه
معنى ؛ فإن قالوا لنا (أحمر) قلنا لم اكتبوه بهذا اللفظ ؛ فإذا كتبوه قلنا لم
ارسموا إلى جانبه معناه باللون الأحمر ، لتشهد الطبيعةُ نفسها على أن معناه أحمر
لاغير ... وعلى هذه الطريقة يجب أن تُكتب المعاهداتُ السياسية بين
أوروبا والشرق .

لإنهم يكتبون لنا جريدة بأسماء الأطعمة ثم يقولون : أكلتم وشبعتم ...
ولقد رأيتُ (مظاهرات) كثيرة ولا كالمظاهرة التى آمنّاها ؛ فأتى إلا أن
يخرج كل المجانين فى مظاهرة ...

وهذا الأبله الذى أماننا ليس وطنيا ولا فيه ذرة من الوطنية ؛ فإن كان
وطنيا أوزعم أنه وطنى ، فليخرج القرش الذى فى جيبه ... لسكون

فألا حسبنا لخروج جيش الاحتلال من مصر...

ولكن المجنون لم يخرج القرش وترك جيش الاحتلال في مكانه .
فقال (النابة) : الرواية الآن رواية الشرطي واللص ؛ وبحق من القانون
يكون للشرطي أن يفقش هذا اللص ليخرج القرش من جيبه .

غير أن المجنون امتنع ، فقال (النابة) : كل ذلك لا يجدى مع هذا
الخيث ، فالرواية الآن رواية هارون الرشيد مع البرامكة ؛ ويجب أن ينكّب
الرشيد هؤلاء البرامكة ليستصنى القرش .

يبدأ أنا منعناه أن ينكّب البرامكة ، فقال : الرواية الآن رواية العاشق
والممشوقة ؛ ونظر طويلا في المجنون وصعد فيه عينه وصوب ، فلم ير
إلا ما يذكر بأنه رجل ، فهدى إلى رأي عجيب ، فوقع على قدميه وتوهمه
أمرأة في حذائها ، وجعل يناجي الحذاء بهذه المناجاة :

إن صفحات الحب هي أقوى الدليل عند أهله على أن الحب غير مخيف ؛
فكل فكرة في الحب مهما كانت مخيفة عليها بجلال الحب ؛ والحذاء في
قدميك يا حبيبتي جمال الصندوق المملوء ذهباً في نظري البخيل ؛ وكل شيء
منك أنت فيه سرٌ جمالك أنت ؛ والحذاء في قدميك ليس حذاء ، ولكنه
بعض حدود جسمك الجميل فلا أكون كل العاشق حتى أحيط بكل
حدودك إلى الحذاء .

إن جسمك يا حبيبتي كالماء الحارم العذب ؛ في كل موضع منه روح

لما أكله؛ وحينما وَقَعَت القُبلة من جَسَمِكَ كان فيها رُوحُ شَفَتَيْكَ الورديتين !
نه قِبلَة على قَدَمَيْكَ يا حَبِيبَتِي ، وهذه قِبلَة على سَاقَيْكَ ، وهذه قِبلَة على ثَوْبَيْكَ
هذه قِبلَة على ... على جَسَدِكَ .

وكادت يَدُ «النابغة» تَخْرُجُ بالقَرش ، فَمَضَتْهُ المَجْنُونُ في كَيْفِهِ عَضَّة
حَشِيَّة نَجَّاهُ الخَوْفُ منها فَطَارَ صَوَابُهُ ، فَصَرَخَ صَرَخَةً عَظِيمَةً دَوَّى لَهَا
:لَمَكَانَ ، وَتَرَدَّدَتْ كَهَرَصَرَّةِ البَازِي في الجَوِّ ، ثُمَّ اعْتَرَاهُ الطَّيْفُ ، وَأَطْبَقَ
عَلَيْهِ المَجْنُونُ فَاخْتَلَطَ وَتَغَطَّى ..

«والروايةُ الآنَ ، ... ؟ رِوَايَةُ هَرَبَةِ الإِسْعَافِ ...

فهرس

المجود الثاني من وسى القلم

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٥٧	وسى القبور	٣	الإشراق الإلهى وفلسفة الإسلام
١٦٢	عروس توفى إلى قبرها	١١	حقيقة المسلم
١٦٨	موت أم	١٧	وسى الهجرة
١٧٣	قصة أب	٢٤	فلسفة القصة
١٨٠	السمة	٣١	فوق الادمية (الأسراء والمهراج)
١٩١	الزاهدان (٢)	٤٠	الإنسانية العليا
١٩٨	إيليس يعلم ... (٣)	٤٩	سمو الفقر (١)
٢٠٦	الدينار والدرهم (٤)	٥٦	د د د (٢)
٢١٤	دعابة إيليس	٦٣	درس من النبوة
٢٢٢	الشیطان ...	٧٢	شهر للثورة (فلسفة الصيام)
٢٣٥	تاريخ يتكلم ...	٨٠	ثبات الأخلاق
٢٤٨	كفر الذبابة ...	٨٧	قللى لنقى... وقالت لى ...
٢٥٨	يا شباب العرب ١	٩٦	الانتحار (١)
٢٦٢	لو ... ١	١٠٧	د (٢)
٢٦٩	أها المسلمون ١	١١٧	د (٣)
٢٧٣	قصة الأبدى المتوحش	١٢٦	د (٤)
٢٨١	نجوى التتال	١٣٥	د (٥)
٢٨٤	قاصح الجو المصرى	١٤٦	د (٦)
٢٨٨	أجنحة المدافع المصرية		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٣٣	سر القبة	٢٩٣	أحاديث الباشا
٢٣٨	سعد وغلزل	(١)	الطباطم السياسى ...
٢٤٢	حاسة الشعب	(٢)	البك والباشا
٢٤٦	الجمهور	(٣)	ساكنو الثياب
٢٥١	المختون	(٤)	الاخلاق الحاربة
٢٦٠	"	(٥)	خضع يخضع ...
٢٦٩	"	(٦)	فلتتعصب ...
٢٧٨	"	(٧)	وزن، الماخي
٢٨٨	"	(٨)	المعجم السياسى
٢٩٩	"	(٩)	اللسان المرع
(١٠)			
(١١)			
(١٢)			
(١٣)			
(١)			
(٢)			
(٣)			
(٤)			
(٥)			
(٦)	كلمة		

